****

**أرض الهشيم**

**رواية**

**صلاح النصراوي**

**1/1**

**(وبوصول وحدات اللواء الأول من الفرقة الثالثة وعبور قوات أمريكية أخرى "جسر الهندية" على نهر الفرات تكون طلائع هذه القوات قد وصلت الى مشارف بغداد ولم يبق بينها وبين العاصمة العراقية من الموانع الإستراتيجية سوى "جسر المسيب" …)**

**ما كاد مذيع "راديو سوا" ينهي قراءة خبره العاجل ذاك حتى شعر بنغزة تطعن صميم قلبه، سرعان ما تحولت صاعقة حارقة سرت في شرايينه كلها. بدأ يرتعد وشعر برأسه يكاد ينفجر جراء قرع طبول أخذت تضرب في رأسه ثم عاجله دوار شديد وأحس ان ساقيه لم تعدا تحملانه. أوشك ان يترنح، ثم جمدت حواسه كلها، ولم يعد يسمع، او يعي شيئاً من تلك الكلمات التي ظل جهاز المذياع الترانزيستر الصغير يرسل بها الى فضاء الجحر المدفون في جوف الأرض. ذلك الموضع الذي يتخذه منذ أيام مقراً لــ"اللواء الرابع عشر" التابع لفرقة "المدينة المنورة" في "الحرس الجمهوري" الذي يتولى قيادته والذي أوكلت اليه مهمة التصدي للزحف الأمريكي الهادر. تمكن من اخراج قرص "كابوتين" من علبة يحملها في جيبه الأعلى على عجل ووضعه بسرعة تحت لسانه، ثم اِتَّكأ بظهره على الحائط الترابي الرطب ينتظر ان يأخذ القرص مفعوله لخفض نوبة ضغط الدم العالي التي انتابته.فكر ان يأخذ قرصاً آخر غير انه تذكر تحذير الطبيب له من أخذ أكثر من قرص في المرة الواحدة تجنباً للأعراض الجانبية. شيئا فشيئاً بدأ يشعر بتراجع شدة الألم الذي كان امتد من رأسه الى وجهه ثم الى رقبته.حين شعر انه استعاد بعضاً من قواه سار خطوات قليلة كي يجلس على حافة الطاولة التي يتخذ منها مكتباً والذي أخذ نحو نصف مساحة الموضع الذي لا يضيء عتمته سوى مصباح فلورسينت صغير يعمل ببطارية جاهزة.**

**كان قد استعد لمثل هذه اللحظة، ومع ذلك فقد شعر وكأنه أُخذَ على حين غرة، مثل صاعقة مفاجئة تهبط عليه دون ان يرى لها بريقاً، أو يسمع لها رعداً.منذ بدأت الحرب قبل أسبوعينً، وهو يحاول كلما راوده هذه الإحتمال الفاجع الذي جهر به تواً مذيع المحطة الأمريكية ان يهرب بعيداً عنه، مستعينا بشتى أنواع الحيل الذهنية، تلك التي يجيدها بالفطرة، او غيرها تعلمها منذ ان بدأ خدمته كضابط في الجيش. لكنه في كل تلك المرات التي داهمه فيها هذا الهاجس المرعب كانت تنتابه قناعة، يستسلم اليها عقله، وهي ان هذه الساعة آتية لا ريب فيها، مثلها مثل القدر، مثل الموت، أو مثل يوم القيامة.حينها تبدأ تلح عليه نداءات داخلية، من النوع الذي ينتقيه له عقله دون عناء منه كي يمنحه الرضا التام عن النفس، وتجعله أكثر صلابة وصموداً، سواء اكان في مواجهة العدو الزاحف نحو خنادق قواته المرابطة، او ما تبقى منها، ام في مواجهة قدره الداهم. أحس قليلاً بالراحة والأمان بعد أن توسل لربه ان يحميه مثلما يفعل منذ أيام بدعاء النجاة والسلامة الذي لقنه اياه امام المسجد في بلدتهم الصغيرة والذي بدأ يرتاده منذ فترة قصيرة.لكن في ذروة اطمئنانه النفسي العابر ذلك كان يشعر أيضاً بالخواء والقلق والإضطراب.لم يعد عقله هو الذي يعمل، بل الدوامة المستعرة بداخله والتي تحمله حيث لا يسمع إلا نداءات غامضة تعوي في الفراغ الذي بداخله وتجلجل في كيانه كالحمم. ما يدركه ويعيه جيداً هو أنه وحده من دون كل قادة الجيش يقف الآن في هذه الساعة اللعينة، وفي هذا الموضع التعيس من الأرض حاملاً على عاتقه عبء حماية بغداد، بل العراق كله، من السقوط في عار الإحتلال الأجنبي وذله.**

**بالأمس تم تدمير "اللواء ضفادع بشرية 26" الذي جيء به من منطقة "الثرثار" وما تبقى من قوات "الحرس الجمهوري الخاص" الذين حصدتهم طائرات "الآباتشي" ودبابات "أبرامز" الأمريكية الزاحفة نحو الشرق والشمال، وبذلك انتهى اي وجود لقوات "الحرس الجمهوري" على الضفة الآخرى لـ"نهر الفرات" وأصبح موقع لوائه هو الحافة الأمامية لميدان المعركة، أو "المنازلة الكبرى" كما يحلو للرئيس القائد ان يطلق عليها، وكما أصبح أسمها رسمياً الآن. لا يعلم في أي جحر يقبع الرئيس القائد في هذه الليلة وما الذي يدور برأسه بعد أن انهارت كل خططه وبات العدو على أبواب بغداد التي لابد وانها تستعد لمصيرها الموعود. قبل ساعات كان محللون سياسيون على "راديو سوا" أيضاً يناقشون كل تلك الاحتمالات حين قال أحدهم بانه يتوقع أن ينهي صدام حياته بكبسولة سم "سيادين" كما فعل "هتلر" في موضعه الحصين قرب مقر المستشارية حين أجهز "الجيش الأحمر" على "برلين" نهاية "الحرب العالمية الثانية"، بينما راح آخر يتنبأ بانه ربما سيهرب الى "إيران" مثلما هَرَبّ طائراته لها في الحرب السابقة، في حين رجح ثالث انه ربما دبر أمره باللجوء الى "سوريا".قاطعهم المذيع بان لديه أخباراً مؤكدة من داخل أروقة النظام بان كبار مسؤوليه وضباط جيشه قد بدؤا يفرون من مراكز عملهم ويختفون في أماكن غير معروفة. وكي يعطي مصداقية لما ذكره ذكر المذيع أسم ضابط كبير يعرفه هو جيداً قال المذيع انه سلم نفسه للقوات الأمريكية المتقدمة نحو "بغداد" عبر المحور الثاني عن طريق "الكوت".**

**يخمن ان كل ذلك هو ربما جزء من الحرب النفسية التي عادة ما ترافق المعارك الحربية، لكنه يدرك أيضاً بخبرة الجندي المتمرس، مثلما يدرك بحدسه الذي لا يخيب في مثل هذه الحالات، بأن اللعبة على وشك ان تنتهي، او هي انتهت بالفعل. فالساعة التي طالما تمنى الا تأتي قد أزفت، ولم يعد أمامه الا ان يختار سبيلاً من اثنين، أما البقاء والصمود في هذا الموضع، وبالتالي الموت بعزة وكرامة تليق به كقائد عسكري وأبن عشيرة نافذة، او الهروب وتحمل وخز الضمير والعار الأبدي. لا يحمل معه أية كبسولة سامة كي ينهي حياته بها او ان ينتحر على طريقة القادة اليابانيين المهزومين في المعارك، كما لم يخطر بباله امكانية أن يسلم نفسه، او ان يقع أسيراً بيد العدو. ولم يكن قلقا أيضاً بالعقاب الذي يمكن ان ينتظره لو اختار الهروب من موقعه لأنه يدرك منذ ان بدأ الأمريكان يشقون طريقهم نحو "بغداد" باندفاع ان النظام آيل الى زوال لا محال ولن تتاح له حتى فرصة محاسبة من يتخاذل، او من يقصر في ميدان المعركة. كان مخه معطلاً ومبعثراً مثل كثير من الأسلحة والمعدات التي لم يستطع جنوده ان يخرجوا من خنادقهم لاستخدامها خشية من نيران العدو.**

**حين استعاد توازنه كان يشعر بان قلبه لا يزال ينبض بسرعة أكبر وبان حلقه قد جف كما تيبست شفتاه مثل نبتة شوك في البراري. اراد ان يستدعي طبيبا، أو ممرضاً من وحدة الطبابة العسكرية المرافقة لكنه ليس متأكداً ان أحدا منهم لايزال في موضعه. تناول جرعة من الماء من قنينة بلاستيكية بدت بلا طعم ثم حدق ملياً في الخارطة العسكرية التي أخذت معظم مساحة الجدار الطيني في الحفرة الرطبة وحمل مصباح الفلورسينت الصغير وقربه كي يضيء له موضع "جسر الهندية" على الخريطة، محاولاً تحديد المسافة التي أصبحت تفصل الأن بينه وبين "قوة المهمات الخاصة 164" الأمريكية المتقدمة عن طريق "كربلاء". قدر أنها لم تعد تتجاوز الثلاثين كيلو متراً. لم يكن بحاجة لكي يستعين بمقياس الرسم لكي يحسب المسافات فهو يعرف هذه المنطقة التي تدور عليها المعارك الآن جيداً ويحفظ تضاريس أرضها وطرقها الرئيسية والفرعية، وتفاصيل مدنها وقراها، مثلما يحفظ الخطوط في راحة يده.فاضافة الى ان جزءا كبيراً من عشيرته يسكن أطراف المنطقة المجاورة الممتدة نحو "الفلوجة" غرباً فقد كُلفَّ قبل سنين أن يضع خرائط عسكرية مفصلة لها استعداداً لأي احتمال ان تندلع انتفاضة جديدة كتلك التي حدثت عام 1991.**

**ظل يحدق في الخارطة، متنقلاً بين مربع وآخر، وبين أسهم زرقاء وحمراء متقابلة، كان قد وضعها ضابط ركن اللواء قبل ان يختفي كي يؤشر على مواقع قواتهم والمواقع المقابلة التي تسيطر عليها قوات العدو التي ظلت تتقدم كل ساعة، وربما كل دقيقة. أزاح كل الأسهم الزرقاء التي تؤشر مواقعهم بيد ظلت ثابتة وقدم الأسهم الحمراء المعاكسة قليلاً نحو الشرق.وجد ان مركز لوائه الواقع على ضفة النهر اليسرى والمكلف بحماية "جسر المسيب" أصبح وجهاً لوجه أمام القوات الأمريكية الزاحفة بسرعة كاسحة من الجانب الآخر.أمعن بالتحديق جيداً، وراح يتذكر المرات العديدة التي حرك فيها الأسهم الزرقاء التي تمثل قواته الى الخلف على الخريطة هذه خلال الأسبوعين الأخيرين ومنذ أن بدأت قوات العدو انطلاقها من الحدود الكويتية وزحفها بإتجاه "بغداد".**

**في الأيام الأخيرة بدأ يُعدل بالإحداثيات فوق الخارطة استناداً لنشرات الأخبار التي يلتقطها من الإذاعات الأجنبية وليس وفقاً لأوامر القيادة العامة، او حتى عن طريق الإذاعة الرسمية التي كانت المعارك بالنسبة لها لا تزال تدور في مكان ما يبعد عن مقره مئات الكيلومترات جنوباً وغرباً. فمنذ أيام والاتصالات بينه وبين قيادته مقطوعة تماماً، ولم يعد نظام القيادة والسيطرة فاعلاً، اما اليوم فقد انقطع الاتصال بينهما نهائياً، مما يعني أن عليه أن يتخذ اي قرار الآن بنفسه، معتمداً على تحليله هو للموقف العملياتي، ومتحملاً كامل المسؤولية عما سيترتب على ذلك. كان هدير القنابل التي بدأت تتساقط بشدة من طائرات (أي-10) القاصفة والصواريخ التي تطلقها طائرات الهليكوبتر "الآباتشي" على مواقع لوائه منذ ساعات يشتد، ويضغط معه الحاح السؤال الجاثم على صدره، مالذي عليه أن يفعل ليواجه الموقف الذي يزداد سؤا في كل لحظة.**

**كعسكري محترف يحلل الموقف بمنطق وبحسابات موازين القوى في المعركة والتي تتجسد الآن امامه على الخريطة أصبح يرى الأمر محسوماً، دون أدنى شك. ولكن من قال ان القرار في موضع الإختبار وفي ساعة القرار يسير بمنطق العقل البارد وبحسابات الأرقام، وليس وفق هوى الكوابيس التي تداهمه في هذا الوقت وتحوم حوله في فضاء الموضع البارد والرطب والمعتم والتي تطرق بعنف على رأسه كأنها مكبس ماكنة بالية.**

**يدرك ان بقاءه مع من ثلة صغيرة ممن تبقى من الضباط والجنود الذين لم يفروا بعد من مواقعهم كالآخرين سيكون مجرد اقدام يائس او غبي على الانتحار. ربما سيدفن حينها في جوف هذه الموضع، او حتى ان تحوله قذيف أمريكية الى كتلة من الفحم او الرماد مثل أولئك الذين التهمتهم قوة العدو النارية الهائلة والذين جاءته أخبارهم عن طريق الضباط والجنود الهاربين من الخطوط المتقدمة وهم يمرون عبر الجسر. لكنه يدرك أيضاً ان تخليه عن موقعه وفراره لن يكون سوى أخس أنواع التخاذل والجبن الذي لا يليق أبداً به كقائد ولا بسجله المشرف الذي خاض خلاله معارك شرسة لا يزال يحمل جروحها وندوبها في جسده وروحه.فكر أيضاً بأهله ثم بعشيرته التي أقامت وليمة كبيرة استضافت فيه عشائر مجاورة احتفالاً بتوليه هذه المهمة الكبيرة.من المؤكد ان الفرار في هذه اللحظة ومن هذا المكان سيلحق بها عاراً شنيعا بدل الشرف والتكريم الذي تنتظره وبالتأكيد فانها ستضطر حينئذ الى البراءة منه.**

**يظهر صوت مذيع آخر لراديو "سوا" ليقرأ بحماس خبراً ان القوات الأمريكية التي كانت فتحت جبهة أخرى على امتداد نهر "دجلة" باتجاه الشمال تقترب من "بغداد" وقد تكون الآن تتهيأ لعبور "جسر ديالي" جنوب العاصمة كي تلتحم مع القوات التي ستعبر "جسر المسيب".**

**تلك الكوابيس تجوس في رأسه منذ اليوم الأول للحرب والتي يشعر الآن انها تنفجر وسط تلافيف دماغه وهو غير قادر على الهروب منها، او التحايل عليها. المهمة التي انيطت به ليست عادية او ثانوية، فالواجب المكلف به رسمياً هو عرقلة التقدم الأمريكي نحو "بغداد" لحين استعداد القوات الآخرى التي تتموضع خلف قواته في خط الصد الثاني كي تقوم بهجوم مضاد لتدمير قوات العدو الزاحفة ومنعها من احتلال العاصمة. حين كلفوه بالمهمة قالوا له انها ستكون واجب الخط الدفاعي الأخير عن "بغداد" والتي لم تعد منذ تلك اللحظة بالنسبة اليه عاصمة "العراق" فقط، بل أصحبت عاصمة الدنيا برمتها. قال له قائد الفرقة وهو يوليه المسوؤلية انه ينقل اليه رسالة شخصية من "السيد الرئيس القائد" تقول له: "ان بغداد في شاربك"، مذكراً إياه بسجله الناصع في كل المعارك التي خاضها منذ بدأ حياته العسكرية، مركزاً على دوره في "قادسية صدام المجيدة" و"أم المعارك" و"صفحة الغدر والخيانة" ومواقف أخرى كثيرة لابد انها مدونة في ملفه.\***

**ولم ينس القائد أيضاً ان يذكره في تلك الرسالة المنقولة له بان تكريماً خاصاً من الرئيس ينتظره حينما تنتهي معركة "الحواسم" هذه بالنصر المبين الأكيد.حينها لم يجد من الكلمات التي نزلت في بلعومه لكي يرد على قائده سوى ان يقول له: "يكفيني رضا السيد الرئيس عني، وتشريفه لي وعشيرتي بهذا الواجب". يتذكر كيف توقف قليلاً كي يبلع ريقه ثم واصل بكلمات حاول ان تخرج متماسكة ومتواصلة قائلا "ان مكافأته هي ان تتاح له هذه الفرصة لكي يشرف عائلته وعشيرته"، وان "كل مناه هو يأمر له القائد بحمل "راية الله اكبر" في استعراض عسكري يجري بعد النصر المؤكد على "مغول العصر الجدد"، والتي يتذكر انه كان قد حفضها ورددها بحماس شديد أثار استغراب القائد.ابتسم قائده وهو يمد له يده بالمصاحفة التي بدت أيضاً ايذانا له بالخروج.كان قائد فرقة الحرس الجمهوري**

**قد سمع بتلك العبارات، أو شيء من هذا القبيل، من ضباطه مراراً وبنفس الحماس خلال الأيام الأخيرة التي سبقت اندلاع الحرب وفي كل مرة كان يحرص على ابلاغهم بانه سينقل ذلك شخصيا لـ"السيد الرئيس القائد حفظه الله".**

**بعد انطلاق المعارك ظهر "الرئيس القائد" على شاشات التلفزيون لكي يحذر الأمريكان من مغبة شن الحرب وتوعد الرئيس الأمريكي "جورج بوش" الذي شبهه بـ"هولاكو" بالهزيمة وحذره ان جنوده الذين سيرسلهم للحرب سينتحرون على أسوار "بغداد". ظلت تلك الكلمات محفورة في ذاكرته لأنه شعر ساعتئذ ان الرئيس كان يخاطبه هو شخصياً، وليس الرئيس الأمريكي القابع في قصره الأبيض في "واشنطن" يشاهد بحماس ومتعة**

**\*"قادسية صدام المجيدة" الأسم الذي كان يطلق على الحرب مع إيران، و"أم المعارك" الأسم الذي اطلق على الحرب في الكويت و"صفحة الغدر والخيانة" هي اسم الذي اطلقه النظام على الإنتفاضة الشعبية عام 1991.**

**تقارير الحرب على شاشات تنقل له عبر الأقمار الإصطناعية في مكتبه تحركات قواته التي تندفع بقوة بإتجاه "بغداد". أحس بان كلمات الرئيس كانت توجيها رسمياً له بان واجبه المكلف به في هذه الحرب هو دفن الجنود الأمريكان الزاحفين نحو "بغداد" في هذه البقعة التي كلف بالدفاع عنها والتي أصبحت منذ بدء المعارك سور "بغداد" الإفتراضي ذلك الذي بناه الرئيس في بياناته.**

**الآن يرى ذلك السور الذي اؤتمن عليه ينهار أمامه ويتلاشى في حين يجد نفسه هو دفينا في جحر بارد ونتن في عمق الأرض وعليه ان يقرر بأقصى سرعة، أما أن يصمد ويُطمرُ فيه، وسيقال حينئذ انه قاتل ثم مات بشرف، أو أن يغادر الموضع ويمضي مثلما فعل قبل ذلك آلاف الضباط والجنود الذين رأهم بأم عينه يمرون فوق الجسر قادمين سيراً على الأقدام من مناطق بعيدة وقد أعياهم الجوع والعطش وهدهم البرد التعب والسهر. بعضهم كان يرتدي نصف بدلاتهم العسكرية والبعض الآخر خلعها تماماً وارتدى دشاديشا، أو بيجامات النوم تكرم بها عليهم سكان القرى التي مروا بها.حتى خيار أن يقع أسيراً بدا له الآن بعيداً، بل مستحيلاً، اذ لا يبدو ان الأمريكان وهم يسرعون الخطى نحو هدفهم في الوصول الى "بغداد" في وارد أخذ أسرى لا طائل منهم، فالكثير من الجنود والضباط الذين مروا خلال الأيام الماضية كانت مواقعهم قد سقطت بيد الأمريكان الذين تركوهم يغادرون الى حيث يشاؤون. شيء آخر جال في باله، رغم انه لم يكن خياراً، أو حتى احتمالاً لحد الآن، بل مجرد سؤال خطر له عن كثيرين من قادة جيوش في التاريخ مروا بهذه التجربة حين نازعتهم الرغبة بانهاء حياتهم بأيديهم هروباً من مواجهة الهزيمة وعارها الأبدي، وبين الإستسلام للقدر.راود ذهنه سريعاً سؤال عماذا سيفعل "السيد الرئيس القائد" نفسه لو كان في مكانه في هذا الجحر وحاصرته قوات العدو وتخيله في أوضاع شتى الا انه كف بالنهاية عن التفكير وأعتبر ان الأمر مؤجل حتى وصول العدو الى "بغداد" وعما اذا كانوا سيعلنون شروطا للإستسلام ويفرضنوها عليه.**

**استند بعجزيته الى حافة الطاولة المعدنية التي كانت بمثابة مكتب له وشعر بوخز البرد ينتقل من الحديد الرطب الى جسده، لكنه ظل يُطيل النظر الى الخارطة دون ان يعنيه كثيراً هذه المرة تحديد أية مسافات، أو مواقع متقابلة مع العدو. راح بأفكاره المشتتة بعيداً جداً، سافر في رحلة الحيرة والمجهول واستفاق بعدها في ميدان حرب أخرى هي الحرب التي بدأت تستعر في كيانه حيث هو عدو نفسه، ولا أحد آخر في الميدان غيره.حرب خفية ولكنها متأججة بداخله أكثر شراسة من تلك التي تدور فوق الأرض التي يقبع الأن في جوفها غير قادر حتى على الخروج لقضاء حاجته.لم يعد يتذكر راية النصر التي تمنى ان يعقد الرئيس القائد لواءها له في استعراض النصر القادم. لم يعد يبالي بالعشيرة وشرفها، بل لم يعد قادراً على التفكير في كيفية معالجة الموقف واتخاذ القرار المطلوب في الوقت الذي تتقرب الأرتال الأمريكية من موقعه. كانت رأسه مليئة بالإضطراب والفوضى والشكوك والحيرة وانطوى على نفسه لا يرى غير حفرة الخندق الخانقة التي أضحت تثير الرعب فيه من ان تتحول قريبا الى قبره. تذكر انه ربما كان قد تنبأ بكل تفاصيل ما يحدث الآن وتوقع سيناريوهات الحرب كما تجري بعد تحليله لميدان المعركة المحتملة وموازين القوى، بل انه كتب تقريراً بذلك، لكنه كان قد تمرس على المكر البريء ولعبة تبادل الأقنعة من أجل البقاء وقرر عدم تقديمه لمرؤسيه، خشية اتهامه بالجبن أو التمرد على تحليلات القيادة ورؤيتها.**

**حاول الوقوف على قدميه بعد ان أحس ببرودة الطاولة تتسلل الى عجيزته لكنه شعر بخدر في رجله التي كان يرتكز بها على الأرض. رفعها وانزلها مرات عديدة كي يعيد تدفق الدم فيها.منذ سنوات أصابه داء السكري واكتشف ذلك بالصدفة حين ذهب للمستشفى الخاص بالحرس الجمهوري يشكو من التنمل والخدر الذي بدأ يصيب أطرافه. سأله الطبيب بضعة أسئلة عما اذا كان قد حصل تغير مفاجئ في وزنه وعن عدد المرات التي يتبول فيها ثم سأله عما اذا كان يمارس الجنس بشكل طبيعي. تردد قليلاً، فكر لثوانٍ، حاول تفادي النظر الى عين الطبيب ثم نطق بكلمات "نحن بأي حال يا دكتور كي نفكر بـــ..." قبل ان يتوقف، لكنها كانت كافية للطبيب لكي يعتبرها اجابة. الفحوصات والتحليلات اثبتت ليس فقط اصابته بالسكري ولكن بتعقيدات صحية أخرى منها ارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة الكولسترول والدهون الثلاثية واضطرابات الغدة الدرقية وانسداد بسيط في الشرايين، عالج بعضها بالدواء والحمية، لكن جسده لم يعد منذ ذلك اليوم أبداً الى حالته الطبيعية. القيادة التي كانت تتوقع الحرب وتحتاج لأمثاله من الضباط خاضوا حروباً من قبل غضت النظر عن التقارير الطبية عن حالته التي أرسلت اليها واعتبرت ان وضعه الصحي لا يستدعي احالته الى التقاعد، أو تغيير موقعه.**

**أكثر ما ظل يؤلمه هو العجز الجنسي الذي أخبره الطبيب في احدى المستشفيات العسكرية الكبرى بانه ناتج عن الإصابة بالسكري الشديد. في البداية طمأنه الأطباء ان الأدوية التي وصفوها ستعيد اليه حالته الطبيعية لكن شيئأ من ذلك لم يحدث. لجأ الى أعشاب مقوية ومكملات غذائية كان قد سمع بها غير انها جميعاً أخفقت في ان تعيد له طاقته، أو رجولته، التي كانت تمنحه الكثير من الثقة والإعتداد بالنفس. في البداية لم يسع الى الحديث عن ذلك مع أحد، بل وأبقى الأمر مواربا مع زوجته التي تحولت شيئا فشيئا الى عدو يخوض معها أكبر معاركه الحربية على الفراش دون ان يتمكن من الفوز بها، ولكن أيضا دون ان يعلن الإستسلام امامها. خشى ان يذهب الى مرابع الكاولية فيتحول الأمر بعدها الى حكاية يتداولها كل من هب ودب.\* حين شعر بالخوف من ان يتحول خذلانه بالإنتصاب الى عجز في بدنه وفي أدائه تسلل يوما الى عيادة طبيب نفسي شهير وعرض عليه الحالة دون ان يكشف عن شخصيته. شرح له العلل الجسدية التي يعاني منها وحين سأله الطبيب عن عمله أجاب انه مقاول ورجل أعمال ولفق حكايات أخرى عن مصاعب في العمل ظن انها ربما تساعد الطبيب في تحديد حالته وعلاجه.وصف له الطبيب بعض الأدوية المهدئة والمقويات وقال له ان هناك دواءً جديداً غير متوفر في الأسواق المحلية يدعى "فياغرا" لو يستطيع ان يأتي به من الخارج فسيساعده كثيراً. استبعد الفكرة تماماً لأنه يعلم ان ذلك سيصبح سراً شائعاً بعد قليل وقرر بالنهاية ان يتعايش مع حالته أفضل من أن يصبح مضغاً تلوكه الألسن. في جوف هذا الجحر الرطب يقف الآن عاجزاً أمام عدو جبار يخشى الا مفر من ان يذعن له بعد قليل مثلما استسلم لعجز جسده أمام زوجته وآخريات.**

**لم يع كم من الوقت انقضى وهو في أطراقته الطويلة تلك حين انتبه الى شبح يطل من مدخل الموضع سرعان ما كشف نور المصباح الخافت انه أحد الضباط المساعدين.**

* **لابد انك سمعت بالتأكيد آخر الأخبار؟**

**\*الكاولية أسم يطلق على الغجر في العراق والبعض منهم يقيم مرابع للهو والرقص والغناء.**

**عاجله الضابط القادم بتلك الجملة بنبرة هي مزيج من الخبر والإستفهام، لكنها نبرة لم تخف توق صاحبها وترقبه لجواب. وبدون ان ينتظر قائده الذي لاحظ انه لم يؤد له التحية العسكرية المعتادة كما هو مفروض، او ان يناديه بكلمة سيدي، كما تقتضي تقاليد وضوابط التسلسل القيادي في الجيش. تجاهل الضابط القادم نظرات التعجب التي بانت على عيني القائد وسط النور الضئيل الذي يخيم على الموضع وأكمل ...**

* **أليس شيئاً غريباً الا يبلغنا أحد بما يجري وعلينا ان نعرف موقف قطعاتنا على الجبهة من الاذاعات المعادية؟ أية حرب عاهرة هذه التي علينا ان نخوضها ونحن كالأطرش بالزفة؟هل هذا معقول؟ يبدو ان الأمور فَرُطَتْ ولم يعد هناك اي قيادة للقطعات على الجبهة.الا تشاركني الرأي في هذا؟ والا فكيف يصل العدو الى حافات قطعاتنا الأمامية ونحن آخر من يعلم؟ مالذي علينا ان نفعله الآن؟ هل سنبقى هنا حتى يصلوا ليسحقونا بدباباتهم، أو ليتركونا نحترق في خنادقنا كما فعلوا مع باقي القطعات منذ دخولهم؟**

**حين لم يأته أي جواب استمر الضابط القادم والذي اقترب الآن أكثر من قائده باطلاق أسئلته او قنابله الصوتية التي بدأ "اللواء الركن سبهان الحكماني" يشعر انها تدوي بين جدران ذلك الخندق الصغير بقوة مماثلة لتلك القنابل التي كانت تتهاوى عليه في الخارج.**

* **مالذي تنتظره، بالله عليك؟ الا ترى ان كل شيء قد انتهى وان علينا ان نفعل ما فعله الآخرون قبل ان ننتهي جثثا متعفنة في هذه الجحور؟ لماذا انت مصمم على الإنتحار؟ ما الذي تحاول ان تفعله بنا وبنفسك؟ ممن تخاف؟ انها مجرد ساعات وربما دقائق وسيكون كل شيء قد انتهى ونحن أيضاً. اما الأسياد الذين يختبؤن هناك في بيوت سرية وسط الأحياء السكنية فسينجون، وربما سيفرون الى الخارج مع الأموال التي جمعوها.**

**ترك "الحكماني" مساعده "المقدم خطاب الحسيب" يسترسل دون ان يقاطعه لكي يمطره بكل ما بجعبته من تلك الأسئلة الصاروخية التي بدت له اقرب الى الهلوسة او الهذيان الناتج عن الذعر من الرغبة بالاستفسار. حين اقترب منه وتفرس في ملامحه جيداً على ضوء المصباح أيقن سريعا ان "الحسيب" قد انهى تردده وحسم أمره أخيراً، ولكن من المؤكد ان الخوف من ان يتخذ قراراً مثل هذا بنفسه ودون وضع المسؤولية على عاتق القائد هو الذي عطله لحد الآن عن ان يلقي سلاحه ويطلق ساقيه للريح مثل غيره. لم يكن "الحكماني" حتى في هذه اللحظات التي يدرك جيدا ان كل شيء يمضي فيها الى الهاوية ليثق في "الحسيب" وهو الذي جيء به بالأساس لمقر اللواء قبل الحرب بأيام قليلة كي يكون عين القيادة وآذانها على ما يجري ويضمن التنفيذ الكامل لأوامرها مثلما انيطت به مهمة اخرى أشد أهمية وهي قيادة فصيل الاعدام الذي ينفذ العقوبة في الميدان بحق اي جندي او ضابط يحاول الهروب من جبهة القتال.**

**لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يأتيه فيها "الحسيب" خلال اليومين الماضيين لكي يلمح له في البداية، ثم يصرح بعدها عن نيته ترك الميدان. لكن كلامه هذه المرة وهو ينظر في عينيه الغائرتين في ثنايا وجهه الضخم المبقع بآثار جدري قديم وصوته الأجش الذي يخرج من حبال صوتيه جفت بسبب ترسبات الدخان وبلعوم نخرته الخمرة يمنحه الإحساس بان مساعده مذعور ومنهار مما يجعله مخلوقاً خطيراً.**

**- وما الذي تريدني ان أفعله؟ ألسنا مكلفين بواجب حماية هذا الجسر ومنع العدو من عبوره؟ ألم أقسم للقيادة بشرفي وتعهدت لها بانني لن ادع العدو يعبر هذا الجسر الا على جثتي؟ هل نسيت أنك أخبرتني بانك عاهدت السيد الرئيس القائد شخصياً بأنك ستقطع بيدك رأس كل متخاذل وتعلقه على أعمدة مصابيح الجسر لو حاول الفرار أمام الأمريكان؟**

**- دعك من هذا الهراء. من منا لم يقل هذا الكلام؟ هل كنا نفعل شيئا آخر غير النفاق والدجل والتطبيل. لقد انهار كل شيء وحتى ذلك القائد الغضنفر لن يصمد لا هو ولا أولاده وبناته وربما اختفوا الآن مثل فص ملح وذاب.**

**اعاد "الحكماني" تركيز نظره على مساعده عبر شعاع المصباح الذي أصبح أكثر خفوتاً تخالجه أحاسيس عديدة بينها ان يكون "الحسيب" يحاول اختباره، او الايقاع به. لكنه يبدو حتى وسط تلك العتمة خائراً، وربما لا يقف بينه وبين الإنهيار التام الا لحظات قليلة. سيهرب في النهاية لكنه لا يريد أن يتخذ ذلك القرار بنفسه، بل ينتظر ان يطلق له القائد صفارة الانطلاق.**

**- قبل ان تنفذ ما في رأسك عليك ان تفهم ان مصيرنا ستقرره المعركة هنا. حين نخسرها سنكون خسرنا البلد، بلدنا."**

**- الجميع يعرف انك ممثل جيد لكنك لن تضحك علي. أي معركة وانت مختبئ في جحرك هذا واي بلد ذلك ولم يبق بين الأمريكان و"بغداد" سوى ساعة؟ كفى دجل، يا سيادة اللواء، خرجت منه العبارة الأخيرة بنبرة استخفاف واضحة.**

**منذ أيام يلح عليه هذا السؤال ما الذي سيفعله "الحسيب" وربعه في "العوجة" حين ينهار هذا النظام الذي يعتبرونه من ممتلكاتهم الخاصة. لم يكن ذلك سراً أبدا فجميع العشائر في مناطقهم تتساءل منذ ان لاحت تباشير الحرب عما سيحصل لهم بعدها حين يفقد النظام زمام الأمور. هو نفسه استدعي الى ديوان شيخ قبيلتهم قبل أسابيع واستمع من كبارها الى مخاوفهم حول مستقبلهم حين تنتقل السلطة الى يد أصحاب الجاموس وأبناء المتعة.**

**- نحن لسنا كاولية أو من هؤلاء الشروك والمعدان، هل نسيت ذلك يا "خطاب". ثم اننا لا ندافع هنا اليوم عن هذا الجسر، ولا حتى عنكم وعن القيادة التي سلبتوها بالغدر وجلستم على كرسيها كل هذه السنين من غير جدارة او استحقاق حقيقي. نحن ندافع عن ديارنا وعن عشائرنا وعن مصيرنا وعن الحكم الذي ظل في أيدينا ثمانين عاماً"، يعلو صوت "الحكماني" بينما راح "الحسيب" يتذكر كل ما ورد في تقرير الاستخبارات السري عن قائده والذي وضعه وسط الحقيبة التي سيهرب بها.**

**- اننا مدينون لهذه السلطة بكل ما نحن عليه. لو فرطنا بها ضعنا يا "خطاب". هل تفهم ذلك؟ مالذي تريدني ان أخبر أولادي وأهلي وربعي عشريتي باني تركت موقعي وهربت مثل اي جبان من ساحة المعركة؟**

**استل "الحسيب" سيكارة من علبة كان يحملها ثم أشعلها بقداحة أخرجها من جيبه دون حتى ان يستأذن من قائده ضاربا بعرض الحائط اللياقة المتبعة في صفوف الجيش. سحب نفساً عميقاً ثم أفرغ ما في جعبته من معلومات عن شخصية "الحكماني" وردت في التقرير فوجئ هو نفسه كيف خرج على لسانه.**

* **للمرة الأخيرة أقول لك كف عن التمثيل. ما هذا الضراط؟ عن أي ربع وعشيرة تتكلم، الجميع بدأ بترك السفينة لانهم يرونها تغرق وغداً لن يكون مهماً من قفز منها اولاً ومن بقي الى الساعة الأخيرة"، دوت كلمات "الحسيب" تشق سكون الخندق الذي كان يهتز بين الفينة والأخرى بفعل القذائف المتساقطة في الخارج.**

**لم يكن "الحكماني" بحاجة لمن يذكره بان السفينة غرقت كما لم يجل في خاطره تلك اللحظة الرد على بذاءات "الحسيب"، التي لم تكن في الحقيقة بعيدة عن المناجاة التي كبست على روحه هذه الليلة. كان يتذكر جروحا قديمة تسببها همسات او نظرات من زملائه عن أدائه في المعارك التي خاضها في الحروب السابقة ويخشى جروحا جديدة ستفتح بعد زوال دخان وغبار هذه الحرب.**

* **أراك قد تهيأت جيدا ورتبت كل شيء لهذه اللحظة، اليس كذلك؟ هذه هي عاداتكم ولن تشتروها.من يتزوج أمي يصبح عمي.**

**للوهلة الأولى لم يع "الحسيب" ما الذي كان يلمح اليه "الحكماني". كان يستعجل الرحيل، لكنه تسمر في مكانه لبرهة بعد ان شعر بان في كلام "الحكماني" لمزاً وغمزاً رغب ان يستجليه.**

**- بدأت تهذر كالعجائز. لكن ان كنت تعيرني بشيء ما فأفصح عن ذلك دون لف أو دوران.**

**- لا تتظاهر بانك غشيم، الجميع يعلم بالصفقة التي توصل اليها ربعكم مع الأعمام الجدد. رد "الحكماني" كما لو أنه على دراية تامة بما يتداوله البعض ان افرادا متنفذين من عشيرة السيد الرئيس القائد اجروا اتصالات بالأمريكان لترتيب أوضاعهم وحمايتهم بعد الاحتلال.**

**ودون ان ينتظر جوابا اضاف:**

**-"لكن ما الجديد في هذا؟ فعلتم ذلك سابقا مع كل الغزاة والمحتلين."**

**حاول "الحسيب" ان يخمن ما الذي يغمز به قائده. كان قد سمعه يردد لبعض الضباط قبل أيام حكايات قديمة عن علاقات بعض العشائر مع الصفويين الإيرانيين والعثمانيين والبريطانيين اثناء احتلالاتهم للبلاد في الماضي. قصص طواها الزمن لكن هاهي الحرب الدائرة الآن توقضها من تحت تراب النسيان.**

**قهقه "الحسيب" هذه المرة عاليا، لكن قتامة الملجأ والسعال الكثيف الصادر من صدره المثخن بدخان السيكارة لم تُعن "الحكماني" على التمييز ان كانت ضحكته مفتعلة ام حقيقية.**

* **من الواضح ان عفونة هذا الملجئ الذي لم تغادره منذ أيام قد لحست مخك.الم تسمع في الأخبار اليوم عودة شيخكم الكبير من المنفى على متن طائرة عسكرية امريكية الى قاعدة الوليد مع "آياد علاوي؟**

**ران صمت ثقيل وسط عتمة الموضع اشعر "الحكماني" ان الأمر قد بدأ يخرج عن الحدود التي رسمها وان الهجوم الاستباقي الذي اراد شنه قد ارتد وجعله يبدو مع مساعده مثل غرابين يقف أحدهما ازاء الآخر، كل يعير الثاني بسواد لونه.**

**- انا على يقين انك ستشمع الخيط بعد مغادرتي. هذا ديدنك في كل موقع شغلته وستمضي بعدي نحو دياركم وستجد عشيرتكم باستقبالك بالرايات، قال "الحسيب" وهو يهم بالاستدارة نحو مخرج الخندق.**

**- سأخرج، وسأكون في "تكريت" بعد ساعات وأراهن انك ستخرج بعدي وستصل بيتك قبلي، قالها "الحسيب" قبل ان يختفى وسط ظلام الخندق تاركا عباراته الأخيرة ترن في الفضاء الرطب وفي أذني قائده.**

**أحس "الحكماني" بالمزيد من السهام النارية تنخر ببدنه، سهام برؤوس مشتعلة لن تستطيع كل مياه "الفرات" التي يتخندق الى جواره ان تطفيها. نحو اثني عشر عاما مضت حين جابه خياراً كهذا بين ان يستسلم للخوف الآتي مع العاصفة او ان يراوغها ويفلت بنفسه قبل الهبوب. يسترجع ذكرياته مع جده وهو طفل حيث كان دائما ينصحه الا يدخل معركة مع من هو أقوى منه من اقرانه لأنه لن يكسب منها شيئاً. كان يقول له ان عليه ان يتعلم المكر والحيلة لتفادي المواجهة من الكبير والقوي والغني. حين اصبح ضابطاً كان من بين كل اساليب المخادعة والتمويه التي تعلمها في العلوم العسكرية الإخفاء والتظاهر هما أسلوبه المفضل.**

**في حرب "الكويت" كلفوه بقيادة وحدة انطيت بها مهمة تشكيل حائط صد من القوات على محور "المناقيش" على الحدود السعودية الكويتية، مهمة انتحارية كهذه التي يقوم بها حاليا. طيلة أربعة أسابيع كان هو وجنوده يربضون في الخنادق التي يمطرها الأمريكان بالقنابل ليل نهار. الأوامر التي كانت لديه هي الصمود ريثما تصل قوة الدروع الرئيسية للفيلق لصد الهجوم ودفع القوات المتقدمة للتراجع الى داخل الأراضي السعودية. خسر الكثير من جنوده وضباطه اثناء القصف المعادي في الأسبوع الأول وبدأت اعداد كبيرة منهم في التسلل من الخنادق والهروب ما ان يسدل الليل ستاره غير آبهين لا بنيران المدفعية والصواريخ التي تنهمر ولا باحتمال القبض عليهم من الانضباط العسكري ولا حتى بالذئاب وحيوانات ضارية أخرى بدأت تحوم في المنطقة وهي تشم رائحة الموت والجثث.**

**في الأسبوع الخامس كان كل ما تبقى معه من جنود في الفوج لا يتعدى خمسة بالمائة من مجموع أفراده اما الباقون فقد تبخروا بين قتيل وجريح وأسير وهارب وبات فوجه عمليا خارج القوة القتالية، معزولاً في عمق الصحراء. ظل قراره الذي ابلغه لأقرب مساعديه ان يبقى صامداً في موضعه حتى النهاية حتى لو بقي وحده. في داخله كان يتمنى من الله ان يبعث له من، او ما، ينتشله من تلك الدوامة المميتة.**

**في الأسبوع الأخير ومع اشتداد القصف المدفعي والجوي، وهي علامة يدركها جيدا بان الهجوم البري للعدو أصبح وشيكا، جاءه المدد الذي كان بانتظاره. في تلك اللحظات التي خبر مثيلاتها جيدا والتي لا يتبقى فيها شعور بالذنب او وجع في القلب أطل عليه في خندقه مساعده الذي لم ينبس الا جملة واحدة. قال له ان هناك سيارة مدنية كان قد خبئها في كهف قريب وان بامكانهما ان يستقلاها ويغادرا المكان فوراً. ودون اي تردد او تفكير هذه المرة، وبلا أية طقوس او اجراءات قد يتطلبها الموقف من قائد كهذا وجد نفسه مع ذلك الضابط في سيارة رباعية الدفع رصاصية اللون بلوحة مدنية سرعان ما انطلقت بهما صعودا نحو الشمال تخترق أجواء اختلطت رطوبة البحر فيها بدخان الحرائق ورمال الصحراء المتطايرة. عندما بدأت أشعة الشمس تشق كتل الغيوم المتكدسة فوقهم بدا المنظر في الطريق الذي يربط "الكويت" بـ"البصرة" أمامه كيوم الحشر، آلاف السيارات والدبابات والمدافع تفترش جانبيه في عمق الصحراء بين مدمرة أو محترقة، في حين يمضي الى جوارها الآلاف من الجنود المنهكين يسيرون على أرجلهم بملابسهم المهترئة وبعضهم باقدام عارية باتجاه الحدود العراقية دون اكتراث لا بمصير الحرب ولا بمصيرهم.**

**في اللحظة التي توقف فيها دوران شريط الذكريات المرة تلك في رأسه كانت أرض معسكره قد بدأت ترتج من حوله وكأن زلزالاً جباراً بدأ يضرب بها من كل صوب. خمن ان تلك هي قذائف مدافع الهاوتزر الثقيلة التي بدأت مهمتها الاخيرة في التحضير للهجوم الحاسم الذي سيشنه أفراد القوات الامريكية الذين من المؤكد انهم أصبحوا قريبين من الضفة الاخرى للنهر. جمد في مكانه داخل الموضع مشلولاً غير قادر على ان يقوم بأي بادرة. جرب جهاز الاتصال الذي يربطه مع مساعديه ولكنه لم يسمع الا وشوشة قادمة عبر الأسلاك الممتدة الى الخنادق الأخرى. انتظر لبرهة لعل المدافع تصمت قليلاً وعندها يستطيع الخروج ليرى ما الذي يجري فوق الأرض او ان يعثر على أي من مساعديه، او من بقى منهم مرابطاً في مكانه لكي يقرر ما الذي سيفعله الآن وقد أصبح الامريكان على مرمى حجر من الجسر. "لكن ما الذي سأأمرهم به؟" وأتاه السؤال بغتة وكأنه لم يخطط أو يستعد لهذه اللحظة. شعر انه مثل "سعد بن ابي وقاص" في فلم "القادسية" الذي شاهده مراراً وتكرارا على شاشة التلفزيون او في العروض الإجبارية التي كانت تقيمها شعبة "التوجيه السياسي"، مشلولاً ومقعداً يقود جيشه من فوق تلة. "لا، كان سعد أفضل حالاً مني"، فضفص مع نفسه. "بالأقل كان يرى جنوده وهم يقاتلون جيش الفرس ويوجه لهم الأوامر والتعليمات من خلال الرسل، اما انا فأقبع وحيداً في جحر الأرض هذا مقطوعاً عن جنودي."**

**رأى فجأة ان موضعه أصبح أعمق كثيراً مما كان يظن وأيقن انه ليس لديه مزيد من الوقت للتفكير. حين توقف دوي القنابل لدقائق أدرك انها تلك اللحظة التي تأتي لوحدها دون حاجة لانتظارها. خمن ان الجنود الأمريكان كانوا يعدلون في احداثيات الرمي بعد تقدمهم مما يوفر له فرصة وغطاء للنفاذ من بين القذائف المتساقطة. عندما خرج من بين صفوف أكياس الرمل التي تشكل مدخل الموقع شاهد السماء لأول مرة منذ أيام. مر من بين صفوف اخرى من التحصينات التي تشكل مسارب للخنادق الأخرى ووسط الظلام الذي لم تكن تضيئه سوى نجمات بعيدة في سماء صافية أطل برأسه داخل الخنادق وهو يصرخ على ضباط المقر لكنه لم يسمع الا صدى صوته. سار بعيدا وهو لا يزال ينادي على من يتذكر أسمائهم منهم قبل ان يستأنف الأمريكان قصفهم المدفعي. ركض هذه المرة بقوة لم يعهدها في نفسه منذ سنوات طويلة، ابتعد مسافة لا بأس بها لكنه توقف حين رجت قنبلة الأرض خلفه وارسلت كُوَراً ملتهبة الى السماء. أحس بجفاف خشن في حلقه وبالحرارة تسري في جسده وتزداد مع لهاثه وضربات قلبه.كان الدوي هائلاً والعصف يخرق أذنيه الى رأسه، قدر انه صاروخ، أو قذيفة اطلقت من طائرة، وليست من مدفع هاون أو ميدان.انبطح على الأرض وحين رفع رأسه قليلاً رأى النيران تشتعل في البقعة التي غادرها قبل قليل. نهض من مكانه وأخذ بالجري وسط الأرض الصبخة التي تتخللها الحفر والمنحنيات التي شقت وسط عيدان القصب المحترقة. رغم الانفجارات التي أصبحت تحيط به من كل جانب كانت طاقته المتجددة تدفع به الى أمام، يركض تارة ثم يجثو أو يبرك محاولاً التقاط القليل من الأنفاس من الهواء الثقيل الذي حوله والمعبق برائحة البارود ودخان الحرائق التي اشتعلت في العشب الذي يملأ المكان. تلفت مرات عديدة للوراء، قرر ان يتجنب السير باتجاه الطريق رقم 9 المؤدي الى بغداد وفكر ان يهم بالهرولة نحو محطة الكهرباء التي لا تبعد كثيراً لعله سيجد سيارة هناك لكنه خمن ان الأمريكان ربما قد انزلوا بعض المارينز في المحطة للسيطرة عليها. سار بالاتجاه الذي كان متأكدا انه الطريق الذي يبحث عنه، وبعيدا لاح له وسط اضواء القنابل المنقلقة موقعه والجسر الذي كان حارسه المؤتمن عليه منذ دقائق قليلة والذي تركه للأمريكان يعبرون من فوقه الى "بغداد". عندما هم بالانطلاق مجددا كان أزيز مرعب قد اخترق الظلام المطبق من حوله ثم على بعد امتار انطلق من الأرض نحو السماء لهيب مثل شلال تلاه دوي مرعب وبعدها حل سكون تام على المكان. لم يعد البحث عن طريق للنجاة أو حتى مصير الحرب ذاتها هو ما يشغل باله حين تهاوى الى الأرض وشعر بان جسده يتلاشي ثم يحل فيه خدر لذيذ ولم يعد يسمع دويا او حتى هسيسا، في حين راح رأسه يغرق في ضباب كثيف.**

**\*\***

**1/2**

**رغم دوي القنابل المتتالية الآتي من بعيد استمتع الرقيب "ريكاردو ليكايو" بساعات لا بأس منها من النوم والراحة لم يحظ بهما منذ ان بدأت الحرب ودخولهم "العراق" من "الكويت". غط في سبات عميق في كيس النوم الذي فرشه الى جانب عربة "برادلي" المدرعة هو والرجال السبعة الذين تحملهم. عندما صحا كانت الشمس قد حطت رحالها لتوها في الأفق الندي الذي بدا من بين أعالي أشجار النخيل البعيدة التي تطل على "نهر الفرات" ونتف الغيوم التي حلقت فوقها قوساً أرجوانياً تتشظى وسطه سعفات تتراقص مع ريح خفيفة. أسراب صغيرة متفرقة من النوارس كانت تتطاير فوق ضفة النهر او حطت فوق أفريز الجسر الذي خيموا بقربه تتقافز مع دوي كل انفجار قنبلة او أزيز قذيفة عابرة لكنها سرعان ما تجمد في مكانها في السماء تفرد أجنحتها بكبرياء، وتلقي بنظرة شامخة الى ما حولها، لا تبدو مرعوبة بقدر ما تحاول ان تكسر وحدتها وغربتها ورتابة هجرتها التي طالت هنا.**

**أرتاح "ريكاردو" بان الأمور لا تجري في الحرب بشكل سيء كما يعتقد البعض فهذه التي أمامه هي لحظات متعة وجمال لا بأس بها. اعاده هذا المشهد الى "هونولولو" حيث كانت مقر وحدته في "معسكر شوفيلد براكس" قبل ان تنقل الى "قاعدة فورت بيننغ" في "كولومبوس" بولاية "جورجيا". يطوي الكيس جيدا ويضمه الى بقية لوازمه المحمولة ويدسه في مكان ما في العربة ثم يمد ببصره الى غابات النخيل الكثيفة على شاطئي النهر الذي ينتبه الى اتساع عرضه في هذه المنطقة. تذكره أيضاً بشواطئ "نهر موتاغوا" في بلده الأصلي "غواتيمالا" الذي هاجر منه وعائلته قبل سنوات الى "امريكا" مشيا على الأقدام معظم الوقت ومحمولين في سيارات حمل عبر "المكسيك" حتى نهر "ريو غراند" على الحدود مع "تكساس". في "هونولولو" الجميلة ووسط ذلك الالتحام الساحر لمياه المحيط الزرقاء مع غابات النخيل قضى أحلى أيامه في أجواء لم تبتعد كثيراً عن تلك التي في موطنه والتي لم ينساها حتى الآن. هناك ولد أبنه "كارل" الذي حملت به صديقته "ديبي" قبل زواجهما ومجيئهما الى الجزيرة البعيدة بعد ان وافق الجيش على تجنيده رغم انه لم يكن مسجلاً رسمياً بعد كمقيم شرعي في "الولايات المتحدة الامريكية". كان قبوله في الجيش فرصة لا تعوض، فأولا فقد حصل على عمل دائم وتمكن من تسديد ديونه واصبح قادرا على دفع فواتيره، والأهم ان طريقه أصبح مضموناً للحصول على الجنسية الامريكية. كان العمل كجندي لا يخلو كذلك من متعة، اذ سيتمكن من ممارسة رغبة طالما تمنى ان يمارسها وهي الرماية الحية بالأسلحة النارية تماما مثلما يرى الممثلين يمارسونها في أفلام الكاوبوي أو الأكشن التي يعشق مشاهدتها. كل أحلامه تحققت دفعة واحدة بفضل عمله هذا، فالآن لديه زوجة شابة وجميلة وأبن ووظيفة مجزية وفرصة أكيدة ليكون امريكياً وهاهو منذ أيام يمارس هوايته بشكل حقيقي وليس على أهداف وهمية في لعبة الكترونية، بل هو يصوب نيرانه على بشر حقيقيين سرعان ما يتهاوون أمامه تماما كما كان يراه في تلك الأفلام. يالها من متعة واثارة حقيقية يقولها لزملائه كل مرة يفرغ فيها شريط الطلقات في مدفع "البرادلي" عيار 25 ملميترا المزود بالمنظار الحراري ويستبدله بآخر. اما حينما يتأكد من انه أصاب العدو بمقتل فانه يصرخ بجنود الفصيل الذي يقوده بمرح يفوق فرحة طفل صغير حصل لتوه على قطعة من الحلوى: "انتم يا أولاد القحبة، تعلموا مني، انظروا كيف شققت قلبه." في الطريق الذي قطعوه وبعد المواجهات التي خاضها اللواء منذ دخولهم الأراضي العراقية اعتاد الرقيب "ريكاردو" على اخراج نصف جسمه من فتحة المدرعة العليا ومهاجمة الجنود العراقيين الفارين والذين تمكنوا من النجاة من صواريخ الطائرات والدبابات الأمريكية. البعض منهم كان قد القى سلاحه وانتظر ربما اخذه أسيراً من قبل الجنود الأمريكان، ولربما كان من بينهم من يحلم أيضاً ان يأخذوه الى أمريكا ويجنسوه هناك. الا ان أوامر "ريكاردو" لجنود الفصيل كانت لا لبس فيها: "اطلقوا النار على اي هدف متحرك تشكون فيه، لا وقت لدينا لأخذ اسرى ثم اننا لا نعرف اية لغة سنتكلم بها مع هؤلاء الأوغاد". قبل يومين وفي الطريق الذي كانوا يسلكونه في التقدم نحو بغداد قرب النجف كان فصيله قد أقام نقطة سيطرة لتأمين أرتال ناقلات الدبابات والمدافع المصاحبة للقوات الزاحفة. أعطى أوامره للجنود بان يطلقوا النار على أية سيارة لا تقف، أو لا تبطئ في سيرها، قبل الحاجز بثلاثين متراً وعندما تجاهلت احدى السيارات اشارة "قف" المكتوبة بالانكليزية على برميل صدىء وضع في مقدمة الحاجز واجهها جنوده بوابل من النيران. بعدما توقف كل شيء وحل السكون وعندما ذهب لكي يستطلع السيارة كان أغلب ركابها الغارقين في دمائهم من النساء والأطفال، فعاد ليقول لجنوده: "لا أري لماذا لم يقف هؤلاء الأوغاد، لقد قضوا جميعاً. لكن ماعليكم يا أولاد لقد أديتم واجبكم وتصرفتم بحرفية ومهارة عالية كجنود جيدين." في الحرب اضاف "المهم ان تحافظ على حياتك والا تموت، ولكي لا تموت عليك ان تطلق نارك أولا كي تنجو والا فان عدوك سيطلق ناره عليك قبلك ليرديك."**

**بعد استيقاظه بوقت قصير بدأت هاونات القوة الأمريكية المتقدمة بدق المواقع العراقية على الجانب الآخر من النهر كما حلقت طائرات الآباتشي استعداداً للمشاركة بالقصف بصواريخها ومدافعها الرشاشة لأهداف محددة على ذلك الجانب. انتبه الى ان "آيرا" و"أنجلو" كانا قد صحيا وذهبا يتبولان وسط كومة من عيدان قصب عالية لكن بعض جنوده لا يزالون يغطون في نوم عميق كل داخل كيسه وكأنهم لا يسمعون دوي القنابل المتساقطة عبر النهر.يعرف أنهم مثله لابد وانهم يريدون الاستمتاع بهذه الفرصة التي توفرت لهم هنا للنوم لم يحظوا بها منذ أيام، لكنه يطلق صرخة تخرج من جوفه مثل عواء:**

* **انهظوا يا اولاد الزنا. كفى نوماً فأمامنا لا يزال طريق طويل حتى نمسك بـ"صدام".**

**ركل اقرب كيس نوم اليه بقدمه ركلة خفيفة نهض بعدها جندي يفرك عينيه ويتمتم بعبارات لم يفهمها فرد عليه الرقيب "ريكاردو" سريعا:**

**- اصمت يا مخنث.قم واجهز. لم يعد امامنا لكي نقضي على "صدام" الا كيلومترات قليلة، الا ترغب ان تمسكه بيدك وتسلخ له رأسه؟**

**- نعم سيدي، لقد وعدت صديقتي، "ايمي" بذلك، سيكون ذلك مدعاة للمرح، قال "بوني" وهو لايزال يفرك عينيه بيديه قبل ان يحاول النهوض والخروج من كيس النوم.**

**- تعتقد ان لديك روح دعابة يا جحر البغل.ربما ستقع بيد عراقي سيسلخ لك رأسك ويشويه، أو يسلقه، وسيكون ذلك خلاصاً لـ"ايمي" منك". قال "جيف"، الفرد الآخر في زمرة الرقيب "ريكاردو" وهو يرفع نصف جسمه من داخل كيس النوم.**

**- كانت معجزة انك نجوت من ذلك النغل من قناصي "فدائيي صدام" الذي كاد ان يطيح بك قبل أيام لولا طيار الآباتشي ذلك الذي جاء في اللحظة المناسبة لانقاذك.**

**- صحيح يا "بوني"، انت جحر بغل كبير ولو استمريت على هذا المنوال سيفجر عراقي مؤخرتك قريباً وقبل ان تصل الى صدام، قال عضو الزمرة الآخر الجندي "راين" وهو يضع نظاراته الطبيبة على عينيه بعد ان عثر عليها قرب كيس نومه قبل ان ينهض.**

**- كفى يا اولاد القحبة انتم، ليس هذا وقت الهراء، وانت يا "همنغواي" بماذا تتأمل وكأنك تستجم على رمال شاطئ "فلوريدا" وليس في ميدان القتال هنا في "العراق". هيا انهضوا واسرعوا جميعا بالافطار وكونوا مستعدين ريثما اقابل الملازم "كريس" ونستلم واجب الفصيل اليوم.**

**ضحكوا جميعا حينما انتبهوا الى ان "سام" كان لا يزال جالسا في مكانه ساهما في أفق تلك البقعة من الأرض التي أصابها السباخ والتي بدت وكأنها بقايا حقل أو بستان قديم احترق وتهالك بفعل هذه الحرب، أو حروب سبقتها. جال "سام" بنظره حيث كل ما تبقى من أشجار النخيل تطل على الفرات مجرد جذوع خاوية منتصبة بلا رؤوس وكأنها أقلام رصاص سوداء عملاقة انبتت في عمق الأرض. حينما وصلوها ليلاً كان الظلام يكسوا المنطقة تماما ولم يتبينوا شيئا اما الآن فان أشعة الشمس المتصاعدة من جهة الضفة الأخرى من "الفرات" أبانت الخراب الذي حل في بلد الخطايا الملعون هذا.**

* **صارت كرمة بلا ثمر، كعود الكرم لا يصلح إلا للنار." اقتبس ذلك من "اصحاح حزقيال" بصوت عال سمعه رفاقه الذين لا يزالون يربطون أكياس نومهم، مستبدلاً "العراق" الذي نام ليلته تلك على ضفاف نهره العظيم بـ"اسرائيل" كما وردت في آيات "التلمود".**

**جنود الفصيل توقفوا عن الدهشة بما يقوله او يفعله "سام" منذ اليوم الأول الذي وطأت فيه أقدامهم هذه الأرض. في البداية البعض رأى انه رهاب أصابه وأنه يحاول ان يلجأ الى كتابه المقدس كي يداوي خوفه في الحرب في حين اعتبر آخرون ذلك مسا خفيفاً ينتاب عادة من يحاولون ان يتظاهروا بالتماسك في أوقات الفوضى كهذه. لكن "آيرا" الجندي الذي جاء اسلافه من الفلبين كان أول من توقف عند فكرة ان الطقوس التي يمارسها "سام" واندفاعه هو تعبير عن ايمانه الديني، بل وقال لهم انها أكثر من ذلك. في البداية كانت مجرد تساؤلات يطرحها على نفسه، الا انه اباح بها بعد ان فاض به الكيل من صلوات "سام" وأدعيته.**

* **هذا المعتوه يعتقد اننا جئنا الى هنا كي نخوض حرب "يهودا" مع "بابل" من جديد، صرخ "آيرا" قبل يومين حين احتج "سام" بان اللواء اتخذ طريقا لا يمر بمدينة الخطايا والشرور.**

**وكأن آيرا القى حجراً في بركة راكدة.**

**- الا تعتقد اننا فعلاً أُرسلنا لنخوض تلك الحرب؟ لقد سمعت القس في آخر قداس في مدينتنا يهذي باشياء عن الحرب بانها "هرمجدون" المنتظرة وعن اعادة بناء الهيكل. كلام لم افهمه جيدا يومها لكنه أرعبني فعلا"، رد "بوني".**

**-" لا تأبهوا له انه فقط يحاول ان يتبول علينا، تدخل "ريكاردو" وكأنه يريد ان ينهي هذا الحديث.**

**في طريقهم الى هنا كانت وحدتهم قد مرت وسط مدينة "الكفل" الصغيرة التي يرقد فيها "النبي حزقيال". على اعتاب مرقده الذي يقع قرب بساتين المدينة الكثة بالنخيل والاشجار وقف "سام" وصلى ورتل من "اصحاح حزقيال" الذي يحفظه منذ طفولته عن ظهر قلب. "على أنهار بابل هناك جلسنا، فبكينا عندما تذكرنا صهيون.على الصفصاف في وسطها علقنا قيثاراتنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا أقوال التسبيح، والذين ساقونا إلى هناك، قالوا: سبحوا لنا تسبيحة من تسابيح صهيون.كيف نسبح للرب في أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم أَنْسَ يميني..." لم يسمح له "ريكاردو" بأكثر من نصف ساعة في المرقد ولكنها كانت كافية بان تملأ روحه بجرعات من رحيق الإيمان الحقيقي كان يأمل ان يحصل عليها منذ ان أرسلوه الى هنا."حزقيال" نبي السبي هو احد قديسيه المفضلين الذي يوقره بعد ان تشرب سيرته منذ ولادته وكهنوته في "اورشليم" الى سبيه الى "بابل" وانفتاح الأبواب السماوية امامه هناك وكتابته نبؤاته.ما ترسخ في عقله منذ ان قرأ ذلك المزمار بالعبرية أول مرة هو "بابل"، التي تبعد عنه الآن كيلومترات قليلة والتي ظل حياته كلها ينشد لها مع المنشدين:"هدوا، هدوا حتى إلى أساسها.يا بنت بابل المخربة، طوبى لمن يجازيك جزاؤك الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم."**

* **ليتهم مروا بنا بـ"بابل"، لكنت الآن هناك أمشي فوق التراب الذي مشى فوقه "حزقيال" وأحس بنبؤات العذاب التي تسبق ظهور المسيح التي بشرنا بها.**

**قطعت تأملاته تلك وهو لا يزال في مكانه جالسا فوق كيس نومه صرخات أحد زملائه."انهض يا همنغواي، قبل ان يعود الرقيب ويمطرك بشتائمه."**

**"هؤلاء الحمقى لا يفقهون شيئا مما يجري هنا.اللاتيونو والفلبيني، لاهم لهما سوى العودة والحصول على الجنسية، اما ذلك الأفريقي فهو وراء المال والمغامرة وان يعود لحياته الخاوية من أي معنى، انا اليهودي الذي سبوا أجداده هنا يدرك تماماً اية ارض هي التي تطئها قدماه الآن.هذه أرض اللبن والعسل قبل ان تكتشف امريكا بآلاف السنوات."**

**كان لواء الخيالة الأول يستعد مع بزوغ الشمس لكي ينقض على "جسر المسيب" مع لوائين آخرين في مهمة محددة وهي تأمين الجسر وطريق وصول القوات المهاجمة الى "بغداد" وأخيراً المشاركة في اسقاط "صدام". "ريكاردو" ومجموعته الصغيرة من فصيل الكشافة كلفوا بعد التمهيد بالنيران وضرب المواقع العراقية على الشاطئ وتصفيتها بعبور "نهر الفرات" لكي يقوموا بالسيطرة على رأس الجسر من الضفة اليسرى وتعطيل أية محاولة لتفجيره لتأمين عبور القوات فوقه. لا تبدو هناك مقاومة حتى ان محرك زورقهم المطاطي اصابه العطل بعد امتار من اطلاقه ولم تطلق عليهم اطلاقة واحدة من الشاطئ الشرقي بينما كانوا يجدفون بأيديهم للوصول قبل قوات الهجوم الرئيسي. الزورق الآخر الذي انطلق بعدهم سبقهم وهو الآن على وشك ان يرسو بجنوده على الشاطئ دون ان يتعرض الى أية مقاومة. قال "ريكاردو" لجنوده ربما الأمر مكيدة، وأمرهم بان يبقوا عيونهم مفتوحة.كان "سام" يجذف مع رفقائه الا ان باله لم يكن معهم، بل كان منشغلاً بتلك المياه المقدسة التي لم يحلم قبل ذلك ان يقوم يوما بعبورها في زورق. في منتصف النهر شعر "سام" بالرعشة بجسده وردد من جديد مع نفسه المزمور المائة والسبعة والثلاثين بينما انحنى لكي يغرف بيده الأثنتين قليلاً من مياه النهر ويبلل به وجهه.**

**- ماذا تفعل يا أبن القحبة، هل تريد ان تتعمد هنا وفي هذا الوقت؟، امطره "ريكاردو" بشتائمه حاثاً الآخرين على التجديف بقوة.**

**- لم يبق الا عشرين مترا، هيا يا أولاد العاهرات، قبل ان يستهدفنا قناص ربما يختبأ هناك بين الأحراش، أو حتى ان تصيبنا نيران صديقة من طيار أخرق.علينا ان نسبق الآخرين ونؤمن رأس الجسر بسرعة. ظهر اليوم سنكون في بغداد، "صدام" بانتظارنا هناك. هل جلبت معك الكلابشات، يا "بوني"؟**

**- لا يا سيدي، لن احتاج الى ذلك. اعتقد انه سينتحر ككيميكازي حالما يسمع بعبورنا هذا النهر.**

**سرعان ما وصل الزورق للضفة الأخرى والتحق "ريكاردو" وفصيله بجنود الزورق الأول في حين توقفت النيران التي كانت توجهها مدفعيتهم الى مواضع بعيدة عن الشاطئ خشية من وجود قوة استطلاع عراقية ربما ظلت صامدة في المكان. مد "جيف" جهاز استشعار لكشف الألغام الأرضية في حين تهيأ الآخرون للوثوب الى الشاطئ وهم يتفحصون المنطقة القريبة باعينهم.الأوامر الواضحة التي لديهم هي ان يسرعوا بابطال اي عبوات ربما زرعها العراقيون لتفجير الجسر اثناء عبوره. المجموعات في الزوارق الأخرى كانت قوة من المهندسين مهمتها تأمين بناء جسر حربي ان وجدوا "جسر المسيب" غير صالح للعبور. لم يستغرق الأمر الا دقائق حيث اجرى "ريكاردوا" ورجاله مسحاً سريعاً للمنطقة باجهزة استتشعار الكترونية كانوا يحملونها ولم يجدوا بعدها اثرا لعبوات، او أسلاك، تدل على وجود اية متفجرات.**

**- المنطقة نظيفة، سيدي، أبلغ "ريكاردوا" الملازم "كريس" الذي كان يتابعه عبر جهاز اللاسلكي من عربة هامر من الضفة الأخرى.**

**- هذا العقيد "روك ماركوري" معك. هل انت متأكد يا ولدي؟ أريدك انت ورجالك ان تجروا مسحاً جيداً للجسر بكل أجزائه بأجهزة السونار التي معكم وتخبرني على وجه السرعة. أملنا بك وبرجالك في الإنطلاق بسرعة نجو "بغداد" قبل ان يختفي "صدام". الا تريدونه في قبضتنا قبل ان يهرب؟**

**كان ذلك قائد اللواء الأول بنفسه الذي رد للتو وود "ريكاردو" ان يستطيع ان يقول له: "اصمت يا خنزير فانا وهؤلاء الصبية من يواجه خطر المتفجرات لا انت."**

**- نعم سيدي، بالتأكيد لن نتركه يفلت من ايدينا، سنجري مسحا ثانياً. دقائق فقط وسأعود اليك."**

**- اسمع. استوقفه العقيد "ماركوري".**

**- هناك مجموعة من الصحفيين المرافقين لللواء، سنرسلهم الآن عبر النهر.نريد بعض الحركة بينما كاميراتهم تدور. انت تفهم ما اقصد. اليس كذلك؟**

**- نعم سيدي أفهم تماما. لاتقلق سيعجبهم العرض بكل تأكيد.**

**- سأعطيكم الإشارة قبل نزولهم بالقوارب"، رد القائد.**

**هذا ما يريده هو أيضاً .استذكر فلم "الجسر عند ريماغن" وراودته تلك المشاهد الملتهبة في واحدة من معارك نهاية الحرب العالمية الثانية.**

**قسم "ريكاردو" رجال الفصيل الى مجموعات أرسل كل واحدة منها في ناحية لتمشيط هيكل الجسر بتلك الأجهزة الكاشفة للمتفجرات التي بامكانها ان تخترق الأسمنت السميك بينما راح هو يجري مسحا لمقدمة الجسر ثانية. لا شيء لحد الآن. داهمته اسئلة: "كيف يخفق صدام في تفجير الجسر بعدما اقتربوا كل هذه المسافة من بغداد ؟" لو كنت انا مكانه هل كنت سأترك هذا الجسر الإستراتيجي دون ان امحوه من الوجود لكي أعطل زحف قواتنا."لابد ان هناك شيئا ما غلط في الموضوع." انتابته وساوس."ربما ان صدام يضحك عليهم ونصب لهم فخا وسيكون هو ورجاله أول من يدفع الثمن". تذكر تلك الحكاية التي يعرفها الكثير من سكان "غواتيمالا" والتي ورثوها عن اجدادهم "المايا" عن الذئب الغبي الذي يضحك عليه الأرنب المتذاكي ويوقعه في الفخ فيعاقبه الرب حين ذهب يشتكيه لأنه كان ساذجا ونسى ان يطوي ذيله ويغطي فروته.غير ان الرب يعاقب الأرنب أيضاً لحيلته بان يجعله أصغر حجماً وينط على اذنيه بدل قدميه. كانت أمه تقول له دائماً بعدما تنهي الحكاية بانه يجب على الأطفال ان يسمعوا كلام الرب الا ان خياله كان يذهب دائما مع الذئب والأرنب ومغامرتهما العجيبة في تلك الحكاية وحيرته بشأن ايهما هو بطله المفضل.**

**حين عاد الجنود وكل منهم قرر أمامه بان لا أثر لمتفجرات في اي مكان من الجسر أسرع الرقيب "ريكاردو" الى جهاز الإرسال مؤكداً لقائده بان الجسر (نظيف) عدا ان هناك فتحة صغيرة قبل منتصف الجسر، ربما نتجت عن قذيفة مدفع او هاون، لكنها لا تبدو مهمة لكي تعرقل تقدم القطعات.**

**- جيد، يا ولدي، لقد أبليتم بلاءً حسنا، أجاب "العقيد ماركوري" الذي لا يزال في موقعه على الضفة الغربية للنهر.**

**- كانت المعلومات الاستخبارية التي زودنا بها دقيقة اذن حين قيل لنا بان الجسر سليم ولم يتم تلغيمه، تساءل الضابط "كرس" أمام قائده بينما ظل يحدق مليا بالجسر الذي عليه ان يقتحمه مع بقية جنوده بعد قليل.**

**- انت لا تكسب الحرب بالرجال والطائرات فقط. في صفوف كل عدو هناك دائما شوميليستر\*، رد القائد باقتضاب مفترضا ان الملازم "كرس"**

**\* كارل لودويغ شوميليستر جاسوس نمساوي عمل لصالح نابليون بونابرت اثناء اجتياح القائد الفرنسي لاوربا.**

**يعرف عماذا يتكلم رغم ان الآخير بدا غارقا كليا في شروده.**

**لم تمض الا دقائق حتى كانت طلائع قوات "الكتيبة 69 المدرعة، اللواء الأول، الفرقة الثالثة" قد بدأت زحفها فوق الجسر تعبر "نهر الفرات" العائق الطبيعي الأخير وهي تشق طريقها نحو "بغداد". الجسر الذي كان قبل يوم واحد فقط بقبضة "اللواء الرابع عشر"، "فرقة المدينة المنورة" لحرس صدام الجمهوري سقط بيد رجال "ريكاردو" واصبح الآن معبراً للدبابات ومدرعات الهامر وقطع المدفعية التي لا عد لها والتي لم يعد بينها وبين المكان الذي يختبأ به "صدام" الا نحو ستين كيلومترا.**

**مع زحف القوات اشتد القصف الناري على المقتربات الأبعد من منطقة الإنزال وبدا وكأن دوي المدافع والهاونات القادم من كل صوب مؤثرات صوتية لازمة على خلفية المشهد المثير الجاري. مع سقوط القذائف كانت الحرائق تشتعل على مساحة واسعة من ميدان معركة كانت في واقع الأمر تخاض من جانب واحد. كاميرات الصحفيين التي كانت تصور عبور القوات الأمريكية الحاجز الطبيعي الأخير في الطريق الى "بغداد" لم تسجل اي مشهد لاطلاق نار من الجانب العراقي.**

**- هذه معركة بلا دماء. يا لها من حرب نظيفة، صاح أحد الصحفيين الذي وقف فوق مرتفع ترابي يشكل كتف رأس الجسر الجنوبي بانتظار عبور القوات الرئيسية وقائدها.**

**- من الواضح أنهم تبخروا منذ وقت طويل، قال "ديفيد سامبسون" مراسل محطة بي.أي. تي البريطانية مختزلاً ما بدأ يدور في أذهان زملائه.**

**منذ دخولهم مرافقين للقوات الأمريكية مع بداية الحرب ظل الصحفيون ملازمين للقادة ويتلقون منهم ايجازات يومية ينقلونها الى مؤسساتهم عبر اللاب توب المرتبط بشبكة الأقمار الاصطناعية وهم في داخل عربات الهامفي او الهامر دون ان تتاح لهم الفرصة كي ينزلوا الى مواقع العمليات كي يروا مجريات المعارك بانفسهم. من بين المجموعة التي انضمت الى هذا اللواء كان "سامبسون" الذي سبق له ان غطى حرب تحرير "الكويت" لمحطته وهو على خلاف آخرين يعرف قواعد اللعبة التي تفرضها الجيوش على الصحفيين حيث تريدهم ان يصنعوا بطولات مما يشاهدونه أمامهم مهما كان ذلك وهي مهمة يعشقها لأنها تضعه بمصاف ابطال المغامرات في عيون القراء او المشاهدين. كيف لا وهذا الرأي العام يرى مغامرات امثاله وسط النيران والتفجيرات والقتال الذي يجري وهم يصورنه بعدساتهم او يسجلون وقائعه باقلامهم. اما الحقيقة التي عليه ان ينقلها والاستقلالية المهنية التي يجب ان يتسلح بها فقد تعلم "سامبسون" انها طنطنات مزعجة سرعان ما تختفي حين تعلوا اصوات المدافع.**

**- هذا سيء، صرخ مراسل تلفزيوني أمريكي من فوق الجسر وهو يمسح بناظوره الشخصي الذي يرافقه منذ بداية الحرب.**

**- بدون قتال ومعركة حقيقية سيبدو الزحف نحو "بغداد" سيئا لمشاهدينا في الوطن، اضاف وهو يتقدم من الملازم "كريس" الذي كان هو الآحر يستطلع الضفة الثانية بمنظاره.**

**- انا اتفهم ذلك سنعطي فوراً لكاميراتكم مؤثرات صوتية وصورية قوية وهي تدور لتسجيل تقاريركم، قال الملازم "كريس" قبل ان ينقل الطلب الى العقيد "ماركوري" كي تستمر المدفعية والطائرات بدك مواقع العدو الفارغة بالمزيد من النيران والدخان حتى تتمكن كاميرات المراسلين من تسجيل المشهد قبيل العبور.**

**- حسناً، حسناً، انها فكرة ممتازة، سنعطيهم ربع ساعة اضافية من الاثارة، قل لهم ان يستعدوا، نقل جهاز الاتصال الذي مع الملازم "كريس" صوت العقيد "ماركوري" الى الصحفيين الذين كانوا قد وصلوا متتصف الجسر.**

**- الظاهر ان شركة تلفزيون هي من تدير هذه الحرب، قال المراسل الفرنسي "فردريك فيرون" وهو يطلق ضحكة مكتومة.**

**- بالتأكيد ان البعض هنا ينافس "هوليوود" بكاميراتهم، أضاف وهو يشير الى المصورين الذين بدؤا هبوطهم نحو ما تبقى من الخنادق العراقية التي كانت النيران لاتزال تشتعل فيها.**

**- حرب كهذه لا تحتمل المصادفات، علق "سامبسون" وهو يهز كتفيه ويمط شفتيه.**

**مخططو الحرب واباطرة الاعلام يعلمون جيداً بان هذه الحرب ستترك بصمات لا تمحى على الصحافة أكثر من أية حرب مضت. الجنرالات مرتاحون من وجود هؤلاء الصحفيون معهم اذ ان ما ينقلونه الى العالم هو يمنحونهم أياه وحين يُنقل الى العالم بهذه السرعة فانه سيصبح الحقيقة التي سيصعب محاكمتها بعد ذلك. اصحاب المؤسسات الاعلامية ومدراؤها سيدعون أيضاً ان صحفييهم كما هي العادة سيكونون قد كتبوا نسخة المسودة الأولى للتاريخ كما يقال وسيصعب بعدها محوها.**

**"سامبسون" يعلم جيدا ان الصحافة التي يعمل فيها شريك أساسي في الحرب وهي التي عبدت الطريق لها بالأخبار والتقارير والتسريبات التي كانت بمثابة اطلاقات المدفعية التي تمهد عادة للهجوم. منذ سنوات وهو يدبج التقارير التي كانت تسرب اليه من دبلوماسيين وضباط مخابرات عن أسلحة الدمار الشامل لدى "صدام" التي اصبحت ذريعة لشن الحرب. حين انضم الى فيلق الصحفيين المرافقين للقطعات كان يعلم ان القراء يتوقعون ان يكون هو أول الواصلين مع القوات التي ستنقل للعالم أخبار العثور على تلك الأسلحة ويثبت لهم صدق تلك الادعاءات التي كان يروجها.**

**نادى "ريكاردو" على أفراد الفصيل كي يتجمعوا بانتظار الأوامر التالية من الملازم "كريس" الا انهم افتقدوا "سام" الذي لم يكن يرد على النداء من خلال جهاز الإتصال المثبت في الخوذة كما لم يكن مشاهدته في مدى نظر أي من زملائه المتحمسين الآن للانتقال الى المرحلة الأخيرة، مرحلة اكتساح "بغداد" واسقاط "صدام".**

**- لعله يجلس في مكان ما يكتب رواية الساعات الأخيرة في دفتره قبل ان ينساها، قال "راين".**

**- ربما انتحر مثل "همنغواي" الحقيقي، ولم نسمع صوت الطلقة التي اخترقت رأسه في الجلبة، سخر "بوني" وسط قهقهات الآخرين.**

**- لماذا لا يكون قد ذهب ليتعمد في النهر كما أراد ان يفعل في الزورق، قال "أنجلو"، ذو الأصل الفلبيني، بطريقة كوميدية.**

**انتبه "ريكاردو" الى ذكر النهر فنظر من بعيد الى القصب الكثيف الذي يحجبهم عن المجرى. اخرج مدية الجيش المسننة وبدأ يشق طريقه بها وهو يقطع رؤس الأعواد الجافة حتى وصل الى الشاطئ وحينها فوجىء بـ"سام" وقد خلع الخوذة ولبس فوق رأسه "الكيباه" ووضع "التاليت" الأبيض ذي الخطوط السود على كتفيه وحمل كتابا بيديه يتلو منه وهو يهتز الى الأمام والخلف غارقا في صلاته.**

* **ما الذي تفعله يا أبن المومس، هل هذا حائط المبكى؟ الا تستطيع الانتظار كي تصلي في أحد قصور "صدام"؟**

**ردد "سام" للمرة الأخيرة الآية التي كان يقرأها من الكتاب المقدس بشغف وقوة وكأنه يرددها نيابة عن ملايين من بني عقيدته لم تتح لهم هذه الفرصة العظيمة ان يقفوا في هذا المكان كما اتيحت له هو:**

* **وأجعل تخومك من "بحر سوف" الى بحر فلسطين ومن البرية الى "الفرات"، فإني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض، فتطردهم من أمامك.**

**نزع سام "الكيباه" من فوق رأسه والشال عن كتفيه بسرعة واعتمر خوذته ومشى عائداً الى فصيله يتبعه "ريكاردو" الذي كان قد وقف مشدودا وهو يستمع الى "سام" وهو يردد الأية 23-31 من "سفر الخروج":**

* **اتدري يا "سام" انتم اليهود تذكروني بالكيولورس\*\* تتصرفون تماما مثلهم.وكأن لا بشر في هذا العالم غيركم."**

**لم يشأ "سام" ان يدخل في جدال مع "ريكاردو" وهو ما يزال غارقاً في تلك النشوة التي تملئ قلبه وروحه وفي وقت مثل هذا. لكنه أدرك الآن ان الرقيب الذي ظنه مجرد لاتينو أحمق بدا انه يعرف أشياء أكثر مما يتظاهر بها.**

**وضع حزام بندقيته في رقبته وشدها جيدا كما أحكم وضع خوذته.نظر الى "ريكاردو" نظرة كلها جد واصرار.**

* **صدقت.لقد اختارنا الرب لمهمة. كان خروج ابراهيم وموسى من ممالك الخطايا وها نحن نعود الآن لنطهرها من الآثمين الجدد. لكن لن تتطهر الا بعد ان يصبح هذا النهر لهيبا وضفافه جمراً، ثم انطلق مهرولاً أمام "ريكاردو" غير راغب في ان يسمع أي كلمة من الرقيب قد تفسد عليه نشوته الروحية التي جاء الى هنا من أجلها.**

**وفق نظام المعركة الذي يتم تحديثه مع كل تقدم في الحرب انيطت بالسرية التي يقودها الملازم "كريس" مهمة استطلاع الطريق المتبقي الى "بغداد" قبل نشر باقي القوات. قبل ان تتحرك طلائع القوة وقف الملازم**

**\* يورد اسم بحر سوف في الكتابات التوراتية كاشارة الى البحر الأبيض او البحر الأحمر الذي اجتازه العبرانيون.**

**\*\* الكيولورس لفظة تطلق على الامريكان اللاتينيين الذين يدعون انهم من اصول اسبانية عريقة وولدوا في امريكا الجنوبية بعد غزوها.**

**"كريس" وسط جنوده يوزع عليهم المهام ويعطيهم الارشادات والتعليمات ويحثهم على انجاز الواجب الذي حذرهم بانه سيكون اخطر مهمة في اخطر معركة في واحدة من اخطر حروب "امريكا" في تاريخها كله.**

**- لقد عبرنا "الفرات" لتونا وأصبح الطريق مفتوحاً أمامنا لنصل الى قصر "صدام" على "دجلة" بعد ساعات وبذلك تكون "بلاد ما بين النهرين" قد سقطت بأيدينا، فهل انتم جاهزون؟، سأل الملازم "كريس" جنوده المصطفين أمامه.**

**- لم اسمعكم جيدا، جلجل صوته هذه المرة في حين صدح الجنود بصوت أقوى ، "نعم سيدي".**

**- هيا بنا، الحرب الحقيقية بدأت الآن، لنجعلها قصيرة.**

**- نعم سيدي لقد وعدتهم بان عشاءنا سيكون الليلة في قصر "صدام" على ضفاف "دجلة" سمكاً طازجاً نصطاده من النهر، دوى صوت الرقيب "ريكاردو".**

**- ما أسم ذلك السمك يا "سام"؟**

**- "المسكوف"، سيدي، رد الجندي الذي بدا أكثر حماساً بعد الصلاة التي أتمها قبل قليل.\***

**- هيا يا أوغاد الى الهامر قبل ان تصابوا بالملل، صرخ بهم "ريكاردو". "لكن ليكن الأمر واضحاً نصطاد صدام اولاً وبعد ذلك السمك.**

**\*المسكوف طريقة عراقية لشواء السمك بحطب الأشجار**

**\*\*\*\***

**1/3**

**قبل ان تؤي الى فراشها كتبت "سلمى" في دفتر مذكراتها:**

**"اليوم هو اليوم السادس عشر للحرب. هدأ أزيز الطائرات وعصف الصواريخ والقنابل في "بغداد" قليلاً غير أنه لم ينقطع تماماً. ما زالت الانفجارات تدوي حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل في مختلف أنحاء المدينة. ربما يقومون بقصف بعض المواقع العسكرية على الاطراف التي لا تزال ترابط فيها فلول النظام التي لم تلق سلاحها بعد وتهرب كما فعل اغلب الجنود والضباط في المناطق البعيدة. جارنا "مؤيد" الذي يحمل رتبة مقدم في الجيش ويقال أنه آمر فوج في احدى الفرق التي كانت ترابط في الجنوب أشاهده منذ أيام من نافذتي يتمشى ببجامته، أو يجلس على مرجيحة في حديقة بيته يبدو ساهماً او مستغرقاً طيلة الوقت بشيء ما يشغل باله. هناك ضباط وجنود آخرون في شارعنا يظهرون امام بيوتهم يتبادلون الأحاديث مع بعضهم البعض او مع الجيران. المشهد بدا مألوفاً حتى انه لم يعد يثير اي استغراب او حتى فضول من قبل سكان الحي. من بإمكانه ان يلومهم على الهروب من آتون هذه الحرب التي من المؤكد أنهم ادركوا عدم جدوى خوض غمارها، وربما لم يكونوا مستعدين لها أساساً.**

**من البديهي ان يتصرف الجنود وفق غريزتهم كبشر لانقاذ أرواحهم من الموت في اللحظة المناسبة، خاصة حين يدركون ان الحرب التي يخوضونها ليست حربهم، وان نتيجتها محسومة لعدوهم سلفاً. لكن لهؤلاء الضباط والجنود بالتأكيد سبب آخر للهروب من خوض حرب عبثية ولا طائل من ورائها. لا بد انهم تيقنوا سواء بحسهم الإنساني أم بخبرتهم العسكرية انه حين تضع المعارك أوزارها ستضع معها أيضاً نهاية لهذا النظام الذي يخدموه. فلو كان لدى اي واحد منهم ادنى شك بان النظام سينجو منها ما تجرؤا على الهروب من معسكراتهم، والأدهى من ذلك ظهورهم هكذا علنا وسط الناس. في المدينة تسود أجواء مماثلة من عدم الإكتراث بين الناس تجاه الوقائع اليومية للحرب، ولكنه نوع من الإستسلام اليائس للقدر الذي يصاحبه أيضاً توتر، وربما شيء من الحيرة والقلق. هم غير مبالين لأنهم يعرفون أيضاً ان النهاية آتية لا ريب فيها ولكنهم متوترون من احتمالات النتيجة التي ستسفر عنها الحرب والتي يجهلونها ويخشون أنها قد لا تجعل الأشياء تمضي كما يتمنون. لا ألومهم على ذلك فاليقين كلمة كبيرة تستعصي على من يحاولون الإمساك بتلابيبها حين يسود الغموض ويعم الإرتباك، خاصة في تجارب العراقيين التي لا تعدهم غالباً بباب يسيرة للخروج.**

**كان صوت جدتي جَهْوَرِياً هذه المساء وهي تتلو دعاءها بعد صلاة العشاء على ضوء نور الفانوس فيخترق فضاء البيت كله ويأتيني الى مخدعي في الدور الأعلى وكأنه قادم من غور سرداب عميق:**

**"اِلـهي عَظُمَ الْبَلاءُ، وَبَرِحَ الْخَفاءُ، وَانْكَشَفَ الْغِطاءُ، وَانْقَطَعَ الرَّجاءُ، وَضاقَتِ الاْرْضُ، وَمُنِعَتِ السَّماءُ، واَنْتَ الْمُسْتَعانُ، وَاِلَيْكَ الْمُشْتَكى، وَعَلَيْكَ الْمُعَوَّلُ فِي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، اَللّـهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، اُولِي الاْمْرِ الَّذينَ فَرَضْتَ عَلَيْنا طاعَتَهُمْ، وَعَرَّفْتَنا بِذلِكَ مَنْزِلَتَهُمْ، فَفَرِّجْ عَنا بِحَقِّهِمْ فَرَجاً عاجِلاً قَريباً كَلَمْحِ الْبَصَرِ اَوْ هُوَ اَقْرَبُ، يا مُحَمَّدُ يا عَلِيُّ يا عَلِيُّ يا مُحَمَّدُ."**

**توقفت الجدة قليلا كي تلتقط انفاساها ثم استكملت بصوت متهدج. اِكْفِياني فَاِنَّكُما كافِيانِ، وَانْصُراني فَاِنَّكُما ناصِرانِ، يا مَوْلانا يا صاحِبَ الزَّمانِ، الْغَوْثَ الْغَوْثَ الْغَوْثَ، اَدْرِكْني اَدْرِكْني اَدْرِكْني، السّاعَةَ السّاعَةَ السّاعَةَ، الْعَجَلَ الْعَجَلَ الْعَجَل، يا اَرْحَمَ الرّاحِمينَ، بِحَقِّ مُحَمَّد وَآلِهِ الطّاهِرينَ."**

**مرات لا حصر لها سَمِعتُ جدتي تتلو "دعاء الفرج" هذا وغيره من أدعية كتاب "مفاتيح الجنان" دون ان تعلو نبرات صوتها وكأنها تهمس بتلك الأدعية لنفسها، خشية من آذان تسكن جدران البيت.كانت التراتيل تخرج بين ضلوعها كنشيج ثم ترتفع نبراتها قليلاً قبل ان تخفت ثانية، كما لو انها اكتشفت فجأة انها كانت تجهر دون ان تشعر بالصلاة فتعود ثانية الى السر. خلال كل هذه السنين حفظت انا الكثير من تلك الأدعية عن ظهر قلب دون حتى أن أمسك ذلك الكتاب السميك والمغلف بالجلد الفاخر بيدي. كنت أطرب للتراتيل الحزينة التي كانت تنشد بها جدتي وكأنها أصوات قادمة من بحر السماء الغائر فترسخ الكلمات في جوارحي وفي عقلي. هذه هي المرة الأولى التي أشعر بأني أشاركها فيها الدعاء وهي ترتل بنغمات شجية وأشعر بإطمئنان داخلي عميق لم أشعر به منذ زمن طويل."**

**في الصباح استيقظت "سلمى" على صوت جدتها وهي تنادي عليها من الدور الأرضي عبر بئر السلم بأن تنهض لكي تستمع الى آخر أخبار الحرب. شعرت باللهفة التي تعرفها جيداً في صوت الجدة ولكنها لم تستجمع كامل وعيها بعد كي تجيبها. كانت آخر صورة بقيت من حلمها الذي قطعه نداء جدتها للتو قد بدأت تتلاشى من ذهنها الا أنها جاهدت لإعادة تلك اللقطة الى شاشة الذاكرة وكأنها تحاول استرجاع مقطع من شريط في جهاز الفيديو ثم تقوم بتخزينه في احدى تلافيف المخخ.**

**حين لم تسمع الجدة اي استجابة طلعت السلم، ولو بصعوبة سببها آلام المفاصل قال لها الطبيب انها ناتجة من الضغط المفرط على الركبة عند الركوع. طرقت باب غرفة نوم "سلمى" مرتين ثم فتحتحه ودلفت دون انتظار وهي تلوح بجهاز الراديو الترانزستر الصغير الذي تحمله بيدها. دنت من سريرها وجلست على حافته الى جانب "سلمى" التي لا تزال ممدة في فراشها.**

* **يبدو أني خسرت الرهان، قالت كمن يعلن استسلامه.**

**لم ترد "سلمى" ولكنها حدست بما كانت تعنيه جدتها وهي تحاول الإفاقة والعودة الى العالم الواقعي بينما بدأت تنصت الى الكلمات المتسارعة القادمة عبر الراديو للمذيعة التي لا تزال عبارتها تتدقف بقوة واندفاع عن رصد لجنود أمريكيين في ضواحي المدينة.**

* **لا أعلم ان كان خيراً ام شراً. يارب سترك.**

**ظلت الجدة مسنرسلة بينما كانت تحدو "سلمى" رغبة شديدة بالعودة الى حالة الخدر اللذيذ الذي كانت تعيش فيه في منامها قبل لحظات، لكنها لم تستطع لأن الحلم الذي كانت تعيشه لم يعد الآن الا شضايا مبعثرة في ذاكرتها المضببة. حين افاقت تماما تذكرت انها راودتها أفكار قبل ايام عما يمكن ان تفعله في مثل هذه اللحظة التي أصبحت تنتظرها بلهفة مثلما تتلهف جدتها عودة امامها المنتظر. فكرت ان تخرج الى هناك، الى الشوارع، بل الى أبواب "بغداد" حيث سيدخل منها الأمريكان، لا لشيء الا لكي ترى بأم عينيها ما الذي سيفعله العراقيون للجنود الامريكان القادمين على ظهر دباباتهم لتحريرهم. هي ليست في مزاج احتفالي لكنها فكرت بضرورة الا يفوتها ذلك وبان تكون شاهدة عيان على التاريخ وهو يصنع امام عينيها. منذ أيام وهي تفكر بذلك، تسترجع في ذاكرتها صورة شهيرة للقائد البريطاني "الجنرال ستانلي مود" وهو يدخل على حصانه "بغداد" بعد سقوطها بيد قواته عام 1917. تخيلت مشهداً مماثلاً طالما شاهدته على شاشات التلفزيون أو السينما للفرنسيين في "باريس" وهم يخرجون للترحيب بالجنود الامريكان يلقون عليهم بالزهور ويأخذونهم بالاحضان والقبل بينما يمر موكب "الجنرال شارل ديغول" في "شارع الشانزليزيه" وتحت "قوس النصر" بعد تحرير "فرنسا" من الالمان في الحرب العالمية الثانية.**

**جالت أسئلة كثيرة في رأس "سلمى":"ترى من سيكون ديغولنا؟ هل سيخرج العراقيون كما فعل الفرنسيون وغيرهم للترحيب بمحرريهم؟ هل سيقفز عراقي ما على ظهر دبابة امريكية ويضع في فوهتها سعفة نخيل بدل وردة؟ هل سيحدث اليوم الطلاق الأبدي بينهم وبين الخوف؟" كانت الكثير من تلك الأفكار تراودها وهي لاتزال تستلقي في فراشها بينما راحت المذيعة التي لم يفتر حماسها في تلك الاذاعة الاجنبية تصف كيف ان القوات الامريكية أصبحت تطبق على "بغداد" من جبهتين في الجنوب والغرب ولم يعد يفصلها عن قلب العاصمة العراقية الا بضعة كيلومترات. توقفت المذيعة لبرهة كي تعلن عن خبر عاجل وصلهم للتو عن سيطرة القوات الأمريكية على "مطار صدام الدولي" بعد معركة ساحقة مع قوات النظام.**

**رفعت "سلمى" رأسها من فوق وسادتها ببطئ لكنها بقيت مستلقية في فراشها كمن أيقن أخيراً ان الأحلام تأتي عادة لكي تتبخر. مدت يديها الأثنتين نحو جدتها لتحتضنها برفق وحنان. كانت تدرك مالذي يعنيه كل هذا بالنسبة لبيبي التي تجمع هذه الأيام بين شخصيتين في داخلها، احداهما مستبشرة وهادئة، تلك التي جُبِلتْ عليها، والأخرى متوترة وقلقة هي بالتأكيد رد فعل بافلوفي عما يحدث. اما هي شخصيا فلم تكن متأكدة من اي شيء، ليس بعد.**

* **هل تعلمين يا بيبي ان أحلى ما في هذه الاخبار هو انه لن يكون هناك عيد ميلاد للسيد الرئيس القائد المنصور بالله حفظه الله وابقاه بعد اليوم، ولن يضطر الناس لكي يصنعوا له كيكة الميلاد في بيوتهم وسوف لن يختفي البيض والطحين من الأسواق كما في كل عام.**

**اعتبرت بيبي الطريقة الساخرة التي عبرت بها "سلمى" عما يجري علامة طيبة تدل على ما سيجلبه الحدث الذي يجري في المدينة على البيت من بهجة كانت غائبة عنه طيلة هذه السنين. ومع هذا فان ذلك الاحساس بالحذر الذي يلازمها لا يجعلها تشعر بالراحة مما قد تخبأه الأيام القادمة. كان ما يشغل بالها تلك المخاوف وعدم اليقين من اشياء قد تحدث لكنها لا تعرف على وجه التحديد ماهي وكيف ستقع.**

**- هل ستخرجين فعلا الى الشوارع لتحتفلي مع الناس كما نذرتي؟ أرجوك الا تفعلي ذلك، لابد ان هؤلاء البعثيين سيراقبون الناس ويكتبون التقاريرهم عنهم.**

**- لا، لم يعد الأمر مجديا. سنحتفل انا وانت على طريقتنا. نحن لم نصنع لـ"يزيد" أية كيكة طيلة هذه السنين في عيد ميلاده. سأعمل اليوم واحدة ونحتفل برحيل كابوسه عنا".**

**افترت شفتا الجدة عن ابتسامة لا ارادية تحمل شيئا من الدهشة. منذ وعت "سلمى" واصبحت على دراية بحال عائلتها وما آلت اليه مصائرهم المفجعة كانت تسمع الجدة وهي تدعو الطاغية سرا بـ"يزيد" لكنها شخصياً لم تردد ذلك مكتفية اذا ما تطلب الأمر في الحديث بينهما ان تدعوه هو فقط، حيث تكتفي بما يحمله ضمير الغائب من احتقار واستصغار ولربما تقية ايضاً. ذلك كان مما تعلمته خلال كل هذه السنوات التي عاشتها في غربة داخلية وهو ان كل ما يفعله بنا هذا الــ هو نابع من احتقاره لنا وسخريته منا نتجية زهوه الشديد بنفسه ونرجسيته، فكان ان دربت نفسها على رد الاحتقار اليه بتجاهل اسمه.**

* **الا تظنين ان كلابهم سينزلون للشوارع كما طالبهم يزيد وعندها سيتحولون الى ذئاب مسعورة؟**

**منذ بدأت الحرب وهذا الحوار يتكرر يكاد ان يكون يوميا بين الحفيدة الشابة التي تحاول ان تبدو متفائلة والجدة التي لا تخفي تشاؤمها. منذ ان بدأت الحرب وهي تعيد وتكرر على "سلمى" الا يجب ان يأخذهما الحماس الزائد بعيداً.عليهن الانتظار أياما، او أكثر، كي يتيقن مما سيحصل. "هؤلاء لن يستسلموا بسهولة" ظلت تردد. "لقد ذاقوا حلاوة الكرسي طويلاً وما عادوا يستطيعون التخلي عنه، يعرفون ان ثمن ذلك سيكون حياتهم."**

**البيبي التي عاشت حياة تقلبت فيها الأحوال ودالت خلالها الأيام والدول كانت تسمي العراق بلد الشقاق والنفاق، مثلما سمعت منذ سنوات طويلة منسوبا لـ"علي بن ابي طالب" من شيخ كان يعتلي منبر مجلس للعزاء أيام "عاشوراء" ليمدح "الحسين" ويذم قاتليه من أهل "العراق". كانت "سلمى" تستغل تلك الحورارت لتجرب في ردها بعض مما تعلمته في دراستها كي تحاجج جدتها في ارائها بطريقة كانت احيانا تجد نفسها وكانها ترد على "ابن خلدون" وليست عجوزا نصيبها يسير من ثقافة النخبة. لم تكن "سلمى" مغرمة مثل كثيرين بـ"ابن خلدون" حتى انها كانت تشكك في صحة تصنيفه كعالم اجتماع وتراه فقط كمؤرخ، وربما مفكر، وتتمنى ان تتمكن يوما من كتابة رسالة دكتوراه تفند فيها الكثير من أرائه. كم مرة قالت لجدتها انه ليس هناك قالب واحد يوضع الناس فيه كي يخرجوا بعدها شعباً واحداً متطابقاً في كل شيء ويختلفون من خلاله عن الشعوب الاخرى. ثم تمضي لكي تقول لها بان نسبة تلك المقولة لـ"علي" مجرد كلام مرسل لم يجد له الباحثون دليلاً في كتب التاريخ، بل هم ينسبونه لاعداء "علي" احيانا.**

**ثم تسأل جدتها.**

* **وماذا عن مقولة "كيفما كنتم يولى عليكم. هم ينسوبونها لعلي ايضا؟ هل نحن نستحق صدام لأنه واحد منا وعلى شاكلتنا؟**

**النقاش بين "سلمى" وجدتها يستهويها لأنها كانت دائماً جمهورها الوحيد كلما احتاجت الى جمهور كي تبثه بعض مما تختزنه في داخلها. في الأيام الأخيرة أخذ النقاش يزداد بينهما حول الشيعة وأحوالهم عبر العصور وحول مستقبلهم بعد غياب النظام المنتظر. كانت "سلمى" تحاول ان تطمئن جدتها بان مظلومية الشيعة ستنتهي قريباً لو صدق ما يسمعوه من الاذاعات الاجنبية بان النظام الجديد سيقوم على أساس معادلة الأغلبية والأقلية وهو لوحده كفيل بذلك. لكن المرأة العجوز لم تكن لتقتنع بهذا التفاؤل، ليس لأن بداخلها ألم لم ينمحْ بعد منذ فجعيتها بابنها وزوجته، ولكن لأنها تربت على عقيدة تقول ان مظلومية الشيعة أبدية، ولن تنتهي الا مع ظهور "المهدي المنتظر" وهو الثمن الذي عليهم ان يدفعوه لخلاص ارواحهم ولدخولهم الجنة. لو اصبحوا حكاما واسياداً، كانت تحاجج حفيدتها، سيزول الفرق بينهم وبين من ظلمهم من الحكام وسيخسرون حينها الدنيا وثواب الآخرة. ان تكون شيعيا، من وجهة نظرها، هو ان تكون مظلوما ومحكوما لا حاكما، فالظلم في رأيها من شيم الحكام مهما كانوا.**

**"سلمى" لا ترى نفسها متفائلة، بل واقعية وهي تستنتج مما تسمعه من هذه الاذاعات منذ أيام ان عراقاً آخر لابد وانه سيظهر فوق ركام هذه الحرب، رغم انها تعجز ان تراه. امسكت بيد جدتها وأخذت تمسد ظهر كفها بلطف كما كانت تفعل في طفولتها وكأنها تلاعب قطة استكانت بين يديها.**

* **ستفاجئين حين ترينهم يهربون مثل هؤلاء الضباط والجنود الذين سبقوهم والذين تشاهدينهم منذ ايام يهيمون على وجوههم في شارعنا مثل خراف تائهة. هؤلاء لا شيء يجمعهم غير عصا الراعي التي يهشهم بها وما اخشاه انهم تعودوا طويلا على العيش كالقطيع وحين يطلقون من الحضيرة سيتحولون الى ذئاب جامحة.**

**وفي حين شدت يد حفيدتها وبدت وكأنها تنظر بافتتان الى عينها البراقتين الا ان البيبي ظلت ساهمة وكأنها بحاجة الى المزيد مما يبدد حيرتها.**

* **أخشى ان تأتي المفاجئة من الضحايا الذين لن يتمكنوا من طي هذا الفصل المؤلم من ماضيهم وسيختارون ان يلعبوا لعبة الجلاد، قالت "سلمى".**

**منذ مقتل والديها في الإنتفاضة قبل اثني عشراً عاماً وهروب أخيها "عدنان" الى الخارج و"سلمى" تعيش في كنف جدتها، اثنتان وحيدتان في شبه عزلة عن العالم. كان أبوها مديرا لمستشفى "كربلاء" وامها طبيبة في نفس المستشفى حين اندلعت انتفاضة 1991. لم يشئا ان يتخليا عن واجبيهما المهني والإنساني، كما تتذكر الكلمات الأخيرة التي سمعتها منهما قبل ان تفارقهما. لاتدري ان كان "قسم أبقراط" ام تلك الوشائج التي ربطت عائلتها مع المدينة او أساب أخرى هي التي دفعت بوالديها الى البقاء وسط ذلك الغليان واستمرارهما بالعمل حتى صرعتهما قنابل امطرتها دبابات "الحرس الجمهوري" على المستشفى في الأيام الأخيرة للإنتفاضة.**

**لم تكن قد ودعت طفولتها بعد حين أحست بحرقة اليتم والفراق دون ان تفقه تماما أسباب ما جرى لها في تلك المدينة الوادعة. الكثيرون اعتبروا ان أبويها كانا في المكان الخطأ في الوقت الخطأ وان موتهما المأساوي كان مجرد سؤ حظ ليس الا. جدتها اعتبرت الأمر برمته قضاء وقدرا، اما الحكومة فقد اعتبرتهما من الغوغاء المشاركين في الإنتفاضة، او من المؤيدين لها واتهمتهما بالبقاء في المستشفى ومعالجة المنتفضين، حتى انها دفنتهما كالآخرين في مقابر جماعية لا احد يعرف مكانها. اما اخوها الكبير "عدنان" فلم يعرف احداً بمصيره الا بعد سنوات حين جاءتهم الأخبار بانه هرب مع كثيرين ممن شاركوا بالإنتفاضة قبل ان تصل قوات الحكومة الى المدينة ثم اجتاز بعدها الصحراء الى "السعودية" ومن هناك لجأ الى "بريطانيا".**

**"سلمى" نجت حين اخذها جيرانهم الفارون من هجوم "الحرس الجمهوري" على المدينة معهم الى مخيم اقيم عند "بحيرة الرزازة" ثم اوصلوها بعد القضاء على الإنتفاضة للى جدها وجدتها في "بغداد". لم تكن الأهوال قد اصابتها بعد الا حين أدركت انها لن ترى والديها بعد ان استرقت السمع لجارهم وهو يبلغ جدها وجدتها بان والديها قتلا في المستشفى اثناء الاجتياح. كانت تندهش كلما تذكرت ذلك خلال كل هذه السنين التي فاتت انها لم تبك يومئذ وهي الطلفة التي كانت بالكاد تجاوزت العام العاشر من عمرها يغيب عنها ابويها فجأة دون وداع او تذكار. هطلت دموعها بغزارة بعد ذلك بأسابيع حين صحت يوما ورأت البيبي تنتحب الى جوار جدها وهو مسجى في فراشه. يومها بدأت طفولتها تغادرها وتتركها دون ان تعرف معنى لتلك الكلمة الا عبر مشاعر وأحاسيس كانت تنتابها بعد ذلك من خلال الكتب والأفلام، وربما أيضاً الأغاني التي ملئت عالمها في صباها وشبابها. اثنا عشر عاماً وجدتها هي عالمها الوحيد الذي كان يضيق امامها كلما كانت تكبر وتشعر بانها لا تحيا حياة طبيعية، بل تهيم لوحدها في جزيرة معزولة. في مدرستها ثم في جامعتها اعتادت بالنهاية على تلك النظرات المتساءلة او المتشككة او اللامبالية. من تجرؤ ان تكون صديقة حميمة لها والريبة والخوف هي الحدود التي تنتهي بها علاقاتها مع الآخرين. قليل جداً من الأقارب والجيران يقمن بزيارة البيبي بين الحين والآخر ويقضين وقتاً معها بجو لا يخلو من تعاطف ومودة. بعد ان يغادرن كانت جدتها تأخذها الى جنبها تمسك يديها بحنو وتنظر في عينيها ثم تقول لها "لو خليت قلبت".**

**في تلك السنوات كانت أكثر الكلمات شيوعاً بين الناس هي الحصار لوصف العقوبات الدولية التي فرضت على البلد بعد غزو الكويت وما نتج عنها من أزمات ومحن. في داخلها كانت "سلمى" تشعر بانها تعيش حصارا أكثر قسوة، كانت تسميه في تدويناتها اليومية "حصاري انا". في كل مرة كانت تتساءل مالمعايير التي يتم بها قياس الحصار وتحديد مفاعليه. يمكنك ان تقيس تأثير الحصار الاقتصادي بعدد السعرات الحرارية التي يفقدها الجسم بسبب شحة الغذاء لكن بأي ميزان يمكنك ان تقيس الوحدة. ثم ان الوحدة ليست فقط العزلة التي تعيش فيها، بل هي ذلك السور المفروض عليها والذي يسري الإحساس به في كل الأماكن التي من حولها ويحيط بها من كل جانب وفي كل وقت. كانت "سلمى" تشعر أنها اسيرة أبدية لم تتوقع ان ينفتح يوما امامها باب قفصها لتنطلق بعيدا في سماء لا ترى لها حدودا ولا قرار. في السنوات الأخيرة كان اكثر ما يخيفها فكرة موت البيبي وتركها وحيدة تصارع وجودها دون معين في هذا العالم الموحش.**

**من شباك المطبخ المطل على حديقة البيت الذي فتحت دفتيه بدا اليوم ربيعياً رائعاً مشمسا مع ندى خفيف لا يزال يغطي أوراق أشجار البرتقال المزهرة بالقداح يبث رائحته التي تتتشابك مع عطر أزهار الرازقي والقرنفل التي حرصت "سلمى" على زراعتها هذا الموسوم وعلى رعايتها بنفسها. حين جلست تتناول افطارها مع جدتها كان الراديو ينقل هذه المرة أخباراً عن معارك طاحنة تدور رحاها في "مطار صدام الدولي" وعن انسحاب القوات العراقية باتجاه وسط المدينة.**

**"المراسلون المرافقون للقوات الامريكية يقولون ان مئات من افراد القوات العراقية قضوا وان جثثهم تغطي مساحات كبيرة من بداية الطريق الرئيسي الذي يربط المطار بمركز العاصمة العراقية"، قالت المذيعة التي تعرف "سلمى" انها لبنانية من نبرات صوتها وطريقة نطقها للكلمات.**

**-هل تعلمين ان من اولى علامات الظهور هو اغلاق مدخل "جامع براثا" وبناء سور لن يكتمل حول "بغداد"؟ بعدها يدخل "السفياني" المدينة لسبيها طيلة ثلاثة ايام بليالها ونهارها، لن يبقى الامام بعدها في الغيبة طويلاً.\***

**تدرك "سلمى" انه كلما اقترب الموعد المأمول يزداد قلق البيبي التي تعود كل مرة الى حديثها المفضل وهو ان ما يحصل الآن هو من علامات الظهور التي تسبق الصيحة السماوية وخروج "الامام المهدي" المنتظر من غيبته. في الأيام الاخيرة كانت تصر ان الأمر مؤكد هذه المرة وان هذه الحرب ستمهد اولا لظهور "السفياني"، تلك الشخصية التي تزخر بها مرويات الشيعة بانه سيأتي من الشام للعراق للتحريض على قتال الامام المهدي بعد ظهوره.**

* **لكن هؤلاء القادمون امريكيون ومسيحيون وربما يهود فكيف سيكون بينهم "السفياني". ثم انهم قادمون من "الكويت" وليس من "الشام".**

**لاتبدو ان البيبي كانت تصغي بانتباه لما قالته "سلمى" للتو.**

**\*جامع تاريخي في بغداد تقول المرويات الشيعية انه بقعة صلى فيها الامام علي بن ابي طالب اثناء مروره في احدى غزواته.والسفياني شخصية يربطون ظهورها بظهور امامهم الغائب.**

**- حلمت الليلة بالامام عجل الله فرجه. كان شاباً وسيماً، لحيته قصيرة مشذبة، فارع الطول وبنيته قوية، كان يرتدي ملابس الحرب. نزل عن جواده وبدأ يوزع سيوفا على الناس. كانت نصال السيوف مثلومة،**

**لفت انتباه "سلمى" ان كلتيهما عاشتا احلامهما هذه الليلة، احلام اصبحت تعرف بالخبرة انها تشبك خيوط وجدوهما بالماضي والحاضر والمستقبل.**

**- اعطى سيفا لشاب أشبه باخيك "عدنان"، لكن السيف لم يكن مثلوم النصل فقط، بل بلا قبضة خشبية.حمله "عدنان" ومشى، انهت البيبي رواية ملخص حلمها بصمت داهم مثل لقطة ختام فلم غامضة حارَ المخرج في رسمها او انه تعمد ان يترك النهاية مفتوحة يفكك المشاهد شفرتها كما يريد، اكملت جدتها.**

**- الاحلام ليست محاكاة لما حصل لنا في الماضي لكنه تدريب على الأمل او مواجهة التهديد الذي قد نتعرض له كبشر في المستقبل، ردت "سلمى" بعبارات استعانت بها من زاد قرائاتها دون ان تجد تأثيرا ما لكلماتها على جدتها، او ان تتأكد انها فهمت ما قالته.**

**- هذه ليست المرة الأولى.هذا الحلم أصبح يتكرر كثيراً هذه الأيام.**

**تدرك "سلمى" من مطالعاتها أيضاً بان الأحلام القلقة هي أكثر تكرارا من الأحلام السعيدة وأولئك الذين يعانون منها هم الأكثر خوفاً مما يدور حولهم من غيرهم. من عادة البيبي ان تقلق بصمت، لديها قوة هائلة على تحتفظ بتوتراتها دون ان تعبر عن ذلك بالغضب او الاحتجاج. بالتأكيد ان ذلك متأت من ايمانها اليقيني العميق بان كل ما يحصل هو قدر مكتوب، او ما دأبت على ترديده دائما امامها من قول لا تذكر من هو قائله بان "الجزع امام مصيبة واحدة يجعل منها اثنتين." اما هي فليست قلقة أبداً، بل على العكس تماما، يتضافر شعورها المتدفق منذ أيام بان الجدران التي تحيط بها اخذت تتصدع، مع نسائم هذا اليوم الربيعي البهي الذي تراه من خلال النافذة كي يترك داخلها شعوراً مريحاً بأن كل ذلك الأذى النفسي الذي عانت منه خلال سني حياتها على وشك ان يتلاشى. منذ بداية الحرب لم تعد تراود "سلمى" أطياف أمها وأبيها، وبالتحديد تلك الأيام الاخيرة التي قضتها معهما قبل ان يختفيا من حياتها. تعلم ان تلك الأطياف دفينة تختبأ في مكان قصي من لاوعيها لكنها ستراهن على الأيام، لعبتها الأثيرة.**

**حياتها منذ ان بدأت تعي مأساتها ومنذ ان بدأت تسمع تلك الأصوات في روحها وفي جسدها بقيت تدور في مجرة ظلت تتسع في خيالها كلما امتدت الأيام، في حين بقي العالم من حولها يضيق. أيامها متمحورة حول شعور واحد لا تستطيع الفكاك منه، مهما حاولت، أحساس بان ماضيها القصير، ولكن الجميل، رحل، وحاضرها ضلال باهتة، اما مستقبلها فهو شيء غامض لكنه يستحثها كي تعدو اليه.لم تستطع الحصول على عمل منذ ان تخرجت من قسم المكتبات منذ سنتين وتخلت بعدها عن اية محاولة. كان طلب التوظيف يختفي في الأدراج وربما في سلال المهملات، دون اي اجابة عن استفسارها، او توضيح. استسلمت للزمن، قتلت وحشته بان انغمست في عالم الكتب الذي اشادته من حولها تحاول ان تستخلص من بين بطونها الأجوبة عن الأسئلة التي بدأت تداهمها وتدواي بها حيرة العقل وغربة الروح. لم تعد تشعر بالوحدة بعد ان أصبح لها اصدقاء يملؤون عليها نهاراتها ومساءتها بالحكايات والمعاني والأسرار التي تحملها رواياتهم ورؤاهم بالعالم وبالاشياء. من غرفتها رحلت فوق اجنحة الاوراق والسطور الى عوالم قصية تكتشف الناس والأمكنة والأفكار. القراءة كانت منقذها من الغربة، ولربما من الجنون، نعم من الجنون، فمع كل صفحة كانت تقرأها في كتاب كانت تشعر بخلايا دماغها تفرز انزيمات دفاع ذاتي جديدة مضادة للكأبة وموقدة للحماس. وجدت بالمكتبة الصغيرة التي جمعتها مما خلفها والدها وجدها الكثير من الكتب الملهمة والتي أعطتها أيضاً فكرة عن اهتماماتهما الثقافية، وساعدتها بان ترسم لهما صور غير تلك التي انطبعت في ذهنها من عالم الطفولة. التهمت كل كتاب وقع تحت يديها، ومع كل واحد منها كانت تكتشف المزيد من الأفكار ومن قوة الكلمات التي تملأ عقلها بالجديد والمدهش والسحري. عاشت حياة أبطال الروايات التي قرأتها ومغامراتهم وحاورتهم في داخلها. كرهت البعض، وتعاطفت مع غيرهم، وعشقت آخرين، لكنها غرقت دائما في عوالمهم مثلما يغرق صوفي في بحر الهيام لا يشعر ان كان ما يعبه هو عصير السكر ام ماء أجاج.**

**ظلت اصوات القنابل تأتي طيلة اليوم من بعيد، لكن البعض منها كان مدوياً بما يكفي لكي يهز نوافذ البيت وأبوابها في كل مرة تسقط واحدة منها على منطقة ما، ربما في الأطراف القريبة للمدينة. السكون الذي ران على الحي كانت تقطعه بين الحين والآخر رشقات رصاص لا احد يعرف مصدرها ولكنها كانت كافية كي تبقي بيبي على عكس "سلمى" مشحونة بالترقب، ولربما أيضاً بالتوتر والقلق. حين انتهت بيبي من صلاة العصر ومن تلاوة أدعية عديدة بعضها تتلوه لأول مرة توجهت الى "سلمى" التي كانت منهمكة في قراءة كتاب وكأنها تريد ان تخبرها بشيء تخشى ان تنساه.**

**- هل تعلمين اني طلبت من ابيك ان يسميك "زينب" عند ولادتك، لكنه رفض؟**

**- حقاً.انه اسم جميل تفوح من بين حروفه عطور ورياحين. لكن هل قال لك لماذا؟**

**- قال ان الاسم يثير الشجون ويذكره بالفاجعة. وقبلك رفض أيضاً طلبي ان يطلق اسم "حيدر" على أخيك وقال انه لا يريد لأبنه حين يكبر ان يشعر انه يعيش في منفى.**

**يتطابق كلام ابيها الذي تنقله البيبي عنه مع الكثير مما في تلك الصورة التي كونتها عنه في مخيلتها. حاولت ان تضع الأمر في سياق ما يشغلها من تفكير في ما يجري الآن. هي لا تراه شخصاً خائفاً او متردداً في ان يضطلع بانتمائه الشيعي ولكنها تراه رجلا ًمدركاً لكينونته ويحاول فقط ان يحفظ توازنه وهو يقف على مفترق طرق بين هوياته المتصارعة. لاشك ان تلك التوترات التي تمور بداخل البيبي بسبب انها ليست على يقين مما يجري حولنا او التكهن بالمستقبل هي التي تستثير عقلها الباطن كي تستدعي كل تلك الذكريات.**

**في المساء او ليلة الختام كما سمتها قضت "سلمى" معظم الساعات امام الراديو تسمع آخر أخبار الحرب والتحليلات التي يعلق بها محللون بعضهم متحمس جداً في استنتاجاته وفي ارائه الى حد الزعيق بها. كان البعض يتكلم فعلاً وبحرارة عن ليلة "صدام" الاخيرة في الحكم. احدهم ظل يشرح كيف ان الامريكان نصبوا له كمينا لن يفلت منه وهو من سار اليه كالنائم او المسحور على قدميه. وقال آخر ان "صدام" وقع ضحية للخيانة، ربما من أقرب الناس اليه. أحدهم بدا أكثر رصانة، ورد بان نتائج الحرب لن تتضح الا بعد سنوات، او ربما عقود، عندها ستكون قد اصبحت تاريخاً، قال انه سيكشف ربما عن حقائق لا نعرفها، او قد على العكس تخفيها. تذكرت انها قرأت قبل ايام في كتاب للمفكر المغربي "محمد عابد الجابري" عبارة وقفت عندها طويلاً يقول فيها "الحدث يكون تاريخياً ليس فقط لأنه يكون له ما بعده، بل أيضاً لأن له ما قبله." حينها سجلت على هامش الصفحة كما اعتادت ان تفعل كثيرا:"التاريخ هذا الشيء الذي لا برهان عليه."**

**في دفتر مذكراتها دونت الليلة على ضوء ما سمعته من البيبي مقارنة بينها وبين "علي الوردي"، عالم الاجتماع الذي علموها في الجامعة بانه مكتشف المعادلة الجينية الفذة للشخصية العراقية التي وصفها بالمزدوجة والقلقة والتي على اساسها يمكن تركيب تاريخ العراق الاجتماعي الحديث. استرجعت نصاً يوصف به "الوردي" احدى المراحل التي مرت على العراق في حياته بانها كانت "مفترق طرق"، وبانها "كانت فرصة للتقدم والحداثة ان ضاعت فلن تعوض ابدا." كتبت هي في بداية الصفحة:"لكنها ضاعت. ولو كان "الوردي" بيننا اليوم ربما كان سيبرر بطريقة ما سبب ضياع تلك الفرصة، كما كان سينضم الى كل هؤلاء المستيقظين من تشاؤمهم الذين نراهم في الشوارع مقتنعين بان الفرصة التي كانوا ينتظرونها قد حلت اخيرا. هل من المعقول ان تكون بيبي أبرع تحليلاً من صاحب مجلدات "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" و"لمحات من تاريخ العراق الحديث"، ام ان الحدس الذي في القلب هو الذي يبقى اقوى واصدق من مقولات التحليل الاكاديمي، او من تفاؤل الارادة؟ ستحسم المرحلة القادمة والتي بدأت اليوم الى الأبد صحة، او خطأ، نظريات "الوردي"، كما ستثبت ان كان "العراق"، كما يراه الحالمون بوتقة يمكنها ان تصهر كل العناصر الداخلة فيها. كل ما عليها ان تظل متشبثة بالأمل فهو الوحيد الذي قال أحدهم والتي لا تتذكر اسمه الآن انه لا يموت.**

**\*\*\*\***

**1/4**

**رفيقه التونسي في السكن "حسان" يسمي هذا النوع الغزير من المطر الذي ينهمر في الخارج منذ ساعات بالغيث النافع. يثير فيه ذكرياته عن بلده "تونس" حيث يطلق الفلاحون تلك التسمية على زخات المطر الكثيف والمستمر لأنهم يرون انه يحي الأرض بعد موسم الجفاف. يشرح له في كل مرة ان الإعلام الحكومي هو من بدأ يطلق تلك التسمية الشاعرية قبل سنين لأن السلطات وجدت ان ربط الخيرات الآتية من المحاصيل بإرداة السماء والطبيعة تعفي النظام الشمولي من الإنتقادات التي توجه لفشل سياساتها الأروائية والزراعية. يحاول أن يشرح له أيضاً ما الذي يعنيه للتوانسة، وخاصة للفلاحين في منطقة "سليانه" التي قدم منها، هطول المطر بكثافة في بلد لا نهر فيه وتكاد تكون المياه التي تأتي بها الأمطار هي شريان حياتهم الوحيد. يحكي له "حسان" دائماً عن علاقة التوانسة بالمطر ويلاحظ بعدما ينتهي في كل مرة ان حكاياته تخلوا من قصص حب رومانسية أو لحظات شاعرية عادة ما يتوقع المرء سماعها عن أوقات المطر. يكاد كلامه كله يقتصر على زراعة أشجار الزيتون وكيف ان ثمارها تكون أكبر وأكثر طراوة وأغزر انتاجاً للزيت حين يكون الموسم غزير الأمطار. تختلف التفاصيل قليلاً ولكن الحكاية في كل مرة تبدأ بزراعة الشجرة ورعياتها حتى تسويق الثمر الى المعصرة في أحد اطراف المدينة. لا ينسى "حسان" دائما ان يتباهى بنوعية ثمار الزيتون التي يسميها "الوسلاتي" والتي تنمو أشجارها في أرض العائلة كونها الأغنى بنسبة الزيت والأجود من نوعه.**

**هو يحاول ان يلملم اشياءه المبعثرة في ذهنه في حين يبقى "حسان" مسترسلاً، ربما في حكايات أخرى هذه المرة. المطر يثير فيه حالة سديمية غامضة تمزج بين الحزن والكآبة والأمل، ليس الأمر بيده هي حالة مزاجية تصاحبه منذ نمت بذور وعيه الأولى يصعب عليه تفاديها. مع كلمات "حسان" التي تتطاير مع دخان سيكارته في الصالة الصغيرة كان "سامح" يسترجع ذكرياته عن المطر في "بغداد" وتلك الطقوس التي طورها منذ الطفولة وهو ينتظر هطوله، خاصة أيام الربيع حين يتساقط بغزارة لساعات طوال، وأحياناً أياماً، وهو يجلس يراقب انهماره تحت سطح الرواق الخارجي لبيتهم في "الأعظمية" والذي يطل على الحديقة أو أنه يغامر بالإختباء تحت شجرة يعرف انها لا تقيه كلياً من القطرات المتساقطة ولكنها مع ذلك تمنحه أحساساً بالحماية والاطمئنان. في شبابه كان يسير الى الكورنيش القريب من بيتهم يستظل هناك بأشجار كثيفة الأغصان، أو يحمل مظلته ويقف كي يراقب زخات المطر من بعيد وهي تتساقط برشاقة على مياه "دجلة" في مشهد كان يمنحه مزاجاً متناقضاً يجمع بين البهجة والنشوة والشجن. في أول مرة يشاهد فيها المطر يهطل فوق "نهر السين" بعد وصوله "باريس" بأسابيع انتابه شعور عميق وهو يرى قبة السماء الواسعة من حوله تتحول بإستمرار بين الرمادي والسواد بأنه يطل من بعيد على دجلة من تلك البقعة التي اعتاد اللجوء اليها على كورنيش "الأعظمية" والتي أصبحت فيما بعد ليس مكاناً للهروب والتأمل بل للوحي الملهم.**

**الآن وهو يقف أمام شباك شقته في "رو دي ستالينغراد" في ضاحية "ماري مونتغيه" تحمله لحظة عابرة الى هناك لكنه يفتقد ظل شجرة التوت الأبيض الضخمة التي اعتاد الوقوف تحتها في كورنيش "الأعظمية" كما يفتقد رائحة التراب التي كانت تستثيرها قطرات المطر وهي تضرب الشاطئ الممتد بين ضفة النهر ورصيف الشارع. حين يستيقظ من تلك اللحظة الشاردة لا يرى وسط الضوء الشاحب الذي يلقى بذبالاته فوق أسفلت الشارع الذي يثير فيه أسمه ذاكرة حروب ولت وويلاتها وضحايها الا قطرات المطر التي تنزل بهدوء من فوق أغصان وأوراق شجرة الزيزفون التي تنتصب أمامه فوق الرصيف ويشعر بذلك المزيج من الحزن والغربة والضياع والحيرة يلاحظها "حسان" تجتمع لأول مرة معا.**

* **ما بك؟ كأنك "السياب" يقف على شاطئ الخليج وهو ينتظر إلهة الشعر تلقنه "انشودة المطر"، قهقه "حسان" وبطريقة كوميدية راح يترنم...**

**"أكادُ أسمعُ العراقَ يذخرُ الرعود/ويخزنُ البروقَ في السهولِ والجبال/حتى إذا ما فضّ عنها ختمَها الرجال/ لم تترك الرياحُ من ثمود في الوادِ من أثر...."**

**فتح الشباك قليلاً ومد رأسه الى الخارج كي يعب رئتية بالقليل من الهواء فشم راحة الأشجار التي تتلقف حبات المطر قبل أن تهبط الى الأسفل وتقرع بقوة على حجر الرصيف وأسفلت الشارع. استدار نحو "حسان" وسأله.**

**- هل تتحق نبؤة "السياب" الآن بعد كل تلك السنين؟ العراق انهار، أو هو على وشك وسيلحق قريباً بـ"يوغسلافيا" و"الصومال" و"رواندا".**

**- توقف عن هذه النزعة السوداوية التي يخلفها فيك المطر والظلمة والقلق. الناس في "بغداد" الآن يستعدون للإحتفال بنهاية الطغيان واستعادة إنسانيتهم بعد أن أوشك الدكتاتور على السقوط. قل لي ممن، او مما أنت خائف؟**

**- لابد أن اناساً كثيرة ستموت بسبب آلة الحرب الباطشة هذه والتي لا يمكنها ان تميز بين مدني ومحارب. قد يكون الآن بينهم أخي أو أختي أو قريبي أو جاري أو ربما صديقي، بل دعك من كل هذا فأي شخص يموت هو بالتالي عراقي بريء لا ناقة له ولا جمل في هذه الحرب اللعينة.**

**- هل عدت الى هذا الهذيان؟ الشعوب المقهورة التي تسعى في دروب قيامتها تتوقع الجائزة التي ستحصل عليها ولا تفكر بالثمن الذي عليها ان تدفعه. انها حرب تحريركم من هذه الوحوش الضواري التي تستبيح دماءكم منذ أكثر من ثلاثة عقود. هل تريدونهم ان يستسلموا بلا دماء وبلا دموع وبلا دمار؟ انتم تموتون مجاناً منذ زمن بلا سبب سوى لتلبية شهوة ونزوات طاغية دموي وأحمق يتلذذ بخوفكم. ادفعوا الثمن الآن ربما لآخر مرة.**

**- لن تكون آخر مرة، سيكون بعدها مرات ومرات ومرات، تمتم "سامح" طويلاً وعيناه لاتزالان تحدقان في خلاء الشارع المظلم.**

**منذ ان تعرف عليه قبل خمسة عشر عاماً اثناء تلك المحاضرة التي يتذكرها جيدا لـ"بيير بورديو"\* في الـ"كوليج دي فرانس" و"حسان" هو ذاته "حسان" لم يتغير. دخل مع عالم الاجتماع الكبير في نقاش جدي ومعمق عن الهوية البربرية أذهل كل من في القاعة. كان يتكلم بفرنسية أهل باريس تنساب من بين شفاههه بطلاقة ويسر ويجادل "بورديو" الذي لم يكن يومها يحتل كرسي علم الاجتماع في الكلية فقط، بل كان أيضاً حجة في هذا الحقل في كل اوربا. كانت فكرة "حسان" يومئذ والتي لا يمكن ان ينساها أبداً هي انه لا يمكن الاعتماد على "ماركس" و"ماكس فيبر" و"دوركهايم" و"شترواوس" فقط في تحليل قضايا وظواهر غير اوربية مثل اوضاع البربر في شمال افريقيا. يومها لم يبد "بورديو" المعروف بانه مثقف منخرط في النقاش العام أيضاً تذمرا او ضيقاً رغم ان رده كان مباشرا**

**\*عالم اجتماع وفرنسي ومن بين الاسماء البارزة في الفكر في القرن العشرين**

**ومفعما. "لكن لا يمكن أيضاً ان تعتمدوا على "ابن خلدون" فقط لأنه استمد أراءه من بيئته المحلية"، قال "بورديو" للقاعة المكتظة قبل ان يضيف "ان تلك هي طبيعة الانثروبولجيا".**

**منذ تلك اللحظة التي تقدم فيها الى "حسان" بعد انتهاء المحاضرة ليبدي اعجابه بجرأته في النقاش مع "بورديو" لم يفترقا أبداً. أصبح "حسان" الأديب التونسي الهارب من الإستبداد والقمع في بلده والساعي كي يكون روائياً كبيراً صديقيين ثم منذ سنوات رفيقيين في هذا السكن. جدلهما الباريسي كما اتفقا على تسميته كان دائما انفعالياً، وأحياناً ساخناً، لكن كل واحد منهما ظل يعتقد ان ذلك فقط هو مبرر استمرار هذه العلاقة. من خلال تلك النقاشات تعلم "سامح" الكثير وأعتبر كل تلك النقاشات ميدانا للتطبيق في عمله البحثي الذي يحتاج فيه الى التفكير النقدي بدءاً من طرح الأسئلة المناسبة والحجج والإفتراضات الى التحليل والى الوصول الى النتائج. لكنه لا يرغب الليلة في ان يمضي النقاش الى أكثر من ذلك لأن "حسان" ربما سيسخر منه، أو حتى سيغضب لو شرح له مخاوفه الحقيقية.**

**- انت تنظر الى وجه واحد من القضية ولا تعلم او ربما تتناسى وجوهها الأخرى. هناك كارثة في الطريق.**

**- الكارثة كلمة مرنة على نحو مبهم. هذه من نتائج هذا الهراء الذي تملأ به رأسك هذه القنوات التلفزيونية الفرنسية. ماذا جرى لك يا رجل؟ الا تعلم ان وراء هذه الدعاية السخيفة التي يروجها هؤلاء الفرنسيون عن الحرب لا لشيء سوى مصالح وأموال وأدوار يخسرونها وطريقة لإبتزاز منافسيهم الانكلوفون. ألم تدرك بعد ان معاداة الأمريكان موضة قديمة لو لم يستخرجوها في كل مرة لبارت كل بضاعتهم فلا تنخدع بها ولا بكلام صديقك الصحفي "روبير" هذا، أنه أحمق كبير كالكثير من اليساريين الفرنسيين والأوربين الذين يظنون ان مهمتهم تحرير العالم من أمريكا.**

**- ليت الآمر بهذا اليسر، فالأمريكان كما تراهم منذ بدأت الحرب يثبتون انهم مجرد كاوبوي يهجمون مثل ثور هائج دون تروٍ ولن يتركوا "العراق" وراءهم الا خرابا، رد "سامح" بفتور.**

**- هذا جنون. كأني استمع الى "صدام" وليس الى باحث اكاديمي. لقد استعبدكم هذا الطاغية سنوات طويلة حتى أصبحتم نسخة ثانية منه. لو أخذتك على محمل الجد فالأحرى ان تبدأ الآن بتدوين نظريتك في علم الاجتماع التي ترنو اليها.سمها ... "الشعب المأسور بالقائد المنصور."**

**قبل ان يرد عليه نهض "حسان" الغاضب من مقعده واتجه الى غرفته تاركا "سامح" يغرق ثانية في تأملاته، في ذاته وفي قلقه الداهم. كان المطر لا يزال يهطل والأنوار في الشارع أو تلك الآتية من البيوت المقابلة تبدوا للعيان مثل ومضات سريعة ما تلبث ان تختفي. لم تكن هذه هي المرة الأولى خلال الأيام الماضية التي يسمع فيها كلام من هذا النوع الذي أطلقه "حسان". في الأسابيع الماضية ومنذ ان بدأ يتضح ان الحرب ما عادت مجرد تهديدات بدأت معه الهواجس والمخاوف التي لا يستطيع الجهر بها. عندما اندلعت المعارك طلب اجازة خاصة من عمله في "معهد اللغات والحضارات الشرقية" في "جامعة باريس" واعتكف في شقته الصغيرة في هذا الحي المكتض بالمهاجرين الآتين من كل أنحاء الدينا والذين يستمع الى نقاشاتهم الساخنة والأخبار التي يتداولونها حول الحرب في كل شارع ومقهى وبقالة وحافلة للنقل. اما هو فقد رابط أمام شاشة التلفزيون يتنقل بالريموت كونترول بين قناة وأخرى يشاهد أخبار الحرب وتقاريرها الآتية من العراق ومن دول أخرى ويندمج بالمماحكات مع "حسان".**

**اليوم غادر الشقة لساعات لكي يلتقي مع صديقه "روبير مونيه" في" كافيه اوز شاتليه" القريبة من عمل "بيير" وسط "باريس" على ناصية "رو دي ريفولي" يتبادلان الأخبار والمعلومات والتحليلات بشأن مجريات الحرب. معرفته لـ"روبير تعود الى سنوات عندما التقاه في احدى الندوات التي عقدها "معهد العالم العربي" عن روائي مصري شهير. المرة الوحيدة التي تدخل "سامح" فيها في النقاش كانت حينما أشار أحد الحضور الى مقولة كانت قد أصبحت من الكليشيهات التي يرددها كثيرون عن حال الثقافة في العالم العربي، وهي ان المصريين يكتبون واللبنايين يطبعون والعراقيين يقرأون. بداهة كانت تلك عبارة سيفتخر بها كأي عراقي آخر بإعتبار انها تعني ان العراقي هو القارئ الأول والمستهلك الأول للثقافة وللفكر في منطقة تعج بالأمية والجهل والخرافة, ولكنها تستفزه حين يرى انها تستبطن أيضاً فكرة ان "العراق" مجرد سوق، وليس منتجا للمعرفة والفكر والثقافة. نافح خلال تلك الندوة لإثبات خطل ما أسماهها بالإسطورة التي ظلت تتردد عقوداً طويلة وطرح حججاً يجيدها بإعتباره متخصصا بعلم الإجتماع الثقافي بان موقع العراق الطرفي جغرافياً ربما كان سبباً بعدم وعي قلب العالم العربي بوضعه الثقافي وبدوره وشبه ذلك بالإدعاءات حول المركزية الأوربية التي عمل كثيراً في عمله أيضاً على دحضها. شعر ان الحاضرين تقبلوا الفكرة بإحترام، ان لم يكن بإعجاب. كان يعرف أسم "روبير" من خلال كتاباته في الجريدة الفرنسية الشهيرة مهتماً بشؤون الشرق الأوسط وخبيراً بقضاياه الا أنه أسعده تماماً ان يقدم له نفسه بعد انتهاء تلك الأمسية ويتحدثان في الشأن العراقي ثم تتطور العلاقة بينهما الى صداقة انبنت على اهتمامات مشتركة ومزاج فكري متقارب.**

**منذ ان بدأت الحرب وهو يلتقي بـ"روبير" يومياً تقريباً في هذه المقهى يناقشان تطورات الحرب على ضوء الأخبار الواردة. يعرف "سامح" ان صديقه صحفي كبير وذي خبرة عميقة في شؤون الشرق الأوسط لكنه يردد دائما ان ذلك العالم معقد جداً ويقر انه يجد صعوبة في ان يفهم الكثير من التفاصيل والجزئيات عنه. هذا شيء يزيده احتراماً لدى "سامح" الذي لم يمانع منذ ان بدأت الإستعدادات للحرب ان يلبي طلبه في مساعدته على حل تلك الألغاز وسياقاتها وتقديمها لقرائه. حسب طلب "روبير" حددا موعداً مبكرا للقاء اليوم رغم ان "سامح" لم يتمتع الا بساعات قليلة من النوم الليلة الماضية.**

* **يبدو اننا وصلنا الى الكريشندو، قالها "روبير" مستعيراً من الأوركسترا تعبير ذروة نغمة الموسقى وتداخل آلات العزف حالما التقيا.**

**وحالما تجرع أول رشفة من فنجان الاكسبريسو ودون مقدمات عاجله بسؤال مباشر كما طلب منه إجابة مباشرة.**

* **كيف تصف شعورك الخاص اليوم كعراقي، بالتأكيد انك تعتبر نفسك عراقياً رغم انك تحمل الجنسية الفرنسية الآن، اليس كذلك؟**

**حين التقط "روبير" نظرات الدهشة في عيون "سامح" أخبره ان زميله الذي يرافق القوات الأمريكية أبلغهم ان سقوط "بغداد" أصبح وشيكاً جداً وانهم في غرفة التحرير يعرفون ان كل ما سيرسله سيعكس ما يجري في الجانب الأمريكي وكلفوه ان يكتب هو عن سقوط المدينة من جانب ذاتي وانساني وحتى سياسي ولم يجد أفضل منه من يستطيع ان يحدثه عن مشاعره.**

**منذ ان تعرف عليه ليس هناك أمتع لـ"روبير" من ان يستمع لـ"سامح" وهو يحاول ان يفكك له طلاسم الشرق الأوسط بمنهج تاريخي اجتماعي يفهمه جيداً كمثقف فرنسي ولطالما ساعده ذلك خلال السنين الأخيرة ان يقدم تحليلات في مقالاته الصحفية تجاوزت حسب ردود الأفعال التي يتلقاها السطحية والارتجال التي يتناول بها صحفيون غربيون آخرون قضايا الشرق الأوسط المعقدة. هذه الحرب الملعونة تزيده توتراً كل يوم بسبب تشابك أحداثها ومواقف أطرافها والضغوط الكثيرة التي يتعرض لها بوصفه من كبار الكتاب في شؤون المنطقة في "فرنسا" كي تخرج كتاباته متوافقة مع سياسات الجريدة التحريرية المعارضة للحرب ومتوازنة مع مواقف بلاده وتبقى في الوقت نفسه ممتعة وجذابة للقارئ. كان يتمنى موافقة ادارة الصحيفة على سفره الى "العراق" لتغطية الحرب من "بغداد" لكن طلباته الملحة لحد اليوم تقابل بالرفض مما يجعل من "سامح" أحد مصادره المهمة.**

* **انا اليوم بحاجة الى عنوان "سيكسي" جدا، نطق "روبير" الكلمة الأخيرة بالانكلزية بحماس بالغ ملوحا بيديه الأثنتين مثل لاعب تنس في الحلبة سجل لتوه نقطة ضد غريمه.**

**شرح لـ"سامح" بان المنافسة في تغطية الحرب في الصحافة الدولية شرسة وان العالم يريد ان يسمع او يقرأ اليوم اضافة الى اخبار القتال العادية شيئاً يتضمن بعدا انسانياً مضيفا ان بإمكان الإجابات عن الأسئلة الكبرى ان تنتظر. شرح له انه في هذا اليوم بالذات ليس في وارده ان يستمع الى تحليلات على مذهب "دريدا" في التفكيك او منهجه في التفتيش اليقظ عن السقطات او مواضع العمى او لحظات التناقض كما سمعها من "سامح" مرات لا تحصى. اليوم هو يبحث عن شيء مثير يترك أثراً لا على ورق الجريدة ولكن في نظرة الناس عن هذه الحرب، شيء وصفه باحساس بشري يتدفق من التجربة الذاتية. يريد ان ينقل لقرائه حرارة تفاعل انسان عراقي مع محنة غزو بلاده من قوى أجنبية كما يشعر بها في نفس اللحظة.**

**غاص "سامح" في صمت عميق. هو يحس بالتوتر الذي يشعر به "روبير" والذي تسببه له متطلبات الكتابة اليومية عن هذه الحرب منذ أكثر من أسبوعين وما يتعرض له من ضغوطات نفسية ومهنية. هو نفسه مر بتجارب كهذه رغم انه لم يكن تحت ضغوط الكتابة الصحفية اليومية. يتذكر جيداً انه بعد عودته من رحلته البحثية عن الحرب في رواندا ظل أشهراً طويلة يتحدث عن مشاهد الرعب والدمار والإبادة الجماعية التي رأها. يتذكر أيضاً أنه قال له مرة انه حينما كان هناك وسط الأحداث لم يكن يشعر بالإثارة لأنه كان مندمجاً في تفاصيل العمل لكي يسجلها لاغراضه البحثية لكنه شعر بذلك بعد عودته حتى أنه أصيب بأعراض اضطراب ما بعد الصدمة احتاجت علاجاً نفسياً طويلاً. لكنه مع هذه الحرب بدأ يشعر ان ذلك التوتر أخذ ينتقل اليه فما يتحدث عنه منذ أيام ليس "البوسنة والهيرسك" او "الصومال" او "رواندا" التي طالما تحدث هو و"روبير" عنها خلال السنوات الفائتة، لكن عن "العراق" الذي ربما لم يعد هو يحمل جواز سفره، لكنه يبقى الوطن الآخر الذي كما يقول عنه "امين معلوف"، المبتلى مثله بازدواجية الجنسية والهوية، بأنه سيكون كاذباً لو وصفه بغير ذلك.**

**في اللحظة التي هم بها "روبير" ان يطرح على "سامح" ما طلب حضوره من أجله بدأ رواد المقهى يتحلقون حول شاشة تلفزيون انتبه انها وضعت حديثا في زاوية من المقهى. كانت محطة تلفزيون "تي في موند الخامسة" تنقل مشاهد لدبابات أمريكية من الكتيبة الثالثة للواء مشاة البحرية السابع من الفرقة الرابعة تدخل الى احدى الساحات في قلب العاصمة العراقية. بدأ الحماس يدب في صفوف رواد المقهى وهم يستمعون الى المذيع الذي يعلن ان "بغداد" تعتبر الآن ساقطة فعلياً بيد القوات الأمريكية التي دخلت اليها من جهتين. كان منظر المدرعات الأمريكية وهي تسير وسط شوارع المدينة وفوقها الجنود الذين يحيون الناس الذين تجمعوا حولهم مثيراً رغم عدم وجود باقات ورد توزع على الجنود الذين بدوا متوترين. بعد دقائق قليلة كانت الكاميرات تتركز حول تمثال لـ"صدام" تجمع حوله حفنة من العراقين يهوي أحدهم بمطرقة حديدية كبيرة على قاعدته في حركة بدت عبثية نظراً لصلابة القاعدة الكونكريتية المغطاة برخام ايطالي سميك. جاء بضعة جنود أمريكان بعربة سحب مدرعة وصعد أحدهم على سلمها الى رأس التمثال وربطه بسلسلة حديدية متينة ثم وضع على رأسه علماً أمريكياً لبرهة قبل ان يتنزعه وينزل الى العربة التي ما ان بدأت بالحركة الى أمام حتى بدأ التمثال يتهاوى نحو الأرض.**

* **مالذي يمكن ان يقوله" لوفلبيان" و"شيراك" الآن، تساءل مذيع القناة الفرنسية وهو يعلق بحماس على ذلك المشهد في حين تدلى رأس التمثال وهو يسقط الى الأرض قبل ان ينهال عليه الحشد بالضرب بالأيدي او الركل بالأرجل في حين انتزع آخرون احذيتهم وتناوشوه بها.**

**في ركن المقهى المزدحم ارتفعت وتيرة الإثارة أيضاً وربما اختلط الذهول جراء الدراما التي أمامهم بغضب البعض وسخرية البعض الآخر والتي أججها تعليقات المذيع.**

* **كم مرة شاهدنا هذا الفلم الهوليودي من قبل؟ ها هو البطل الطيب ينتصر على الشرير ويقضي عليه ثم تنتهي الحكاية، صرخ أحد رواد المقهى وسط الحفنة الملتفة حول شاشة التلفزيون.**

**تشابكت الأصوات في المقهى حين تعالت تعليقات الجمهور ولكن كان بإمكان "سامح" ان يسمع جارهم على الطاولة المجاورة يسأل زميليهه اللذان يشاركانه الجلسة. "أتظن ان ما نشاهده الآن هو سيناريو معد سلفاً لكي يرى العالم أول إحتلال في التاريخ منقولاً على الهواء مباشرة.؟"**

**لم ينتظر أية اجابة من منهما واستمر يعلق بحماس.**

**- تصور لو ان دخول "ديغول" في تحرير "باريس" كان منقولاً على الهواء يومها للملايين في أرجاء العالم هل كان سقوط برلين ونهاية الحرب العالمية الثانية سيطولان عاماً آخر؟، سأل الرجل الثاني الذي كان يعتمر قبعة تنس مصنوعة من القطيفة الزرقاء.**

**- الا ترى ان الامريكان قد ركبوا ظهر النمر وسينتهون مضرجين بين مخالبه، قال الجالس الأول مقتبساً من خطبة للرئيس الأمريكي "جون اف كندي" في ليلة توليه الرئاسة وكأنه يريد ان يدينهم من فمهم.**

**- اظن اني أفهم ما تقصد"، أجابه الثالث أخيراً دون رغبة في الإستمرار بالحديث في حين ظلت عيناه مسمرتان على المشاهد المتواترة من "بغداد".**

**كان "روبير" يتنقل بنظراته بين "سامح" وشاشة التلفزيون. تركز عيناه على "سامح" أكثر ومثل كاميرا تنتقل بين لقطة بعيدة الى لقطة "كلوز اب" كي تقتنص لقطة موحية. يستمر التلفزيون بنقل مشاهد شباب وأطفال عراقيين وهم يلهون بالتمثال البرونزي الممد على أرض الساحة مثل جثة تفسخت أو نهشت بعض اجزائها. اقتربت نظرات "روبير" أكثر من وجه "سامح" وتمنى ساعتها لو ان "ليوناردو دافنتشي" يجلس الى جانبه يرسم له لوحة او ربما لو ان بين يديه جهاز أشعة مقطعية يلتقط كل ما يعتمل في خلايا مخه في هذه اللحظة. حاول التأكد مما اذا كان صديقه العراقي يحبس دموعه وتساءل عما اذا كان سيراهما تنهمران. عند تلك اللحظة أحس "روبير" انه وجد المدخل الذي كان يبحث عنها لكتابة تقريره.**

* **أشعر بروحي توجعني، تردد صوت "سامح" المكتوم بعد ان طال انتظار "روبير" وهو يحدق عميقاً بعيني صديقه الحزينتين وكـأنه يرى تلك الوخزة التي اججت كل ذلك الألم.**

**يدرك "روبير" بحسه الصحفي انه اقترب كثيراً من الحصول من "سامح على ال"ساوند بايت"\* المثير الذي يبحث عنه لمقاله. لقد تعلم في مهنته ان لغة الجسد تشي بالكثير ولكنه تعلم أيضاً ان يحفر عميقاً في دواخل أولئك الذين يجري مقابلات صحفية معهم كي يدعهم يغردوا بما ينتظره منهم.**

**- ما الذي كنت تتمنى ان تفعله اليوم؟، سأله.**

**-"ستفاجئ لو أخبرتك"، رد "سامح" بينما حملق "روبير" في وجهه رافعاً حاجبيه الى الأعلى في حالة تساؤل وخشية من ان يجنح صديقه الى التنظير المعتاد ويخسر هو فرصة الحصول على الإقتباس "السيكسي" الذي يبحث عنه.**

**- تمنيت فقط لو كنت شاعرا كي انشد الآن مرثية كتلك التي دبجها الشعراء العرب في ضياع "الأندلس" قبل خمسة قرون، أكمل "سامح".**

**كانت تلك العبارة هي كل ما كان ينتظره "روبير" لكي يختتم بها مقاله.نهض واستأذن بالانصراف متعللاً باللحاق لكتابة الموضوع.**

**قبل ان يغادر كان التلفزيون قد بدأ بنقل مواقع احتجاجات كتب في شريط الأخبار في أسفل الشاشة انها في الضاحية التاسعة عشر من "باريس" التي تضم جالية اسلامية وعربية كبيرة. اقترب قليلاً لكي ينصت جيداً لما يهتف به المتظاهرون ثم ذهبت أفكاره هذه المرة الى تلك الأبنية العشوائية التي يقطنها مهاجرون أغلبهم من ذوي اللحى والجلاليب الأفغانية والتي ترتسم على وجوهم سمات عدائية تتسق مع أجواء الرعب والعنف السائدة في الحي. لم يكونوا يتظاهرون ضد عنف الشرطة أو العنصرية أو كراهية الأجانب كما يفعلون غالبا، بل كانت صيحاتهم هذه المرة ضد ما يسمونه بـ"الحرب الصليبية الجديدة ضد الإسلام."**

**\*ساوند بايت مصطلح يتداوله الصحفيون التلفزيونيون للإشارة الى الى تعليق مثير بالصوت ينقلونه الى مشاهديهم.**

* **هذا فصل آخر من فصول لعنة الشرق الأوسط بدأ الآن، أسر "روبير" الى نفسه وهو يشق طريقه الى خارج المقهى، "لابد انها ستطول".**

**في المساء بعد ان أوى "حسان" الى غرفته ظل "سامح" أمام التلفزيون يقلب قنوات كانت لاتزال تنقل مشاهد مثيرة لسقوط "بغداد"، بعضها حية وبعضها أشرطة مسجلة من أماكن ربما لم يكن لدى المراسلين الصحفيين الذين ظهروا فجأة في المدنية من الفرق والأجهزة ما يكفي كي ينقلوها على الهواء مباشرة. لم يتجادلا الليلة لأن "حسان" أحس بان لتلك المشاهد وقع ثقيل على زميله في السكن لم يشأ أن يزيد من عبئها عليه لو عادا للسجال المستمر منذ بدء الحرب. ثم انه نفسه أنبهر كثيراً مما رأه على الشاشة من هيجان بدت عليه "بغداد" تنقله شاشات التلفزيون متلهفة بإعتبارها صوراً للفوضى وانهيار الأمن بررها لنفسه بأنها مجرد رد فعل فطري متوقع وانه كان سيرحب به لو جرى في بلاده "تونس" كثمن بخس لسقوط دكتاتورهم العتيد. كان يرغب ان يقول لـ"سامح"**

* **ما قيمة كل هذه الخردة التي ينهبها هؤلاء البؤساء من قصور جلاديهم ومقرات حكمهم مقابل المعجزة التي تحققت، لكنه قرر ان يحتفظ بنشوة هذه اللحظة التاريخية السحرية والا يبددها في حوار عبثي آخر مع "سامح".**

**حين غفا "سامح" تلك الليلة على الأريكة التي جلس عليها أمام شاشة التلفزيون وهو يتابع أخبار سقوط "بغداد" حلم بـ"رواندا". رأى نفسه يطل من فوق رابية "فندق سيرنا" على ضفاف "بحيرة كيفو" خارج العاصمة "كيغاري" لكن البحيرة التي تقع وسط موقع آسر من التلال الأفريقية الخضراء الزاهية كانت مليئة بالجثث الطافية، لم يستطع من بعيد ان يميز من منها كانت لرجل أو لامرأة ربما لأنها كانت منتفخة أكثر من اللازم، ولكنه بالتأكيد تأكد من ان تلك الأجساد الصغيرة الطافية لابد وانها تعود الى أطفال. كانت موجات المياه التي تضرب بضفاف البحيرة التي يطغي على حشائشها اللون البنفسجي تدفع بالأجساد الطافية ثم تسحبها معها ثانية الى البحرية كلما ارتدت. رأى من بعيد قسيسا عملاق الحجم يقف على تلة صغيرة فوق لسان ترابي اخترق البحيرة يرتدي جبة سوداء ويلف وسطه بشريط بنفسجي عريض يحمل بيده اليسرى صليباً لامعاً ويهتف بصوت بدا غريبا لـ"سامح" ان يأتيه بوضوح وقوة رغم المسافة بينهما: "لم يعد هناك شياطين في الجحيم كلهم الآن يجتمعون هنا في رواندا."**

**اختض جسده فوق الأريكة بقوة قبل ان يتم القسيس خطبته التي كان يلقيها للفضاء الممتد فوق البحيرة لكن مشاهد أكوام الجثث المقطعة المكدسة او المبعثرة على شاطئها وفي طرقات "كيغاري" وانحائها وصور الأكواخ التي تحولت الى رماد ومناظر أرتال الهاربين من المذابح التي مر بها بقيت كلها لاصقة لحظات في ذهن "سامح" قبل ان يصحو من كابوسه تماماً. لعدة سنوات بعد رحلته الى "رواندا" و"بروندي" وعمله في البلدين مع فريق بحثي دولي لإعداد دراسة عن الإبادة الجماعية في "افريقيا" ظلت تلك الكوابيس عن المذابح العرقية بين "التوتسي" و"الهوتو" والتي وثق الكثير من تفاصيلها في تلك الدراسة تزوره بين الحين والآخر ولكنها أصبحت تكثر من زياراتها الثقيلة خلال الأسابيع الماضية كلما أمعن التفكير في بلده المأزوم وما يراه من مآلات قاتمة أكثر سواداً من جحيم "رواندا". ظل جسده يرتعد لبرهة وأحس ان خيوطاً من عرق كانت تنز من جبينه على الوسادة مسحها بكف يده وحين استعاد يقظته كاملة راوده السؤال: ماذا لو كانت تلك الشياطين الآن في طريقها للرحيل الى "العراق"؟**

**\*\*\***

**2/1**

**منذ ان بدأت أشعة الشمس تخبو خلف أسطح البيوت العالية ووراء سعفات النخيل الباسقات ثم حلول ذلك السكون الذي يرافق العتمة التي تهبط ببطئ على شوارع الحي، تزايدت وتيرة القلق لدى "سلمى" حيال جدتها. منذ زمن وهي تقف بإنتتظارها عند مدخل الدار بدت الآن مع هبوط الظلام دهوراً لا ساعاتً. تركت بيبي البيت الذي نادراً ما تغادره منذ الصباح الباكر لأداء مراسيم الزيارة لمرقد "الإمام موسى الكاظم" في ذكرى وفاته السنوية على وعد ان ترجع عند منتصف النهار، لكنها لم تعد حتى بعد ان حل المساء. أكثر ما يزيد من وتيرة قلقها هي الأخبار التي تنقلها الإذاعات عن الإنفجارات والهجمات التي يتعرض لها الزوار الزاحفون نحو ضريح الإمام منذ الصباح. منذ أيام وأغلب سكان المدينة يستعدون لمهرجان الألم الأكبر هذا، وكأنهم يبغون لا ممارسة طقوس حزنهم الذي حرموا منه سنينا طويلة، او ان يبحثوا عبر هذه الشعائر عن خلاصهم الآبدي، بل ان يهتفوا عالياً بهويتهم المستردة والتي أصبح إحياء مناسبات دينية كهذه من بين رموزها الصارخة. شوارع المدينة الرئيسية تغرق باللون الأسود الذي يغطي الجدران والميادين، كما يتشح به الكثيرون لباساً، او غطاءً للرأس، ليس فقط من قبل النساء والفتيات، كما هي العادة في المأتم ، بل والرجال والأطفال أيضاً حيث يغرق الجميع في لون الحداد الدامس. للكثيرين بدا السواد الذي يرتدونه استعراضا للكبرياء والتحدي أكثر من كونه تعبيراً عن العزاء الذي ينبض بالحزن العميق والنواح الخفي بين الضلوع. مكبرات الصوت التي نصبت في كل زاوية من الساحات العامة التي تصدح باللطميات الحسينية التي ينشدها رواديد بحناجر مليئة بالشجن وبالمرارة هي التي تتكفل بتأجيج المشاعر واستثارة البكاء. على نواصي الشوارع الرئيسية امتدت منذ أيام نصبات يقوم عليها أشخاص موشوحون هم أيضاً بالسواد منهمكين بتوزيع الأطعمة والمياه والعصائر بحماس وتوسل للعابرين وكأنهم يوفون بنذور تراكمت سنيناً وعقوداً مديدة. القنوات التلفزيونية الخارجية التي شاع استخدامها تبرز المناسبة في نشراتها الاخبارية لكنها تركز منذ الصباح على الإنفجارات والهجمات العديدة التي تعرض لها ملايين الزائرين، او ماتسميهم بالحجاج الشيعة، الذين يقيمون لأول مرة في "بغداد" منذ سقوط "صدام" هذه الشعائر علنا وبحرية مطلقة. لم تصغ بيبي لرجاءاتها الا تذهب الى "الكاظمية" هذا النهار، او بالاقل، ان تطلب من "عدنان" ان يصطحبها، او ان يوفر لها أفراداً من طاقم حمايته الشخصية يرافقونها ويرتبوا لها طريقاً أمناً وسريعاً وسط حشود البشر الزاحفة من داخل وخارج المدينة الى مرقد الإمام.**

**تفتح الصنبورالذي تسمر في سياج الحديقة فتبدأ المياه تتدفق عبر الخرطوم وتبدأ "سلمى" برش الأشجار أولاً ثم بعد ذلك ألواح الزهور وأخيرا النجيل بينما تتطاير العصافير وسط الظلام المتساقط فوق الأغصان العالية في حديقة بيتهم والبيوت المجاورة وكأنها ملت من جولات العناق والبوح بأسرارها لبعضها البعض وفضلت ان تشارك "سلمى" قلقها دون أن تعرف له سبباً. زقزقاتها التي عادة ما كانت تأنس اليها في ساعات الغروب وهي تتخيلها رسائل غرام ونجوى بدت صفيرأ مشوشاً متقطعا وخاطفا ينغرز في أذنيها كشكات أبرة. هذه العصافير بدت أكثر حيرة في أمرها منها، وقلقها المتزايد يزيد من توتر "سلمى" وهواجسها المنفلتة ويدفعها هي أيضاً لأن تنهض من الكرسي الخيزران الذي جلست عليه بعد أن انهت رش الحديقة وتبدأ بذرع المجاز الذي يربط بين البابين الخارجي والداخلي الذي تغطيه عريشة عنب خشبية تتشابك فوقها الأوراق مما يزيد من العتمة والغموض اللذان يلفان المكان. الخوف الذي استوطن حياتها وحياة جدتها ونخر في روحيهما سنيناً طويلة لم يودعها أبداً حتى بعد أن رحل عنها عالمها القديم وظنت انها دخلت دنيا جديدة. في زمن الطاغية كان الخوف يأتيها من رعب العيش في عالم مستباح والتعود على تجرع الوحشية والقسوة التي يمارسها نظامه ومن غارات الإعتقال المفاجئة والاختفاء دون تفسير، او الموت تحت التعذيب، أو احتمال ان تتنصت عليهم الجدران، او ان يشي بهم اي كان لأي سبب كان. الآن يأتي الخوف للناس من الموت المجاني الذي يمكن ان يكون بإنتظارهم عند اي منعطف طريق، او أثناء طابور انتظار للحصول على وظيفة، او وهم يتسامرون في مقهى، أو يؤدون صلاتهم راكعين في مسجد، او حتى وهم يحتمون من الخوف الجديد داخل بيوتهم. ما عادت ترعبهم عيون البصاصين التي كانت تراقبهم في ما مضى، ولا الآذان التي كانت تتنصت عليهم، او الوشاة الذين يكتبون تقاريرهم، بل هؤلاء الوحوش الضارية المستترة التي تعيش وسطهم والتي تتمنطق بأحزمة ناسفة تخبئها تحت معاطف، او في طيات ألبسة سميكة، او داخل السيارات المفخخة بمئات الكيلوغرامات من المتفجرات التي يمكن ان تركن على أية ناصية مثلما يأتيهم من نيران صديقة على أيدي الجنود الأمريكان، او من تلك الأشباح التي لا اسم لها والتي تختار ضحاياها بعناية لكي تنفذ فيهم ما يبدوا أحكاماً بالإعدام صدرت من جهة ما. ربما يظهر الفرق أيضاً في ان الناس على عهد الطاغية كانوا يقهرون خوفهم بالمزيد من الخوف لكي يمضوا في حياتهم في وهم الأمان ومن أجل الإستمرار وبهدف البقاء ريثما يأتي الفرج مثلما ظلت تتشبث به جدتها. اما الآن فلو سُألوا كيف يخاطرون بحياتهم، مثلما فعلت بيبي اليوم، لمجرد المشاركة في مناسبة دينية، فبالتأكيد فان جواب البعض سيكون ان ما يمتلكونه من ايمان وعقيدة هما أقوى من الموت وأنهم ما عادوا يقبلون ان يخيرهم آحد بين الموت وبين الحياة الجديدة التي يعيشونها بحريتهم. ومن البديهي ان هناك آخرون سيكون جوابهم، لو سألوا، هو هز الكتفين وبرطمة الشفتين تعبيراً عن اكتشافهم لفن اللامبالاة، او تعرضهم لفايروس اليأس الذي يصيب الإنسان بأعراض الإستعداد للموت وتقبله أين ومتى وكيفما حل.**

**حين طرق سمعها صوت محرك سيارة تتوقف أمام الدار واصطفاق بابها ثم تبعها بعد قليل صرير المفتاح يدور في المغلاق واندفاع فردة الباب الحديدي الخارجي للبيت ببطئ توقفت ركبتاها عن الرجفان وأيقنت ان بيبي قد حطت رحالها أخيراً. أشعلت المصباح اليدوي الذي كانت قد أتت به بعد حلول الظلام ووجهت شعاعه صوب الباب الذي ظهر منه شبح بيبي بعبائتها السوداء، ثم بان وجهها الذي علته تلك الإبتسامة الشاحبة التي تعرفها "سلمى" جيداً، والتي لا يمكن ان تخطأ في ترجماتها بما يعني الاعتذار لها بحنو ودعة. حين اقتربت منها أكثر خانتها عبارات العتاب واللوم التي كانت قد هيأتها سلفاً ورمت بنفسها في أحضانها تلفها بذراعيها وتشدهما نحو صدرها بقوة وكأنها تحاول استرضائها لا تقريعها على هذا التأخير.**

* **لقد هدني القلق والخوف عليك، ما كان علي ان أدعك تذهبين، قالت "سلمى" وهي تدير نظراتها حول جدتها كأنها تحاول أن تتأكد انها وصلت سالمة وكاملة الأوصال.**

**تلك هي المرة الأولى التي تخرج فيها بيبي لوحدها خارج حدود حيهم الكبير منذ انتهاء الحرب التي أسقطت الطاغية وبدأت بعدها حرب أخرى تجري وقائعها في شوارع المدينة وأزقتها، يخوض معاركها أشباح ويروح ضحيتها عابرو سبيل وتترك وراءها روائح البارود والدخان والدم والجثث المتفحمة. خلال الساعات التي قضتها بالإنتظار استرجعت الكثير من وقائع تلك السنوات التي عاشتها في نفس حضن بيبي الذي ارتمت به والذي تشعر به كما كانت دوماً انه ملاذها الوحيد الذي وفر لها الأمان الذي تحس به الآن مع طلوع ونزول الشهيق والزفير اللذان تتبادلانه في صدريهما. تذكرت انها قررت ان تعاتبها وان تسألها ان كان الأمر يستحق كل هذا العناء وهذه المغامرة ولكنها ترددت خشية ان يبدد عتابها هذا الوله والإنتشاء الروحي الذي يشع من عينيها.**

* **لماذا تخشين علي وأنا كنت عند شفيعي ومولاي، قالت بيبي وهي تخلع عباءتها وتنزع عن رأسها الوشاح الأسود الذي كانت تتلفع به ثم ترتمي على الأرجوحة التي تتوسط نجيل الحديقة الذي تتصاعد نفحاته الندية، في حين تبعتها "سلمى" وجلست بجانبها ممسكة بيدها، وكأنها أصحبت مستعدة على مسامحتها عن ساعات الهلع التي مرت بها.**

**في عهد الطاغية انقطعت بيبي عن اداء مراسم الزيارة السنوية لوفاة "الإمام موسى بن جعفر" في مرقده في "الكاظمية". كانت تتذرع حينها بان التقية واجبة وأن بإمكانها أداء شعائر الزيارة في البيت وسيتقبلها الإمام على الرحب والسعة تقربا الى الله تماماً كما تقبلها من مشيعي جنازته في ذلك اليوم المشهود في "بغداد" قبل أكثر من ألف عام والذي لا تكل بيبي عن رواية احداثه بتفاصيلها كما تحفظها عن ظهر قلب. اليوم هي المرة الأولى التي تقام فيها مراسم الزيارة بشكل ليس فقط علني، وانما أيضاً بمباركة ومشاركة رسمية من رموز النظام الجديد. الجميع حرص على ان يكون اليوم مناسبة كبيرة بطقوسها وشعائرها وكأنهم ارادوها تعويضاً عما حرموا منه كل تلك السنين. كما لم يبدو الأمر سراً ان الحشود التي زحفت اليوم على "الكاظمية" رتبوا لها أيضاً أن تكون مظاهرة تحدٍ، وبالذات للإرهابيين الذين هددوا صراحة بإستهداف الزائرين وتفجير مواكبهم. في الصباح الباكر أصرت بيبي أصراراً عجيبا على ان تذهب الى هناك رغم سنها واوضاعها الصحية التي لم تعد على مايرام. طلبت من "سلمى" الا تقلق لأنها اتفقت مع بعض معارفها من نساء الحي ان يذهبن سوية الى "الكاظمية" ثم يعودن بعد الظهر. قالت لها ان الزيارة لم تعد مجرد شعيرة دينية وإنما واجباً أيضاً لأظهار الموالاة لآل البيت. قبل ان تودعها وجهت نظرات رجاء الى "سلمى" كأنما تقول لها ليتك تأتين أنت أيضاً لتنالي الشفاعة والمراد.**

**منذ صباها و"موسى بن جعفر" هو القديس الذي تعلقت به بيبي أكثر من غيره من ائمة المذهب وحفظت عنه قصصاً وأخباراً طالما سمعتها "سلمى" منها وكأنها تقرأ من سيناريو مكتوب بكل تفاصيل المشاهد المحبوكة فيه. في طفولتها وكلما جاء بها أبويها الى "بغداد" كانت بيبي تستصحبها لزيارة مرقد الإمام الذي يكتض حرمه عادة بالناس وتتذكر كيف ان النساء والرجال يستجيرون بضريحه سائلينه ان يقضي حوائجهم المتنوعة من زواج أو حمل أو عمل أو علاج لمرض أو يتذرعون اليه بان يفرج الله عنهم مما أصابهم من كرب أو بلاء. شيء آخر لا يمكن ان تنساه هو عادة بيبي في طلب كميات من الكباب من المطاعم المنتشرة جنب المقام والذي يوضع على أعواد الكرفس والريحان والمرشوش بالسماق مع الخبز الحار المطعم بالسمسم والذي يلتهمون بعضه في صحن الإمام ويأتون بالفتات منه معهم الى البيت كي يجهزوا عليه بعد ذلك.**

* **كنت أشعر وأنا أسير وسط ذلك الحشد البشري كأنني أطير كروح، كأن أحداً كان يحملني الى باب الحوائج الذي كان يقف بعيداً يطلبني بيديه، من سيرفض الشهادة في هذا اليوم وفي هذا المكان، ندت عن شفاه بيبي هذه الكلمات بحماس كمن يتخيل بطلاً من أبطال احدى الملاحم التراجيدية وهو يوشك على ان يأتي بمعجزة.**

**حدقت "سلمى" بوجه بيبي ملياً بحنان. كان وميض الكشاف الباهت الذي تركته بعيداً يبدد بعض ظلام الحديقة الدامس ويكشف ولو بفتور شيئاً من ذلك الإحساس المتوهج الذي تدفق من جدتها وهي ترسم به تلك اللوحة العميقة. لفت نظرها انتقاء بيبي لكلماتها كما شعرت بالحرارة التي تخرج معها وهي تسترسل في الكلام. أدركت ان الزيارة أشعلت فيها حنيناً للماضي وللأيام التي عاش خلالها أئمتها التي تجد فيها جذورها وملاذها، مثلما أوقدت في داخلها بالتأكيد توقاً الى زمن آت، هو الذي ستلقي عنده مرساة عمرها والبقية من أمانيها.**

**لا تكتفي بيبي مثل باقي أتباع آل البيت بتسمية "موسى بن جعفر" بكاظم الغيظ، بل هي تحب ان تسميه أيضا بالعبد الصابر، وحين تتحدث عنه فأن أكثر حكايتها هي عن صموده الملحمي في سجون العباسيين وما ترويه عن تحمله التنكيل بصبر وايمان ومقابلته الشر والبغض بالعفو والجود. في طفولتها كانت تأسرها تلك القصص التي ترويها بيبي عن مقاومة "الكاظم" لـ"هارون الرشيد" وتحديه الأسطوري له والتي تزخر بها مرويات الشيعة عن مظلومية أئمتهم عبر التاريخ. مع حكايات بيبي المتكررة عن موت "الكاظم" التراجيدي في سجنه كانت مخيلتها ترسم مواقعا للسجون الثلاثة التي تنقل "موسى بن جعفر" بين زنازينها سنوات في مناطق مختلفة من "بغداد" العباسيين و"بغداد" الحديثة حيث تتصوره دائما كهلاً أشعث في قعر بئر دامس مكبلاً بالقيود والسلاسل يضطجع فوق حصيرة بالية والى جانبه كوز صغير من الماء. في صباها كانت تشبهه بالقديس "مار قرداغ" الذي تعلمت من صديقتها الآشورية في المدرسة "كارمن" بانه شفيع الكنيسة الذي يلجؤون اليه بطلب الأمور المستحيلة. أخبرتها "كارمن" قبل ان تهرب مع عائلتها الى "استراليا" انه سليل عائلة امبراطورية وشهيد قتله الأعداء بعد تعذيبه وأنهم يقدمون له النذور في الكنيسة في ذكراه في كل عام. لكن صورة "الكاظم" وصورة "مار قرداغ" اللتان اختطلتا في خيالها وتحولتا الى لوحة مناضل في المقاومة في بلد لا تعرف اسمه وفي زمن لا تستطيع ان تحدده تجسدتا بعد ذلك حين ادمنت مسعى التعرف على الدنيا في صورة الثائر البوليفي "تشي جيفارا" وهو مسجى بعد مقتله حين شاهدتها لأول مرة فادركت انه لا بد ان يكون هو ذاته الإمام الذي دأبت بيبي ترسم هالته في خيالها.**

**- لا يصبح الثوار أيقونات الا حين يهبون أرواحهم للقضية التي يؤمنون بها، نطقت "سلمى" بتلك الكلمات دون أن تعي أن كانت وجهتها الى جدتها ام الى "جيفارا" الذي قرأت ان الجيش البوليفي أعدمه وصوره في ذلك المشهد الملحمي الذي لا ينمحي من البال قبل ان يجيب الثائر على سؤال الجلاد ان كان يفكر بحياته أم بالخلود وجواب "جيفارا" بانه يفكر فقط في خلود الثورة.**

**- لا يهم كثيراً بعد ذلك إن كانت القضية تستحق ذلك أم لا، أضافت في حين ظلت جدتها غارقة في هيامها الذي جاءت به من الزيارة.**

**لم يتأخر "عدنان" كثيراً الليلة، كما هي عادته منذ عودته الى الوطن بعد الحرب وبعد سنوات الغياب الطويلة التي أبعدت بين ثلاثتهما. هن بين جدران وسقوف تتناوب داخلها الأشباح، بينما يتناوبهن الخوف والقنوط والرجاء، وهو هناك في منفاه البعيد ينتظرن أخباره التي تأتي عادة بلا عناوين أو تفاصيل. أوصله طاقم حمايته، ثم بقوا متسمرين داخل سيارتين "لاندكروزر" رباعية الدفع بيضاوتين قابعتين أمام البيت، كما يفعلون كل ليلة، يتبادلون الحراسة مع طاقم آخر ياتي في ما بعد ويستمر حتى الصباح. طاقم الحراس يفعل ذلك كل ليلة لأن الجدة رفضت مراراً ان يقيموا كشكا للحراسة أمام البيت او يضعوا حواجز في شارعهم والتدقيق بهويات كل من يدخل اليه. قالت له انها ستشعر بالحرج من الجيران لو تحول الشارع الى قلعة محصنة بالأكشاك والمطبات والحواجز مثل شوارع كثيرة تراها في الحي وأنهم سيشتموننا حتى لو لم ينطقوا بذلك جهاراً.**

**قبل ان يمضي الى داخل البيت عبر باب المطبخ المفتوح توجه نحو ركن في الممشى الرخامي لتشغيل المولدة الكهربائية التي كان قد جلبها لهم منذ فترة لكي يتم استخدامها للتعويض عن استمرار انقطاع التيار الكهربائي من الشبكة الوطنية. حين بدأ المولد بالدوران واضاءت المصابيح في البيت سمع صوت جدته يأتي خافتا وسط الجلبة التي أحدثها تشغيل المولد.**

**- اللهم صلي على محمد وآل محمد."**

**- لا بد أنكم اعتدتم على العيش على ضؤ هذه الفوانيس الشحيحة منذ أيام الملعون، قال "عدنان" بعد ان اقترب من جدته وأخته واستفسر عن سبب عدم تشغيلهما للمولد.**

**- انه الضجيج العالي الذي يسببه والذي نخشى انه يزعج الجيران، أجابت بيبي.**

**اما "سلمى" فقد استدركت:**

**- الأجواء هكذا أكثر رومانسية .قبل ان تضيف بنبرة أرادتها الا تخلو من مزحة رغم انها بدت ساخرة قليلاً: "ربما انت على حق، فعبادة الطغاة مرض عضال ليس من السهولة ان تشفى منه الشعوب التي اعتادت عليه."**

**- وهل تعتقدين ان هذا مجرد كلام انشاء مما تقرأنيه في الكتب التي تملئين بها البيت؟، سأل "عدنان" وهو يجلب أحد كراسي الخيزران كي ينضم الى جدته وأخته.**

**- لقد جربناه نحن في الإنتفاضة، فحين قمنا ضد الطاغية وجدنا أنفسنا وسط الثورة مثل "الحسين"، صلاة الله وسلامه عليه، بلا نصير ولا معين. ذلك كان سبب إندحار الثوار سريعاً وانتصار صدام علينا، أكمل "عدنان"، ثم بلهجة حاسمة اضاف:**

**- لم يكن الملعون مخطئاً، كانت الأغلبية مجرد غوغاء سرعان ما تخلت عنا.**

**- ليس هناك شعوب خانعة أو مستسلمة بطبيعتها، انه تاريخها الذي ينشيء قوانين ومسارات تطورها. اما الخوف والخنوع فلا يمكن ان يعيشا في الناس الى الأبد، ردت "سلمى" قاصدة ان يؤدي تحديها الى استدراج عدنان للنقاش الذي كانت تامل منه ان يفتح بعض تلك المغاليق التي يحيط بها نفسه.**

**منذ عودة "عدنان" وبيبي تلاحظ ان فتوراً يسود العلاقة بين الآخوين ردته الى تلك المسافة الشاسعة التي فرقت بينهما كل تلك السنين وجعلت كل منهما يعيش عالماً قائماً لوحده. هما لا يتناكفان مثلما كانا يفعلان في طفولتهما، كما تتذكر، شانهما شأن أخوين صغيرين يتنافسان على حب والديهما، أو يخوضان معارك عابرة على أشياء صغيرة، أو لكي يظهرا استقلاليتهما واثبات ذاتيهما، لكنهما الآن يشتبكان أحياناً في حوارات، حتى ان لم تبد ساخنة، الا أنها لا تخفي انفعالات او مواقف حادة.**

**- ذهبت اليوم لأداء مراسم الزيارة لمرقد "موسى بن جعفر". كانت أمة الثقلين مجتمعة هناك يتمسكون بضريحه ويلتمسون شفاعته، قالت بيبي مدفوعة كما يبدو برغبتها بتغيير الموضوع.**

**- لماذا لم تخبريني اذن، كنت ابعث لك بسيارة مع افراد الحماية كي يسهلوا لك الرحلة.**

**- الأجر على قدر المشقة، والسعي لحضرة الإمام في مثل هذا اليوم ثواب ما منه جزاء في الدنيا ولا في الآخرة، أجابت بيبي.**

**- عظم الله أجرك وأجرنا، جاء رد "عدنان" مقتضباً.**

**- بالتأكيد انكما تشعران بالجوع، لقد جئت لكما بمفاجئة للعشاء الليلة، قالت الجدة وهي لازالت تسعى لفض أي اشتباك ممكن ان يقع بين الشقيقين.**

**في المطبخ أخرجت بيبي لفافة كبيرة من ورق الجرائد من داخل كيس بلاستيك كانت تحمله عند وصولها وفرشت محتوياته على طاولة الطعام.راجت رائحة اللحم المشوي المخلوط بالبهارات ثم ظهرت أسياخ الكباب الموشاة بالسماق مرصوفة فوق الخبز الى جانب قطع طماطة مشوية بعضها متفحم كما ظهرت علب بلاستيك صغيرة مليئة بانواع الطرشي.**

**- كلوا، وترحموا على والديكما.هذا من نفس المطعم الذي كنا نرتاده وأنتم صغار عندما كنا نذهب للزيارة وكنت متأكدة انكم تواقين الى وجبة من ذلك الكباب.**

**- انه يذكرني بأبي، كان يحبه ويطلبه منك في كل مرة، فاجئهن "عدنان" وهو يلتهم قطعة من الكباب بعد ان جلس الى الطاولة المستديرة التي تتوسط المطبخ وسط نظرات "سلمى" التي لا تزال منهمكة في التفكير في لعبة حل الألغاز التي تحيط بأخيها.**

**- كل بالف صحة وعافية.هذه من نعمة "موسى بن جعفر" ومن بركات "الكاظمية" التي تحتضن ضريحه"، قالت بيبي.**

**- نفس تلك النكهة التي لم أجدها في اي كباب جربته في أي مكان آخر. كم أتمنى ان اذهب لآكل هناك منذ عودتي لولا هذه الظروف وانشغالي، استرسل "عدنان" بصوت خفيض كمن يهمس الى نفسه.**

**سرحت "سلمى" وهي ترسي حنكها على كف يدها التي ارتكزت بها على الطاولة وهي تستمع الى كلمات عدنان التي تحس لأول مرها انها تفضح عن مشاعر انسانية لم يعتاد على البوح بها. كان الإحساس بتلك اللذة التي كان يشعر بها في الطفولة والتي تربط بين متعة الوجود في الفضاء الروحي لـ"الكاظمية" وطعم الكباب بطريقة مؤثراً حتى بدا لها وكأنه يعلن اضراباً على كبريائه. يداهمها إحساس بان "عدنان" أشبه بشخصيات جاءت من روايات الواقعية السحرية التي التهمت الكثير منها خلال السنوات الماضية، شخصية محبوكة في نسيج يجمع الخيالي بالواقعي. تتذكر ذلك المراهق الجموح بعينيه المتوهجتين وشعره الكث وفورته الدائمة الذي شاركها مشاكسات الطفولة وتقارن ذلك بمنظره الحالي الرجل المتجهم العابس بلحيته القصيرة المشذبة وشعر رأسه الخفيف المصفوف بعناية فوق صلعة صغيرة وسط رأسه ونظراته العميقة التي لا تفصح عن أية مشاعر مع نبرات صوته الحادة الممتزجة بتلك النبرة الغريبة التي يلحن بها فتظهر صفتان منفضلتان تتبادلان الأدوار باستمرار، المهزوم والمنتصر، وهي الوصفة المثالية لشخصيات رأتها موجودة بكثرة في روايات "غابرييل غارسيا ماركيز" التي تبحث في العوالم السرية للأبطال.**

**لم يكن ذلك التناقض في شخصية "عدنان" هي ما اكتشفته "سلمى" سريعاً بعد عودته من غربته، ولكنها اكتشفت أيضاً تلك الفجوة السحيقة التي تفصلهما عن بعض. بررت له ذلك بأعراض ما بعد الصدمة التي لا بد انه تعرض لها جراء مآساة العائلة ورحلته في معسكرات اللجؤ التي مر عليها وآلام الغربة التي عاناها لكنها بقيت عاجزة ان تفهم أو أن تجد عذراً للجفاء والشدة اللتان لا تفارقانه كلما قارنت ما واجهته هي وبيبي من قسوة الحياة ووحشتها هنا وبين ما يمكن أن يكون قد واجهه عدنان في منفاه الأوربي الذي استقر به المقام. في الأيام والأسابيع الأولى أشعرها ذلك الجفاء الممزوج بالتعالي ببعض الإنزعاج ولكنها شيئا فشيئا تعودت عليه وبررته بانه نرجسية جريحة يمارسها الرجال من أمثاله الذين يحاولون التعويض عن هزائم الماضي بانتصارات الحاضر والمغالاة في اظهار مراكزهم ونفوذهم من خلال السلطة وممارسات الهيمنة والتعالي التي تصاحبها.**

**لم يحدثهما "عدنان" كثيراً عن سنين الغربة التي ظل يسعى منذ عودته لكي يحيط حياته فيها بالكثير من الغموض والألغاز. لكن من المؤكد ان هذا هذا ليس أخيها الذي عرفته في طفولتها وشاركها حياة هانئة في كنف أبويهما لا تزال تستعيد الكثير من تفاصيلها. طيلة الأشهر الماضية وهي تتساءل مالذي فعلته الغربة والمنافي بذلك الشاب الذي تتذكره مفعما بالحيوية وأحيانا التمرد على تقاليد مجتمع مقفل على ذاته وفي مدينة محافظة. تسترجع كيف ان "عدنان" هو من علمها السباحة وهي صغيرة عند شواطئ "بحيرة الرزازة" أو في عيون المياه المعدنية في "عين التمر" حين كانوا يقضون عطلاً جميلة مع والديهما هناك رغم نظرات الرفض التي كانت تراها في عيون الآخرين. هي تعرف مثلما قرأت كثيراً ان المنفى هو بمثابة نوع من الإقتلاع عن الجذور والتخلي قد يصل الى حد الموت النفسي البطيء الذي ياخذ الروح قبل ان يأخذ الجسد. القليل الذي عرفته عنه أيضاً انه قضى كل سنوات الإغتراب تلك في غيتو ايديلوجي مغلق على ذاته المضطربة ومعزول عن ذلك العالم الرحب الذي يحيط به في العاصمة البريطانية. كل شيء تراه فيه يؤكد لها ان اخيها يبدو واحداً من أولئك المنفيين الذين انقطع عنهم حبل الوطن زمناً طويلاً وحين عادوا لم يكن الحنين هو ما جرفهم اليه، بل هدف الإنتقام منه ومن ناسه والسعي النهم للتعويض عن سنوات الحرمان من ثرواته.**

* **طال عمرك بيبي على هذه المفاجأة وهذا العشاء اللذيذ. ان شاء الله تعودين للزيارة دائماً وتذكرينا بالدعاء عند الإمام عليه السلام.**

**ظل "عدنان" رائق المزاج هذه الليلة. ذهب الى الثلاجة وأخرج صحنا من الفاكهة كما عمل شاياً لهما دون ان يطلب ذلك من "سلمى". شجع ذلك البيبي ان تفتح هذه الليلة موضوعاً كانت تؤجله منذ أشهر رغم انه كان ينكش ذلك الجزء من قلبها الذي يعشعش فيه جرح غائر ظنت بعد عودة عدنان انه سيندمل.**

* **أكثر ما استغثت به عند باب الحوائج هو ان يطمئني ويريح بالي ويلبي حاجتي الوحيدة المتبقية في هذه الدنيا التي أشعر باني سأودعها قريبا.**

**تبادل "عدنان" و"سلمى" النظر بارتياب فهما يدركان جيداً ما الذي تنطوي عليه هذه الكلمات التي سالت من فمها من أوجاع بيبي الأزلية والتي ظلت قابعة في قلبها كل هذه السنوات بصبر وتحمل.**

* **ان نجد مكان رفات أبيك وأمك وان نقوم بدفنهما في قبرين جنب جدك وجنبي حين يأتي أواني.**

**منذ عودته أقسم "عدنان: لها مراراً انه سيجد جثماني والديه. ذهب الى كل مواقع المقابر الجماعية التي تم العثور عليها في "كربلاء" والمناطق المجاورة لها بنفسه وتحدث الى من عمل في نبش المواقع ولكن كانت مهمة تحديد هوية أصحاب آلاف الجثث مستحيلة لأنها متحللة وبعضها كانت مجرد هياكل عظمية متهالكة وكذلك بسبب الطريقة العشوائية التي يتم فيها التنقيب.**

* **قد يكون هناك مقابر غيرها في مناطق أخرى. لابد ان هناك شهود لا يزالون أحياء ويمكنهم ان يتذكروا الضحايا. من المؤكد أن هناك طريقة ما للعثور عليهما، تتابع الجدة كلامها وهي تحاول هذه المرة ان تتذكر المزيد من الاحتمالات التي جالت بخاطرها من قبل والتي تعتقد انهم لم يبحثوا فيها.**

**كيف سيشرح لبيبي ان هناك أولويات لديهم وهل بإمكانه ان يقول لها ما سمعه من زعيم تنظيمهم مرة حين ناقشوا المسألة بان الأحياء أولى من الأموات. لن يستطيع ان يصارحها بان المهم بالنسبة اليهم الآن هو ترسيخ سلطتهم وتمكينهم من مفاصل الدولة التي ورثوها وبعد ذلك سيأتي دور فتح خزائن ملفات الماضي.**

**- لا تقلقي، من المؤكد اننا سنعثر عليهما حالما يصبح البلد كله في قبضتنا وسنجعل أزلامهم يتذكرون كل مذبحة ارتكبوها وكل مقبرة جماعية حفروها، قال "عدنان" وهو يلوح بقبضته اليمنى في حين بقي جسمه مشدوداً كوتر متخلياً عن المزاج الرائق الذي بدأ به الليلة ومتلبساً شخصية المسؤول القوي، أو القائد، التي يمارسها في حياته الجديدة.**

**- أعدك باننا سنصفي الحساب معهم وسنأخذ بثأرنا وسيدفعون ثمن كل ما تجرعناه ليس منذ قتل أبي وأمي، بل منذ قتلهم للحسين.**

**طافت في رأس البيبي الكثير من الأفكار مثل دوائر تلتف في بركة القي فيها حجر وهي تستمع الى حفيدها ولكنها عجزت عن ان تقول له انها لا تكترث بمن يمسك بماذا في البلد بل هي تريد مجرد خبر يقيني يعطيها ولو قليلاً من الأمل.**

**اما "سلمى" فقد بدأت تتضح لها أكثر شخصية المهزوم والمنتصر المركبة التي يتبادل أدوراها "عدنان" بانسيابية وكأنه هذه المرة أحد ابطال مسرحيات "بريخت" الذي تختلط فوق خشبته بصورة عجيبة الحقيقة بالأسطورة. راودتها الفكرة أيضاً بان هذا الحماس والإنفعال الذي انتابه فجأة وقسمه بالإنتقام ربما كان نتيجة زيادة الصفراء في مرارته كما يرى "أبقراط" في وصفه المشهور لأحدى الشخصيات الأربعة التي يعتقد انها يتقاسمها البشر متأثرين بالسوائل الحيوية التي تختزنها أجسامهم. هل من المعقول ان الدهون التي في الكباب التي تناولها للتو هي المسؤولة عن ذلك المزاج السوداوي الذي فتح شهيته للحديث عن تصفية الحسابات والثأر. يوما بعد يوم تكتشف "سلمى" ان من يجلس أمامها الآن والقادم مع هؤلاء الذين اصبحوا أسياد البلد وحكامه الجدد ليس أخيها الذي عاشت معه أيام طفولتهما السعيدة تلك. هو يكبرها بأربع سنين فقط ولكنها تتذكره شاباً حنواً وديعاً أحبته مثلما أحبت "الكابتن ماجد" بطل أفلام الكارتون الياباني الذي أغرمت به لأنه كان يحلم بأن يكون لاعب كرة القدم رقم واحد في العالم. هو ذاته يبدو رجلاً صارماً ومتجهماً وحتى متعصباً وأحيانا قاسي القلب لا يحاول أبداً ان يخفي طاقاته العدوانية. لحيته المشذبة وطريقة حديثه والمفردات المحددة التي يستخدمها واللهجة الغريبة التي أصبح يلحن بها والخاتم الفضي الكبير بالحجر العقيق الذي يزين أصابع يده اليسرى وهندامه على غرار الكثيرين من أولئك الذين تعمل معهم في وزارة الخارجية أو تراهم في أروقتها كل ذلك يوحي بأنه عضو في جماعة طقوسية غامضة وليس مجرد سياسي.**

* **هاكم خبراً جيدا.**

**مفاجآته كثيرة هذه الليلة. ترى أي من السوائل الحيوية التي حددها "أبقراط" ستحركه هذه المرة؟**

* **لقد أنهيت اليوم معاملة التعويض والتقاعد الذي سيصرف لك عن استشهادهما وسأذهب معكي الى مؤسسة الشهداء للإستىلام.**

**لم تشأ بيبي الإجابة لكن كلمات "عدنان" عن السلطة والدولة والثأر والإرث والتعويض التي تتوالى على لسانه الليلة ظلت تجلجل في اذنيها وتبعث في داخلها قشعريرة كأنها لدغت في خاسرتها من حشرة صبت في بدنها سائلاً ساخنا يسري في شراينها مسرى الدم. سمعت مثل هذا الكلام عن التعويض أيضاً من العلوية زوجة السيد الذي يرأس الجماعة التي ينتمي اليها "عدنان" في مجلس التعزية الذي تقيمه للنساء أسبوعياً والذي ذهبت اليه بيبي مرتين أو ثلاث بالحاح من "عدنان". فسرت لهن بأنهم لم يعودوا مستضعفين وان نبوءة القرأن التي وعدتهم بان يكونوا هم الوارثين لهذا البلد قد بدأت تتحقق. كلام العلوية الذي يضخمه مايكرفون تحمله في يدها وينتقل صداه بين جدران صالة كبيرة في قصر السيد المطل على نهر "دجلة" والذي عرفت انه كان يوما ما عائدا لأحد أزلام النظام السابق الكبار أرسل حينها أيضاً بداخلها قشعريرة لكنها لم تكن أقوى من هذه التي تسري في بدنها الآن.**

**- قلت لك من قبل اني لن أقبل تعويضاً عن دم ابني كما اني لا أطلب ثأراً أو انتقاماً. امنيتي فقط أن أرى له قبراً أزوره وادفن الى جنبه.**

**- هذه ليست منة ثم ان الموضوع لا يتعلق بارجاع حقوق عائلتنا، بل هو رد المظالم التي تعرض لها اتباع المذهب كلهم. هل ننسى ثارات "الحسين"، ألم ينتقم "الحسن" من ابن ملجم في قتل أبيه؟"**

**بعد أيام من وصول خبر تأكيد مقتل ابنها وزوجته في مستشفى كربلاء واخبارها بأخذ جثتيهما ودفنهما مع المنتفضين في مقبرة جماعية في الصحراء رأت ابنها ليلاً في المنام. حلمت به شاباً، ربما لا يزال طالباً في كلية الطب يجلس الى جانب أبيه في صالة هذا البيت يتحاوران كما كانا يفعلان دائماً في مواضيع شتى. كان النقاش يحتدم عادة بينهما ويختلفان أحياناً ثم يعودان ويتفقان ولكنه كان دائماً ما ينتهي بتنبيه من الأب بالا يفتح مثل هذه المواضيع التي يتحدثان بها مع أحد خارج البيت."عدنان" يشبه أباه في الكثير من ملامحه لكنه لا يشبهه أبداً في شخصيته المولعة بالنقاش والجدل بموضوعات كانت دائماً تشد عقله وقلبه ولا يتورع من طرحها على الأب الذي لم يكن يخفي ترحيبه بها، بل ويعترف لها بانه كان يتعلم الكثير من أبنهما الوحيد.**

**في ذلك الحلم رأت ابنها يسأل اباه لماذا ثار "الحسين" وهو لا يملك الا هذا العدد الضئيل من أنصاره ولم يقبل ما قبله أخوه "الحسن" اذ كان حينها قد أنقذ نفسه وعائلته وأصحابه وأيضاً حقن دماء المسلمين ومنع الفتنة المستمرة منذ أكثر من ألف عام. أكلُّ ذلك من أجل السلطة؟ كانت هي دائما تجلس وتستمع بصبر الى المطارحات بين الأب والأبن وتحاول أحيانا ان تساهم بما لديها من ذلك المخزون الذي جمعته من خبراتها المختلفة. لكنها لم تتذكر ان نقاشاً مثل هذا الذي سمعته في الحلم قد جرى فعلاً وحين استيقظت ودت لو انها كانت قد أكملت الحلم واستمعت الى رد زوجها. ودت لو ان أبنها كان قد سِألها هي ذلك السؤال الذي حيره.**

* **هل سمعت بحكاية "المأمون" ابن "هارون الرشيد"؟ سألت بيبي "عدنان".**

**قلب "عدنان" شفتيه كأنه يستغرب السؤال، أو أنه يستفهم عن أي حكاية بالضبط في حين رنت "سلمى" الى جدتها تنتظر ان تعيد رواية حكاية من تلك التي سمعتها منها كثيراً ولكنها فاتت "عدنان" في منفاه.**

* **سأل "المأمون" مرة ندمائه: أتدرون من علمني التشيع؟**

**رغم ان "سلمى" غادرت منذ زمن طويل شغف الطفولة الذي كان يصاحب رواية بيبي لقصص الماضي الا انها توقعت حين سمعت ذلك ان الحكاية جديدة وكأنها سُجلَتْ لتروى في هذا الزمن.**

**- حين انبروا جميعاً قائلين:لا والله ما نعلم قال علمني ذلك "الرشيد". فقالوا: كيف ذلك؟ و"الرشيد" كان يقتل أهل البيت. قال:كان يقتلهم على الملك لأن الملك عقيم.**

**- اتدرون ماذا كان يعنيه "المأمون" بذلك؟، سألت الجدة بينما كان "عدنان" فاغراً فاه في حين ظلت "سلمى" مطرقة رأسها.**

**- ان أعداء أهل البيت يعرفونهم أفضل من اتباعهم.**

**- لا تقلقي، لقد تعلمنا درس المظلومية جيداً. سنستعيد حقوقنا المغتصبة ولدينا فتاوٍ شرعية من المراجع العظام بذلك.**

**لو اراد احد ان يضع منافستو للوضع الجديد لما وجد افضل من هذه العبارات لكي يفتتح بها برنامجه السياسي. شغلت هذه القضية ذهن "سلمى" منذ ان بدأت تراقب انتقال السلطة الى يد تلك الجماعات التي ينتمي اليها "عدنان". تذكرها برواية الاسرائيلي "عاموس عوز" "حكاية عن الحب والظلام" التي حصلت عليها بصدفة عجيبة حين جاء صبي من أبناء الجيران يوما بمجموعة من الكتب باللغة الانكليزية قال أنه وجدها مرمية وسط النفايات قرب مكتب منظمة "الصليب الأحمر الدولي" في نفس الحي الذي يسكنونه. في الكتاب يصف "عوز" كيف كان يتصرف اليهود، أو ما يسميهم السادة الجدد القادمون الى "فلسطين" من الديسابورا، حيث يستولون على كل شيء ويجيرونه الى ملكية خالصة لهم. يصف "عوز" حال اليهود حين حطوا في "القدس" عقب الحرب التي يسميها حرب التأسيس الأولى لـ"إسرائيل" بالقول: "لم يكن يهود القدس يرفعون أقدامهم عن الأرض كثيراً أثناء المشي، فقد كانت الخشية تملأهم بأن أحداً ما غيرهم قد يضع قدمه مكان قدمهم لو رفعوها كثيرا."**

**جاءتها تلك الأفكار حين طلعت الى غرفتها واختلت مع نفسها ومع اللابتوب في تلك الدقائق الأثيرة لنفسها قبل ان تؤي الى فراشها. لم تنقطع "سلمى" عن تدوين مذكراتها خلال الأشهر الماضية بالرغم من التغيير الهائل الذي جرى على حياتها ولربما بسببه أيضاً. حين بدأت بالكتابة كانت ترمي الى ملء ذلك الفراغ القاسي الذي كان يلف حياتها وحين أيقنت ان لا أحد لديها كي تبوح له بمشاعرها أو تلقي عليه بهمومها غير الورق، لكنها شيئاً فشيئاً أدركت أنها أصبحت تكتب لتعيش. اما الآن فهي تكتب عن أيام حافلة بالأحداث التي قلبت حياتها رأساً على عقب. وبسبب كثافة الأحداث وتدافعها فانها تضطر أحياناً كي تكتب رؤس اقلام او خواطر برقية كي لا تنساها وعلى أمل ان ترجع اليها يوماً ما لإستكمالها. تحاول جاهدة ان تربط بين الخيوط التي تنسجها وقائع الأيام المتراكمة وأحداثها المتداخلة وان تجد لنفسها سبيلاً للخروج مما أصبح متاهات تجد نفسها تعيش وسطها دون وعي، او قدرة على النفاذ منها. في الماضي كانت وقائع حياتها رتيبة تمضي في خطى وئيدة داخل جدارن هذا البيت اما الآن فان كل يوم في حياتها هو يوم استثنائي، حافل بالجديد والغريب وبالمفاجئات. أحياناً تتنازعها حالتان احداهما الرغبة في التخلي والشوق الى العودة الى أيام الصفاء والصمت والعزلة تلك، والأخرى هي التريث والرغبة ليس فقط بالتعرف أكثر وأكثر على الحياة الحقيقية التي أصحبت منخرطة بها، وعلى التجربة التي تعيشها، والأهم من كل ذلك هو الحلم بالحرية الذي أصبح يراودها الآن بشكل ملح.**

**فتحت اللاب توب الذي أصبحت تجيد استخدامه بعد اشتراكها في دورة أقامتها الوزارة والذي أصبح بديلاً عن دفتر المذكرات الذي لايزال يننظر ان تبدأ بنقل مدوناتها الى ملف على جهازها الالكتروني. بدأت تنقر على المفاتيح بهدؤ وسجلت أولاً خاطراتها عن منفاستو "عدنان" وحكاية "عاموس عوز" ثم دونت بعد ذلك.**

**"منذ شهور وحياتي ما عادت مواسم من العزلة والقلق والحيرة والترقب التي كانت تتوالى علي بين جدران البيت مثلما كنت أعيشها خارجه قسوة وبؤساً وألماً. أشعر بالحرية ولكني أعي أنها حرية تغيير الأسوار وليست حرية الاختيار والإرادة والتجربة النابعة من داخلي. لكن لا بأس فانا أعي أيضاً أنها لحظات تتطلب اللعب بالخيال الذي أصبح ممكناً بحكم التغيير الحاصل والإثارة ومحاولات الإكتشاف التي تجلبها الأحداث والتطلعات. العالم من حولي انقلب رأسا على عقب وأحداثه اليومية المدوية تتربص بي وتجعلني أكثر حيرة وتوتراً وترقباً. ما كان منتظراً ان يكون ثغرة تشقها الحرب او ما أصبحنا نسميه التغيير في جدران تلك الزنزانة الكبيرة لكي يخرج الناس منها الى النور والحرية أصبح زلزالاً لم تتوقف توابعه ولا ليوم واحد ليضرب بالحجر والشجر وبالبشر. الناس في المدينة أصبحوا يعيشون حالة بلا وضوح، وبلا نتائج، من الصعب وصفها الا بالهياج، على الرغم من ان كثيرين منهم يرونها كما يبدو رغبة مستجدة لإعادة الإكتشاف والتي حلت عليهم كلعنة في الزمن الجديد. الناس الذين اعتادوا سنينا طويلة الحياة في الظلمة واعتبروها معبراً للبقاء والصمود أصبحوا بين عشية وضحاها مجبرين على ممارسة خيالهم المكبوت داخلهم منذ سنوات، او ربما دهور، لكن الكثيرين يمارسونه بشكل أرعن وهستيري، وأحياناً عنيف، أشبه بما تخلفه تلك القنابل التي تنفجر في الشوارع وتترك وراءها كل هذه الجثث والأشلاء والخراب. الإنشطار الحاد بين أنا والآخر أصبح هو الذي يقود اللاوعي الجمعي، هو المنفاخ الذي يقبع داخلهم وينفثون من خلاله كل سموم الغضب والتمرد، وكل ما يعقب ذلك من معاناة وبؤس.**

**في الأيام الأولى ظننت أن الأمر سينتهي سريعاً بعد أن تنتهي الناس من افراغ تلك الشحنات المكبوتة داخلها منذ سنين، أو بعد أن ينهكها اللهاث وراء الإنتقام والثأر والغنيمة. لكن استمرار دوران نواعير الدم وهي تغرف بالأجساد من الشوارع كي تلقي بها في نهر الموت الأبدي الذي يتسع كل يوم يعني ان الجميع استحلى اللعبة واعتادوها وأصبحوا غير قادرين على التخلي عنها. يبدو ان التغيير الذي حصل بعد الغزو أخرج أسؤ ما في دواخل الناس وكشف عن شيء كان مخبؤاً في النفس العراقية ينتظر الخروج من قمقمه. ما يدعونه تغييراً هي كلمة مظللة لا تعكس معناها، هي في الحقيقة عكس ما توحي به من ايجابية وأمل ونظرة الى الأمام. ربما الصحيح تسميته نكوصاً، فما عسى المرء أن يسمي هذه الكتل الكونكريتية التي تعزل أحياء عن بعضها والحواجز النفسية التي أصبحت تفصل الواحد عن الآخر، بل مالذي يمكن نسمي هذه الوحشية التي نضحت فجأة من بين مسامات جلد هذه الكائنات البشرية لكي تلتهم بعضها بعضاً دون رحمة أو شفقة.**

**في أجواء الجنون والحقد والعداء الأعمى المستشرية من الصعب أن تعرف من هو الظالم منهم ومن هو المظلوم. الحدود الفاصلة بين الذنب والبراءة تلاشت وكأنها ذابت في أجواء المخاوف والشكوك والظنون. لو استمرت الأحوال تتردى بهذه الوتيرة فأن الأمر سيكون مدعاة لليأس والقنوط والإستسلام، اما أمام الموت، او أمام هذه الوحوش الضواري نفسها واستبدال جلدها بجلدك. من سينجو في معركة البقاء هذه سيكون بحاجة الى اعادة إكتشاف ذاته عبر هذه المرآة المغطاة بسخام الحرائق وبقع الدم والتي ستظل تسمى وطناً ولكنه سيكون مجبولاً بعدها على المرور بمحطات أخرى هي الأكثر ايلاماً في رحلة العلاج النفسي الجماعي التي سيكون على العراقيين جميعا القيام بها يوما ما.**

**على الجانب الشخصي لا أجد أني بحالة انسجام مع عالمي الجديد رغم كل هذه الحركة والإنبهار الذي يحيط بي، ولربما بسبب ذلك. واذا كانت الحياة تحسب بالحرية والأمل فاني بطبيعة الحال أعيش حياتي بشكل ما، لكني بالتأكيد أشعر باني احيا في حصار من نوع آخر غير ذلك الذي عشته سنين طويلة. يومها كان الإحساس بالخطر ينبع من الإحتمالات الكثيرة التي تنفتح كلها على المجهول وتدفعني مثل أي سجين على اللعب بالخيال من أجل البحث عن مخرج من بين القضبان. اما الآن فاني أقضي وقتي مثل الآخرين في النهارات مشدوهة الى ما يجري من حولي واكتفي بالدهشة البلهاء محاولة الا أسمح لنفسي بالإنجراف وبإنتظار شيء ما، ربما معجزة، تنتشلني من حالة الخوف من الزوال المرعب. يراودني أحياناً الشعور بالذنب بأني ربما كنت متواطئة أيضاً في ما يحصل. أشعر بالذنب حين أرى ان البعض ممن حولي الذين أصبح بيدهم الأمر يصر على الإنفراد بلعب دور الضحية بإستمرار ويمنحون لأنفسهم قدسية بانهم ما داموا قد عانوا في الماضي فأن من حقهم ان يُعطوا امتيازاً وإعفاءً خاصاً كي يقوموا بكل ما يريدون. وبين هؤلاء الذين يرفضون النسيان او الصفح والغفران وبين أولئك الذين يأبون ان يبدوا ندماً حقيقياً، بل ويستمرون في الإيغال في الجريمة فأن الأمر لا يبدو سوى اعادة إنتاج للمحنة الأزلية، في حين يظل نفس السؤال يتردد من هو الظالم ومن هو المظلوم.**

**الذهول ازاء فداحة الشر الذي يجري من حولي يأخذ شيئا فشيئا بالتحول الى الإحباط، ولربما أيضاً الى نوع من الإستسلام، ليس بمعنى تغير جلدي والإنخراط بقواعد اللعبة القميئة، بل الإنسحاب المنظم وتفادي الهبوط في هذا الجحيم. ما ينجيبني من هذا المصير هو عملي، ليس المكان والمحيط، فكلاهما ليسا أقل رداءة من الخارج، وكل ما يحصل هناك هو انعكاس لما يجري خارجه، ولكني قررت ان تلك هي الوسيلة الوحيدة التي بيدي الآن لا لكي أتحرر من هذا الجنون فقط ولكن أيضاً لأعرف العالم الذي عرفته فقط من خلال القراءة بشكل أفضل وأقرب. أنهمك الآن في العمل وفي التدريب وفي تعلم اللغة الفرنسية التي طالما تمنيت اجادتها كي أقرأ بها وأنهل من معارفها مباشرة.مستقبل العمل في الحقل الدبلوماسي يوحي لي بفكرة البعد وفرصة الخروج والتحرر الحقيقي وقررت منذ اللحظة الأولى ان يكوني عملي هذا محطة تأخذني بعدها الى محطات أحلم بان أكسر بها اغترابي ووحدتي."**

**\*\*\***

**2/1**

**يقضي الحكماني جُلَّ وقتِه في مزرعة نائية وسط مزارع "اليوسفية" والتي يتخذها منذ أشهر مأوى له ومقراً لقيادة احدى المجموعات المسلحة التي تشكلت لمقاومة القوات الأمريكية والحكومة الجديدة التي نصبوها بعد الغزو. المزرعة التي يحيطها سياج "بي. ار. سي." مشبك تغطي العديد من أجزائه أشجار حمضيات من البرتقال والليمون والرارنج زرعت تحت ظلال خطوط منتظمة من أشجار النخيل الباسقة والتي تحميها من أشعة شمس الصيف اللاهبة وزمهرير الشتاء. في أرجاء المزرعة الواسعة تنتشر ألواح زرعت بالبطاطس والخيار والطماطة والبصل في حين حرثت ألواح غيرها إستعداداً لزراعة محاصيل أخرى. اختاروا هذه المزرعة التي يمتلكها أحد زعماء العشائر في المنطقة بعد ان قرروا ان لموقعها مواصفات استراتيجية عديدة تؤهلها كي تكون مقراً رئيسيا لقيادة عمليات المقاومة في منطقة واسعة تمتد من "بغداد" الى "جسر المسيب" كما انها تسيطر على شبكة الطريق الدولي الممتد غرباً الى "الأنبار" وجنوباً الى مدن الوسط والذي تستخدمه القوات الأمريكية بكثرة.**

**صورة "جسر المسيب" لم تغب عن "الحكماني" طيلة العام الفائت منذ ان تخلى هو وقواته عن واجب الدفاع عنه في تلك الليلة المشؤمة لكي يعبر من فوقه الأمريكان ويصلوا الى "بغداد" وينتهي بذلك كل شيء وتبدأ حلقة جديدة من مسيرة العراق ومن مسلسل حياته. منذ تلك اللحظة يلاحقه احساس يعرفه جيداً هو مزيج من الذنب، والعار، بأنه مسؤول شخصيا عن سقوط "بغداد" تحت نير الاحتلال وذله لأسباب اختلطت عليه؛ بينها هروبه وتركه لواجبه تلك الليلة، او بسبب عدم تفجيره للجسر بغض النظر عن أوامر القيادة بتركه سالما والتي لا يزال عاجزاً عن فهمها. دائماً ما كان يردد بأن المسؤول الحقيقي عن تلك النكبة هي تلك القيادة الغبية التي ادارت دفة الحرب، بل دفة البلد برمته، بغرور وحماقة وجبن. كانت خيانة البعض من القادة ايضاً سببا في تلك الهزيمة، وهو ما جعله حتى اليوم يضع هدف الكشف عن أولئك الخونة ومحاسبتهم من بين الأهداف الأولى لعمل المقاومة.**

**لم ينتظر "الحكماني" طويلاً للشروع في العمل بعد عجزه أن يجد سلاما لنفسه او تبريراً مقنعا لما حدث. كان عليه أن يبدء أولاً بالحفنة الصغيرة من الضباط والعسكريين الذين التفوا حوله في منطقتهم ثم بدؤا بعد ذلك الإتصال بآخرين يعرفونهم كانوا بدؤا المقاومة في مناطق آخرى. كان الكثير من العمل والمتطلبات لإطلاق الشرارة الأولى سهل الإنجاز.حل الجيش والأجهزة الأمنية وفر لهم دون عناء المزيد من الضباط الذين أصبحوا بلا عمل وبلا مورد مالي. كانت هناك كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر التي خلفها الجيش في معسكراته أصبحت الآن تحت سيطرتهم وتم تأمينها من قبل الأهالي في مخابئ فوق وتحت الأرض في البساتين والمزارع المنتشرة في محافظاتهم. الأهم من كل ذلك كان هناك الغضب الذي ملأ الصدور حيث بدل الكلام واجترار القصص عما جرى كان الناس في مناطقهم على استعداد ان يفعلوا اي شيء كي يشفوا غليلهم. كانت اعداد كبيرة من أعضاء الحزب الحاكم ومن غير الحزبيين مدربين على استخدام الأسلحة ولديهم خبرات قتالية من خلال مشاركتهم في "الجيش الشعبي" وفي "جيش القدس" ويشعرون كأنما تم تهيأتهم لمثل هذا اليوم. لم يتأخر "الحكماني" كثيراً ففي اليوم التالي لإلقاء الرئيس "جورج بوش" خطاب الإنتصار من فوق سطح حاملة الطائرات "أبراهام لنيكلن" بعد ثلاثة أسابيع من سقوط "بغداد" وأمام منصة حملت لوحة "المهمة أنجزت"، قرر "الحكماني" ان يقوم بأول عملية ضد القوات الأمريكية وسط "بغداد" ايذانا بالإعلان عن انطلاق المقاومة.**

**خلال فترة وجيزة شيد الرفاق عدة مخازن كبيرة مسقفة داخل المزرعة، كما بنوا حقلاً لتربية الدواجن وحوضاً لتربية الأسماك. كانت كل تلك الأبنية جزءاً من عمليات التمويه للأنفاق والأقبية التي بنوها تحتها لكي يستخدموها لتخزين الأسلحة والمتفجرات وكممرات سرية للخروج والدخول بعيداً عن مراقبة الطائرات أو الأقمار الصناعية الأمريكية ولكي يبعدوا أية شبهات عن عيون الدوريات الأمريكية التي كثيراً ما تسير في المنطقة. كما واظبوا على زراعة المحاصيل المختلفة وتنظيم عمليات بيعها يومياً اما في سوق الجملة في "ناحية الرشيد" القريبة منهم أو في منافذ أقاموها يديرها رفاق في "بغداد" ومدن أخرى. ومثلما توفر المزرعة غطاءً لنشاطهم ومورداً مالياً جيداً فان السيارات التي كانت تنقل الخضار كانت تنقل ايضاً المتفجرات والأسلحة بعد إخفائها جيداً تحت أقفاص الفاكهة او أكياس الخضار المحمولة فوقها.**

**بعد ان شارك الرفاق في عملية جني البصل لبعض الوقت صباح اليوم جلس "الحكماني" يتناول افطاره لوحده كعادته منذ ان أصبح قائداً للعمليات في هذا القاطع وأصبحت المزرعة قاعدة له ولعملياته. اختلاؤه بنفسه هناك يتيح له فسحة أخذ مجموعة الأدوية التي يتناولها صباحا دون تطفل من الآخرين. احد الرفاق الأطباء حذره بانه حياته في خطر دون الالتزام بمواعيد تلك الأدوية اللعينة بعد ان تفاقمت اعراض السكري وامراض مزمنة أخرى. رفاقه تعودوا أيضاً على ذلك الطقس اليومي لـ"الحكماني" حيث ينعزل في تلك البقعة تحت عريشة العنب الى جنب الساقية التي تحمل المياه الى المزرعة من جدول "اليوسفية" الآتي من نهر "الفرات". لا يتجرأ احد على خرق تلك الخلوة التي سماها البعض منهم "البرج" اذ بدت لهم وكأنها المكان والوقت الذي يخصصه "الحكماني" للتفكير والتدبير والتخطيط لمجمل النشاط اليومي للخلايا المسؤول عنها في المقاومة قبل أن يبدأ بتوزيع المهمات والواجبات. حين ينتهي من افطاره ويصبح كل شيء جاهزاً في ذهنه ينزل الى صالة صغيرة اخفيت تحت ارضية احد المخازن وتستخدم كقاعة للإجتماعات. هناك يجد مساعديه بإنتظاره يصدر لهم التكليفات مع أوامر واضحة ودقيقة لكل مجموعة بالتنفيذ. كل الأفكار والخطط والأوامر مختمرة في رأسه عندما يبدأ يوم عمله وتأتي بشكل سلسل ومتسلسل وكأنه راجعها مرات عديدة خلال الخلوة الصباحية تلك. جميع التعليمات والتبليغات تجري شفاها واذا تم تداول ورق أو خرائط لضرورة ما فالأوامر التي يعطيها كانت واضحة بضرورة حرقها بعد قرائتها مباشرة.**

**غير أن ما كان يشغل بال "الحكماني" في خلوته هذا الصباح شيئين ينتظر أن يسمع الأخبار بشأنهما على أحر من الجمر. الأول هو عودة المجموعة التي كلفها بعملية وصفها بالقاصمة والثاني هو وصول مندوب يتوقع منه أنباء عن مهمة يخطط لها منذ زمن. الشمس أعتلت السماء ومن ناحية بستان النخيل كانت أشعتها تتخلل السعفات العالية وأغصان الأشجار التي تحتها والتي تحركها ريح خفيفة فتخلق تموجات فضية تسبح على الأرض الترابية والسواقي الممتدة فوقها. بالقرب من السياج المحاذي للشارع امتدت حبال غسيل يحرص ان تعلق عليها ملابس كل يوم كجزء من عملية التمويه والخداع التي أمر بها. انتبه الى ان الحبال تخلوا من ملابس نسائية او ملابس أطفال وقرر ان يأمر اليوم بمعالجة ذلك خشية من ان يثير ذلك شكوك الدوريات الأمريكية التي تجوب المنطقة.**

**لم يمض وقت طويل في تأملاته حتى قطعها عليه احد مساعديه ليخبره بوصول مندوب من قاطع المقاومة في "صلاح الدين" فطلب حضوره وسأله فوراً عما اذا كان يحمل أخباراً جيدة. الرجل الذي يرتدي دشادشة بنية اللون وغترة لفها من تحت العقال وراء عنقه أخبره بانه بانه ضابط استخبارات سابق ومسؤول حاليا في قاطع عمليات المقاومة في "تكريت". بدون مقدمات كثيرة راح يدلي بما في جعبته من معلومات كان قد طلبها "الحكماني" وجمعتها المقاومة هناك.**

* **المقدم "خطاب الحسيب"، ايها الرفيق، خائن مشخص بشكل جيد من قبل الحزب ومن قبل المقاومة ولدينا ملف كامل عنه.**

**بدأ المندوب كلامه عن المساعد السابق لـ"الحكماني" وكأنه يقرأ من ملف حفظ محتوياته عن ظهر قلب. قدم ملخصاً لما قام به "الحسيب" منذ فراره من موقعه في الحرب حتى اتصاله بالأمريكان وضمه للجيش الجديد الذي يعمل فيه الآن أمراً لأحد الأفواج التي تم بناؤها بعد الغزو. لم يعد "الحكماني" يصغي لبقية التفاصيل التي رواها المندوب بعد ان نطق بكلمة خائن والتي ظلت تتردد في أذانه مثل صدى في الفراغ.**

**- هل لديكم طريقة للوصول اليه؟**

**- في الحقيقة هو يتودد الينا عن طريق بعض أقاربه كما أنه عرض أن يتعاون معنا لكننا نعتقد انه محتال يحاول اللعب على الحبلين وقرارنا انه خائن مرتد.**

**- أريدكم ان تأتوا به الى هنا بأسرع وقت ممكن دون لفت الإنتباه. بيننا وبينه حساب طويل وقيادة المقاومة هي التي ستقرر مصيره.، قاطع "الحكماني" المندوب الذي وعده بأنه سينقل ذلك لفرع تنظيمه. قبل ان يغادر تردد المندوب قليلاً ثم حدق بوجه "الحكماني" بنظرة حائرة.**

**- "الحسيب" كما تعلم من عشيرة السيد الرئيس القائد وهو اذا كان خائنا فذلك لا يعني ان كل أفراد القبيلة وأبناء المنطقة وانا منهم من صنفه.**

**- لا تقلقوا بشأن ذلك، السيد الرئيس القائد قدوتنا ومعلمنا، هل ننسى كيف عاقب أولاد عمه وأزواج بناته وهو أقرب مساعديه؟، كان جواب "الحكماني" قاطعاً.**

**لم يخب ظنه بما سمعه من المندوب فهو أكد له ما كانت تجوس به ضنونه. منذ تلك الليلة اللعينة في الجحر الرطب والبارد والمظلم الذي التقى به آخر مرة على حافة نهر الفرات في "المسيب" و"الحكماني" لا تفارقه أبداً تلك القشعريرة التي سرت في جسده حين يتذكر "الحسيب". كثيرون من كبار الضباط والمسؤولين تعاونوا مع الإحتلال وارتموا في حضن العدو وهو أخذ على عاتقه تصفية من لا يعتذر او من لا يوافق على التعاون مع المقاومة حتى دون العودة الى قياداته، كات يعتبر ذلك تحصيل حاصل. هو بنفسه أشرف على عملية اغتيال المرتدة "عقيلة الهاشمي"، قبل أسابيع ووجه الفريق الذي قام بالعملية ان يفرغوا كل رصاصاتهم في صدرها قبل ان يغادروا المكان أمام بيتها في "حي الجهاد". عقيلة كانت رافضية ومجرد مترجمة وموظفة ارتضت الخيانة، الا انه أراد ان يوجه من خلال قتلها رسالة على قدرته الى الوصول لكل المرتدين. لكن "الحسيب" هو شيء آخر تماما ليس الخيانة والغدر، فهو قد يعتذر وحتى ان يعرض التعاون مثلما ذكر المندوب، لكن تصفيته هو محو لكل ما جرى في ذلك الجحر في الميدان تلك الليلة، هي فرصته ان ينتصر على كل العيون والهمسات التي لاحقت ماضيه. لن يكون بحاجة الى اذن من أحد كي يقطع دابره لكن عليه التفكير بالأمر ملياً حتى يجد الطريقة المناسبة للتخلص من هذا الهاجس الذي يشتعل بداخله لكن دون اثارة وضجيج.**

**ما أن غادر المندوب حتى دخل على "الحكماني" أحد مساعديه والذي كان ينتظر بعيداً شاغلاً نفسه بسقي الزرع وليبلغه بعودة المجموعة القتالية التي كانت تنفذ عملية سماها قاصمة تستهدف ضرب رتل عسكري أمريكي في منطقة "الكرادة الشرقية" وسط بغداد. هو الذي خطط للعملية جيداً بعد دراسة عميقة ومراقبة استمرت أياما عن الرتل الأمريكي الذي ينزل كل صباح من معسكره في "شارع المسبح" ليقوم بدورية في المناطق المجاورة قبل العودة الى قاعدته. توجيهاته لأفراد الفريق عند التكليف كانت دقيقة وصارمة:"نريد عملية مدوية تهز "بغداد" كلها." ثم اضاف كمن لا يريد ان ينسى شيئأ: عليكم قتل أكبر عدد من أفراد الدورية.**

* **كان الصيد أوفر مما توقعنا. الشبكة ظفرت هذه المرة بدورية كاملة"، قال "رياض" مسؤول المجموعة بحماس ثم راح يدلي بتفاصيل أكثر.**

**يبلغه المسؤول بأنهم التزموا حرفياً بتعلمياته التي وجهها لهم وفاجؤهم بالمكان والزمان. يخبره انهم احرقوا سيارة هامر من بين ثلاثة كانت في الدورية ثم صبوا قنابلهم اليدوية على بقية الأفراد ولابد انهم قتلوا عددا كبيراً منهم. انزعج "الحكماني" انهم لم يصورا الهجوم كما طلب منهم كي يبثوه مع البيان الذي سيصدر عن العملية بسبب المقاومة الشديدة كما أخبره المسؤول. لكنه مع ذلك شعر بنشوة كبيرة بما سمعه فالعملية هي الأولى التي يقومون بها وسط حي كانوا يعتبرونه ساقطاً بيد العدو وشعر بان ما يقومون به بدأ يأتي ثماره. في الأيام الماضية كان رجاله يهاجمون دوريات وقوافل الأمريكان على الطرق الرئيسية في "اليوسفية" والمناطق المجاورة لكنه صمم أن ينقلوا المعركة الى داخل "بغداد" لكي يكون لها أثر مباشر بالإضافة الى الصدى الإعلامي المتوقع.**

* **لو كان لدي عشر مجموعات مثلكم لتغيرت كل المعادلة، قال "الحكماني" بقناعة شديدة في حين كانت ابصاره ترنوا نحو ارجاء المزرعة وما بعدها.**

**- أربع أو خمس عمليات من هذا النوع وستكون أمريكا وعملائها قد عادوا من حيث أتوا، قال "مثنى" العضو الحزبي الكبير الذي نسق عمل المجموعة التي نفذت العملية مع خلايا التنظيم النائمة في "الكرادة الشرقية" والتي أعاد بناءها.**

**- هل قتل او جرح أحد من المارة؟، سأل "الحكماني".**

**- بالتأكيد، فقد سمعنا صراخاً وعويلاً ونداءات رافضية، لكن أغلبهم قتل برصاص الأمريكان، أجاب "رياض".**

**تهلل وجه "الحكماني" بإبتسامة دون ان يعلق. لكن متى لم يكن الموت عنده عادة. عادة يمارسها منذ أكثر من ثلاثة عقود. هو متأكد انه ستكون هناك جثث أكثر من تلك التي كانت تتراكم أمام ناظريه في كل المعارك التي خاضها في حياته لكن الفرق هذه المرة انها ستكون في الشوارع وليس في خنادق وميادين الحروب. الموت ايضاً لعبة لها قوانينها الخاصة كما فيها الرابح والخاسر، أما ضحايها فهم على أرض الواقع أدواتها تماما مثل أحجار الشطرنج يسقطون واحداً تلو الآخر بانتظار موت الملك حيث يعاد رميهم في الصندوق ذاته. سيموت كثيرون في هذه اللعبة لكن ما يهم في النهاية ليس كم او من، بل الفوز اما كيف فهو ما جند له "الحكماني" نفسه.**

**حين اكتمل وصول المجموعة التي تحضر دورة خاصة يتولى تدريبها لكوادر وقيادات محلية للمقاومة انتقل "الحكماني" الى قاعة محاضرات بنيت أيضاً تحت حقل دواجن أخفي مدخله بطريقة يصعب اكتشافها.حرص منذ بدأ العمل هنا على شيئين كانا بالنسبة له أساسيين، التنظم والإنضباط، أي أن يجري كل شيء وفق سياقات عسكرية محددة يفهمها ويلتزم بها الجميع. الضباط الذين يعملون معه كانوا يدركون أهمية ذلك وهم تعودوا على نظام السمع والطاعة اثناء عملهم في الجيش لكن كان على الرفاق المدنيين ان يتأقلموا مع ظروف العمل والمكان كي يتعلموا كما قال لهم في الدرس الأول الإنضباط والإلتزام الأعمى بالتعليمات التي تصدر كما يدركوا الا أخطاء مسموح بها في التنفيذ. كان كل شيء يوحي بأنهم في مدرسة عسكرية عدا شيء واحد هو ان جميعهم كانوا يرتدون الدشاديش للتمويه بطبيعة الحال باعتبارهم فلاحين يعملون في المزرعة. المحاضرة الثانية التي ألقاها عليهم كانت عن "الغش والإختباء" كأسلوب من أساليب الخداع سواء مع العدو عند تنفيذ العمليات، او في تفادي ملاحقتهم والقبض عليهم.**

**المجموعة الحالية مجموعة خاصة سيتولى أفرادها مسؤولية قيادة الخلايا في المقاومة لذلك فقد أعد لهم برنامج تدريب عمليً على السلاح والمتفجرات والكمائن وغير ذلك من المهمات التكتكية انجزوه منذ يومين. ثم برنامج نظري متقدم على العمليات الخاصة في المقاومة وحرب المدن يبدأه معهم اليوم. وسط الجدار الذي يقف أمامه كانت هناك سبورة بيضاء أنيقة تصرف بعض الرفاق بجلبها من بناية مدرسة في منطقة "الدورة" المجاورة.الى اليسار تبرز لوحة كتبت بخط أنيق تحمل قولاً للمفكر الإستراتيجي الصيني "سن تسو: "اذا كان عدوك يستريح فلا تدعه يستكين، باغته وهاجمه من حيث لا يتوقع". أمامه مكتب خشبي صغير ثم طاولة بيضوية كبيرة اصطفت وراءها كراسي معدنية بلون رمادي غامق نقلت من مخلفات قاعة "نادي الآشوريين" في الدورة أيضاً. فوق المكتب تناثرت أوراق وملفات وكراسات حربية مما كانوا يدرسونها في المعاهد العسكرية. على جانب منها اصطفت كراسات عن الحرب الشعبية من بينها كراسة "حول حرب العصابات" لـ"ماوتسي تونغ" وكراس "حرب الشعب، جيش الشعب" للجنرال الفيتنامي "جياب" وكراسة "حرب الأنصار" لـ"تشي جيفارا" وكتاب "مكافحة حرب العصابات، النظرية والتطبيق" لـ"ديفيد غالالو".**

**كانت هذه وغيرها من أدبيات حرب العصابات المعروفة قد أصبحت جزءاً من المراجع التي يعود اليها لإعداد خلاصات مبسطة يلقيها كمحاضرات قصيرة على أفراد خلايا المقاومة الذين بدؤا يفدون بأعداد كبيرة للإنظمام الى التنظيم. راودته الفكرة قبل أيام ان يحتفظ بكل ما يعده من أوراق لهذه المحاضرات وان يضع سجلاً للعمليات التي ينفذونها ويكلف أحدهم كي يعدها كراساً، او كتاباً عن هذه التجربة التي يخوضونها. أختار فريقاً من مساعديه وقال لهم: "ادرسوا الموضوع جيداً وخاصة من الناحية الأمنية، سيكون لنا تجربة في هذا النوع من الحروب اللانظامية، ربما أهم مما قدمه الصينيون والفيتناميون وسنقدمها للعالم."**

**اختار "الحكماني" لمحاضرة اليوم عنوان "مبادئ حرب العصابات". دون ذلك على السبورة بقلم أحمر وبخط عريض تماما مثلما شاهدها في الصورة المرفقة باحدى الكراسات. بدأ محاضرته بتعريف عام لحرب العصابات اقتبسه من احدى الكراسات التي كانت فوق مكتبه وخطه بحروف أصغر وبلون أسود على السبورة: "مقاومة مسلحة منظمة طويلة المدى هدفها اضعاف هيمنة العدو الذي هو حكومة وشرعيتها او محتل أجنبي او اي سلطة سياسية أخرى وفي نفس الوقت زيادة سيطرة المقاومة على الأرض." زاد من عنده أثناء الشرح بان المقاومة هي حرب غير متماثلة، وشرح ذلك أي أنها غير متكافئة، مع جيش محترف يفوقهم مرات لا حصر لها بالعدة والعدد مما يستدعي وضع استراتيجيات وتكتيكات ملائمة خاصة بالمقاومة التي يخوضونها.**

**تحدث لهم عن "أربعة تكتيكات تستخدم في حرب العصابات. خطها ايضاً في الجانب الآخر من السبورة باللون الأزرق: "الاستفزاز لدفع السلطة للقيام بشئ ما لا تود القيام به، التحرش او الإحتكاك بهدف إثارة الرعب في صفوف العدو وكذلك الناس الذين يتعاملون معه، الحماية، ورابعاً واخيراً انهاك العدو". راح يشرح كل فقرة من تلك الفقرات على حدة مستعينا بمخططات ووسائل توضيحية هيئها لأنه كان حريصاً ان تبدو المحاضرة وكأنها درس من دروس العلوم العسكرية التي تلقى على الضباط في كلية الأركان والقيادة.**

**- لكن الرعب يجب ان يأتي أولاً، شدد "الحكماني"، قبل ان يسترسل بحماس ظاهر.**

**- لابد من ان نجعلهم في حالة رعب دائمة. يقلقون في كل مكان يتواجدون فيه. في حربنا هذه يجب الا نرتبك او نتشت بمعادلات القوة وضرورات الموائمة والعقلاني وغير العقلاني والخير والشر وغير ذلك من أمور يتحدث بها العامة.**

**أخذه الحماس أكثر وسط انظار بعض المشاركين الذين بدا لهم ان "الحكماني" يخطب وليس يحاضر.**

* **يجب علينا ان نزرع الخوف في نفوس جنودهم. ذلك ما سيجبر الأمريكان على الإنسحاب وكلما اثرنا رهبة أكبر في نفوسهم سنعجل بموعد مغادرتهم. لو استطعنا أخذ بعض جنودهم أسرى وسلخنا جلودهم وعلقنا جثثهم فوق الأعمدة فسيبدؤون بالمغادرة فورا.**

**في نهاية المحاضرة سأل "الحكماني" ان كان هناك من لديه أية استفسارات.**

**- الأمريكان أيضاً يلجؤون للعنف المفرط معنا منذ أول يوم، بل هم سموا الغزو بعملية الصدمة والرعب، تدخل "مازن الوزان" حتى قبل ان يستأذن للسؤال، بل حتى قبل أن يتاح له الوقت الكافي لينظم في رأسه الفكرة التي طرأت على ذهنه.**

**- زرع الخوف في قلب العدو تكتيك امريكي معروف بدأوه منذ حروبهم الأولى مع الهنود الحمر واستمر حتى فيتنام. كانت الوحشية هي الطريقة الأسهل والأضمن لهم لأرهاب أعدائهم، لكن يبدو لي اننا نستخدم العنف هنا كاستراتيجية وليسا تكتيكا، أكمل "الوزان"، المستشار السياسي السابق في سفارة النظام في واشنطن والكادر المتقدم في الحزب.**

**طيلة المحاضرة كان "الوزان" يصغى بإهتمام بالغ الى كل كلمة تفوه بها "الحكماني" في حين ان ذهنه ذهب بعيداً الى الأفكار التي تراوده منذ اسابيع. ما تفوه به "الحكماني" يعزز من رأيه ان الوقت قد حان كي ينخرطوا في مسار آخر غير المقاومة المسلحة ومن ذلك امكانية التفاوض مع الأمريكان لايجاد حل سياسي ما. يعلم ان هناك من الرفاق من فتح بشكل شخصي قنوات مع قوات الاحتلال وان هناك عروضاً أيضاً تم تبادلها بين الطرفين ولكنه يرى ان يكون ذلك هو الموقف الرسمي. المشكلة كما بدت واضحة اليوم أمامه هي نفس المشكلة الأزلية التي اوصلتهم الى هذا الدرك الأسفل وهي هؤلاء الرعيان، الذين زحفوا من بواديهم كي يحولوا البلد كله الى قرية بائسة.**

**اربك "الحكماني" هذا التدخل غير المتوقع من "الوزان" واصابه بشيء من النفور والغضب. هو يستطيع ان يتعامل مع المجموعة مثلما يتعاملون في الجيش بان يتوقع منهم انصياعا أعمى، او كما هي في تقاليد الحزب بمبدأ نفذ ثم ناقش لكنه قرر الا يفعل ذلك وان يتحمل ثرثرتهم لأن اي احتكاك بين الجناحيين العسكري والمدني سيكون بغاية الحساسية في هذه المرحلة. منذ فترة وهو يشم رائحة كلام عن اتصالات بين بعض القيادات المدنية والأمريكان ومحاولات للتوصل الى تسوية سياسية وضمهم الى الحكومة. سرح بتأملاته في المكان ودار حول الوجوه كما وضب الاوراق والكراسات التي انتشرت أمامه بينما كان يحاول ان يستجمع أفكاره. غرق في الصمت لكن عجت في رأسه من جديد أفكار عن الخيانة التي تحيط به من كل مكان وكلام "الوزان" ينسجم مع ما يسمعه من نيات حول المفاوضات مع الاحتلال. لكن تبا لهم هو الآن يقود أهم تنظيمات المقاومة ولن يسمح لأحد ان يحيدها عن الطريق ويزج بها في أفخاخهم الماكرة.**

**عاجله "الوزان" وسط استغراقه وكأنه يتحداه هذه المرة.**

**- عدونا الآخر لا يهزم بالترهيب كما كنا نفعل معهم حين كنا في السلطة. فالمعادلة تغيرت أصبحوا هم الآن في السلطة ونحن خارجها. لا بد أن تكون ردود أفعالنا محسوبة. ففي كل حرب عصابات في التاريخ كان العدو التقليدي هو من يلجأ الى الوحشية والقسوة في حين كانت المقاومة تمارس الصبر الإستراتيجي وتكافح من أجل البقاء كطريقة تهزم عدوها بعد ان ترهقه باللكمات.**

**- ليس لدينا من الوقت الكثير. اذا ترهلنا سيقضون علينا، أجابه "الحكماني" بهدؤ وتأني وهو يهز برأسه الى أعلى وأسفل لكن الطريقة التي لوى فيها شفتيه مع عقد حاجبيه كانتا تشيان بغضب مكتوم.**

**ارتفع صوت أحدهم في القاعة وردد دون استئذان بصوت بدا واثقاً وكأنه يقرأ ما بذهن "الحكماني".**

**- واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم، ذلك ما يأمرنا به القرأن الكريم. لقد وضع الترهيب والعدة والعديد جنبا الى جنب.**

**- ليس الأمريكان فقط هم المرعوبين من المقاومة، بل هؤلاء الرافضة الذين نصبوهم علينا أيضاً. جعلناهم يتغوطون في ملابسهم"، قال ثالث وهو يكمل كلامه بقهقهة عالية.**

**لم يستسغ "الحكماني" كثيراً ان تتحول المحاضرة الى مباراة في جدل مفتوح كل يدلي خلاله بدلوه فذلك بالتأكيد سيربك الانضباط الحديدي الذي يحاول ان يبنيه داخل التنظيم. لكنها فرصة جيدة تمكنه ان يعرف مع من يتعامل. لا بأس أن يرخي لهم حبل الكلام ولو قليلاً فذلك سوف يقوده حتماً الي الكشف عمن هو صلب او من عوده طري، وايضاً من هو خائن. أقسم لنفسه مراراً بان التخاذل الذي جرى أثناء الحرب لن يتكرر في صفوف المقاومة وانه سيقوم بإجتثاث اي عنصر مهزوز او مرتبك مهما يكن. لكن خوفه الأكبر هذه المرة هو أن تشعر الجماعة كلها بالإنكسار لو طال الأمر ويبدأ عندها الشعور بالملل ثم يعقبه الإستسلام للقدر. أمثال "الحسيب" و"الوزان" كثيرون ولو سمح لهم بالبقاء والتمدد وسط الجماعة لأنتهى خيار المقاومة وهو عهد قطعه على نفسه الا يسمح به أبدا. عداد الموت كما أصبح يراه يرتفع في كل يوم وهو لا يأبه كثيراً لو انضم الى جثامين الأمريكان والروافض بضعة جثامين لجبناء وأنهزامين وخونة.**

**\*\*\***

**2/3**

**عند مدخل الشارع الفرعي الممتد من "ساحة الواثق" بإتجاه بناية "المسرح الوطني" اصطف رتل من ثلاث مصفحات هامر الى جانب الرصيف الذي انخلعت حافاته الأسمنتية مثلما تشظت بلاطاته المرصوفة الى قطع صغيرة متناثرة فوق سطح ترابي متعرج. على سطح كل هامر كان هناك جندي يمتطي برجاً ويتحكم بمدفع رشاش فوقه في حين بقي في جوفها ثلة أخرى من الجنود المدججين يربضون بأسلحتهم ومعدات حربية أخرى. كان المساء قد حل مبكراً في ذلك اليوم الخريفي الطري على المدينة التي بدأت تغرق بالظلام بسبب إستمرار توقف شبكة الكهرباء والذي اصبح جزءاً من تفاصيل حياة سكانها اليومية العصيبة الى جانب الفوضى والإنفجارات وساعات منع التجول الليلية منذ ان سقطت بأيدي هؤلاء الجنود الغرباء الذين يهون العبث في أرجائها صباح مساء.**

**بهدوء نزل "إيشو" من المصفحة التي توسطت الرتل ومضى بسرعة ولكن بحذر تحت شجرة اليوكالبتوس التي لا تزال تنتصب بين شجيرات قليلة أخرى تكلكل بأغصانها المتيبسة على ماتبقى من الرصيف الرث الذي يصل بين الساحة وبين محله الذي يقع في البناية التي على ناصيتها مباشرة. أدار الأقفال الأربعة للمغلاق الذي يشد على باب حديدي سميك يغطي واجهة زجاجية تهشمت أجزاء منها ثم دلف وسط الظلام الى مكان يعرفه جيداً وحمل صندوقين كارتونيين وصندوق بلاستيكي بيديه الأثنتين وأقفل خارجاً قبل ان يرمي بهما الى ذراعي أحد جنود الذي كان بانتظاره. وكما يفعل في كل مرة تأكد من احكام كل واحد من الأقفال في الباب الحديدي مجدداً قبل أن يقفز الى نفس الهامر التي نزل منها قبل قليل.**

**- أحسنت يا فتى، أنت هدية الرب لنا في هذه المدينة الملعونة، هتف "ريكاردو" بوجه "إيشو" وهو يلج بسرعة الى داخل قمرة الهامر بعد ان وضع الصناديق الثلاثة فوق بعض على أرضية العربة التي انطلقت مع باقي الرتل بعد الإشارة التي أعطاها "ريكاردو" من خلال جهاز الإتصال المركب في خوذته.**

**- أتمنى الا يكون أحد قد شاهدني، همهم "إيشو" وهو يستدير بعصبية لكي ينظر من خلال نافذة الهامر التي يجلس الى جانبها نحوالأبنية التي تطل على الساحة.**

**- لا تخشى شيئاً، أنت بطلنا، لولاك لما أمكننا تحمل هذا الجحيم، حاول "ريكاردو" ان يهدأ من روع "إيشو" الذي انتقل بانظاره الى النافذة المقابلة لكي يتأكد من ان أحداً من سكان البيوت القريبة لم يلمحه وهو يدخل او يخرج من المحل.**

**حين بدأ "إيشو" العمل كمترجم مع قوات اللواء الأول من الفرقة الثالثة المتمركز في "بغداد" بعد أسابيع من الاحتلال لم يخبر أحداً غير والدته وأختيه اللواتي تكتمن بشدة على مكان عمله الجديد. منذ أكثر من عشر سنوات وهو يدير محل بيع المشروبات الروحية الذي تركه والدهم بعدما نجح في الهجرة الى "أمريكا" بعد ان أقنع السفارة الأمريكية في "الأردن" بأنه هارب من حكم عليه بالاعدام بسبب الإضطهاد الديني. كانت خطة العائلة كما وضعها الأب هي أن يذهب هو أولاً وبعد ان يستقر هناك سوف يرتب لزوجته وأولاده السفر للألتحاق به والإستقرار هناك مثل عديدين من المسيحيين الآشوريين في وطن جديد بعد ان أصبحت الحياة في وطن الأجداد جحيماً لا يطاق. فشلت خطة الأب بعدما أعتقل "إيشو" وقضى عامين في السجن بتهمة تزوير في أختام استخدمها في تصديق وثائق يحتاجها للهجرة كما منع من السفر. توفرت للعائلة فرص عديدة للهروب من خلال جبال المنطقة الشمالية عبر "تركيا" الا ان الأم رفضت بإصرار المغادرة مع بقية أفراد العائلة الا ومعهم ابنها السجين. حين جاءت الحرب وسقط النظام غيرت الأم رأيها وارادت ان يبقي الجميع في "بغداد" وان يطلبوا من الأب العودة. قالت لهم هذه أرض أبائنا وديانتنا ثم جادلت بأن "أمريكا" هي التي جاءت الينا فما الحاجة بعد الآن لكي نذهب اليها. اما "إيشو" فقد سخر من سذاجة الأم ورفض ذلك واعتبر ان الحرب جاءت كحبل نجاة لهم وقرر العمل مع الأمريكان مراهنا ان ذلك سيفتح أمامهم أبواب الهجرة لـ"أمريكا" بسهولة ويسر.**

**بسكين سويسري استله من بين أحد جيبوب اليونيفورم فتح "ريكاردو" احدى الصناديق الكارتونية التي جاء بها "إيشو" من محله وأخذ قنينة من بين قناني العرق التي رصت بإنتظام واحدة جنب الأخرى. رغم هدوئه الظاهر يختزن "ريكاردو" في داخله غضبا هذه الليلة لم يره "إيشو" فيه من قبل. غضبٌ صامتٌ الا أنه يثير قلق "إيشو" الذي أصبح يعرف الآن ماذا تعني المشاعر المتأججة لدى الجنود التي سرعان ما تتحول الى جموح لا يمكنهم أنفسهم السيطرة عليه. ليست هي المرة الأولى التي يراهم يتعجلون في شرب الكحول الذي يزودهم به لكن إصراراهم على الحصول على العرق واندفاع "ريكاردو" الى فتح زجاجة وهم في مهمة قالوا له فقط إنها دقيقة اثار قلقه.**

**أخرج "ريكاردو" زمزميته المعدنية من جعبتها. كانت تبدو شبه فارغة فملأ نحو نصفها بالماء المثلج من البراد الذي يرافقهم في الهامر ثم أكمله بالعرق الذي سكبه فيها من القنينة التي كان يضمها بين فخذيه. خض الزمزمية قليلاً ثم أخذ رشفة صغيرة أولاً ثم جرعة أكبر لسعت بلعومه وكانت كافية كي تجعله يهتف.**

* **أه، انه سم، لكنه سم لذيذ، خذوا يا أولاد العاهرات، اشربوا. أريد ان أرى كيف ستطير عقولكم من رؤسكم هذه الليلة، كما يدعي هؤلاء الأوغاد العراقيون عما يفعله شرابهم الملعون هذا.**

**أخذت الزمزمية تدور بين باقي الجنود داخل مقصورة الهامر التي أخذت تتجه مع باقي عربات الدورية الى شارع ما في نفس الحي كل يأخذ كل منهم جرعة ثم يمصمص شفتيه ويمسحها بظاهر القفاز الذي يرتديه وينقلها بعد ذلك الى زميله الذي يجلس الى جانبه.**

**بقيت عينا "إيشو" مشدودتان الى الشوارع التي بدت مثل شرايين أنطفأ فيها العمر وشلها سكون وظلام مميت. كان مستغرقاً في أفكاره مدركاً ان ليلته هذه ستطول مثل ليالٍ عديدة قضاها مع أفراد من فصائل المارينز قبل التحاقه بالعمل مع هذا اللواء منذ أكثر من شهرين. هاجس ما انفك يرواده منذ أن طلبوا منه أن يرافقهم في هذه الجولة الطارئة بان شيئاً ما كبير سيحدث هذه الليلة. إصرار الجنود العجيب على المجئ الى محله لكي يؤخذوا العرق في هذا الوقت وبدء حفلة الشرب داخل العربة المصفحة يشي باحتمالات لا يدركها بعد ولكنه بدا يخمن ان الأمر يتعلق بمقتل رفيقهم "بوني" يوم أمس.**

**أخرج "إيشو" من جيبه انجيلاً صغيراً أعطاه اياه الأب "صليوا" راعي "كنيسية القديسة شموني" في "حي الآثوريين" في "الدورة" التي تعود الذهاب اليها للصلاة مع أمه وأختيه إسبوعياً. قبله وتمتم بكلمات باللغة السريانية ثم رسم إشارة الصليب.\***

**\*يستخدم العراقيون كلمة اثوري ايضا للاشارة الى الآشورين.**

* **هل صليت لرب الآشوريين كي يحمينا جميعاً، أم أنك مثل رسول "سنحاريب" اقتصرت بدعائك كي ينتصر الآشوريون على يهوذا؟، سأله "سام".\***

**لم يفهم الجنود الآخرون ما لمح به "سام" توا لكنهم يعرفون انه لايستلطف "إيشو" كثيراً لأسباب بدت غير مفهومة لهم كما انهم لم يسعوا لفهمها. تجاهل "إيشو" الكلام الذي بدر من "سام" كما يفعل في كل مرة منذ ان عرف أنه يهودي. حاول مرات عديدة إستفزازه بالتلميح الى السبي البابلي لـ"القدس" كما فعل الآن الا أن "إيشو" فضل ان يتهرب بالتظاهر انه لا يفهم ما يقوله "سام".**

**لم يتخل "إيشو" عن محله الذي كان يمتلكه والده واصبح يديره بعد ذلك هو ووالدته لكنهما لم يعدا يفتحهانه الآن كثيراً بسبب المضايقات التي تتعرض لها محلات بيع الخمور في الفترة الأخيرة. الآن أصبح زبائنه الأساسيون هم هؤلاء الجنود الذين يوصل لهم طلباتهم الى المعسكر من أنواع الخمور المتوفرة وخاصة العرق الذي اصبحوا يطالبون به بكثرة رغم انهم يشتمونه في صباح اليوم التالي بسبب الدوار الثقيل الذي يظلون يشعرون به بعد الإستيقاظ.**

**قرر "إيشو" الإستمرار في عمله رغم المخاطر ورغم الاهانات التي يشعر بها اذ هي فرصته الأكيدة كي يحقق بها حلمه للهجرة الى "أمريكا" والتي رأى انها قد جاءته أخيراً. قرر الا يكرر تجربة جده الذي عمل في معسكرات الجيش الانكليزي أثناء احتلالهم للعراق لكنه احجم عن اللجوء الى "بريطانيا" بعد الجلاء معللاً قراره بالبقاء في أرض آشور. رسمياً كان عمله الجديد يقتضي مرافقة الجنود في دورياتهم وأيضاً في الغارات التي يشنونها على من يشتبه بهم بالمشاركة في الهجمات التي تشن ضدهم للقيام بالترجمة بينهم وبين السكان. لكن بطبيعة الحال فان اية خدمات اضافية كبيع الخمرة**

**\*\*اشارة الى ماورد ذكره في أسفار العهد القديم عن غزوات الملك الآشوري سنحاريب للقدس وتدمير دولة يهوذا.**

**والحشيش ستكون ذات فائدة في تحسين ليس فقط دخله بل علاقته بهم، والأهم من كل ذلك توثيق علاقته بهم لتحقيق هدف حياته بالهجرة الى "أمريكا" التي سيسميها "آشور الجديدة".**

**في المنعطف الذي يؤدي الى بداية "شارع الصناعة" توقف الرتل بشكل مفاجئ. رفع "ريكاردو" الغطاء عن جهاز تحديد المواقع المثبت في العربة وراح يتمعن بخارطة مفصلة ظهرت على شاشته لذلك الحي في المدينة ويقوم بتفحص مواقع محددة أُشر عليها بعلامات حمراء اللون. تبادل رسائل الكترونية سريعة مع مقر السرية بجهاز الإتصال الذي يحمله ثم وضعه جانباً.**

**- نحن قريبون من الهدف ولكن لايزال لدينا الوقت الكافي لكي نتناول المزيد من هذا الشراب الساحر، توجه "ريكاردو" بتلك العبارت الى جنوده وهو يهم بملء الزمزمية بالماء من براد العربة لكي يضيف بعد ذلك كمية من العرق.**

**- صب العرق أولاً ثم أضف اليه نفس الكمية من الماء ولو كان هناك ثلج فسنضع الثلج أخيراً، لقد اخبرتكم قبلاً ان تلك هي الطريقة التي علينا ان نتجرع بها هذا الشراب. لماذا تفعلون العكس دائماً؟، وجه "إيشو" كلامه بطريقة بدا فيها كمعلم حريص على ان يتقن تلاميذه درسه.**

**- هكذا يمكنك ان تتمتع بطعم الزحلاوي وتنتشي كأنك سلطان.**

**لم يبدو "ريكاردو" مبالياً بالإصغاء رغم انه استحسن تشبيهه بسلطان برفع ابهامه فالتقط قنينة العرق وفتح غطاءها ثم وضعها في فمه يرتع منها قبل ان يصرخ كمن لدغته عقرب في معدته. وسط ضحكات باقي الجنود الهستيرية أسرع "إيشو" الى زمزميته ثم افرغ الماء المتبقي فيها في جوف "ريكاردو".**

* **انه أقوى من الأغوارديينتا، يا أولاد العاهرة، صرخ "ريكاردو" بعد ان استرد بعض أنفاسه.\***
* **هيا اشربوا، نريد ان تطير عقولنا هذه اللية، لسنا بحاجة اليها، استطرد بعناد واضح.**

**\* الاغوارديينتا (Aguardiente) نوع من الخمر يدعى أيضاً بماء النار يصنع في "أمريكا الجنوبية" من تخمير قصب السكر او مواد اخرى.**

**دارت الزمزمية من جديد لكن هذه المرة بعد ان عمرها "إيشو" بيديه وبطريقته الخاصة وعاد الى مكانه حيث وقع بصره على واجهات المحلات المعتمة والمغلقة تماماً بأبواب حديدية متينة أغلبها ورش تصليح السيارات ومحلات تبيع الأدوات الإحتياطية أو الكماليات للسيارات التي يعرفها ويعرف أصحابها واحداً واحداً. كيف لا وهو يسكن هذا الحي ويعرفه شارعاً فشارع كما ان معظمهم من زبائنه. جال ببصره وسط قمرة المركبة وتفحص بشكل متأنٍ وجوه الجنود المضغوطة داخل خوذة الرأس التي يرتدونها والتي جهزت الآن بمناظير الرؤية الليلية.**

* **هذا صنف ممتاز جربته في "أفغانستان"، لابد ان بن لادن هو من أرسله الينا، قال "جيف" بعد أن أخذ نفساً عميقاً من سيكارة أخرجها من علبة في سترته أشعلها ثم ناولها للجندي الذي بجانبه.**
* **انت لست منقذنا فقط يا أبن العاهرة، بل أنت منقذ "أمريكا"، قال "جيف" وهو يتوجه الى "إيشو" بعد ان شعر بان الدخان الذي ابتلعه استقر في رئتيه.**

**بدأ العمود الأزرق الكثيف الخارج من السيكارة يتطاير في الهواء ثم أخذ يتغلغل الى رئة "إيشو" أيضاً. راوده احساس بأن الجنود مقبلين على شيء ما لا يفصحون عنه ولكنه أدرك بحسه ان الليلة ستكون طويلة وحافلة.**

**حين وصلت السيكارة الى "ريكاردو" قضم الفلتر باسنانه ثم بصقه على أرضية العربة.**

* **لكي تحسوا بنشوة الحشيش الحقيقية يجب ان يدخل نقياً الى صدوركم، يا أولاد القبحة، لا عبر مصفاة.**

**آخر اشتباك للفصيل جرى يوم أمس في الشارع الرئيسي في "الكرادة الشرقية" ليس بعيداً عن هنا. اشتباك عنيف بدأ بقنبلة مزروعة في صندوق قمامة على جانب الشارع انفجرت في عربة المقدمة ثم تلاها اطلاق نار كثيف من فوق الرصيف على باقي هامرات الدورية. حين تمكن الجنود أخيراً من الخروج من العربات المصفحة بعد وصول طائرات الهيليكوبتر التي وفرت لهم الحماية الجوية كان رصاص بنادقهم يتطاير بشكل عشوائي في كل الإتجاهات. بقي "إيشو" داخل عربته مرتديا سترته الواقية وقناعاً لا يكشف الا عينيه، تلك هي التعليمات فهو لا يتحرك ما لم يأمر بذلك.**

**يبدو ان بعض الجنود الذين كانوا في مقدمة الرتل أصيبوا جراء الإنفجار.لا يعلم كم من الناس صرعتهم تلك الرصاصات الطائشة التي ردوا بها على الهجوم خلال تلك الدقائق القليلة. ومثل كل مرة من سيستطيع ان يميز بين مهاجم مسلح وعابر سبيل جاء به حظه العاثر الى ذلك المكان في تلك اللحظات التعيسة.**

**في الدقائق التالية كانت عربات هامر وهامفي كثيرة وجنود عديدون قد تدفقوا الى المكان الذي فرغ من الناس تماما وحل عليه صمت مميت. ما عاد هناك بشر يمشي في الشارع الذي عادة ما يكتظ بالمتسوقين والمارين في ساعات وسط النهار. حتى أصحاب المحلات ذابوا وسط اطلاق النار تاركين ورائهم أبواب دكاكينهم مشرعة. اي رأس يطل من محل او بالكونة سيكون مصيره رشقات من طلقات رشاشات الجنود المتحفزين. في بداية عمله كان يظن ان مثل تلك المشاهد هي حركات تمثيلية إستعراضية تجري فقط في أفلام "هوليوود"، لكن هؤلاء الجنود أثبتوا له أنهم لا يترددون أبداً في اظهار تفوقهم على الممثلين السينمائيين في مثل هذا الأداء.**

**- الحق يا "ريكي"، هناك مصيبة، يبدو ان "بوني" تعرض لأصابة خطيرة جراء الإنفجار الذي اصاب العربة الأولى في الرتل، سمع "إيشو" صوت الجندية "سالي" المكلفة أيضاً بالإسعافات الأولية في الفصيل وهو يأتي عبر الحاكية الصغيرة المثبتة اعلى قمرة القيادة.**

**- نزيفه شديد ويبدو اننا نفقده، أضافت "سالي" هذه المرة بصوت مرتجف.**

**كان "بوني" ثاني ضحية يسقط من الفصيل منذ بداية الحرب قبل أكثر من سبعة شهور بعد الجندي "اوليندو" الذي قتل في "الناصرية" وهو شيء إسثنائي حصل بسببه جنوده من قائد "لواء الخيالة الأول" على "مدالية الإنجاز في الخدمة المشتركة."**

**طيلة مسيرة الفصيل عائدين الى المعسكر تلبس الجنود الوجوم وأطبق السكون داخل مقصورة الهامر يقطعه بكاء "سالي" ونحيبها. الخوف من هجوم آخر والحزن على "بوني" كانا يختلطان مع غضب يستعر داخل كل فرد فيهم.**

**- لقد فقد "بوني" تعويذته قبل أيام وأصبح يخشى ان مصيره غدا محتماً، قال "فريد"، السائق الذي نادرا ما يفتح فمه.**

**- مالذي تقوله يا سافل، لماذا لم يخبرني أحد بذلك من قبل؟، زأر "ريكاردو".**

**مع بدء المعارك أخبرهم "بوني" بأنه يحمل معه تعويذة اعطتها له أمه عندما علمت أنه ذاهب للحرب. قالت له أنها تعويذة من موطن أجداده في "غانا" تحتفظ بها منذ سنبن. كان يقول لهم أنها تعويذة "الاشانتي" التي لا تخذل صاحبها أبداً لكنهم يردون عليه بضحكاتهم وسخريتهم. قال لهم مرة أنه متأكد أن كل واحد منهم يحمل تعويذته ولكنه يخجل أن يبوح بذلك.\***

**لم يجبه أحد غير "سالي" التي قالت له يكفي أن روح "الاشانتي" التي تحملها ترافقنا.**

* **ألم أقل لكم الا تثقوا بأي أحد ولا تصدقوا تقارير استخباراتكم بان هناك مناطق أو أحياء صديقة لكم هنا. الكل يكرهونكم، الا ترون ذلك بأم أعينكم؟ حتى الأطفال ينظرون اليكم ببغض، قال "إيشو" قاطعاً فضاء الصمت الذي خيم على العربة لكنه سرعان ما أحس بأنه ربما أخطأ حين وجد ان الجنود ينظرون اليه بلا مبالاة. سره انهم أخبروه بان بامكانه الانصراف لبقية اليوم بعد ان عادوا الى القاعدة اذ من يعلم ربما كانوا سيرونه في لحظات الغضب الذي انتابهم بعد مقتل "بوني" عراقياً آخر وليس مجرد مترجم في خدمتهم لاهدف له في هذه المعمعة سوى الحصول على اللجوء الى بلدهم.**

**حين عاد "إيشو" الى "كامب الصقر" مقر اللواء الأمريكي في "معسكر الرشيد" للجيش العراقي المنحل في اليوم التالي كان جنود الفصيل أقل توتراً مما تركهم عليه في اليوم الفائت. حل مكان الحزن والغضب الذي أبدوه أمس شيء رأه غريباً لم يألفه فيهم منذ بدء عمله معهم، شيء جعله يدرك أنهم يتصنعون الهدوء الذي بدوا عليه. أمروه الا يترك القاعدة وهو بدوره تعلم منذ أن بدأ عمله معهم الا يسأل عن شيء او سبب فقضى ساعات النهار وراء احدى شاشات الكومبيوتر وعوالم الانترنيت السحرية المتعددة التي تعرف عليها منذ أن وطأت قدماه هذا المعسكر. حين حل المساء جاءت له اشارة التحرك مع الفصيل وها هو يجلس معهم في الهامر يشاركهم التوتر والترقب الذي خيم على قمرة العربة بإنتظار التحرك نحو**

**\*الأشانتي احدى الجماعات الإثنية الكبيرة في غرب افريقيا والتي تشتهر قبائها باعمال السحر والتعاويذ.**

**هدف ما في الحي لا بد انهم رصدوه. مما زاد من شكوكه بامر جسيم سيحدث هو عدم اصطحابهم للمجندة الجديدة "سالي" في هذه المهمة الليلية الغامضة.**

**حين أكملت سيكارة الحشيش دورتها وعادت الى "راين" وأخذ منها نفساً عميقاً خرج "سام" الذي لم يشاركهم في وليمة الخمرة والمخدرات تلك فجأة عن صمته.**

**- هل تذكرون مشهد مناجاة "العقيد ولتر كيرتز" في نهاية "ابكلبسي ناو" وهو يصرخ "رعب.. رعب.. اذا لم يصبح الرعب صديقاً للإنسان فسيكون هو العدو الذي يخافه"، قال "سام" عن الفلم الشهير الذي ادى "مارلون براندو" دور "كيرتز" فيه قبل مقتله في نهاية الفلم.**

**- صه، ايها اليهودي كل الناس الذين نقابلهم هنا يقولون ان هذه الحرب هي من أجل اليهود. ثم الا يبدو أسم "كيرتز" هذا يهوديا أيضاً؟، زمجر "ريكاردو".**

**لم يكن "سام" مستعداً أن يظهر انه استسلم أمام هيجان رقيبه الذي كان قد تعود عليه رغم ان اي تعليق من هذا النوع يعتبر من معاداة السامية الذي يستوجب عقابا شديدا في الجيش لو بلغ عنه.**

* **أكثر المشاهد رعباً لم تبدؤا برؤيتها بعد، سترونها منذ الأن، قال "سام" بإصرار وكأنه يحدثهم عن رؤيا هذه المرة.**

**وسط فتائل دخان ثاني سيكارة ناولها له أحدهم وكمن يجري حواراً مكتوما مع نفسه بدا "ريكاردو" أكثر هدوءا وهو يرد على "سام" هذه المرة.**

* **انت محق ايها اليهودي "ليس هناك الا الرعب. سنقلب الليلة جحيماً لن ينسوه أبدا. منذ الآن أسم فصيلنا هو فصيل الغضب"، قالها "ريكاردو" وهو ينظر الى شاشة جهاز الإتصال التي بدأت تظهر عليها رسالة الكترونية تمعن فيها جيداً قبل أن يصدر الأمر لجنوده بالإستعداد، وانتظار الأوامر.**

**بعد نحو ربع ساعة جاءهم الأمر فنظر "ريكاردو" الى شاشة جهاز التعقب وربت على ظهر سائق العربة "فريد" وأعطى اشارة التحرك للعربتين الآخريين.**

**عند نهاية "شارع الصناعة" توقف الرتل لبرهة ثم انعطف الى اليسار في شارع فرعي يؤدي الى "طريق محمد القاسم السريع". هناك ظهرت عربات هامر عديدة أخرى كانت مهمة الجنود فيها اغلاق الشوارع بوجه اي محاولة للهرب من أفراد المجموعة التي جاؤا كي يتعاملوا معها أو مجيء اسناد لهم. على جانبي الشارع الضيق اصطفت بيوت غارقة في ظلام دامس الا من بصيص أنوار فوانيس أو شمعات شاحبة كانت تأتي من خلف شبابيك مشرعة لم تسدل ستائرها، ربما كي تسمح لنسائم الخريف الطرية بالدخول. نزل جنود كثيرون يحملون رشاشاتهم وأخذوا مواقع قتالية خلف جدران البيوت تحسباً لأي هجوم عليهم في حين قفز "ريكاردو" ومجموعته من العربة بإتجاه البيت الذي توقفوا عند بوابته تماماً كما اشرت الشاشة في جهاز التعقب في العربة.**

**يعرف "إيشو" ما عليه أن يفعله في مثل هذا الموقف فقد قام بذلك عشرات المرات خلال الأشهر الماضية. وضع قناعه على وجهه وحمل مكبر الصوت بيده وأنتظار الإشارة من "ريكاردو" الذي وزع الآن قواته حول البيت الذي اختفى وراء سياج من الأحجار والأسمنت والأشجار. لم تأتي الإشارة لـ"إيشو" لتوجيه الإنذار لساكني البيت ودعوتهم للخروج كما يُطلب منه أن يفعل كل مرة وبدلاً من ذلك نظر "ريكاردو" لجنوده ثم صرخ بهم.**

* **هيا يا رفاق ليبدأ العرض.**

**تسلق بعض الجنود بخفة السياج في حين بدأ آخرون بضرب الباب بمطرقة حديدية كبيرة سرعان ما فتحت على مصراعيها وتدفقوا عبر الفناء الأمامي نحو البيت حيث بدء بعدها العرض الذي أمرهم به "ريكاردو". في البداية دوت أصوات قنبلتين يدويتين او ثلاث ثم لعلع رصاص كثير وبعدها تعالت الأصوات ثم اختلطت بلعنات الجنود وسبابهم وبعويل نساء واطفال من داخل البيت شقت سكون الليل والظلام الى الشارع ثم دوت في أرجاء الحي كله.**

* **هل هناك أرهابيون غير هؤلاء في هذا البيت؟، سأل "ريكاردو" امرأة كانت تنقل نظرها بذهول ورعب الى ثلاثة من رجال بيتها سقطوا وسط بركة من الدماء بدأت تكبر سريعاً على أرضية الصالة وطلب من "إيشو" ان يترجم لها سؤاله.**

**عويل امرأتين أخريتين وعدد من الأطفال بدأ يتصاعد.**

* **قل لهاتين العاهرتين ان تأخذا الأطفال الى غرفة ثانية وتظلان هناك، رعد "ريكاردو" وهو يؤشر بيده اليسرى في حين ظلت اليمين تمسك بالرشاش أم -16 أي 4 المرعبة موجهة نحو المرأة الأكبر سناً والتي لم تزل تتنقل بنظراتها بين أجساد الرجال المتوجعين و"ريكاردو" و"إيشو" الذي يخاطبها بكلمات عراقية من خلال القناع الذي يكسو وجهه لكنها غير قادرة على فهم ما يقول.**

**بإشارة من يد "ريكاردو" اندفع باقي الجنود الى داخل البيت يفتشون جوانبه المختلفة عن الإرهابين الذين يبحثون عنهم. أصوات طلقات سريعة انطلقت من مكان ما في البيت ثم تلا ذلك صراخ وبكاء ثم المزيد من رائحة الرصاص تطاير في الجو.**

**بعد أن تلوت قليلاً جمدت الأجساد الثلاثة في مكانها وسط بركة الدم دون أي حراك. أحدها كان لشاب ربما لم يبلغ العشرين من عمره ظلت عيناه مفتحتين تتجهان الى ناحية الرجل الكبير الذي ربما كان أباه وقد أصبح الأثنان جثتين هامدتين. عينا المرأة اللتان التي بقيت مشلولة عن الحركة والكلام كأنها شجرة ضربتها صاعقة قوية لاتزالان تحدقان في عيني "إيشو" الحمراوتين اللتين تظهران من بين ثقوب القناع واللتين بدتا لها تحاولان ان تقولا شيئاً غير تلك الكلمات غير المفهومة التي نطق بها قبل قليل.**

* **أخرج الآن ايها الآشوري وأنتظر في الهامر.أنت لا تريد أن ترى ما سيجري، جاء أمر "ريكاردو".**

**في العربة سمع "إيشو" بضعة رشقات من رشاشات الجنود من داخل البيت في حين ظل الآخرون الذين توزعوا في الشوارع حول البيوت المجاورة متحفزين لأي طارئ. "بالتأكيد هم لا يريدون شهوداً على ما جرى." برر "إيشو" لنفسه سبب إخراجه. "لكني لم اشاهدَ شيئا فعلاً." اطمئن أكثر، محاولاً دفن مخاوفه من أشياء عديدة تمور بداخله. رفع القناع من فوق رأسه ومسكه بيديه. تذكر عبارة "ريكي" بعد أن أحس بالصدمة التي تعرض لها في أول عملية قتل يشاهدها بعد أيام من بدء عمله حين أطلقت دورية للفصيل النار على سيارة مدنية حاول سائقها ان يتجاوز الهامرات التي كانوا يستقلونها في الشارع. "عراقي ميت مثل أي عراقي ميت آخر."**

**لم يطل الأمر كثيراً قبل أن يرجع أفراد "فصيل الغضب" وتنطلق العربات مسرعة خارج الحي الذي عاد يلفه الصمت وكأن سكانه فاتهم كل ذلك الضجيج الذي أحدثه اطلاق الرصاص وزعيق الجنود ومحركات الهمرات التي بدأت تنهب الارض. حالما استقر "ريكاردو" في مقعده وانطلقت العربة هم باخذ قنينة عرق أخرى من الصندوق الذي كان لا يزال يقبع في مكانه. فتح القنينة ثم رشف منها مرة وثانية وأخرى وبعدها ناولها لجنوده.**

**- في صحتكم يا أولاد الزنا. كم مخزن عتاد أفرغ كل واحد منكم؟، سألهم.**

**- ثلاثة، أربعة تعالت صيحات هستيرية في الفخر والتباهي.**

**- خمسة، صاح "جيف".**

**- حصدتهم مثل البعوض.**

**- نعم شاهدتك وانت تطير رأس تلك العاهرة التي وقفت تحمي أبنها"، قال "آيرا".**

**- أنت بارع فعلا يا أبن القحبة.**

**- هل فعلت ذلك حقا؟، سأل "جيف".**

**- كان ذلك من أجل "بوني" وحين تنتهي أنت على يد عراقي فسأنسفه لك بنفس الطريقة.**

**- يا لك من وغد، علق "آيرا".**

**- هيا أنتما، كفوا هذا الهراء. اشربوا وانتشوا. دعونا نحتفل"، صرخ "ريكاردو".**

**أشعل أحدهم سيكارة جديدة وثانية وتلاقفتهما الآيادي والرؤوس المتنشية وحل الصمت من جديد ثم بدأ الدخان الأزرق يملأ القمرة الضيقة للهامر التي كانت تشق طريقها مع عدة عربات أخرى عائدة نحو القاعدة. شعر "إيشو" أن رأسه تدور وأن خدراً لذيذاً يسري في جسمه يأخذه بعيداً الى تخوم حالة اللاشعور وبدأ يغمغم بالسريانية. في منتصف الطريق توقف السائق "فريد" عند "نصب كهرمانة" في مدخل "الكرادة" ثم ترجل جميع الجنود من العربات وبدؤا بالتبول على قاعدة النصب الرخامية وسط الساحة. رأسه بدت ثقيلة بسبب دخان الحشيش المتطاير حوله لكنه يشعر بانه لايزال على حافة الوعي. أراد ان ينزل من الهامر كي يستنشق بعض الهواء لكن "ريكاردو" قال له من الأفضل ان يبقى في مكانه. يسمع صرخات "علي بابا" يطلقها الجنود على النصب الأكثر شهرة في "بغداد" والذي حكى للجنود في المرة الأولى التي مروا به بأنه يرتبط بأسم "ألف ليلة وليلة" أشهر الحكايات التي روتها البشرية. تعالت أصوات رشقات رصاص متتالية من بنادق الجنود الذين كانوا يحومون حول التمثال وهم يرقصون ويطلقون صرخات أشبه بتلك التي يؤديها الهنود الحمر. ظل "جيف" يطلق النار من مدفع الرشاش ام-16 الذي عبئه بمخزن رصاص جديد على التمثال. اخترقت الرصاصات سكون الحي وعتمة الليل اللتان اطبقتا عليه عدا وميض شموع أو فوانيس خافتة تأتي من بعض شبابيك العمارات العالية.**

* **ماذا تفعل أيها النغل، هل تريد ان تحطم التمثال؟ ألم يكفك الخراب الذي خلفته في المدينة منذ اليوم الأول حتى هذه الليلة؟ ، صرخ "ريكاردو" بالجندي "سام" الذي كان يصوب بندقيته الى رأس تمثال "كهرمانه" المنتصب وسط الساحة وهي تصب الزيت الساخن على الجرار التي يختفي فيها الأربعون حرامي كما تروى قصتها في الليالي.**

**أمر الرقيب جنوده بالصعود بالعربات المدرعة التي انطلقت فورا نحو معسكرهم وسط الجلجلة ونتف الدخان التي خلفتها طلقات الرصاص فوق النصب القريب من الساحة التي اسقط فيها تمثال "صدام". لا كاميرات هناك ولا صحفيين كي يسجلوا ما جرى والذي لا يستحق على أي حال من الأحوال مجداً كالذي صنعه ذلك اليوم المشهود قبل اكثر من عام. غير أنه مثل باقي أفراد الفصيل يشعر في نهاية هذا اليوم الطويل بذلك المزيج الغريب من الأحاسيس التي تنتابهم كلما أنجزوا واجباً، مشاعر لا يدركها الا من عاشها وصفتها الجندية الجديدة في الفصيل" سالي" مرة لزميلها "راين" بأنها محاولة للهروب من أرض المعركة الى أرض النسيان.**

**لم يزل رأس "إيشو" عند انتهاء تلك المهمة يغرق في خدر ثقيل وشعر وكأن تلافيف عقله تقوده الى كهف عميق من الخواء والوحشة. كان عليه ان يقضي الليلة في المعسكر اذ سيتعذر عليه العودة الى بيته بعد حفلة الدم والنيران والجنون تلك. غط في النوم سريعاً وعميقاً تلك الليلة رغم أن أصوات الرصاص كانت تأتي من جهات كثيرة وخاصة من الجانب الأخر للنهر وحلم أنه في أجواء كنيسة أو دير في "بعشيقة" أو "برطلة" يسمع "ترانيم نصيبين"\* للقديس "مار أفرام" :"الحكماء ربما يستطيعون ترويض الوحوش، ولكن كلماتهم الحكيمة لن تجد لدى الجميع آذاناً صاغية. ربما يدعوننى رافض النذور، ولكنى أفى بوعدى لمن دعوته. أنا أصنع فقـط ما أُمرت به."**

**\*\* ترانيم وضعها القديس افرام أحد أباء الكنائس السريانية وتضم صلوات وأدعية وحكم رعوية ونصبين مركز مسيحي قديم بارز في سوريا. والترنيمة تتناول تدمير آشور، أحدى ابرز عواصم الآشورين**

**\*\*\*\***

**2/4**

**أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر ويومان هي الفترة التي تفصل بين مغادرته العراق وبين عودته أليه في نهار صيفي قائظ من أيام شهر آب وبعد نحو أكثر من عام على سقوط "بغداد" بيد الأمريكان، عدها قبل يوم من مغادرته "باريس" مستعينا بجواز سفره العراقي القديم الذي عثر عليه وهو يقلب بأوراقه. الرحلة عبر الطريق الصحراوي بين العاصمة الأردنية و"بغداد" التي أخذت نحو اثنتي عشرة ساعة بالسيارة وهي الوسيلة الوحيدة المتوفرة بسبب إستمرار غلق المطارات، كانت أيضاً سفرا داخل روحه القلقة وتنقلاً بين الماضي والحاضر. استيهامات عن حياته، وعن "العراق" الذي يعود أليه اليوم بعد كل هذه السنوات التي كان قد كف عن عدها منذ أن أيقن ان حياته قد تقاطعت مساراتها في دروب الغربة والحنين والحيرة. صور من أزمان وأماكن متعددة عاشها تتداعى في ذهنه وأصوات شتى من الماضي بدأت تنثال على مسامعه تجتمع كي تتدفق في داخله مثل شلال من أشياء منسية وتائهة رأها تصلح تفاصيل مخطط او سيناريو لرواية خطرت بباله ان يكتبها ذات يوم.**

**هو يدرك ذلك حتى قبل أن يركب سيارة الـ "جي ام سي" ذات الدفع الرباعي التي استأجرها بسائقها والتي انطلقت به من الفندق الذي نزل به في "عمان" قبل منتصف الليل بقليل. منذ ان انطلق من "باريس" داهمه شعور غامض بان هذه الرحلة ستكون خطا فاصلاً بين حياتين، احداهما عاشها ويلم بتفاصيلها جيداً، وأخرى تكتنفها سحابات داكنة وحُجبٌ عليه ان يخترقها مثلما تخترق هذه السيارة السريعة الآن شوارع وميادين المدينة الغافية في سبات عميق على تخوم الصحراء الشاسعة التي سيقضي هو وسائقها ساعات طوال قبل الوصول الى بلدته التي تراوده نحوها أحاسيس متنافرة لا يتمكن من ضبط ايقاعها.**

**منذ أشهر وهو منغمس تماماً في المتابعة والبحث بعد أن كلف من المعهد الفرنسي الذي يعمل لديه بكتابة دراسة عن "السلطة والهوية والدولة في العراق الجديد". أخبره مدير المعهد بعد أن اطلع على مخطط البحث الذي قدمه بانه سيكون من المفيد لو أنه أمضى بعض الوقت في "العراق" والحق بالدراسة شهادات عيانية وبحوثاً ميدانية ستغني البحث وتمنحه مصداقية أكثر. قال له إنهم سيتدبرون أمر ايجاد عمل مؤقت له في احد المراكز البحثية الأوربية العاملة في "بغداد" كي تمنحه الفرصة للإطلاع عن كثب وتوفر له الغطاء اللازم للبحث وللوصول الى مصادر ومعلومات مباشرة عن موضوع الدراسة.**

**لم يجب فوراً ولكنه طلب مهلة قصيرة لكي يرد على فكرة المدير التي بدت في الواقع طلباً، او حتى أمراً أكثر من كونها مجرد اقتراح. ما يحصل منذ عام في بلده رسخ لديه المخاوف التي انتابته منذ البداية بان الغزو سيوقظ لا محالة كل أشباح الماضي التي يعرفها والتي عاشت في سبات لحد الآن وسيفتح دهاليز للجحيم لم يسبق ان وطئتها أقدام العراقيين منذ فترة طويلة. صديقه "روبير" الذي زار "العراق" أربع مرات خلال هذا العام شجعه على القيام بالرحلة. "اعتبرها مغامرة كي تختبر أراءك وهواجسك على أرض الواقع"، قال له. "لن تخسر شيئا اذا ما احتفظت برأسك منخفضاً هناك.سترى التاريخ يصنع أمام عينك. ربما ستقوم عندئذ بالكتابة عن "العراق" كما تراه لا كما تتخيله. "اما رفيق سكنه "حسان" فقد حذره من الذهاب. صحيح أنه حاول أن يبدو ساخراً كما يفعل دائماً، لكنه أشعره أنه ربما كان يعني فعلاً ما يقول. "أخشى الا تعود الى "باريس"، يا صديقي. ستلتحق هناك بالمقاومة وربما سيجندونك انتحارياً يفجر نفسه كي يحصل على سبعين حورية في الجنة"، وألحقها بضحكة مجلجلة.**

**عندما لاحت له لوحة مرور زرقاء كبيرة متدلية من عمود عرضي انتتصبت فوق الشارع كتب عليها "طريق بغداد الدولي" الى جانب سهم كبير يشير الى اليسار دلفت من تحتها السيارة المنطلقة كالسهم أحس بان قلبه يقفز من مكانه وينطلق مثل قذيفة كتلك الصواريخ البالستية التي كان يرى مشاهد انطلاقها من البوارج الحربية الأمريكية لضرب "العراق". كان مذيعو القنوات التلفزيونية يصرون على أن تلك الصواريخ تضرب أهدافها بدقة عالية، أما الصاروخ الذي يقبع بداخله الآن فهو ينطلق به بلا جهاز توجيه وبلا هدف. عبر زجاج النافذة لاحظ أن بيوت المدينة ومحلاتها المغلقة تتلاشى شيئا فشيئا كما اختفت أعمدة مصابيح الشارع وحل في الخارج ظلام كثيف. حين رفع رأسه قليلاً الى السماء لاحظ قمراً أحدبا غابرأ كما لاحت من بعيد نجوم مهولة العدد تتلألأ وسط السماء لم يشاهد لها مثيلاً من قبل. فتح زجاجة النافذة ومد ببصره بعيداً نحو القبة السماوية العملاقة التي أحس وكانها تبتلع السيارة التي كانت تنطلق بإصرار ولكن برشاقة نحو جوف الفضاء الحالك.**

**- هل ترغب بان اوقف المكيف؟، سأله السائق متحدثاً اليه لأول مرة منذ إنطلاقهم من فندق "الرويال" الضخم على رابية "الدوار الثالث" في "عمان" والذي اكتشف إنه ملك لملياردير عراقي تذكر ان وسائل اعلام عديدة تحدثت انه جمع ثروته من خلال صلاته بنظام "صدام" قبل ان ينشق عنه.**

**- كما تحب، هواء الصحراء عموما منعش ونقي، تمتم "سامح" كأنما يحاول ان يختبر لغته العربية مع السائق. منذ سنوات وهو لا يتكلم الا الفرنسية ولولا انه يشارك "حسان" السكن والحديث بالعربية لربما كان قد افتقد الكثير من مفردات العربية الآن. عليه اذن ان يبذل جهداً أكبر حين يصل الى بيتهم لإسترجاع اللهجة البغدادية ومفرداتها كي لايبدو وكأنه أحد هؤلاء السائحين الذين يرطنون بلغات البلدان التي يزورونها وبصحبتهم كتيب كيف تتعلم اللغة الفلانية في خمسة أيام.**

**- سأوقف المسجل لو شأت. يمكنك ان تسترخي على المقعد، لو دفعته قليلاً الى وراء.**

**انتبه "سامح" لأول مرة الى ان جهاز التسجيل في السيارة كان يبث أغنية عراقية. شيء جيد أن يستمع الى الأغاني المحلية ذلك سيكون أيضاً أشبه بعملية احماء يقوم بها وهو يبدأ جولته فعلياً.**

**- لا، لا، دعه يعمل من فضلك. انا استمتع بالأغنية. لا أشعر بأي نعاس.**

**- انا لا أهتم بالأخبار لذلك لا أشغل الراديو. لو استمعت الى الإذاعات ما أمكنني الإستمرار يوماً واحداً في هذا العمل، قال السائق تاركا لـ"سامح" تخمين ما كان يعنيه، ولربما أيضا انتظارا منه لسؤال يمكنه بعد ذلك أن يفتح معه باب الأحاديث التي ستساعده بالتغلب على النعاس وملل الطريق.**

**الصحراء التي يشعر بها ولا يكاد يراها وسط العتمة التي تغشى الفضاء تغدو أكثر غموضاً وعمقاً كلما امتد بهم الطريق. القمر في الخارج تضاءل حجمه وأصبح أكثر شحوباً، والنجوم أصبحت أكثر عدداً والكبيرة منها أضحت أكثر توهجاً. شعر بحنين جارف الى "باريس" ليس الى شوارعها وميادينها الفسيحة ومسلاتها ونصبها والى احيائها الفخمة وخاصة الحي السابع عشر الذي لا يزال يحلم ان يكون له بيت فيه ويعيش وسطه يوما ما، ولكن الى اليقين الذي غدت تمثله له، مقابل الغموض والمجهول الذي تشق السيارة دربها وسطه.**

**- أظن أن هذه من أغاني "عباس جميل"، اليس كذلك؟ هل هذه المطربة "أنوار عبد الوهاب"؟**

**- لا هذه "أمل خضير".**

**- صوتها أكثر رقة واحساس.**

**لم يشأ السائق ان يقاطعه بعد ان وجده على استعداد للكلام.**

**- احياناً يكون إحساس المطرب أقوى من احساس الملحن فيتفوق عليه في الأداء. هذا ما كان يحصل مع "فائزة أحمد" و"نجاة الصغيرة" عندما كانتا تغنيان الحان "محمد عبد الوهاب"**

**- ما شاء الله. الظاهر ان الاستاذ خبير في الغناء، جاء رد السائق.**

**في أطروحته للماجستير عن "دور الثقافة الشعبية في الحداثة في العراق" شغل الغناء حيزاً كبيراً من عمله الذي سعى فيه الى تأكيد فكرة أساسية اقنتع بها حينها وهي ان الأدب الشفاهي، وخاصة الأغاني الشعبية لعبت دوراً مهما في دخول العراق في الحداثة. كان عليه ان يراجع بأسلوب أكاديمي التراث الغنائي البغدادي منذ المراحل الأخيرة للدولة العثمانية وانتهاء بسبعينات القرن الماضي كي يجمع من المادة البحثية ما يدعم تلك لفكرة. أذهله الإستنتاج الذي توصل اليه وهو ان الغناء وكل ما يتصل به من شعر وموسيقى واداء وأجواء مصاحبة خلقت عالماً من الفنون والثقافة أثبت من وجهة نظره أنها ساهمت أكثر من أي نوع أدبي أو فني آخر في سلوك العراق درب الحداثة. وتذهله الآن هذه القدرة العجيبة للذاكرة ان تسترجع من خزينها ما كاد يذوي من تفاصيل بمجرد ان يبدأ صاحبها بوضع قدمه في مكان مألوف.**

**السائق الذي صقلته التجربة في فهم الركاب الذين يرافقونه خلال هذه الرحلة الطويلة حدس ان الرجل الذي سيرافقه طيلة الساعات الطويلة القادمة صعب المراس حتى انه لم يكن راغبا في اكمال الحديث عن الغناء الذي رجح الآن أنه من محبيه وربما من خبرائه. عادة ما يتجنب الخوض في قضايا سياسية مع المسافرين ذلك ما تعود عليه منذ أيام النظام السابق حيث أن الكلام في اي شيء خارج المألوف قد يؤدي الى سؤ فهم، او حتى الى ما لا يحمد عقباه. اما الآن فان القضية أصبحت مسألة حياة او موت حين يتعلق الأمر مع من تتكلم او في اي موضوع. شيء واحد يسعى أن يعرفه عن الركاب مبكراً وهو الى أي جماعة ينتمون، وهو أمر أصبح لا يتطلب بالضرورة الحديث في أمور سياسية فبخبرته أصبح يعرف ذلك بعد جملة او جملتين، بالتأكيد ثلاثة. هو شخصياً لا يهتم كثيراً الى أية جماعة أو طائفة ينتمي الركاب الذين ينقلهم لكن ذلك مهم، بل ضرورري لكي يتدبر أمره لو تم ايقافهم في الطريق من قبل جماعات مسلحة، وهو غالباً ما يحصل هذه الأيام.**

**لم يقتنع رئيس قسم علم الإجتماع في كلية الأداب بـ"جامعة بغداد" آنذاك بالخطة البحثية التي وضعها "سامح" لرسالة الماجستير التي قرر ان تكون باكورة عمله في مجال الدراسات الثقافية الاجتماعية التي اختارها كتخصص. كانت الثقافة الجماهرية من وجهة نظر حزب السلطة الذي أصبح يفرض هيمنته الأيديولوجية على الفضاء الجامعي هي كل ما له صلة بعمليات التحشيد والتعبئة والتي هي أشبه ما تكون بعملية التضليل وغسل الدماغ رغم أنهم اطلقوا عليها تسمية الثقافة القومية. أشفق عليه رئيس القسم حين علم منه أنه يريد أن يكتب رسالته عن الغناء ودخول العراق مرحلة الحداثة وحاول ثنيه ثم أخبره صراحة ان لديه من رئاسة الجامعة توجيهات بعناوين محددة للطلبة لكتابة الرسائل الجامعية كلها تربط الموضوعات البحثية بأفكار الحزب القائد وفلسفته وأن كتابة رسالة عن أغاني المطربين والمطربات قد يجرهم في الكلية الى متاعب خاصة وان النظام كان قد قرر التضيق على كتابة الشعر الشعبي بالذات ومنع نشره. تطلب الأمر مناقشات طويلة وتدخلات عديدة من بينها من قبل استاذه "علي الوردي" الذي حبب اليه علم الإجتماع حتى قبل ان يجلس أمامه لأول مرة في قاعة الدرس. في النهاية وافق رئيس القسم بعد وعد منه ان تتضمن الرسالة بعض الإشارات لدور الحزب الثقافي كي يمكن تمريرها دون اعتراض من قبل لجنة المناقشة وعمادة الكلية. يومها أدرك انه لن يتمكن من أن يكون باحثاً حراً لو بقي في "العراق" وقرر ان ينتهز أقرب فرصة ستسنح له للهروب الى الخارج.**

**- لدي تسجيل لأنوار اذا احببت ان تسمعه؟ بالتأكيد انت تعلم انها هربت الى الخارج أيام النظام السابق؟، قال السائق على أمل ان يفتح ذلك هذه المرة باب الحديث الذي يسعى اليه.**

**- نعم أحب سماعها ولكني لا أعرف شيئاً عن حياتها.**

**أخرج السائق عدة أشرطة من حقيبة السيارة الأمامية وبحث عن واحداً ثم وضعه في جهاز التسجيل فراحت "أنوار عبد الوهاب" تصدح بأغنية تفيض حزناً وشجناً لا يزال يتذكرها جيداً. "عد وأنا عد وانشوف يا هو أكثر هموم. من عمري سبع سنين وكليبي مهظوم". حدق سامح ببصره بعيداً خلال الزجاجة الجانبية كأنه يبحث عن نجمة تائهة في قبة السماء الداكنة العميقة فوقه. يتذكر جيداً أن هذه كانت من ضمن الأغاني التي ضمنها رسالته الجامعية والتي حاول فيها أن يفند نظرية نمطية سائدة عن الغناء العراقي كونه حزين بطبيعته وجذوره لأنه يعكس الويلات التي شكلت حياة العراقيين طيلة القرون. أما هو فقد جادل بان الشجن موجود في أغاني معظم ان لم يكن كل الشعوب وهو ليس عارض من أعراض الإكتئاب القومي كما يحلوا القول لمستشرقي الداخل كما يجب ان يسميهم، بل مجرد إحالة الى الزمن الماضي الذي يسعى الإنسان أين ما كان الى الخلاص من عذاباته. كان يشعر بالتمرد على الكثير من النظريات، أو ما سماها بالكليشيهات السائدة حتى عند اساتذته، ومن بينهم "علي الوردي" نفسه.سعى الى ان يثبت في دراسته بأن الحزن غناءً وموسيقى لا يعبر عن حالة استسلام ويأس، بل عن التحدي، وليس عن الموت، بل عن الحياة.**

* **اعتقد أن الأستاذ من محبي موسيقى وغناء أيام زمان الجميلة. في السنين الأخيرة لن تجد الا أغاني "فوزي الإنضباط" و"عبد فلك" و"غزلان" و"ملايين". لدي بعض الأشرطة لأن بعض الركاب يحبونها.هل تحب ان تسمعهم؟**

**كان يود أن يشكره ويقول له لا وانه يكتفي بحكمه عليها لكن يد السائق كانت أسرع في وضع شريط لصوت نسائي لم يتمكن رغم الجهد الذي بذله ان يحل شفرة تلك الكلمات التي كانت تترنم بها المطربة الغجرية غير عبارت فهم منها انها تشكو من هجران فيما يبدو وانها تتحدث عن رغبتها بتمزيق ثوبها من الأعلى الى الأسفل.**

* **المثقفون يسمونها الأغاني الهابطة، عاد السائق محاولاً بلا جدوى ان يجرجر سامح الى الكلام.**

**عادت الأفكار التي تشغله عن "العراق الجديد" الذي جاء لإكتشافه كجزء من مشروعه البحثي المكلف به تتراقص في ذهنه مرة أخرى. بعضها جاء من الماضي البعيد وأخرى تأتيه مصاحبة لهذه الأصوات التي تنبعث من جهاز التسجيل في السيارة وكلها تبث فيه الحماس على العمل في المشروع. لايريد أن يسابق الأحداث لكنه مع اقترابه من حدود البلاد قد بدأ يمسك بمفتاح تحليلي مهم لأفكار رأها تصلح للمشروع أو ما يسميه المغامرة التي جاء كي ينغمس فيها. تذكر تحذير "حسان" له من ان يتجنب الأفكار المسبقة وأن يدع البالوعة كما قال له تتفجر أمامه، اذ حالما يرفع عنها الغطاء سيتضح ما في داخلها وسيراها حينئذ على علاتها بكل حواسه وعقله.**

**بعد الطريق الفرعي المتوجه يساراً الى "المفرق" ووسط عدد قليل من أعمدة النور التي كانت مصابيحها مضاءة لاحت مجموعة من البيوت والدكاكين المقفلة. بدت وكأنها قرية أو مدينة صغيرة تقبع وسط الصحراء المظلمة. المحل الوحيد الذي كانت أبوابه مفتوحة أنارت واجهته لوحة معلقة فوقه كتب عليها "مخابز المنارة". توقف السائق أمام المحل ثم توجه الى رجل بدا انه يعرفه وتبادلا حديثا ليس بالقصير ثم عاد برزم من ملفوفة بأكياس ووضعها في صندوق السيارة الخلفي.**

**- الأولاد أصبحوا معتادين على هذا النوع من الخبز منذ بدأت بشرائه من هنا خلال سنوات الحصار. هل تريد ان ان آتيك ببضعة أكياس تأخذها للأهل؟.**

**- لا، شكراً لقد سمعت بأن كل شيء أصبح متوفراً الآن، لا اقصد كل شيء لكن السلع والبضائع.**

**- نعم هذا صحيح، لكن بصراحة، صاحب الفرن هذا يفيدنا كثيراً هنا اذ له علاقات واسعة مع الحكومة والعشائر في المنطقة ويساعدنا في حل أي مشكلة قد تحصل.**

**فهم "سامح" ما الذي يلمح اليه السائق لكنه لم يبد إهتماما بمعرفة أية تفاصيل. أشاح بوجهه الى النافذة الجانبية وعبر الزجاج أمعن في السماء التي اضحت أشد عتمة تطرزها تلك الأعداد التي لا تحصى من النجوم في حين ظلت السيارة تشق قلب الظلام بنور مصابيحها الذي يشع فوق الأسفلت. شعر بالإجهاد الذي أصابه نتيجة السفر وبدأ النعاس يتسلل اليه مع صوت محرك السيارة واطاراتها، وشيئاً فشيئاً غفى في كرسيه متكأ بخده على نافذة السيارة يصحو بين الحين والآخر حتى أحس ان السيارة توقفت عند بوابة مجمع كتب عليه "مركز الكرامة الحدودي" علقت على مدخله صورة كبيرة لـ"لملك عبد الله الثاني" خطت تحتها عبارة "الأردن فوق الجميع" أخذ "سامح" يتأملها بعمق.**

**لم يستغرق الأمر طويلاً للعبور الى المركز الحدودي العراقي في "طربيل" الذي وصلوه بعد قليل من إنحسار الليل وسطوع نور الشمس على الصحراء المبسوطة على مدى النظر. كان مجمع النقطة الحدودية مقفراً وهادئاً بشكل غريب، كل أسوارها وأبنيتها متهاوية، مكاتبها متهالكة، بعضها بدون أبواب او شبابيك وكأن يد الزمن والعبث اجتمعتا معاً لكي تحيلاه الى شيء أشبه بالركام. لولا وجود عدد قليل من الموظفين الذين يظهرون من خلال نوافذ صغيرة فتحت للمراجعين لبدا المبنى مهجوراً. يتبادل السائق التحية مع أحدهم من خلال احدى النوافذ ويسلمه جوازي السفر مع ورقة نقدية خضراء يضعها بين طيات أحدهما لم يتبين لـ"سامح" من اي عملة كانت. يختم الموظف جواز سفر السائق ويرميه أمامه ثم ينظر بعينين متكاسلتين من خلال الفتحة الى "سامح".**

**- أنت لا تحمل تاشيرة على جوازك الفرنسي؟، قال له الموظف.**

**- قيل لي بأني لن أحتاج اليها لأني عراقي الأصل.**

**- هل تحمل أية وثيقة تعريف عراقية؟**

**- نعم هذا جواز سفري العراقي القديم، أجاب "سامح" وهو يخرج الوثيقة من جيبه ويقدمها للموظف.**

**- هذه قديمة جداً والصورة لا تشبهك كثيراً.**

**نظر السائق الى "سامح" وغمز له ان يتنحى عن الشباك ثم أخرج من جيبه ورقة خضراء ثانية ووضعها أمام الموظف. حك الموظف رأسه بأصابع يده اليسرى ثم انتشل الورقة بيده الأخرى ووضع ختما على الجواز ورماه بنفس الطريقة. في مكتب الكمرك دس السائق بيد موظف مبلغا آخر فأشر على حقيبة "سامح" بعلامة صح بقلم من الطباشير الأبيض يحمله بيده. وعند البوابة الخارجية أعطى الحارس خرطوشة سكائر كان قد أحضرها معه ثم انطلق بالسيارة بسرعة نحو الطريق الدولي رقم 1.**

**- في كل رحلة نواجه مثل هذه الألاعيب القذرة. كنا نعتقد اننا سنتخلص من فساد النظام القديم الا أن الجديد ظهر أوسخ، قال السائق وهو يلقي نظرة على "سامح" الذي كان رد فعله الوحيد هو تعبير عن التعاطف مع السائق رسمه على وجهه.**

**- سوف ترى بنفسك البالوعة التي وقعنا فيها. لم يكن الأمر هكذا ابداً أيام "صدام".**

**بحث عن كلمات يرد بها، لكنه شعر ان اي ما كان تعليقه فسيكون غير ذي معنى، فزم بشفيتيه وأومأ برأسه كأنه موافق على كل ما قاله السائق. في هذا الوقت ظهرت لوحة باهتة الى جانب الطريق كتب عليها "بغداد 575 كم" مع سهم يشير الى اليمين.**

**لم يتوقع حين ظل ينظر أمامه وعلى جانبيه أن يرى طريقا حديثا كهذا في العراق هو أشبه بالاتوستراد في فرنسا وفي دول أوربية أخرى لولا ان علامات إندثار مبكرة، أو إهمال في الصيانة قد ظهرت عليه.**

**- هل هذا الطريق شيد في العهد السابق؟**

**- صدام هو من بناه وهم من خربوه.**

**هو يفهم جيداً طبيعة الطغاة ويدرك ان الطاغية مخلوق يتشبث بالرمزية الأسطورية للإنجاز وخاصة المادي من مشاريع ونصب وشوارع من أجل ارضاء شهوة السلطة وغرور الذات والرغبة بالخلود ولكنه يعلم كذلكً ان ما يخلفه الطغاة أيضاً ألة خراب بشرية وثقافية وسياسية تحيل كل الشواهد التي بنوها الى انقاض.**

* **هل لي ان اسألك، من اي الأعمام انت؟**

**نظر "سامح" الى السائق بحيرة بينما انشغل بإحالة السؤال الى الماضي محاولاً إستحضار اجابة من منطقة النسيان الحالكة في ذكرياته التي يحاول منذ أن ركب الطائرة أن يسترجع منها ما أمكنه.**

**-هل انت شيعي ام سني؟**

**كانت لهجة السائق بسؤاله باتة هذه المرة بطريقة أثارت في سامح في البداية دهشة كما حركت بدخله بعضاً من الهواجس التي واتته بعد ان بدأ يخطط للسفر. لاحظ أن السائق طرح عليه السؤال في تلك اللحظة التي أصبحوا فيها فعلياً داخل "العراق". هو يعرف من خبرته الخاصة إن مثل هذه الأحاديث تصاغ بحرص وتأتي غالباً بعد مقدمات ولكن أن تاتي هكذا بغتة ودون مقدمات فلابد أن الأمر يتجاوز الفضول. راحت أفكار "سامح" الى "رواندا" وإستذكر مذابح "الهوتو" لــ"التوتسي" التي كانت تجري على الهوية عند نقاط التفتيش التي يقيمونها على الطرقات او حكايات الكمائن التي كان ينصبها "الكرواتيين" لـ"ألصرب" أو بالعكس.**

**حين التفت السائق الى "سامح" كانت ملامح وجهه هذه المرة كمن يشعر ان فخاً نصب له وهو بعد في بداية المغامرة.**

* **أرجو الا تفهمني خطأ. انا أسأل لأننا في طريق ربما سنرى فيه بعض المجاهدين الذين قد يوقفونا وعادة ما يسألون الركاب هذا السؤال بعد ان يطلبوا جوازاتهم أو هوياتهم.**

**اعتصرت معدته قليلاً حين سمع كلمة الهوية فهاهي تواجهه الآن على أرض الواقع وليس في بطون الكتب والمحاضرات. هو يعرف اينما جاءت الكلمة فلابد ان يرافقها دماء.**

* **لا تقلق ستكون الأمور بخير، يمكنني التصرف معهم مثلما فعلت في المعبر الحدودي ولكن من المهم أن أعرف أنا كي أتعامل معهم.**

**ربما أصبح الأمر جلياً الآن لـ"سامح" فهو سمع وقرأ الكثير عما يحصل في طريق الموت هذا من عمليات سلب وخطف وقتل وغالباً يكون الضحايا من الشيعة. ثم ان أخاه أخبره في آخر مرة هاتف العائلة الا يقلق وأعطاه ما قال له أنها كلمة سر سيمر بها من خلال أي كمين للمجاهدين.**

**- اطمأن، انا معظماوي أبا عن جد، قال "سامح" بهدوء رغم انه لم ينجح تماماً في اضفاء نبرة من الثقة في صوته.**

**- عظيم جداً، الحمد لله هذا كاف. هذا أحسن جواز مرور، لا تشغل بالك أذن. اعتبر الأمر منتهياً.**

**- مرحبا بنا في أرض التوتسي، اما أرض الهوتو فستنتظر.**

**استدار السائق نحو "سامح" لكنه أدرك انه كان يكلم نفسه ثم رأه وهو يغمض عينيه ويمدد ساقيه ويضع رأسه على ظهر المقعد كأنه أراد الهروب من استكمال الحديث معه بالعودة للنوم مجدداً.**

**حين صحا من غفوته كانت السيارة تمضى خفافاً في شارع بدا له وكأنه نهاية الطريق الدولي الذي قطعوه منذ دخولهم الحدود من "الأردن". من بعيد رانت له بيوت ومزارع كما ارتفعت منائر وقباب لمساجد بنيت بطرازات مختلفة عن تلك التقليدية التي كان يألفها في "العراق" قبل رحيله. تركه السائق يغرق في تأملاته بعد ان قال له أنها "أبو غريب" وهو يشير بيده باتجاه اليمين.**

**في مدخل المدينة رانت من بعيد بيوت فارهة، البعض منها زينت واجهاتها بالمرمر، أو القرميد، تتوسط حدائق فسيحة تعلوها أشجار تضلل أسيجة وأبواب مزخرفة هي أيضا بأشكال لا تخلو من أناقة وترف. لا يتذكر وجود مثل هذا الأحياء التي تمر عبرها السيارة لكنها تبدو مسكونة ، او لعلها كانت، بعوائل مُنعَمَّة ان لم تكن بالغة الثراء بقياس البيوت والأحياء التي يعرفها في "بغداد" التي عاش فيها. الطريق الذي يشقها تتفرع منه مهابط ومطالع نحو جسور علوية تربط الأحياء على جانبيه بطريقة سلسلة ولا تخلو هي أيضاً في انسيباها السلس من أناقة.**

**ومع ذلك انتابه شعور غريب بالإنقباض في صدره. كان يمعن النظر بكل ما في حوله فلا يرى الا لوناً رمادياً نافراً يطغى على سطوح الجدران وعلى الأشجار الباسقة في حدائقها فلا يثير الا الإنقباض. حتى السماء التي يتذكر جيداً ان زرقتها كانت تتوهج عادة بضياء الشمس الساطعة في مثل هذا الوقت من الصباح غطى أديمها ضباب معتم اختلط لونه بلون التراب على الأرض الملاصقة للشارع.**

**- متى بنيت هذه الأحياء الراقية وهذه الشبكة من الطرق؟، خرج منه السؤال للسائق عفوياً رغم انه كان يفكر ان يسأله عما اذا كانت البيوت مغبرة بسبب عاصفة صحراوية من تلك التي اعتادت ان تضرب المدينة.**

**- تصور، كل ذلك الإعمار تم خلال الحرب مع "إيران" أو في زمن الحصار الذي فرضته "أمريكا"، أجاب السائق بحماس لم يسع الى إخفائه وكأنه أدرك مغزى السؤال.**

**منذ عزم على القيام برحلته هذه التي اعتبرها بالمقام الأول بحثية كانت رأسه قد بدأت تعج بالأفكار والأسئلة عما يمكن أن يعمل عليه من بحوث اضافة الى الدراسة التي خطط لها مع المعهد. الآن سيمكنه ان يختبر تلك الفرضية التي طالما اعتقد بها قبل الغزو وترسخت بعده من أن الأمريكان لن ينجحوا بإعادة بناء ما ستدمره حربهم، حتى لو حاولوا القيام بذلك. وربما سيربط ذلك أيضاً بالسؤال الذي راوده بعد ان دخلوا الحدود العراقية وهو كيف ان بإمكان الطغاة ان يبنوا صروحا يظنون انها ستخلدهم لكنهم يهدمون الأوطان؟**

**حين وصلت السيارة الى مطلع أحد الجسور لاح اسم "الأعظمية" لأول مرة على لوحة مرور مع اشارة السهم الى اليسار قال للسائق انه لا يتذكر كل هذه الشوارع والجسور لكن لو أوصله الى "مستشفى النعمان" فربما سيمكنه أن يتعرف الى الطريق الذي يفضي الى بيتهم حينئذ. عندما شاهد نهر "دجلة" من فوق الجسر أدرك أنه أصبح قريباً جداً من "محلة السفينة" ولكنه لا يتذكر هذا الجسر الفخم الذي بدأت السيارة بعبوره. سرعان ما استعاد صورة بعض البيوت التي كانت تطل على الكورنيش الذي هبطت اليه السيارة رغم أن الشارع نفسه بدا مختلفاً عن ذلك الذي عرفه طيلة سنين حياته التي قضاها هنا.**

**حين شاهد بناية "مستشفى النعمان" تجسدت أمامه المنطقة كلها حتى لو بدت بعض تفاصيلها مختلفة قليلا، شعور يؤكد له ما اختبره في حياته من أن المكان إحساس. أشار للسائق يساراً ثم يميناً ثم الى الأمام قبل أن يطلب منه التوقف أمام بيت كانت واجهته هي ذاتها التي ظلت راسخة في مخيلته منذ سنوات طفولته. أنزل السائق له حقيبتيه وهنأه على سلامة الوصول ثم ودعه. وقف أمام باب البيت قليلاً تأكد انها هي ذاتها التي خرج منها يوم وقفت أمه ترش الماء وراءه من دورق زجاجي قديم كانت تحتفظ به. نظر من حوله كان الشارع خالياً من المارة كما هو الأمر دائماً أثناء ساعات الظهر.**

**للمرة الأولى منذ بدأ رحلته ينتابه شعور عرفه على الفور رغم أنه كان يخشاه طيلة هذه السنين، انه الحنين. شعور قاومه منذ بدأ يعد لهذه الرحلة التي اعتبرها منذ الوهلة الأولى رحلة عمل. في اللحظة التي وطئت فيها السيارة الأرض العراقية باغتته تلك الرعشة ولكنه كان قد استعد لها مسبقاً بأخذ ما سماه بلقاح مضاد للرومانسية تخيل أنه كتب على علبته الخارجية عبارة "لقاح زيارة عمل غير صالح للإستخدام لمن يود العودة النهاية للوطن". هل من المعقول أن يهاجمه بغتة كل هذا الحنين الآن عندما يوشك الغياب أن ينقطع ويصبح حاضراً على أعتاب البيت الذي هجره يوماً وظن انه لن يعود اليه أبداً.ارتاع من هذا الشعور الذي بدأ يوخز قلبه كدبابيس وتمنى أن يكون وهماً سيتبدد عما قريب.**

**حين فتش عن زر الجرس الذي عاش سنوات وهو يقرعه، ربما مرات عديدة في كل يوم، لم يستمع الى ذلك الرنين المتواصل الحاد الذي كان يجتاز الممر المؤدي الى الباب الداخلي ويصل الى الشارع. وجد مكانه لوحة بلاستيكية فضية بزر أسود الى جانب حاكية من النوع الحديث لا يتذكر انها كانت متوفرة يومها في "بغداد" التي غادرها. ضغط مرات عديدة لكن دون ان يأتيه جواب او ان تفتح له الباب.**

**- دق على الباب بيديك، فالكهرباء مقطوعة ولن يسمعوا الجرس"، جاءه صوت من أعلى الناحية المقابلة، ومن بين أغصان شجرة برتقال نشفت أغصانها وأوراقها حيث شاهد شابا يتكأ بمرفقيه على افريز شرفة البيت المقابل أدرك انه المنادي. حياه بيده، وضرب مرتين متتاليتين ثم ثالثة ورابعة على الباب الحديدي.**

**- عليك ان تنتظر قليلاً. العم "أبو سامح" في طريقه اليك لكن حركته بطيئة"، جاء صوت الشاب هذه المرة جهورياً قويا وبنبرات حادة خرجت من بلعومه بدا فيها كشخص متمرس على القيادة والتوجيه.**

**مد "سامح" ببصره الى الشاب الذي لا يزال ينظر اليه بعينين ثابتتين تبرزان بين شعر رأسه المنفوش ولحية كثيفة لكن مشذبة. حين أمعن في النظر أليه لم يستطع ان يركب في ذاكرته صورة ظنها لأحد أبناء عائلة "الشواكي" الذين كانوا يسكنون البيت قبل ان يغادر هو الى الخارج. كان لديهم الكثير من الأولاد والأكيد ان بعضهم من أقرانه، ولو كان هذا واحداً منهم لتذكره، لكنه يبدو أصغر سناً رغم هيئته الجادة.**

**حين فُتحت الباب أخيراً أطل عجوز بجسد ضامر تكسوه دشداشة بيضاء ويتعكز على عصا بيده الشمال في حين ظلت يده الأخرى متعلقة بدرفة الباب الثابتة. خصلات شعر أبيض كثيفة انسدلت على فوديه في حين غطت باقي الرأس صلعة كبيرة انعكست على سطحها اللامع أشعة الشمس المتسربة من بين سعف نخلة كما أكتسح وجهه الشعر الأبيض الذي غطى معظم قسماته تاركاً مساحات قليلة من بشرة بنية كستها شامات بعضها كبير الحجم. مسك بنظاراته باليد التي كان يتكأ بها على الباب وأرجعها قليلاً الى الوراء كي ترتكز على انفه جيداً وجاهد لكي يتعرف على ملامح الرجل الذي يقف أمامه دون ان ينبس لحد الآن ببنت شفة وكأن الكلمات تاهت في فمه.**

**ركز "سامح" نظره بعيني والده اللتان تظهران من وراء العدستين ذابلتين تائهتين بلا حياة. هل من المعقول ان تكون كل هذه السنين قد أخذت من ذلك الشاب الرشيق والأستاذ الأنيق الذي انطبعت صورته في مخيلته دائماً هذا المأخذ وأحالته الى صورة هذا الرجل الهرم الذي يقف أمامه يرتدي دشداشة مكرمشة باهتة يحاول بالكاد أن يسند نفسه على عصاه كي لا ينهار. لا يبدو ان الكلمات هي التي تستعصي عليه، بل اضطراب حسي لا يعينه على الإهتداء للشخص الذي يقف أمامه والتي يسعى بجهد أكيد ان يجمع أجزاء صورته المتناثرة في عقله مثل تلك الذبذبات التي تتجمع فوق شاشة الرادار.**

**كان يدرك منذ اللحظة الأولى التي قرر فيها المجيء الى "بغداد" انه سيفاجأ بالكثير هناك، فذلك تحصيل حاصل بعد السنوات الطويلة التي قضاها في الإغتراب وقرر أن يستعد لذلك مهما كانت المفاجأت. أعد نفسه لاحتمال ان يكون البعض قد نسيه أو ربما الا يظهر اهتماما لقدومه او حتى رفضه، وهي تجربة طالما سمع بها من منفيين عادوا الى أوطانهم بعد سنين واكتشفوا بعد حين انها أصبحت المنفى في حين بقي المنفى الذي كانوا فيه هو الوطن الذي يحنون للعودة اليه. منذ زمن طويل فقد قدرة التواصل مع ماضيه في الوطن منذ ان انقطع الإتصال بأهله بعد سنين قليلة من مغادرته، وخاصة منذ أن بدأ ينتابه ذلك الإحساس بأنه يعيش في منفي. يومها كتب بحثاً عن المنفى في ثقافات الشعوب توصل فيه الى ان اللغة العربية هي الأكثر قدرة على منح معنى حقيقي للكلمة وواقعها المؤلم. يومها وجد ان كلمة منفى كما جاءت في المعاجم العربية تتجاوز معنى الإبعاد والطرد خارج الموطن الطبيعي للإنسان الذي تجمع عليه اللغات الأخرى الى معنى يعبر عن عكس الوجود أو نقيضه، أي اللاوجود. اكتشف أيضاً ان النفي في أحد معانيه في اللغة العربية هو ما تذريه الرياح من تراب من الحيطان أو ما ترمي به الرحى من طحين والقدور عند الغليان. فكر يومها انه سيتوسع في ذلك لو كتب كتاباً يتجاوز فيه ما كتبه "كولن ولسن" في "اللامنتمي" و"أدورد سعيد" في "خارج المكان" والآن يأتي الى ذاكرته "ميلان كونديرا" وكتابه "الجهل".**

**في بداية تغريبته لم تكن ذكرياته التي خلفها في الوطن تأتيه بسهولة، ثم بدأت تنزوي بعدما غدا لا يكترث بإستدعائها حين أخذته انشغالته الأكاديمية والوظيفية والحياتية بعيداً. مع مضي السنين بدأ يفتقد القدرة على الحنين ولم يعد الوطن بالنسبة اليه الا ما تبقى لاصقاً به، نتف من هوية باهتة، وبالذات أسمه ولقبه الذي يرتبط بهذا الحي العريق الذي دخله للتو. لا شيء آخر ربما سوى الإهتمام البحثي الذي أصبح روتينيا دون أي احساس شخصي او ارتباط، تماما مثل الطبيب الذي يعالج مريض دون أي عاطفة. حتى تلك المشاعر التي انتابته أيام الغزو لم تكن لأسباب وطنية ، بل لقناعات على علاقة بموقفه البحثي ورفضه الجذري لفكرة المركزية الغربية وممارساتها. منذ بدأ هذه الرحلة بدأ يكتشف أيضاً انه يفتقد للاشتياق الى الحاضر وها هو مشهد زوغان ذهن والده ومحاولته المستميتة للتعرف عليه ترسخ لديه ما كان يخشاه من أن عائلته قد نسته بدورها، او لربما اعتبرته ميتاً حتى لو كانت تعلم علم اليقين انه حي يرزق. الم يفاجئه والده حين أسر اليه يوم مغادرته "العراق" بأنه قد لا يعود حين قال له:"كلانا سنتعود انت على المنفى، ونحن على النسيان". في هذه اللحظة يدرك حقيقية ما تعلمه في غربته الطويلة من أن الذاكرة تحتاج الى تمارين دائمة على الشحذ واستعادات متكررة لكي تبرهن على فاعليتها. تعلم من تجربته انه اذا لم تتم الإستعادة من خلال التكرار والكلام عن الأشياء، او عن الأشخاص ذاتها مع الآخرين فان الذاكرة ستصدأ لا محالة وانهم سيركنوه الى زويا النسيان، كما قال أبوه. لكنه ليس بصدد لوم أحد وجعل الزيارة تبدو حتى قبل ان تبدأ جنائزية، ثم ان الدلائل التي تتجمع لديه عن عملية التغيير التي تجري في البلد تشير كما يدل اسمها الى تدهور ان لم يكن اضمحلال الذاكرة الجمعية التي هي حسب احدى النظريات التي درسها شرطا للتغيير.**

**- أبو سامح، من في الباب؟،جاء صوت واهن من بعيد عبر الممر الذي يعرفه جيداً الذي تطل عليه أشجار برتقال ورارنج يعرفها وتأكد انها لا تزال في مكانها، غير أنها كانت تحمل اغصانا واوراقا جافة مثل تلك التي شاهدها في البيوت التي مرت أمامه خلال نافذة السيارة وهو في الطريق الى هنا.**

**- أبو سامح، هل تسمعني؟**

**ارتفعت النبرة قليلاً حين لم يستجب العجوز الذي لا يزال يقف أمامه محبطاً، ربما ينتظر تلك الإشارات التي تنقله من ظلال العتمة التي يبدو فيها الى وهج الإستعادة. اما هو فيعرف ان أشباحا كانت تلاشت من ذاكرته ستستيقظ الآن بعد ان كان قد طواها الزمن وغشاها النسيان. الرجفة التي أصابت قلبه الآن وهو يسمع صوت أمه تنادي أباه باسمه هو هي التوكيد على ان ذاكرته لم تخنه وهاهي تستعيد في هذه اللحظة تفاصيل كثيرة من حياته السابقة لمغامرة المنفى ظن أنها انمحت أو أضحت طيفاً.**

**سرعان ما اطلت صاحبة الصوت المتماسك كما يعرفه جيدا منذ أن وعى عليه وهي تناغيه من وراء الباب مرخية بإهمال وشاحاً أبيضاً شفافاً فوق شعرها القطني تخطو خطواتها بدون مشقة كبيرة. بدت أكثر صلابة ببنينها القوية من الرجل الواهن الذي يقف الى جانبها والذي لايزال يتعكز على عصاه دون ان يتحرك من مكانه أو ينطق بكلمة. حين اقتربت أصبح أكثر توتراً والرجفة التي ضربت جوفه امتدت الآن الى شرايينه وبدأ جسمه يرتعش ثم في أعماق أعماقه شعر بحزن طاغ كأنه الحنين الذي ظل يراوغه كل تلك السنين. حين اقتربت أكثر الى حيث لا يزال "سامح" واقفاً أمام الباب الموارب أخذت عيناها بالإتساع وهي تحدق في الوجه الذي من الواضح انه أيضاً غرق مثلها في دوامة الإستحضار اليائس لنتف من ماضيه مثل تلك التي كانت ترددها في الطريق "أنوار عبد الوهاب" في أغنيتها لكنه يجد حنجرته قد شلت على النطق. لكن شرارة قدحت في قلبها فجأة، لحظة تعرفها الأمهات جيداً مثلما يعرفها العشاق الذين يجتمع شملهم بعد فراق طويل. جفلت لوهلة ثم انطلقت من داخلها صرخة دهشة بدت مكتومة ثم أصبحت قوية اجتاحتها بعدها نوبة بكاء حين شدت ذراعه التي كانت حينها قد امتدت نحوها لكي تضمها الى صدره. شعر في تلك اللحظة الوجيزة التي كان جسمه يهتز بها من أخمص قدميه حتى قمة رأسه بان شيئاً كامناً يستيقظ داخله، شيء ما يجعله يشعر بحاجة أن يتلقى الصفح عن خطيئة لم يرتكبها وعن ألام تسبب بها دون وعي ودون قصد.**

**في المساء إلتم شمل الأسرة التي وفد أفرادها جميعاً بعد أن وصلتهم أخبار وصول "سامح" التي كانوا يعتبرونها لحد اليوم مجرد احتمالات او اشاعات. "خالد"، الأخ الأصغر الذي يعيش مع الأم والأب، "ميسون" الأخت التي تعيش قريبة منهم في نفس الحي جاءت مع زوجها "عمر" وأولادها الثلاثة. الأم لازلت كما هي تلك المرأة المدهشة التي عرفها طيلة حياته، شخصية قوية وحازمة، من بين الجميع تبدو أكثرهم تماسكاً، رغم ما يبدو عليها من أثار أهوال السنين التي مرت عليها ومن مرارة بُعد ابنها البكر عنها دون تواصل. الأب منطوٍ على نفسه ومنفصل عن العالم الذي حوله بسبب الزهايمر الذي يعاني منه والذي جعل من دماغة مجرد مستودع خاوٍ من الذكريات وبالتالي من أي إحساس بالفقدان أو الإنتظار. تمنوا نوبة صحو قالوا انها تداهمه أحياناً لكنها لم تأت وفشلت كل المحاولات التي جرت منذ أن وصل لحثه على استعادة اي ذكرى من الماضي. بعض الأقارب والجيران مروا أيضاً للتحية ولكي يهنؤا "أم سامح" على عودة ابنها البكر، كما ان الخبر الذي انتشر في الحي كان مثيراً بما يكفي لكي يثير الفضول لدى الجميع لاستعادة الحديث عن ذلك الجار الشاب الذي اختفى منذ أكثر من عشرين سنة وبقيت حكايته مصدراً للقيل والقال.**

**وسط الجلبة ظل البعض من الجالسين يحملقون بوجه "سامح" يحاولون مقارنة ملامحه بتلك التي يتذكرونها، في حين ظل آخرون يتمعنون فيه بينما انشغلت اذهانهم باسئلة عما جرى خلال كل هذه السنين لـ"سامح" الذي عرفوه وهذا الذي يجلس بينهم الآن. اما هو فلا يزال يجاهد في البحث عن الأرضية المشتركة التي تجمعه بكل هؤلاء البشر الذين رغم قربهم اليه بدوا بعيدين جدا وكأن ما يفصلهما هو فج عميق من اللامعاني واللايقين. ينقطع التيار الكهربائي وتختفي تلكم النظرات التي تختزن في وقت واحد آلاف الأسئلة وآلاف الأجوبة. هذه هي المرة الثالثة او الرابعة منذ وصوله ينقطع الكهرباء عن البيت فجأة ثم يعود بعد ساعة أو ساعتين ثم يختفي بعد ذلك. هذه المرة ساد ظلام دامس لأن الليل كان قد حل ومع الأضواء توقفت المروحة وجهاز التكيف عن العمل وساد جو صيفي خانق مألوف له من ماضيه لكن جسمه يجد صعوبة في تقبله الآن. يوقدون شموعاً وفانوساً في حين يتناول البعض مراوح يدوية مصنوعة من سعف النخيل يحاول ان يتذكر متى رأها آخر مرة. ينتهى السكون الذي خيم في لحظات الظلام وتتحول الأنظار النهمة الى "سامح" من جديد.**

* **جو رومانسي، أليس كذلك؟هل تستمتعون بمثله في باريس؟، سأله "عمر" مع ضحكة لم يحر في فهم مغزاها.**

**خانته محاولة ان يجد اجابة مناسبة بلهجة بغدادية لكن اخته "ميسون" عاجلته هي الأخرى بملاحظة كانت السخرية فيها أشد.**

* **لكن بالتأكيد ليس رومانسيا مثل عشاء في مطعم على "السين" او في "الشانزليزيه".**

**ينتبه الى أصوات انفجارات ثم رشقات رصاص تدوي من بعيد ثم يتبعها تحليق لطائرات الهليكوبتر تبدو قريبة لكن الأحاديث والضحكات تستمر بلا مبالاة.**

* **لا تقلق هذه هجمات للمقاومة على القاعدة الأمريكية القريبة، قال "خالد" بلهجة لا ينقصها الهزء.**
* **سوف تعتاد عليها وأنت تنام وتصحو على أصواتها، اضاف "عمر".**

**تستمر حفلة المرح والخفة، بل والتهكم وهو لا يندهش بتاتا لأنه يدرك معاني غضبهم المكبوت وتمزقهم الداخلي ورفضهم الخفي لأشياء لا يبوحون بها ويسعى كي يفهمها ويستوعب معانيها التي تختفي وراء السخرية. هو يعرف هذه المشاعر جيداً خاصة من بحوث أجراها مع مهاجرين من "يوغوسلافيا" السابقة عادوا لوهلة من "فرنسا" الى "كرواتيا" و"البوسنة" وغيرها من الجمهوريات الجديدة وحكوا حكايتهم عن تلك الغربة الموحشة التي عاشوها وسط أهلهم وجيرانهم اللذين كانوا يلومون أولئك الذين عاشوا في المنافي عن نفاذهم بجلدهم وكأنهم هم المسؤولين عن المآسي التي عانوا منها.**

**الشاب الذي كلمه من شرفة البيت الذي يقابل بيتهم عند وصوله كان ممن زارهم ايضا للتحية والسلام عليه. حين تعرف عليه تذكر انه ذلك الصبي الصغير "مثنى" الذي اعتاد ان يجمع رفاقه من الصبيان كي يلعبوا كرة القدم أمام منزلهم مثيرين الصخب والإزعاج في الشارع. بالدشداشة البيضاء التي تنسدل الى تحت الركبة فوق سروال أبيض وبلحية كثيفة تحيط بها غترة بيضاء ارتخت على كتفيه بدا مثنى صورة مألوفة من أولئك المسلمين الذين يشاهدهم عادة يقطعون شوارع "باريس" يوم الجمعة وفي الأعياد كي يحولوها الى مساجد يصلون فوق اسفلتها. اندهش من عبارات الإحترام والتكريم المبالغ فيه الذي قوبل فيها من أفراد العائلة بما لا يتناسب مع عمره كمن يخشون قوة او سطوة في حين قابل هو ذلك التكريم بمهابة مصطنعة.**

* **عودة حميدة الى أهلك الذين ينتظروك منذ زمن طويل، قال له "مثنى" وهو يسلم عليه ممسكاً بكفه بقوة ظاهرة ومحدقاً في عينيه بنظرات جامدة مثل واحد معتد بنفسه في اشارات من لغة الجسد يدركها "سامح" جيداً ولكنه قابلها ببرود. غمره شعور بالإشمئزاز والخطر في آن واحد حين نظر في حدقتي عيني "مثنى" اللتين بدتا متسعتين بشكل ملفت وسط جفون مكحلة بالسواد ولكنه لم يجد كلاماً مناسبا للرد على تحيته غير شكره قبل ان يودعهم "مثنى" ويمضي.**

**المفاجئة الحقيقية تلك الليلة كانت قدوم "لؤي" رفيق صباه وشبابه الذي لم يفترق عنه الا يوم مغادرته "العراق" في لحظة وداع لم ينسها أبداً. عند باب صالة المطار وبعد أن أنزل معه حقائب السفر اقترب منه ليعانقه ثم همس في اذنه: "لا تفكر بالعودة مطلقاً، مهما يكن". هكذا قالها قبل أن يسرع الى سيارته كأنه أزاح عن كاهله عبئا ثقيلاً. وكما انقطعت الصلة بعائلته انقطعت بـ"لؤي" ايضا منذ ذلك الحين لكن بقيت هناك هواجس ترواده بان صديق عمره ربما يكون قد قتل أو أسر في واحدة من تلك الحروب العديدة التي من المؤكد انه شارك فيها كغيره من أبناء جيله. انتابته أيضاً أحاسيس انه ربما قد يكون اختفى مع من اختفى في البلد الذي شهد أبشع أنواع التجاوزات، وخاصة ضد أولئك الذين فضلوا ان يكونوا منشقين، أو حتى مجرد متفرجين، في تلك الأوقات الصعبة التي كان شاغل الناس الأساسي فيها هو الرغبة في البقاء.**

**انقضت دقائق وصديقا الأمس اللذان فرقت بينهما مساحات وأزمنة وتجارب ومحن ظلا متعانقيين بشدة. انتبهت "أم سامح" الى أن لقاء ابنها بـ"لؤي" كان أكثر حميمية من لقائه مع أفراد أسرته لكنها لم تندهش. هي تعرف ان "لؤي" لم ينس أبدا ابنها "سامح" وان الود والمعزة اللذان بقي يحملها عنه لابد انهما ظلتا تملأن تلك الفجوات التي خلفتها المسافة التي باعدت بينهما كل تلك السنين. اندهشت حين شاهدت "سامح" يأخذ بيد صديقه القديم الى ذات المكان الذي كانوا يجلسون فيه في الماضي في حديقة البيت كأنه لم يكن فراقاً دام سنين. تلفت الأثنان ينظران الى ما حولهما تحت ضوء شاحب من مصباح نيون بعيد يحاولان أن يستعيدا ذكريات جمعتهما في هذا المكان منذ فترة صباهما. الكثير تغير في هذه الحديقة التي ما عادت تحتفظ من اسمها سوى بعدة أشجار بدت انها تذوي أيضاً ببطئ مثل الناس المحيطين بها.بدأا حديثهما عبر أسئلة وأجوبة مقتضبة وكأنهما يستعجلان معرفة كل مافاتهما خلال كل هذه السنين لكنهما يؤجلان تفاصيل كثيرة ود كل منهما ان يسمعها من الآخر.**

**أدهشه ان "لؤي" يعرف عنه الكثير وعن عمله وحياته في فرنسا. قال له انه يعلم كل ذلك من خلال صديق له قضى سنوات يدرس في بعثة دراسية حكومية في "باريس" قبل أن يعود الى "بغداد". نقل له ذلك الصديق بان رجال السفارة كانوا يراقبون "سامح" بإمعان ويعرفون عنه كل شيء رغم أنهم لم يكونوا يضايقونه لإطمئانهم بأنه لم يكن يعمل في صفوف المعارضة ولذلك تركوا أهله بسلام أيضاً. تناقشا كثيراً في شؤون لم يكن يجمعها جامع ربما سوى تلك الخيوط التي تتشابك حول أحداث عامة وأمور خاصة وفراغات هائلة في الذاكرة حاولا ان يملأنها على عجل.**

* **ما فعلته كان عين الصواب. لو كنت عدت لأصحبت مجرد واحد منا، قال "لؤي".**

**يدرك "سامح" ما الذي يقصده صديقه القديم. بامكانه ان يحس بالمعاناة التي عاشها ويعيشها الآن.**

**- سوف ترى بأم عينك أي مستنقع نتن وقعنا فيه.**

**- يبدو لي أنك أيضاً أبليت بلاء حسناً. في مثل هذه الظروف المهم هو النجاة. ذلك بحد ذاته انتصار"، قال "سامح".**

**- لم نكن نمتلك شجاعة الإختيار لنرفض. خسرنا الرغبة بالمقاومة ولم يعد الموت يعنينا كثيراً. كل تلك السنين أمضيناها في هدنة مع النفس، نستبدل موتاً بآخر.**

**ترك "لؤي" الجملة معلقة هناك لأنه لم يكن متحمساً كثيراً للإسترسال في الكلام عن ذلك الماضي الذي لا تزال جروحه مفتوحة.**

**"سامح" أحس أيضاً بتوتر صديقه حين أخذه الكلام عن أيام النظام الشمولي وكأنه يجد صعوبة في الخروج من قوقعته التي قضى عمراً مسجوناً فيها. أدار الحديث بعيداً عن نبش الماضي ذلك وحكايات الآلام التي تحملوها فذهب بصديقه الى زمن أبعد جمعتهما فيه سعادة وبهجة. تذكرا طفولتهما في هذا الحي، كيف تعلما السباحة معا في "دجلة" القريب وعشقهما لصيد السمك ثم قيامهما بتنظيفه وشويه فوق رمال الشاطئ. استعادا ليالي الصيف التي كانا يقضيانها في صباهم على رصيف الكورنيش او سهراتهم مع أصدقاء آخرين في مقاهي "رأس الحواش".**

**قبل مغادرته أمسك "لؤي" بيد "سامح" وهمس له بأنه سيغادر قريبا الى "تركيا" مع عائلته لترتيب لجوئهم الى بلد آخر لأن البقاء هنا أصبح لا يطاق وسيكون قريباً مستحيلاً وسأله ما الذي سيفعله هو في "بغداد" وهل هي زيارة قصيرة أم أنه ينوي العودة النهائية.**

* **أنا هنا في عمل لعدة شهور لكتابة بحث وعلي أن أعود الى وظيفتي بعد ذلك.**

**عانقه مثلما فعلا تلك المرة قبل سنين طويلة حين ودعه في المطار.**

* **لا تبقى طويلاً وحاول أن تنهي عملك سريعاً وتعود.**

**أخر كلماته لـ"سامح" كانت الا يخبر أحداً بما يعمل وأن يجد له سكنا في منطقة أمنة والا يأتي الى بيتهم هذا كثيراً، أو اطلاقا.**

**\*\*\*\***

**3/1**

**اليوم هو الأخير في دورة التبليغ والتوعية التي يشرف عليها واعتاد كما في الدورات السابقة التي أقامها التنظيم أن يلقي المحاضرة الختامية فيها والتي ينهيها بمناقشة مع الخريجين الذين سيكونون مبلغين ينشطون لنشر أفكار الجماعة وفي كسب أنصار وأعضاء جدد له كي يكونوا الكوادر التي ستدير البلد. لم يجدوا مشكلة كبيرة في العثور على راغبين في الإنتماء رغم ان قيادة التنظيم كانت قبل الغزو تتوقع صعوبات في التجنيد سببها كما حللوا يومها هو أن معظم الأجيال الجديدة كانت قد انتظمت في حزب السلطة الذي يسمونه علماني، او أحياناً كافر. كانوا يخشون أيضاً ان الناس كلها خضعت لعملية غسيل دماغ طويلة ستجعل من تجنيد الأنصار في تنظيم ديني أمراً صعباً. تفاجؤا حين بدؤا يشاهدون الكثيرين يطرقون أبواب بيوتهم ومكاتبهم يطلبون العضوية، وليس فقط التعبير عن التأييد لهم. كان من بينهم مسؤولون في الدولة القديمة وضباط في جيشها وفي شرطتها يأتي بهم بعض الوجهاء في العشائر والمناطق الذين يتوافدون على الزعيم لإعلان الولاء أو للتبركة ويعلنون برائتهم من أي صلة بالنظام السابق ويطلبون الغفران. كانت أعداد المتقدمين كبيرة، وفي البداية خشوا من الإختراق أو النفاق لكن في النهاية قرروا ان الأمر يستحق المجازفة ووجد الزعيم لهم مخرجاً حين وصفهم بالتوابيين، تشبيهاً لهم بأولئك الذين حملوا وزر مقتل "الحسين" واسوة بالجنود الذين سقطوا في الأسر في الحرب مع إيران وقبلوا بالانضمام الى جناحهم العسكري.**

**- لماذا لازلتم تسمون التنظيم حركة الثورة الإسلامية رغم أن أحد المحاضرين ابلغنا انكم لا تسعون لدولة إسلامية؟، يسأل أحد المشاركين في الدورة.**

**- لماذا تسمونها الحركة الإسلامية، وليس الشيعية؟، يسأل مشارك ثاني.**

**اما الثالث فسأل: لماذ تسمونها حركة أساساً وليس حزباً؟**

**منذ عودته و"عدنان" يعمل ليل نهار في صفوف التنظيم محاولاً ترسيخ شعبيته وتوسيع قواعده اضافة الى مهمته الأساسية كمساعد، او اليد اليمنى للزعيم في إدارة شؤون الجماعة. مهمة كبيرة وخطيرة لأنه يعمل في الواقع كرجل الظل ومستودع الأسرار والمحارب على جبهات متعددة. لم يكن في البداية متحمساً للعودة النهائية الى "العراق" بعد زوال النظام القديم رغم أنه كان عضو ارتباط التنظيم بالطرف الأمريكي والذي عمل لسنوات معهم يخططون لكيفية اسقاطه والحلول محله. كان قد استقر في "بريطانيا" وأصبحت له عائلة هي زوجة وثلاثة أطفال كما أن عمله في ادارة مكتب عقارات أسسه من حصته في موارد التنظيم والمساعدات والهبات السخية التي تأتي من هنا وهناك تدر عليه بمكسب جيد. كانت غاية أمانيه ان يعين في السفارة في "لندن" أو في دولة أوربية قريبة بحيث يمكنه أن يزورها بسهولة لقضاء أعماله الخاصة في البلد الذي أصبح فعلياً وطنه. حين ألمح الى ذلك قبل الحرب استدعاه القائد الكبير الى إيران حيث يدير التنظيم من مكتبه هناك وعاتبه على التفكير بذلك.**

* **انت لست عيني وآذاني وثقتي، بل انت في مقام "بشار" ابني، قال له الزعيم مع تأكيد بانه سيكون له شأن كبير حين يعودون بعد تغيير النظام.**

**بعد رجعوهم أصبح أمام الأمر الواقع جعله الزعيم ساعده الأيمن، لم يرشحه لأي منصب رسمي في الدولة، بل أبقاه الى جانبه يدير له ملفات الجماعة المهمة وتكليفاته الخاصة التي اثبت في كل مرة براعته في أدائها. هو أيضاً أقبل على العمل بنشاط واندفاع مستغلاً كل طاقاته وخبراته في تنفيذ المهمات التي تناط به وانغمس يوما بعد يوم في اداء شؤون كان الزعيم يحرص على تكليفه بها دون غيره من كادر التنظيم.**

**أجاب على جميع الأسئلة التي وجهت اليه وطلب من المشاركين الإستعداد للإتحاق بالوظائف التي رشحوا لها في دوائر الحكومة.**

* **من الآن فصاعداً انتم ورثة هذه الدولة التي مَنَّ بها الله علينا وانتم حماتها وولائكم المطلق لسماحة السيد فطاعته هي من طاعة الله، أطلق عبارته الأخيرة ثم خرج وسط التهليل والدعوات التي ترسخت الآن كبديل عن التصفيق.**

**في الطريق الى مكتبه أراد ان يتأكد من أمر مهم كان قد طلب من جدته و"سلمى" القيام به وهو ان كانتا حضرتا مجلس العزاء الحسيني الذي تقيمه زوجة السيد ليلة كل خميس. لم يكن للبيبي مشكلة في الحضور لكنه كان قد طلب من البيبي ان تأخذ "سلمى" معها هذه المرة بعد ان ابلغه السيد برغبة زوجته برؤيتها مشددا عليها ان بضرورة اظهار الولاء والطاعة للزعيم واسرته. زوجته كانت قد ملت حضور هذه المجالس وامتنعت عنها لكن عندما أصر "عدنان" عليها وجدت في ذلك ذريعة للرجوع الى "لندن" مع أطفالها الذين كانوا يلحون على العودة من حيث اتوا بعد ان سأموا الحياة الكئيبة والرتيبة التي وجدوها هنا. البنت الكبيرة لم تتكيف مع أوضاعها وقالت أنها تريد مدرستها وصديقاتها اما الولدان الصغيران فلم يفهما الكثير مما يدور حولهما ولكنهما كانا يشعران بشعور أمهما بالغربة. حتى بعد أن انتقل بعائلته الى "المنطقة الخضراء" المحصنة والفسيحة قالت له زوجته انها لا تشعر بالأمان هنا لاعلى نفسها ولا على أطفالها والأفضل لهم ان يعودوا الى بيتهم في "لندن" بينما يتدبر هو أمره مع جدته وأخته.**

**حين أجابت "سلمى" على مكالمته قالت له حتى قبل قبل ان يسألها.**

**- كل شيء عال العال، فانتاستك، تعمدت ان تقولها بالانكليزية.**

**- لقد أنجزنا المهمة وعدنا الى قواعدنا سالمتين، اضافت بصوت واثق بالرغم من أنها حاولت الا تبدو ساخرة، بل مجرد مرحة وودودة.**

**- ابلغيه بأن العلوية\* أشادت به وباخلاصه للسيد كثيرا، قالت الجدة بينما قربت "سلمى" التليفون المحمول بحركة بارعة الى فمها ليسمع ما قالته بيبي بنفسه.**

**- اخبريها أني مشغول الليلة وسآتي للعشاء عندكم مساء الغد، أنهى "عدنان" مكالمته دون ان يقول وداعاً كما هي عادته.**

**مرات عديدة طلبت منها بيبي ان تصحبها الى هذه المجالس التي أصبحت تعقد بكثرة في المنطقة القريبة منهم ولكنها كانت تعتذر بأعذار شتى دون ان تحاول ان تجرحها بالرفض. لم تذهب اليوم معها اقتناعاً، ولا أيضاً انصياعاً لـ"عدنان" الذي قال لها مرة ان حضور هذه المجالس ليست أمراً مزاجياً، بل هي أمر تكويني وشعائر مفروضة على كل ابناء وبنات المذهب. ذهبت لأن فضولاً يتنابها بان تتعرف على هذه الطبقة الجديدة من الناس التي تتولى الآن حكم البلد من الداخل بعدما رأتها وعايشتها من الخارج. كانت تريد ان ترى بأم عينيها ذلك الجزء الغاطس من هذا العالم الذي تعيش وسطه ولكنها غير منغمسة فيه. كان القصر الكبير يعج بنساء كثيرات ورغم انهن يرتيدن العباءات الخليجية التي اصبحت رائجة، الا ان خامتها وطرازها كان**

**\*العلوية لقب يطلق على السيدات والفتيات من أصول هاشمية تعود الى سلالة الامام علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء.**

**فيهما من الترف والبحبوحة ما يشي بالكثير عن الأحوال المادية لهذه النخبة الحاكمة. بعد أن هرين أنفسهن في البكاء على ايقاع اللطميات التي كانت ترددها الرادودة والتي تتذكر بعضها منذ سنوات طفولتها في "كربلاء" توقفت الأيادي فجأة عن ضرب الصدور وجفت الدموع التي كانت تسيل على الخدود وبدا كل شيء مثل مشهد في مسرحية ينتهي لكن دون ان يسدل ستار أو تضاء أنوار المسرح. حين انتقلن الى صالة أعد فيها طعام باذخ رحن يتبادلن الضحكات والأحاديث التي لا تخلوا من مزاح وهن يلتهمن من الأطباق العديدة التي فرشت فوق الطاولات. كانت الحلى الذهبية المطعمة بالماس والأحجار تبرز من تحت الأوشحة الحريرية السوداء، أو الأكمام العريضة، وكأن من ترتديها حرصت على اظهارها سعياً للتباهي والمنافسة مع الآخريات. الواضح ان المدعوات يمثلن نساء من عوائل الحلقة الضيقة حيث ليس هناك الكثير ممن هي ليست زوجة او ام او بنت لوزير او مسؤول بارز او نائب في البرلمان. جميعهن ظهرن في حالة من الإنسجام والتوافق وكأنهن جئن الى هنا لنسيان ماضيهن وحياة العوز التي خلفناها ورائهن في مدن المنفى او الشقاء اللاتي جاؤا منها ويحاولن مثل رجالهن اعادة كتابته بكل ما أصبحوا يمتلكونه من شهوة للسلطة والثروة والجاه.**

**سألتها العلوية التي أخذتها من يدها على حين غرة وأجلستها أمامها في ركن من حديقة القصر الذي يطل مباشرة على "دجلة" ليس بعيداً عن بيتهم والذي تتذكر أنها كانت تنبهر به كل ما مرت من امامه عندما كان ساكنه أحد كبار مسؤولي النظام البائد:**

* **لماذا لم تتزوجي بعد؟**

**تعرف أنهم في بلاغة التشبيه يقولون في مثل هذه المناسبات انه نزل عليها كالصاعقة، لكن السؤال الذي فجرته بوجها لتوها حرم الزعيم أجج في داخلها نوعاً من السخرية القاتمة التي تستبد بها عادة في مواقف كهذه وتجعلها تهرب الى أمكنة لا يقوى من أغضبوها على اللحاق بها. رفعت رأسها بحذر ثم حركته يمينا ويساراً ثم نظرت في عيني العلوية من خلال النظارات السميكة الى ترتديها وقالت:**

* **يبدو أنني قليلة البَخت، أجابت، محاولة الا تبدي شيئأ من السخرية، أو ألغضب المكبوت.**

**لم يكن بوسعها أن تضع جانباً ما بدأ يساورها منذ فترة من قلق ويتأكد الآن بحضورها مجلس التعزية هذا من أنهم يريدون ضمها لهذه لقبيلة بتقنيات الإكراه هذه المرة بعد أن فشلت أساليب الإقناع بنهج شبيه بالذي كان يتبعه النظام السابق. لكن كيف تستطيع الفكاك من هذا الشرك الذي تريد هذه العجوز المتظاهرة بالتقوى والمتلبسة بالقداسة ان تنصبها لها دون أن تعرض للخطر أشياء كثيرة في حياتها وفي مستقبلها.**

* **لقد عوضكم الله خيراً بشهادة والديك وهما لن يرتاحا في قبريهما الا بعد ان يطمئنا انك سعيدة، قالت العلوية.**

**ودت ان تسألها وهل ماتا او قتلا كي يعم كل هذا الخراب ولكنها أكتفت بالصمت وبإبتسامة كلفتها الكثير.**

* **وبإمكانك ان تطلبي من الله ومن الأئمة، سلام الله عليهم، ما تقضين به مرادك.**

**تهز "سلمى" برأسها مرتاحة ان كلام العجوز لم يأخذ لحد الآن منحى تصعيدياً.**

* **ليس بإمكاننا ان نطلب من الله حاجات لا نعرفها، اجابت "سلمى"| دون أن تدري ان كان ذلك هو الجواب الصحيح ام لا.**
* **لكنه يعرفها ويتدبرها لنا، أو يوكل ذلك لخيرعباده.**

**صمتٌ من جديد مليء بالتأملات التي تعيد للذهن تنوعات متشابكة عن فتاة وُضعت أكثر من نصف عمرها في عزلة، وها هي تعيش النصف الآخر تراوح فيه بين ماضيها الذي لا يبرح روحها بأشباحه وأمانيه وبين مستقبلها الزاحف بين ترهات الحاضر وشكوكها بالممكن. تشعر أن سياجاً مشبكا من تلك التي تراها منصوبة في أنحاء المدينة لكنه مخفي بجذوع وأغصان أشجار يابسة قد انتصب بينها وبين هذا العالم، لكنها تؤمن دون ان تدري لماذا انه على وشك الإنهيار.**

* **ذلك ما اظنه، قالت "سلمى" لحرم الزعيم دون تململ هذه المرة قبل ان تسمع صوت جدتها، او ملاكها الحارس، وهي تستأذن العجوز لهما بالإنصراف لتأخر الوقت.**

**في السيارة التي أقلتهما عائدتان الى البيت ران صمت ثقيل لكن "سلمى" التي تقرأ أفكار البيبي مثلما تقرأ كف يدها أدركت انه صمت مدوي هي وحدها تعرفه وتعرف ما يخفي في طياته من غضب كامن وفضلت ان تترك لها كيف ومتى تكشف عما يدور بخاطرها. لكنها كانت ممتنة على أية حال انها أنقذتها في لحظة كادت تجد نفسها تدخل في تلك الدهاليز المضطربة الغريبة في حياتها التي لم تراودها كوابيسها المرعبة منذ زمن. كانت تحتفظ بها سراً جاثمة فوق صدرها وتعتقد أن الحياة الجديدة التي بدأت تشق فيها طريقها كفيلة بشفائها منها في أحد منعطفاتها التي ستأتي بغتة. حين نظرت من شباك سيارة الدفع الرباعي التي أرسلها لهما "عدنان" الى "دجلة" من بعيد كان الظلام دامساً فوق سطح النهر الممتد بعيداً والذي تنعكس عليه مصابيح متوهجة نصبتها القوات الأمريكية المرابطة هناك في "المنطقة الخضراء". على سطح زجاجة الشباك رأت شبح إبتسامة ترتسم على وجهها حين أشعل السائق سيكارته من ولاعة أضائت جوف السيارة**

* **ماذا لو كنت قلت لتلك العجوز انني مترهبة، أسرت لنفسها.**

**تمضي "سلمى" أيامها بطريقة لم تتخيلها من قبل اذ يأخذ وجودها في عملها جلً اهتمامها وتكرس له طاقتها وشغفها حيث مامن شيءً آخر تشغل به نفسها. وجدت أن خزينها من المعلومات والمعارف التي تراكمت خلال السنين التي قضتها بين جدران البيت قد صقلت خبرتها العملية في الحياة وفي الوظيفة والتي تكتسب اشياء جديدة منهما كل يوم. أنهت خلال هذه الفترة دورات تدريب في العمل الدبلوماسي ودورة تقوية في اللغة الأنكليزية وتستمر في تعلم اللغة الفرنسية. تأسرها تلك النغمات الموسيقية التي تخرج مع الأصوات والجمل في هذه اللغة التي تتخيلها منبثقة من ألوان لوحات تثير البهجة والسرور. ساعدها كل ذلك في عملها في دائرة الشؤون الدولية الذي يجعلها على تماس مع دبلوماسيين أجانب ومسؤولين يعملون في منظمات دولية كما تلتقي في نفس الوقت بافراد ينتمون الى منظمات المجتمع المدني بدؤا يتكاثرون كالفطر ويندمجون بشكل وثيق مع كل هؤلاء الموظفين الدوليين. سرعان ما بدت تعي أن خلف هذا العالم الكريه الذي تنفرط فيه آمالها وتتبدد وتشعر فيه بالوحدة والغربة يكمن عالم آخر تعرفه فقط في الكتب التي عاشت مع حكاياتها ومع أبطالها وان ما عليها الآن الا أن تجد لنفسها متسعا فيه.**

**في البيت قررت ان تقضي ما تبقى من ساعات الليل في القراءة. اختارت ان تقرأ الليلة رواية وحين جالت بين رفوف الكتب الأدبية التي رتبتها في غرفة المكتبة وقع بصرها على روايات "احسان عبد القدوس" "لا انام"، "الوسادة الخالية"، "أنف وثلاثة عيون" "النظارة السوداء" التي قرأتها في مرحلة ولت وشعرت بان ليس ذلك ما تبحث عنه فتحولت الى مجموعة من روايات قديمة كان يحتفظ بها والدها فوق أحد الرفوف فاختارت من بينها رواية "الأبله" لديستوفسكي التي عشقت فيها شخصية بطلها الأمير "ميشكين" منذ أن قرأتها لأول مرة قبل سنين. أسر قلبها ذلك الأرستقراطي بطيبته الطفولية وببساطته وبصورة المسيح التي حاول أن يرسمها له "ديستويفسكي" الذي يجد في آلامه تطهيراً له وجعلها تتساءل يومها هل يستطيع نبي مثل هذا أن يعيش وسط شرور العام الذي حوله. ما ان انهمكت بإستعراض التفاصيل الدقيقة التي يرسمها "ديستوفيسكي" للشخصيات في المشهد الإفتتاحي لروايته في مقصورة الدرجة الثالثة لقطار وارشو-بطرسبيرغ الذي تبدأ به الرواية حتى كانت بيبي تتقدم نحوها مع صينية تحملها بيديها كان فوقها استكانين وقوري الشاي وصحن صغير عليه بعض قطع من الحلوى.**

* **كنت أظن انك مرهقة وستؤين الى فراشك مبكراً الليلة، قالت "سلمى".**

**صبت بيبي الشاي المهيل من القوري الخزف الأبيض المزين بنقوش زرقاء الذي لا تخرجه من خزانتها عادة الا عند وجود ضيوف دون ان تجيب.**

**- لدي إحساس ان لديك شيئا ما تريدين قوله.**

**- كان لدي احساس بما الذي كانت تريد منك العلوية، قالت الجدة أخيراً.**

**- حقاً؟ ولكن لماذا لم تخبريني؟**

**- لم أتوقع منها ان تتتجرأ. بماذا اجبتها؟**

**- لا شيء.**

**- يعني هل سكتي؟**

**-لا أبداً. الصمت سيفسر علامة رضا. في عملي هناك أشياء يسمونها التكتيك أو التمويه أو المناورة، ودائماً ما يصفون ذلك بالأسلوب الدبلوماسي. أنتِ بإمكانك ان تسميه تقية."**

**- ربما يجدر بي أن أخبرك الآن حكاية لم يتسن لي أن أطلعك عليها من قبل، قالت الجدة وهي ترشف ببطئ من استكان الشاي المزين بطلاء ذهبي.**

**وضعت "سلمى" الكتاب جانباً ثم نظرت الى جدتها بحنوٍ وفضول.**

* **في عصر أحد الأيام منذ سنين دخل علينا والدك ومعه شابة لم نكن نعرفها أو قابلناها من قبل. بعد أن حيتني تركها جالسة جنبي في الطارمة التي في الحديقة بينما دخل الى البيت كي يأتي بجدك.**

**تطلعت "سلمى" الى جدتها بفضول وهي تستمع الى حكاية بدا المشهد الإفتتاحي فيها مشوقاً أكثر من مشهد القطار في رواية "ديستوفسكي" السائر وسط الثلج والضباب.**

* **كنت جالسة الى جانبها وأنظر اليها بدهشة ولكنه استغراب لم يخل من ترحيب حين عاد مع جدك وقبل أن نسأله تلك الأسئلة التي كانت قد بدأت تتقافز في ذهن كل منا أسرع والدك بالقول أقدم لكم زوجة المستقبل ثم راح يتحدث دون توقف بينما غرقت أنا في ذاكرتي أسترجع تلميحات من أبي وأمي مرات عديدة ترد فيها اشارات عن أيام جمعتهما معا في كلية الطب.**

**تحب "سلمى" طريقة جدتها في القص وهي تعودت على أن تتركها تسترسل بالتفاصيل دون مقاطعة لكن شيئاً ما داخلها كان يستحث بيبي هذه المرة على الدخول في صلب الموضوع مباشرة. تملكتها الحماسة وبلهفة لمت ساقيها وتربعت مقتربة من حافة الآريكة ووضعت ساعديها فوق ساقيها وحدقت بعيني جدتها جيداً لكنها فشلت ان تتصور ماذا حصل بعد ذلك.**

* **أكمل المفاجأة بقوله اختصرت المسافة عليكما وجئت بها اليكما كي تخطباها لي.**

**سرحت بعيداً بينما كانت الجدة لاتزال تسترسل في سرد قصتها التي شعرت "سلمى" أنها ليست بحاجة الى أن تكملها لها. راودتها أشتات من ذكريات الفجيعة بأمها وأبيها، تلك التي عاشتها وكانت تنبش بها كل تلك السنوات مع ذلك الماضي الأليم. ما تخبره بها بيبي الآن يهز عواطفها وينكش في رأسها على عجل أطياف والديها لا كما تعودتهما وسط هالة من الغيمات الداكنة، بل زوجان يعيشان ببهجة كقوس قزح وسط سماء غسلت لتوها بالندى. خذلتها ذاكرتها بأن تستعيد مشاهد لأبويها تجد فيها ملامح من هذا المشهد الرومانسي الذي تحدثت عنه جدتها، ملامح لا بد أنها جرت أمامها وهي طفلة مثل قبلة تحية أو احتضان حميم. نطت من مكانها الى المكتبة وعادت وفي يدها البومات بدأت تبحث في طياتها عن صور بعينها لوالديها كانت قد رأت منها واحدة كان أبوها يحضن فيها أمها وهما يسيران في ممشى تحف به أشجار باسقة ربما في حديقة عامة ملحقة بقصر تاريخي.**

**- هل رأيت هذه الصور من قبل وهل تتذكرين عنها شيئأ؟، سألت "سلمى".**

**- اظن أنهما كانا في رحلة شهر العسل في أوربا.**

**فكرت أن تسألها لماذا فتحت معها هذا النقاش الليلة ولكنها لم تكن بحاجة الى جواب.**

**- هل لو كانت ابنتك هي من فعلت ذلك وجاءتك بشاب الى البيت وقالت لك انها تريد ان تتزوجه كنت أنت وجدي ستتصرفان بنفس الطريقة؟**

**- ربما لا، ولكننا بالتأكيد لم نكن لنجبرها على شيء لم تكن ترغب به.**

**دون انتباه منها فاضت على ثغرها إبتسامة صغيرة.**

**منذ أشهر تلحظ "سلمى" تغيرا بدأ يطرأ على بيبي، تحولات في بعض أرائها وفي طباعها وفي سلوكها، تغيير تستطيع ان تسميه مراجعة. هي كالعادة لا تبوح بمكنوناتها العميقة ولكن هناك تغيير ما بكل تأكيد حتى باتت سلمى تشعر بأن جدتها تعيش حالة صدمة، أو شك، أو بالأقل حالة فراغ وتأمل عميق في ما يجري من حولها. منذ ان وعت على محطيها العائلي كانت "سلمى" تدرك هذا الإنتماء القوي للتشيع لدى الجدة بالذات وترى انجذابها الروحي للأئمة ولأهل البيت عموماً أصيلاً ونابعاً من ايمان راسخ وليس مجرد طقوس فطرية كما كانت تجده لدى الكثيرين. بعد ان عاشاً معا بعد مصيبتها بوالديها كان جل هم الجدة هو مداراة حالهما والنجاة من الأذى الذي قد يلحقه بهما النظام وأعوانه. حين حصل التغيير ولم يعد هناك ما يخشى منه كان لا بد، كما بدأت تقول، ان تسقط التقية وأن ينطق اللسان بما في القلب وشرعت تمارس الطقوس التي كانت قد تركتها للمصلحة واتقاءً للضرر وعادت اليها بكل ما في بدنها من قوة وفي عقلها وقلبها من ايمان. لكنها بدت في الفترة الأخير تميل الى السكون الروحي وأخذت تحي صلواتها وتتلو أدعيتها بوجد واسترخاء بدني وذهني أشبه بمن يمارس اليوغا.**

**في البداية ظنت "سلمى" ان الأمر قد يكون اشباعا بعد حرمان طويل، أو نفوراً من الإفراط الذي بدأ يظهر في ممارسة الشعائر التي تم اعادة إحيائها ولكن ببذخ وضجيج وأهتياج لا تستسغيه جدتها التي كانت لصيقة بذاتها دائماً حتى أنها اعتادت ممارسة عباداتها لوحدها في حجرتها الخاصة. الا أنها بدأت تلاحظ مؤخراً ان هناك شيئاً ما يحدث في داخل كيان البيبي هو الذي يجعلها تنكمش داخل قوقعتها أكثر لكنها لا تتوقع منها أن تبوح بما في مكنونانها كالعادة. كان حضورها الى هذا الجمع كما حصل الليلة لا رغبة في الإندماج في لعبتها بل لمجرد تطيبً خاطر حفيدها ولكن بدلاً من ان تلبي او تشبع حاجتها الروحية وجدت فجوة كبيرة تفصل بينها وبين الحشود.بدأت ترتاب في تصرفات أولئك القادمين الجدد وتشعر بافتراق سكتها التي تربت عليها عن سكتهم التي تتضح يوماً بعد يوم أن لاعلاقة لها بالمذهب الذي تعرفه جيداً وتؤمن به وتمارسه إيمانا وحباً وورعاً.لا شيء في ما تراه أو تسمع به عن حياة هؤلاء ومن بينهم حفيدها "عدنان" قريب من صورة رموز التشيع وشهدائه التي تحتفظ بها في عقلها ووجدانها والتي لا تريد ان تتشوه او تتلوث.**

* **أتعلمين من هي تلك المرأة التي أصرت على ان تجلس الى جانبي في المأتم؟**

**هزت "سلمى" رأسها بالنفي.**

**-"انها زوجة "عدنان" السرية.**

**رمت بيبي قنبلتها وحملت صينة الشاي ومشت وكأنها لا تريد ان تفتح باباً للحديث لكنها فتحت بدلاً عن ذلك ممراً معتما وطويلاً تاهت به "سلمى" برهة طويلة قبل ان تصحو. من المؤلم أن ترى أقرب الناس اليها أبعدهم عنها. كانت سعادتها بعودة أخيها تعادل فرحتها بزوال النظام الذي أخذ منها ابويها وأبعدها عنه. شعرت بأنها لم تعد وحدها في هذا العالم القاسي وبان شمل العائلة سيلتم من جديد وان ذلك سيعوضها عن آلام الفقدان والخسارات التي عانتها. غير ان كل ذلك يتبدد سريعاً مثل كل شيء من حولها. بعد أيام قليلة من عودته اكتشفت ان هناك هوة عميقة تفصل بينهما ظنت في البداية أن سنوات الفراق الطويلة والمسارات المتباعدة التي اتخذتها دروب حياتهما ربما كانت وراء ذلك. أحياناً كانت تعتقد أن الطبائع الشخصية والأفكار والثقافة التي تشبع بها كل منهما قد تترك تأثيرها أيضاً. حاولت ان تجد له أعذاراً، كمسؤولياته الجسيمة في العمل والظروف الصعبة التي يمر بها البلد والضغوط التي يتعرضون لها جميعاً. ظنت وهي التي عاشت سنيناً تختبر ذاتها تحت نظام القمع وتنال منه ما تنال انها تمتلك من الصلابة ومهارات التحمل ومواجهة التحدي ما يكفيها من تحويل أية صدمة تواجهها الى فرصة للأمل. لكن الفجوة تغدو كل يوم جفوة وما بدأ بعدم توافق أو تواصل انتهى بمساحات من الصمت أخذت تتسع وتكبر لكي تصبح الآن سياجاً عالياً من العزلة يحيط بعلاقاتهما الأخوية. لم يكن ذلك مجرد شعور شخصي بالخذلان وخيبة الأمل، فقد عودتها تجربة عمر كامل من الفقدان والعزلة ان تكون على استعداد دائم للهبوط من علياء الخيال والأماني الى سفوح الواقع وقيعانه. لم يعد الأمر مجرد حلم يتبدد فقد قررت أخيراً ان تضيف ذلك الى قائمة خسائرها الكبرى فما تراه الآن ليس "عدنان" الأخ، بل ذلك المثال الذي تخيلته وتمنته دائماً مثل أبطال روايات او أفلام كثيرة، مناضل ضد الطغيان ومن أجل الحرية والعدالة يهوي أمامها الى نموذج آخر من نماذج الإنحطاط والزيف التي بدأت تملأ حياتها.**

**في مذكراتها تلك اللية كتبت:**

**السبت 16/4**

**الأسبوع الماضي مرت سنتان على الحدث الذي كان يفترض وفق السيناريو القديم الباذخ الخيال أن أجلس مع من شاركني الفرحة والأمل في مكان ما ونوقد شمعتين، نحتفل بهذه الذكرى كعيد للحرية وسط أزهار القرنفل التي تكون عادة قد تفتحت في حدائق "شارع أبو نؤاس" في هذا الوقت من العام. ذلك لم يحدث بطبيعة الحال لأن سيناريو آخر هو الذي احتال على أمثالي من القادمين الى شواطئ التفاؤل بعد ضياع في بحار التوهان وفرض نفسه بالنهاية وحول لحظة الإحتفال الى زمن طويل من الإحساس الطاغٍي بالغربة والإستلاب. بعد سنتين منذ ذلك الحدث ما عاد الا القليل ممن يرونه تحريراً في حين يحتار العديد من الناس في ان يسمونه تغييراً أو سقوطا للنظام البائد او حتى غزواً. أما أنا فقد اخترت منذ مدة ان أدعوه ب 9 نيسان بالأقل وهو أمر أجد ان البعض ممن هم في دائرة عملي يستغربونه. في داخلي يلازمني شعور أكثر مرارة ويأساً وحنقاً. ما تستدعيه المناسبة في ذهني هو اننا بعد عامين سقطنا فعلاً في الوحل وبدل ان ندخل الجنة الموعودة ولجنا بيت الأفاعي والعقارب وأوكار الذئاب التي بناها على عجل محتلون ومحتالون، أغراب وأنساب وأهل وجيران. ولأني أعيش التجربة بنفسي وأرى الإنزلاق الذي نحن ماضون اليه فاني لا أشعر بالإحباط فقط، بل كذلك بإحتقار شديد لنفسي وبتأنيب الضمير كوني صرت جزءاً من هذا العالم وأدفع الثمن بهذه الكأبة التي تتسلل الى روحي.**

**في بداية الصدمة التي أيقظتني بدأت أسئلة كثيرة تروادني، أسئلة تحاول أن تجد تفسيراً ، معنى ، أو تبريراً لدوران الأحداث منذ ذلك اليوم الصاعق قبل عامين وفيضان التقلبات التي جاء بها فأقوم بطريقتي التي تدربت عليها أن أربط بين الدال والمدلول وأن أضع كل الأشياء في سياق ما يجري. لم أرد أن يكون موقفي انفعالياً عاطفياً ففي اللحظة التي بدأت تغادرني سكرة الفرح بسقوط الطاغية وحين بدأت طاحونة الخراب والدم تدور بدأت معها تلك الأسئلة تجول في رأسي، وبقدر ما كانت الأحداث في الخارج مجلجلة كانت أفكاري مرتبكة ومشوشة تحاول ان تجد تبريرات بأنها لحظات انفجار التناقضات الاجتماعية والسياسية، او ما نسميها في محيط خبراتي المكتسبة في عملي الجديد بالإرتباط مع المنظمات الدولية بمخاض الفترة الانتقالية، التي تستوجب الصبر والأناة.**

**في الأيام الأخيرة حل بي محل الأسئلة الشقية والأجوبة العصية شعور بالعبث وأحساس عميق بخيبة الأمل وشيئاً فشيئاً لم يعد هناك ما يفاجئني أو يثير دهشتي حول ما يجري من حولي وبدأت أنزلق الى ما أخشى ان يكون حالة فصام. على المستوى العام تبخرت تلك الآمال والأحلام التي راودتني ببدء عراق جديد ودولة حديثة ومجتمع عصري حر سأشارك في بنائه على أنقاض الدولة المنهارة. أكثر كلمة أصبحت تثير قرفي هي كلمة التغيير التي أسمعها يومياً مئات المرات تتردد على ألسنة ناس تنقصهم لهفة ان يتغيروا حتى اذا كانوا على اطلاع على تلك الحكمة الشائعة بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ما أراه وأعيشه اليوم ليس نهوضاً، او حتى سعياً لانجاز متطلبات مرحلة الانتقال، بل هو بداية انهيار مادي ومعنوي تلوح تباشيره في الأفق مشوبة بروائح الموت القادم من تفجيرات ينفذها من هم يعيشون وسطك. وعلى المستوى الشخصي لا شيء تغير فيَّ أنا سوى قطعة الحجاب البغيضة وهذه العباءة السوداء الكئيبة اللتان أصبحت التحف بهما حسب الموضة التي أصبحت سائدة بالعرف والتقليد، والأهم الفرض بحكم كوني أصبحت محسوبة على جماعات النظام الجديد. عاودتني أشباح الماضي، الحرمان من الأبوين في الطفولة، مراهقة لم أذق معانيهما سوى فوق صفحات الكتب والمجلات وخيالات تأخذني الى عوالم لا تنوشها يدي ثم تهبط بي في واقع المخاوف من الغدر المتربص في الزوايا ومن صولات الزمن الجائر وهواجس عن مستقبل أرى فيه هو نفسه هذا التغيير الذي تلوك به الألسن. الإيفادات التي أرسل بها الى الخارج مع الوفود والمؤتمرات الدولية التي أحضرها هي الفرصة الوحيدة التي أصبحت أتحرر خلالها من كل هذه السخافات التي تحيط بي وأتمنى ان تكون السفرة القادمة بعد أسبوع فرصة كي أرى "نيويورك" واسير في شوارعها في الليل واسمع هناك "فرانك سيناترا" وهو يغني لمدينته وأحاول ان اعرف لماذا يدعونها التفاحة الكبيرة."**

**حين غفت "سلمى" تلك اللية رأت في منامها ذلك الحلم الذي أصبح يروادها منذ فترة وكأنه على موعد دائم معها. كانت في زورق وسط خليج هادئ بين جزر صغيرة ذات جبال عالية وافرة بالأشجار الكثيفة. وحدها تجذف في مياه رقراقة يتغير لونها بين الأخضر الزمردي والأزرق الآزوردي تبحث عن شاطئ بين الصخور الممتدة على حافات الجزر المتبعثرة. كانت تشعر بإطمئنان بانها ستلقى شاطئ الأمان ذلك قريبا. حين صحت كان ذاك المشهد الأخير لساحل رملي تطل عليه شجيرات نخيل عملاقة يطل من بعيد مشوشاً وحين حاولت ان تسترجع الحلم من أوله كان الشريط يدور في رأسها فوضوياً في ترتيب لقطاته لا يسعفها أن تتبين أين هو ذلك العالم سوى ادراكها السريع أنه بعيد جداً فتتخلى عن المحاولة مكتفية برؤية الشعاع يذوي وسط الظلام مثلما يحدث مع المشهد الأخير لأي فلم في دار السينما.**

**\*\*\***

**3/2**

**تسمر "الحكماني" أمام شباك الصالة يتطلع عبره الى الحديقة خارجها والتي غاب عنها ألقها الذي لابد أنه كان يوماً ما يشع على أشجارها وشتلات ورودها ونجيلها. الآن تحول كل شيء فيها الى اللون الرمادي المصفر بعد ان نالت نصيبها من الخراب الذي يعم أرجاء المدينة. كانت السماء صافية كما هي غالبا في الموسم الذي يفصل بين الخريف والشتاء لكن تتخلل أفقها الأزرق سحابات من غيوم تتحرك ببطء نحو الجنوب بإمكانه ان يرى ظلالها تتساقط على واجهات البيوت المقابلة فتلهب بداخله شعوراً من الإنقباض والتوجس. غير أنه يعلم بان مزاجه السيء لا يعود الى الأكتئاب الموسمي ولا الى اهمال الحديقة التي ينوي العناية بها اذا ما طال به المقام هنا ولكن بسبب تلك الأفكار المضطربة التي تستولي عليه. قرر ان يضع النقاط فوق الحروف في اجتماع اليوم وأن يبلغ رفاقه بأن كلمة المقاومة هي العليا. "ربما يظنوني أحمقاً في السياسة وجاهلاً بالأهداف التي يرومونها، أو لعلهم يعتقدون بأنني أقوم بما أقوم به كي أترك لهم بعد ذلك الأمر يقررون هم ما يشاؤون بشأن مصير المقاومة". كان ذلك هاجسه الذي يلاحقه منذ أيام بعد ان أصبح على يقين بأن هناك في القيادة من يسعى كي تكون المقاومة مجرد وسيلة او ورقة بيدهم يتحكمون بها بذريعة الجمع بين السياسة والبندقية، المقولة التي بدأت تستشري في التنظيم.**

**لم يأت المؤتمر الصحفي الذي أقامته مفوضية الإنتخابات للإعلان عن نتائج الاستفتاء على الدستور والذي اجتمع هو وبعض رفاقه ليشاهدوه على "قناة العربية" التلفزيونية بمفاجئة. فدستور الدولة الجديدة التي يسعون في المقاومة منذ أكثر من سنتين الى منع قيامها اصبح الآن حقيقية واقعية بعد ان فشلت محاولات اسقاطه عبر سلسلة التفجيرات والهجمات التي شنوها لعرقلة عملية التصويت. لم ينتابه شعور بالقلق او الضيق هذ المرة، بل يحس بحالة من الخواء وكأن كل الغضب الموجود في العالم تراكم في جوفه.**

**- المهم ان الانتخابات فشلت في مناطقنا، وهذا نجاح كبير بحد ذاته، قال "أبو نشوان" الذي بدأ يقرأ من ورقة ملاحظات سجلها: "تقرير المفوضية يشير ان هناك انخفاض كبير بالمشاركة في مناطقنا."**

**- لولا عمليات المقاومة لما قاطع الناس الانتخابات، تدخل "أبو أنس" مصدقاً ومثنياً على كلام زميله.**

**- لا ينبغي أن نبتهج كثيراً. لم نستطع اسقاط الإنتخابات. الروافض والأنفصاليون في الشمال سيعلنون أنهم حققوا الأغلبية واننا أصبحنا مجرد أقلية معزولة في دولتهم الجديدة، قال "أبو حازم" وهو يشير الى اكتساح الجماعات الشيعية والسنية لمقاعد البرلمان.**

**- سيتعين علينا منذ الآن ان نتهيأ للإنتخابات القادمة ونختار قوائم ممثلين عن مناطقنا للبرلمان، أضاف "أبو قصي".**

**منذ عام أصبح لكل عضو في المقاومة أسماً حركياً، بل شمل ذلك أيضاً الأشخاص الذين تقرر ان يتسللوا الى مفاصل السلطة كي يلعبوا دور حصان طروادة في داخل النظام الجديد. كان "الحكماني" يود ان يعمل منفصلاً عن هؤلاء الثرثارين ويتركوا له حرية العمل مع أخوته من المقاومين الحقيقيين ولكنه يعرف ان نتيجة ذلك هي القطيعة مع القيادة. تركهم يتبارون في تبادل التعليقات بشأن نتائج الإستفتاء في حين ظل هو ساهماً يحدق هذه المرة في فضاء الصالة التي زينتها من الجهة التي أمامه أرفف من خشب الصاج صفت فوقها كتب بطريقة منمقة في حين علقت على الجدار الذي الى يمينه ثلاث لوحات زيتية برسوم تجريدية يتفرس في تفاصيلها لكنه غير قادر أن يجد لها تفسيراً أو معنى. الى اليسار كان هناك شباك ألمنيوم واسع انسدلت فوقه ستائر مخملية أنيقة بيضاء موشاة في وسطها بنقوش بلون اخضر فاتح يدخل من خلالها المزيد من الضؤ الى هذه الصالة الواسعة. منذ أيام انتقل الى هذا البيت في منطقة "السيدية" والذي يعود الى أستاذ جامعي كان قد أجبر هو وعائلته الى النزوح من الحي الذي اصبح مع أحياء عديدة في غرب "بغداد" تحت سيطرتهم شبه الكاملة بعد تطهيره من الرافضة وغير المتعاونين. كان ذلك أوسع وأرقى بيت فارغ في الحي فاختاره كأحد مقراته بعد قرار قيادة المقاومة أن يتفرغ بعض الوقت للعمل والتنسيق مع القيادات السياسية في التنظيم.**

**حين سمع التعليق الأخير وأحس بان كل واحد منهم قد أدلى بدلوه في عملية التقيم التي التأموا بشأنها نهض من فوق القنفة التي كن قد عاد اليها وأختار مكاناً وسط الصالة ثم رفع يديه الأثنتين كأنه يطلب منهم التوقف التام عن الكلام. كانت عيناه تترددان ما بين الثريا الكريستال الكبيرة التي تتوسط سقف الصالة واللوحات الفنية التي يصعب عليه فهمها وبين الشباك الذي يستطيع ان يرى من خلاله أغصان الأشجار الذابلة تتلاعب بها رياح خفيفة هبت. وضع يديه على خاصرته كما كان يفعل في الجيش وهو يلتقي بمرؤسيه في ساحات او قاعات التدريب او في ميادين القتال لكنه أنزلهما سريعاً عندما فطن ان منظره متخصراً سيكون نشازاً وهو يرتدي الدشداشة وليس بزة القيادة العسكرية لكنه ظل يتفادى النظر مباشرة الى عيون المجتمعين التي سلطت عليه.**

* **اسمعوني جيدا. هذه أمور لا يجب ان تشغل بال المجاهدين كثيراً. علينا في المقاومة ان نركز على ما بدأنا به وهو الجهاد، مصير البلد الآن بيد المجاهدين وليس بعدد الكراسي التي نحصل عليها في البرلمان.**

**خيم الصمت في المكان لبرهة ونظر الرفاق الى "الحكماني" ووجوهم تفيض بتساؤلات والحاح صامت على ايضاحات منه. البعض انتبه الى تركيزه على كلمة الجهاد وكأنه يريد ان تحفر الكلمة حروفها النارية عميقاً في أذهانهم. كانت قيادة التنظيم قد أقرت منذ أشهر مساريين مزدوجين لاستراتيجية المقاومة أحداهما مسلح والثاني "سلمي" قالت انه يهدف الى اختراق العملية السياسية والحكومة على أمل ان يؤدي ذلك الى اسقاط النظام الجديد.**

* **لو كنا تخلينا عن الجهاد لحظة واحدة ما كنا نجتمع اليوم في بيت هذا الرافضي وان نسيطر على نصف العاصمة لحد الآن. علينا ان نكمل طريقنا هذا وان نفرغ باقي أحياء "الكرخ" واحداً بعد آخر من الرافضة"، أضاف "الحكماني" وهو لايزال واقفاً يتنقل بين وجوه الحاضرين التي تتطلع لمعرفة المزيد مما يرمي اليه.**

**يعرف "الحكماني" ان هناك ميلاً لدى قيادتهم العليا نحو نهج موارب خلاصته أنهم مع العملية السياسية بالنهار ومع المقاومة ليلاً. أكثر ما يثير قلقله اليوم هو صمت "مازن الوناس" الذي لم ينطق بكلمة واحدة لحد الآن وشغل نفسه بالنظر الى رفوف الكتب التي كان يجلس أمامها.**

**المعلومات التي لديه ان "الوناس" هو واحد من الذين نسجوا استراتيجية المقاومة التي سموها "خطان متوازيان"، أي السلاح والسياسة وتمكنوا من اقناع قيادة الحزب بها بعدما جادلوا لفترة طويلة بأن ما يعوزهم هو التكتيك السياسي والمرونة التنظيمية. مرات عديدة أعرب "الوناس" عن اعتراضه على استخدام العنف المفرط ، او العشوائي كما يسميه، وأحياناً كان يصل الى حالة الغضب بشأن تصفيات طائفية او التهجير القسري او حالات اغتصاب كانت تتردد أخبارها في المدينة. اختار لنفسه أسما حركياً موحياً وهو "أبو حكيم" ولم يتوقف عن الجدال في الاجتماعات بأن هذه الأفعال ستقطع كل ما تبقى من خيوط مع الطرف الآخر. كان يصر في كل مرة بان العنف العشوائي يعمق الهوة ويخلق بالتالي ردود أفعال انتقامية ستؤدي الى تقوية شوكة النظام الجديد وليس العكس. اضطر مرة ان يصرخ في الاجتماع: " كلما قتلنا عدداً منهم سيقتلون منا عدداً أكبر. لو ذبحنا سيذبحون، لو هجرنا سيهجرون ولو حرقنا فسيحرقون". هذه المرة لم يرد ان يتسرع قبل أن يعرف مغزى كلام "الحكماني".**

**- هذه لحظة حلمنا بها طويلا. المجاهدون يقاتلون الآن في "شارع حيفا" على بعد أمتار من مقرات الأمريكان وحكومة الروافض. كل ما نحتاجه هو القيام بالصولة الآخيرة وسيكون الطريق سالكاً أمامنا، استمر "الحكماني" بالكلام بنبرة أقوى حتى بدا انه يريد ان يحسم الأمر مع الوجوه الواجمة التي أمامه.**

**ظل الجميع ملتزمين بالصمت بينما استرق بعظهم النظر الى "الوناس" وكانهم ينتظرون منه مداخلة توضح لهم ما يجري. غير ان "الوناس" ظل غارقا في تأملاته هذه المرة في شاشة التلفزيون الذي كان قد خفت صوته لكنه ظل ينقل مشاهد أرشيفية لمواقع تفجيرات او هجمات كان يعرف أماكن أغلبها جيداً في حين كانت مذيعة تنسدل خصلات من شعرها الذهبي على جبينها الأيمن مسترسلة في الكلام. خمن انها تسأل أو تناقش من يدعونهم بالمحللين الاستراتيجيين الذين أصبحوا يملأون الشاشات ويطلقون العنان لترهات تخرج من عندهم بكل رضى عن النفس واعجاب بالذات.**

**- علينا أن نكون واقعيين وأن نأخذ بنظر الإعتبار توازن القوى، فكما رأينا الآن بعد الاستفتاء فان هناك دولة أصبحت على أرض الواقع تتمتع بسلطة وموارد هائلة ولديها جيش وقوات أمنية وتتمتع بشرعية دولية وحماية أمريكية وهذا يتطلب المراجعة واعادة التقييم ووضع استراتيجية مناسبة، تدخل "الوناس" أخيراً بتركيز شديد على أفكار أرادها ان تكون واضحة.**

**انتبه "الوناس" بعد ان القى بكلماته الأخيرة الى السكون الذي يطبق على الصالة وتذكر المرات العديدة التي كان عليه ان يواجه "الحكماني" فيها خلال السنوات الثلاثة الماضية. خطرت على باله أيضاً الحوادث الغامضة التي تعرض لها رفاق ومنهم من قتل في عمليات كانت الإتهامات توجه فيها الى الطرف الآخر في حين كان هو متأكداً أنها تصفيات داخلية من تدبير "الحكماني" وتتفيذ من يؤتمرون بأمره. شعر بانقباض شديد، ذلك الاحساس الذي يرواده في صدره كلما راودته أفكار بان بإمكان هؤلاء الأصناف من البشر أن يقترفوا أي شيء، حتى قتل رفاقهم، لا لسبب الا لأنهم تمرسوا في لعبة الدم. غير أنه كبر على الخوف، ليس الآن ولكن منذ شبابه حين التحق بجهاز المخابرات بعد تخرجه من الجامعة وخاض الكثير من التجارب التي كان عليه ان يحمل خلالها حياته فوق كف القدر. سنين طويلة وهو يدخل معارك لا يعرف فيها الصديق من العدو ودون ان يعلم انه سيخرج منها سالماً أم لا لكنه اعتبر ذلك تكليفاً يؤديه من أجل الوطن والعقيدة. اما الآن فهو يواجه مخاطر ليس من الأمريكان ومن جاؤا بهم فقط ولكن أيضاُ من رفاقه. مسؤوليته عن التنسيق بين المقاومة وبين مجموعاتهم السياسية التي سمحوا لها بالإشتراك في العملية السياسية تحتم عليه التأكد من التوازن بين الطرفين وهي مهمة يقر انه لم ينجح بها لحد الآن مع "الحكماني".**

**- هل تعلمون اني قضيت عامين في السجن انتظر تنفيذ حكم الإعدام بي. النظام الذي امنت بعقيدته وأفنيت عمري في خدمته هو الذي سجنني وكاد ان يزهق حياتي، وجه "الوناس" كلماته هذه المرة الى جميع الرفاق المجتمعين وسط نظرات فضول منهم ونظرة برود من "الحكماني".**

**- عاقبوني على تقييم موقف طلبوه مني ان اضعه بعد غزو "الكويت" بحكم عملي كرئيس محطة المخابرات في "امريكا"، استرسل في حين ظل "الحكماني" غير مكترث بما يريد ان يصل اليه "الوناس".**

**- كتبت اننا سنخسر الحرب وان الأمريكيين وحلفاؤهم سيحروون "الكويت" وسيبدؤون بعد ذلك بتدمير "العراق". اتعلم من اقترح اعدامي؟ كان ذلك عضو القيادة الذي اعتاد على قضاء أغلب لياليه في خيام الكاولية والنون في احضان بناتهم.**

**ما الذي يريد أن يصل اليه هذا الموتور الذي لم يعد تماديه مقرفاً، بل وخطيراً ايضا. ترى هل يحاول ان يلمح اليه بكلامه هذا؟ هل يعلم انه كان أيضاً ممن يرتادون مضارب الكاولية ويستمتعون بالسمر في ربوعهم؟ خطر على باله لو كان "الوناس" جنديا او ضابطا لديه لكان أرسله الى فرق الاعدام حتى دون تحقيق او محاكمة مثل كثيرين غيره.**

* **هذا هو واجبنا اليوم ان نصحح اخطاء الماضي وخطايا الحاضر، بان نعطي الأولوية للجهاد، رد "الحكماني".**

**يعرف "الوناس" هذا النمط ممن تمنحه الأقدار الفرصة التي تتمناها كي تتصدر المشهد ثم تمارس أدواراً تخيلتها في حياتها كالزعيم والأمير والشيخ والمنقذ وحامي الحمى، وهي نماذج عرفها جيداً عندما درس موضوع سايكولوجية القيادة اثناء التحاقه بمعهد الأمن القومي وفي أبحاث كثيرة أجراها بعد ذلك، كما عاش في ظلها سنين طويلة. بل هو يعرف جيداً منذ ان قرأ قصة "ليلي والذئب" في صغره بان خلف قناع الجدة العجوز يكمن دائما ذئب ماكر متحفز للانقضاض والنهش. "الحكماني" ليس استثناء، وليس أقل تفنناً في براعة التربص بمعارضيه، او حتى من يتشكك بولائهم له او لمشروعه، والانقضاض عليهم اذا ما شعر بان حلمه معرض للخطر. ينقل دائماً أراءه وملاحظاته عن "الحكماني" للقيادة والتي طلبت منه ان يراقبه عن كثب خاصة بعد ان زادت محاولات تفرده بقرار العمليات العسكرية وتنسيقه وتعاونه مع تنظيمات وجماعات متشددة بعيدة عن نهج الحزب. في الفترة الماضية والتي أصبح "الحكماني" خلالها قائد منطقة واسعة تمتد من غربي "بغداد" الى "جسر المسيب" ومن "الرضوانية" الى "المدائن" لم تكن طباعه فقط هي التي ساءت كثيرأ، بل الطريق الخطير الذي أصبح يسلكه ويجر المقاومه اليه. عندما نقل "الوناس" للقيادة مخاوفه عن تطرفه وتماديه وهوسه بالقتل العشوائي كان تبريرهم انه يتحمل مسؤولية جسيمة تضغط على أعصابه وتزيد من حدة مزاجه الحادة أصلاً، بل انهم شددوا على ضرورة عدم استفزازه.**

**حين أعلن "الحكماني" نهاية الاجتماع وهم الجميع بالإنصراف جال "الوناس" بنظره في أرجاء المكتبة التي تحتل جدران صالة البيت الذي اتخذوه مقراً ومخبئا لقيادة التنظيم الفرعي. المئات من الكتب احتلت رفوفا خشبية انيقة لابد انها كانت تعود الى عائلة ميسورة مهتمة بالكتب والثقافة اعادت الى ذاكرته صور مألوفة عن بيوت كثيرة دخلها كان يحرص ساكنوها على ان تكون المكتبة جزءا اساسياً من البيت. وقعت عينا "الوناس" على مجموعة مجلدات لكتب "علي الوردي" مصفوفة بشكل منتظم فوق أحد الرفوف فادار برأسه نحو "الحكماني".**

* **هل واتتك الفرصة في هذه الخلوة ان تقرأ بعضا من هذه الكتب، سأله "الوناس" وهو يستل مجلدا بعنوان "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" من فوق الرف.**

**أكثر ما يمقت "الحكماني" بـ"الوناس" هو انه يتحدث اليه دون تكلف بإعتباره عضواً حزبيا رفيعاً. نظر اليه بتلك النظرة التي وحده قادر ان يجمع فيها بين الدهشة والاستخفاف والتحدي. طالما سمع "الحكماني" بـ"الوردي" من قبل حين كان يتردد اسمه أحياناً فوق صفحات الجرائد ولربما يتذكر أيضاً برنامجاً حواريا عرض على شاشة التلفزيون قبل سنوات سخر خلاله المشاركون من كلام "الوردي" عن الصراع بين الحضارة والبداوة وطالب بمنع نشر كتب "الوردي" لأن فيها كما شرح خروجا على فكر الحزب القومي. اشمئز يومها من فكرة "الوردي" تلك التي رأها تحتقر القيم القبلية التي فهم ان "الوردي" يروج لها في كتاباته كونها وراء المصائب التي حلت بالبلد.**

**أصر "الوناس" على استكمال ما بدأه فقال ان عالم الاجتماع هذا كتب منذ عقود طويلة عن الواقع العراقي وكأنه كان يبصر بعقله كل ما يحدث الآن. استل من فوق أحد الرفوف كتابا آخر بجلاد أسود خطت عليه بحروف مذهبة كبيرة "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" وحمله عالياً امام "الحكماني".**

**تصفح الكتاب سريعاً ووجد ضالته في صفحة يتكلم فيها "الوردي" عن الانقاسمات الاجتماعية وعن ضرورة التفاهم والحوار وعن سيطرة القبلية والطائفة ثم توقف كي يقرأ بعض الفقرات: "ان التجارب القاسية التي مر بها الشعب العراقي علمته دروسا بليغة، فاذا لم يتعض بها فسوف يصاب بتجارب أقسى منها.**

**- يا له من بعيد النظر. لو كنا قرأنا بعض مما كتب كنا سنفهم الكثير عما يجري اليوم، بل ربما لم نكن قد وصلنا اليه.**

**- هذا الذي تتكلم عنه كان شعوبيا باطنيا لو عاش الى يومنا هذا لكنت رأيته عضواً في مجلس الحكم، رد "الحكماني" ببرود ولكن بنظرة شرسة رافقت اعلانه لهم بأنه بحاجة الى خلوة لمراجعة مسيرة المقاومة ووضع خطط لمستقبلها ربما ستستغرق أياماً أو أسابيع. فهم "الوناس" من رده ومن الجفاء الذي أبداه خلال الجلسة الا رغبة لديه ان يغير جلده وخمن ان في جعبة "الحكماني" مفاجآت ربما ستكون مدوية هذه المرة.**

**منذ زمن و"الحكماني" يمحص في ذهنه ان كان الوقت قد حان كي يتخلص من هذا "الوناس" مثل كثيرين غيره يراهم متخاذلين قرر ان يطهر صفوف المقاومة منهم تماماً مثل أولئك الرافضة الذين يرسلهم للجحيم يوميا ليطهر البلد منهم. كانت شوارع المدينة قد غرقت بلون الدم القاني ولن يكون أمراً ملفتاً لو كانت هناك جثة أخرى مرمية فوق تلال المزابل أو في ملقاة في مجاري المياه القذرة أو يجرفها التيار في مياه "دجلة" كي تظهر على الشواطئ تنهش بها الكلاب. لكنه استدرك في كل مرة بان كوادر المجموعة، بل القيادة ذاتها، لابد وانهم على اطلاع على خلافاتهما مما سيضعه بالتأكيد في دائرة الشكوك والإتهام والمساءله. كان لابد اذن من التفكير ببدائل أخرى لا تضعه موضع الشبهات. الأولوية التي يراها الآن هي التركيز على الجهاد وترسيخه كعقيدة وتوسيعه في المدن والريف حتى لا يسمح للعدو ولو بساعة راحة وطمأنينة وعندها سيبرهن للقيادة ان خط المقاومة هو الصائب.**

**ما لا يعلمه "الوناس" هو انه مشغول فعلاً بالقراءة، قراءة بعض الكتب التي أرسلها له الأخوان في جماعة "قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين" والتي طلبوا منه ان يطلع عليها طالما أصبح هناك تعاون وتنسيق بين الطرفين. قالوا له أنها من وضع قيادات جهادية عن تجارب وساحات في "افغانستان" و"التشيشان" و"البوسنة" وانه سيجد فيها كل ما يحتاجه في أمور الجهاد و الشريعة معا. قرأ كتابان أحدهما عنوانه "العمدة في اعداد العدة للجهاد في سبيل الله" وآخر عنوانه "الجامع في طلب العلم الشريف". وجد ان الكتابين يمزجان فعلاً بين مناهج القتال التي يدرب عليها عناصر المقاومة وبين قضايا وتؤيلات شرعية يرونها من متطلبات العمل الجهادي. بعد ان أتم قراءة الكتابين راودته فكرة قرر ان يطرحها على أمير الجماعة عندما سيلتقيه قريباً وهي أن يتولى عناصر من تنظيمه ومجاهدو القاعدة تنفيذ تفجير كبير في موقع رمزي مهم جداً للرافضة كان قد خطط له بدقة على أن يكون ذلك عربون تعاونهما المشترك المستقبلي. سيقنعه بان الرمز الذي في ذهنه سيتهاوى بالتفجير الذي يخطط له مثل ابراج "نيويورك"، ولكن ليس لوحده.**

**3/3**

**توقفت السيارة عند ناصية في "شارع فلسطين" بعد تقاطع "ساحة بيروت" التي بدت على غير العادة شبه ساكنة في وقت من النهار عادة ما يكون هذا الحي مكتظاً بالمارة والمتسوقين وبالسيارات العابرة بين شرق "بغداد" وغربها وبين شمالها وجنوبها. انثالت عليه ذكريات كثيرة عن الشارع والأحياء المجاورة التي مر بها الآن والتي كانت من بين أرقى مناطق المدينة تزخر ببيوت فارهة ذات حدائق واسعة غناء بأشجارها وورودها ونجيلها. كل شيء تغير فيها فما يشاهده أمامه هي مجرد صفوف من أبنية قميئة تشوهت واجهاتها بمحلات تجارية تتراكم بشكل عشوائي واحدة جنب الآخرى علتها أدوار لشقق سكنية بدت أشبه بعلب كبريت صفت بعضها فوق بعض. اختفت تلك البهجة التي كانت تعم هذا الحي الذي يعرف الكثير من شوارعه منذ ان عمل بحثاً وهو لا يزال طالباً جامعياً عن الطبقة الوسطى البازغة التي انتقلت اليه من أحياء "بغداد" القديمة. راودته فكرة ان يضمن فصلاً عن التحولات الاجتماعية والديموغرافية التي جرت على أحياء "بغداد" الراقية التي بدأت تزحف عليها حشود من القادمين من مدن الجنوب في المشروع الذي أصبح يحلم به، بل هو يصر يوماً بعد يوم على كتابته بعد نهاية عقد عمله. سيخصص هذا الفصل عن الترابط بين الواقع السياسي الجديد والنخبة الحاكمة والتغييرات السكانية والمعمارية عقب الإحتلال.**

**انتشله من استغراقه في خططه المستقبلية سائقه ومرافقه "حيدر".**

**- أريد أن أراجع معك بعض مما اتفقنا عليه قبل أن ندخل الى "المنطقة الحمراء"\* بعد قليل.**

**- ما هو أسمك؟**

**- حسين محمد جواد.**

**-"من أين أنت؟**

**-"من "الطوبجي" لكن بالأصل انا من قضاء "الحمزة".**

**- لا، لا، من أين انت تعني ما هي عشيرتك، صحح له "حيدر".**

**- انا سويداوي.**

**- أين تسكن ؟**

**- في "الطوبجي" بجانب "حسينية الشهيد الصدر".**

**\*المنطقة الحمراء تسمية اطلقت من قبل الاهالي على الاحياء التي ينتشر بها العنف سخرية من "المنطقة الخضراء" الآمنة والمحصنة.**

**- ما هي وجهتكم؟**

**- بيت أختنا في شارع الشركة.**

**- كيف تلقي التحية على جماعة السيطرات؟**

**- سلامووووون عليكم.**

**- جيد جداً .هذا يكفي وأترك لي بقية الأمور.**

**اذا كان "سامح" قد نجح في اختبار اللهجة كما يظن "حيدر" فان جزءاً من ذلك لابد أنه يعود الى التدريب الشاق الذي خضع له على يديه خلال الأيام الماضية لكنه يظل غير متأكد أن الأمر سيمر بمثل هذا اليسر. كان يدرك الصعوبات والمخاطر التي سوف يتعرض لها في العمل الصحفي في "بغداد" الا أنه وافق أخيراً على العرض الذي تقدمت به "وكالة الأنباء الفرنسية" كي يكون أحد مراسليها الرئيسيين هناك. بعد عودته الى باريس اثر الرحلة التي قام بها بعد عام من الغزو لإعداد تقرير تحليلي عن تبعات الأحتلال لـ"المركز الأوربي لدراسة السياسات" في "بروكسل" تلقى عروضاً عديدة من منظمات دولية كي يعمل ضمن أطقمها في "بغداد" ولكنه قرر في النهاية أن يختار العمل في الصحافة بتشجيع من صديقه "بيير" والذي أقنعه بفوائد المزج بين خبرة العمل البحثي والفكري وبين الصحافة والعمل في الميدان. قال له إن تجربته علمته أنه أن كان يريد ان يفهم العالم ويفسره بطريقة جيدة فلا بد من النزول الى أرض الواقع لإختبار أفكاره عملياً. الح عليه ان ما يجري في موطنه الأم هو مختبر حقيقي للكثير مما تعلمه من نظريات سوف تتاح له الفرصة خلالها أن يضعها أمام مرآة الحياة العاكسة. غير أنه بعد أن انخرط فعلياً في عمله في "بغداد" وجد نفسه جزءاً لا يتجزء من التجربة القاسية برمتها وليس مجرد وقت مستقطع في حياته يجرب خلاله مهنة أخرى. سرعان ما بدأ يشعر انه واحد من هؤلاء العراقيين الذين يواجهون مصائرهم في بلد وضع على طاولات التشريح مثلهم مثل فئران التجارب. من بعيد كانت أصوات الرصاص وأحياناً القذائف تدوي من بعض المناطق التي لا يزال يجري تمشيطها واخراج جماعات المقاومة منها في ما أصبحوا يدعونه في وكالتهم وفي وسائل الإعلام الغربية بالتطهير الطائفي في "بغداد". لحد الأمس كانت احصاءات موقع "مشروع تعداد الموتى في العراق" على الإنترنيت تقول ان 20 الفأ قتلوا لحد الآن في هذه الحرب الطائفية والكثيرون كانت تلقى جثثهم في الشوارع وفوق المزابل، او ترمى في مياه "دجلة" وأن بالإمكان التعرف على هويات الضحايا من خلال طريقة القتل فمن قطعت رقبته فهو شيعي ومن حفرت جمجمته بمثقب كهربائي فهو سني.**

* **لا تقلق، أنا بإنتظار مكالمة تلفونية من أبن عمي حالما يصل الى أول سيطرة في "مدينة الصدر" وسيقودنا الى "الجوادر" حيث معقل "أبو عاصفة"، قال "حيدر" وهو يلتفت من فوق مقعده على عجل في كل الإتجاهات مقلباً أنظاره بين مرآة السيارة التي أمامه وزجاج شبابيكها كما أعتاد ان يراه كلما خرجوا في مهمات كهذه.**

**"حيدر" ليس سائقاً او مرافقاً ومرشداً في أحياء المدينة وشوارعها فحسب، بل هو لولب المكتب النابض الذي يحصل على تلك الأخبار غير الشائعة ويعرف مصادرها غير المعلنة ويرتب المقابلات مع أبطال الأحداث في ظروف غير اعتيادية، وينقل الصحفيين الى مواقع الساخنة، اي انه باختصار عنصر لا يستغى عنه في المكتب. قدرات وطاقات حيدر المتنوعة متأتية من كونه يسكن "مدينة الصدر" وينتمي الى عشيرة كبيرة قادمة من الجنوب ويرتبط بصلات مع مسؤولين في الحكومة والأحزاب السياسية الحاكمة والمتنفذة ويتمتع بقدرات هائلة على نسج علاقات معهم بطريقة سلسلة، ولكن نسمع انها قائمة على أساس تبادل منافع. هناك في المكتب "مروان" أيضاً وهو يتمتع بذات المواهب التي لدى "حيدر" ولكن لدى المعسكر المضاد، أي السني. الأثنان يتحاصصان في توفير الخدمات والتسهيلات للعاملين في المكتب في عالم يجري في الخارج كل شيء فيه على قاعدة أنت من جماعتنا أم من الجماعة الأخرى. لا يتذكر "سامح" أن تجربة مثل هذه مرت عليه في "رواندا" فـ"الهوتو" و"التوتسي" لم يكونوا قد توصلوا بعد الى فن المحاصصة هذا.**

**لم يأخذ الأمر وقتا طويلاً بعد تلقي المكالمة المنتظرة واجتياز السيطرة التي أقامها افراد من "جيش المهدي" في "ساحة مظفر" بسلاسة كي يبدؤا مشوارهم نحو "الجوادر" عبر شوارع مزدحمة بالسيارات والعربات التي تجرها الحمير ومكتظة بالناس والبائعين الذين احتلت بسطاتهم الأرصفة وبمسلحين لا تكف السيارات التي تقلهم عن الزعيق عبر منبهات الصوت. عند بوابة "مستشفى الجوادر" قال له "حيدر" إنهم سينتظرون هناك من يقودهم الى موعدهم مع الرجل الذي باتت شهرته رديفة للموت وعمليات الإختطاف وحرائق البيوت والتهجير التي تعم أرجاء "بغداد" منذ أشهر. مديره في "باريس" أرسل له عبر الايميل عدة مقابلات صحفية منشورة سابقاً مع قتلة ومجرمين عتاة وحذره بأن يدرس كل حالة بعناية لأن هؤلاء الناس برأيه لديهم القدرة على توظيف المقابلة لمصلحتهم ما لم يكن الصحفي واعياً بذلك. لم يكتف المدير بالنصائح او الأوامر، بل حول له ملف لفلم "الملك الأخير لاسكتلندا\* كي يشاهده.**

**هو أصبح يعرف الآن كيف ان وسائل الإعلام التي بدأت بأطلاق تسمية الزرقاوي الشيعي على الرجل الذي جاء للقائه مولعة بالتوصيفات والكليشيهات والتشبيهات الهوليوودية. عندما ظهر رُسُلُ "أبو عاصفة" أخيرا طلبوا منهما ترك سيارتهم في مكانها ووضع تلفوناتهم الجوالة وساعاتهم وأي أجهزة الكترونية داخلها وترك كل شيء تحت حراستهم. اصطحبوهم في سيارتهم عبر شوارع ضيقة ملتوية الى مكان القائد الذي لم يكن بعيداً جداً في وسط الحي المتداعي الذي يشكل الحاضنة الشعبية له ولجماعته.**

**- السٍلاموووون عليكم، جاء صوته الجهوري حالما دخل الى حوش البيت المتواضع فارضاً حضوره بقامته الفارعة التي علتها لفة يشماغ سوداء فوق رأسه وجسم فيه شيء من السمنة متمنطقا بحزام مرصع بنقوش فوق دشداشته السوداء أيضاً اصطفت عليه مخازن عتاد لبندقية الكلاشنكوف. صافح "سامح" الذي كان ينظر في عينه محاولاً منذ اللحظة الأولى أن يعمل بقاعدة تعلمها في درس المقابلات في الدورة السريعة التي أجريت له لتدريبه على قواعد العمل الصحفي التي تنصح بالتركيز على التماس النظري لأن العيون كما قال له مدربه هي نافذة يمكنه من خلالها النظر إلى داخل الشخص الذي يقابله كي ينفذ من خلالها الى مشاعره وحتى قراءة أفكاره. يعلم ان هذا الرجل القادم من خلفية ريفية بسيطة الى عالم الشهرة عبر حمامات الدم ليس من النوع الذي يلتقي بالصحفيين وربما هذه**

**\* الملك الأخير لاسكتلندا فلم امريكي يتناول حياة وممارساة الرئيس الأوغندي السابق عيدي أمين انتج كي يظهره كما شاع في الاعلام الغربي كدكتاتور مصاب بالعصاب سادي وقاتل دموي.**

**هي المرة الأولى في حياته التي يرى فيها صحفياً وهو أمر لا يدري ان كان سيسهل مهمته أم سيصعبها. في لحظات الإرتباك التي تاتي بعد ساعات من التوتر والترقب وجد سامح ضالته بان يأخذ المبادرة كما تدرب أيضاً كي يعطي الانطباع عن مهنيته وجديته.**

**- جئت كي أراك. كثيرون لا يصدقون أنك موجود وحقيقي، قال "سامح" بينما أخذ يتمعن في ملامح "أبو عاصفة" ويسجل بعض الملاحظات في دفتره. لا علامات فارقة، ولكنه لاحظ طرة بُنِّية فوق جبيينه وأسناناً أمامية متفرقة تظهر وسط لحية متوسطة الطول اختلط فيها الأسود بالأبيض تحيط بفمه حين ابتسم إبتسامة عريضة على وقع الكلام الذي سمعه.**

**- انا أيضاً سمعت هذا الكلام، لكن ها أنت تراني بنفسك وتأكد بأني أنا بلحمي وشحمي وليس لي شبيه او بديل يقلدني كما كان يفعل الملعون، أجاب "أبو عاصفة" بينما انطلقت منه ضحكة مجلجلة جعلت كرشه يهتز ارتفاعاً وهبوطاً.**

**- جوابي للعالم بشأن هذه الإشاعات بأني هنا بين أهلي وأخواني وجماعتي، أحميهم ويحموني.**

**- العالم يريد ان يعرف ما هو هدفك مما تقوم به؟**

**-جوابي بسيط جداً. نحن نريد من أعدائنا أن يفهموا أن الدهر دوار وأن الزمن الذي كنا نعاني فيه المظالم والحرمان قد ولى. اليوم نحن قادة هذا البلد وأسياده.**

**- ماذا عن السنة؟ أعداؤكم كما قلت.**

**- ما مشكلتهمم؟ الا يكفيهم 1400 سنة وهم مغتصبين لحقوقنا؟**

**- اذن أنت تؤيد من يقول أنه صراع على الكراسي؟**

**- لا، هذا صراع الحق ضد الباطل.**

**- الا تخشون ان سياسة العين بالعين كما يجري الآن في الشارع ستنتهي بالجانببين عمياناً؟**

**-لا، هذا كلام قديم ما عاد ينفع.**

**- هل ممكن أن تشرح لي؟**

**- اليوم اذا قلعوا عيناً سنقلع عشرة وإن كسروا سناً لنا سنكسر كل أسنانهم وان قطعوا رأساً سنقطع مائة.**

**- الا يطيل ذلك الحرب الأهلية؟**

**-لا بالعكس سيقصرها. في المرة القادمة التي تأتي بها الى هنا سيكون كل شيء قد انتهى.**

**بعد عدة أسئلة كانت خطرت بباله وبعد كل هذا الغضب والبغض في أجوبته التي ملأ بها أوراقه لا يبدو الرجل غامضاً، اذ لديه بالتاكيد الكثير مما يقوله وقد قاله بطريقته الصريحة. فكر "سامح" بان الوقت قد حان لينهى المقابلة كي يلحق بموعد النشر الذي اتفق عليه مع مديره الذي كان قد أبلغ المشتركين في كل أنحاء العالم بتوقع سبق صحفي كبير من "بغداد" اليوم. في طريق العودة للمكتب انهمك برسم مخطط هيكلي في ذهنه للتقرير الذي سيكتبه بدءاً من العنوان ثم بعد ذلك المقدمة وبعدها بقية فقرات الخبر. لن يحاول أن يجاري الصورة النمطية عنه في اسلوب كتابة التقرير وفي نبرته بهدف الاثارة والترويج اذ سيكون ذلك بالتأكيد أسفافا ممجوجا في قضية يراها جدية، بل خطيرة، لكنه لن يقع، من الناحية الثانية، في فخ يعرف أن كثير من الصحفيين يقعون فيه أثناء مقابلاتهم لشحصيات سادية كهذه تظهر وسط قاعدة شعبية مأزومة فيفتتنون بلمح البصر بسحر القوة والخطاب الحماسي والنظرات الحادة عندها فيظنونها كاريزما القيادة التي تظهر في أزمنة الإنغلاق والفوضى. مثل كل ما يكتبه وهو يخوض هذه التجربة في حياته سيكون هذا التقرير أيضاً المسودة الأولى للتاريخ كما تعلم درسه الأهم في عالم الصحافة. اما التحليل والإدراك الأعمق فسيأتي أوانه لاحقاً حين يعود الى عالمه الاكاديمي والبحثي الذي وهب له نفسه.**

**في الليل كان على موعد مع "إيما" الدبلوماسية البريطانية التي تعمل مستشارة سياسية للقائد العام الأمريكي والتي ألحت على لقائه بعد أن قرأت التقرير الذي بثته الوكالة عن "أبو عاصفة". يعلم أنها ترغب بان تستمع منه الى المزيد عن اللقاء وعن انطباعاته عن الرجل الذي ربما سيكون محور عمليات الجيش الأمريكي لمنع اندلاع عنف طائفي أوسع يعقد مهماتهم ويورطهم أكثر فأكثر في المستنقع الذي خلقوه.**

**"إيما" امرأة ظريفة وجزء من عملها هو التعامل مع الصحفيين وهو يتردد عليها بين الحين والآخر للأطلاع على بعض الأخبار والتطورات المتعلقة بعمليات القوات وأن يطرح عليها أسئلة قد لا تجيب عنها ولكن تساعده على فهم مجريات الأمور. كونها بريطانية تستجيب له ربما أكثر من المسؤولين والمستشارين الأمريكان الذين لا يخفون بعض الغطرسة أو التجاهل، بل هي تستقبله بترحاب لأنها اكتشفت عمق تحليلاته الآتية من خلفيته الاكاديمية وبطبيعة الحال عمله الميداني. الكثيرون من الزملاء الذين كانوا يترددون مثله على مقر القيادة هذا كانوا يتهامسون بأنه يقيم علاقة مع "ايما" ويغمزون الى ذلك عبر الحديث عن العلاقة التي بين "بريت ماكيرك" المستشار في السفارة الأمريكية مع "جينا كوهن" مراسلة صحيفة "وول ستريت جورنال". لكنه لا يكترث لأنه يعلم ان أجواء الحرب الغامضة وطقوسها السرية تهيأ تربة خصبة لمثل هذه الإشاعات. أخذت الرحلة الى مكتبها في قصر الرئيس السابق وقتا طويلاً بسبب الاجراءات الأمنية المعقدة ولكنها أخبرته انها ستكون بانتظاره حتى لو جاء بعد منتصف الليل. المسؤولون والضباط الأمريكان يشيدون بـ"إيما" كخبيرة في شؤون الشرق الأوسط ويشيرون الى أن سيرتها المهنية التي أهلتها للعمل بالقرب من القائد تتضمن كونها متخصصة باللغة العربية وانها عملت في "المجلس الثقافي البريطاني"، كما قضت عاماً تعيش في كيبوتس إسرائيلي. هي ليست المرأة الوحيدة التي تعمل في مكاتب قيادة التحالف اذ تنافسها الأمريكية "ميغن" والتي تحظى بمكانة أهم في أوساط السفارة التي التحقت بها بعد ان بدأت عملها منذ اللحظة الأولى للإحتلال أولاً كعضوة في "مكتب تخطيط السياسات" ثم في مكتب "الجنرال غارنر" وبعده "بريمر" اللذان توليا ادارة سلطة الإحتلال قبل تسليمها للعراقيين. مرة داعب "سامح" "إيما" حين سألته ما الفرق بين الإحتلال البريطاني عام 1917 والإحتلال الأمريكي عام 2003 فأجابها بان في الأول كان هناك "مس بيل"\* واحدة أما في الثاني فهناك اثنتان. تقبلت تلميحاته باببتسامة وتأمل عميق وخمنت أنها ربما ستشير الى ذلك في مذكرات عن تجرببتها في "العراق" تفكر بكتابته بعد انتهاء عقد عملها والذي تأمل ان يضعها في صفوف خبراء الشرق الأوسط البارزين في الغرب.**

**\*عملت مس غرترود بيل كمستشارة لادارة الاحتلال البريطاني للعراق بعد الحرب العالمية الأولى ولعبت دورا مهما في ترتيب اوضاع الاحتلال وصياغة النظام الذي جاءت به ورسم مستقبل العراق لسنوات طويلة ومن ضمن ذلك تنصيب فيصل الأول كملك وتحتل موقعا سيئا في ذاكرة العراقيين.**

**- أنت بطلي هذا اليوم، حقا"، بادرته "إيما" بلطف مبالغ فيه وهي تستقبله بقبلتين على خديه في مكتبها في الدور الأرضي للقصر يعرف بالتجربة الآن انه الأكثر أماناً من غرف وصالات اخرى لأنه بعيد نسبياً عن الأماكن التي يمكن ان تصيبها قذائف الهاون او الكاتيوشا التي عادة ما تطلق على المنطقة الخضراء في المساء.**

**- لست متأكدًا، ولكنها كانت بالفعل مغامرة جنونية، رد "سامح" بالتواضع الذي يجيد استدعاءه اذا ما ظهرت الحاجة له.**

**- لا، لا، أنت لا تعلم كم كان تقريرك مهما لدى القادة العسكريين وجماعة الإستخبارات الذين عقدوا اجتماعاً مشتركا اليوم على ضوءه لتقيم ما اذا كان البلد قد دخل فعلياً في حرب أهلية ولرسم سيناريوهات للمستقبل.**

**"إيما" تذكره في كل مرة بانها رغبت في وظيفتها هذه لأنها تريد ان تفهم "العراق" جيداً وعن كثب وتؤكد دائما أنها تريد مساعدة العراقيين في بناء بلدهم، بل هي تتمادى أحياناً الى انتقاد ما تسميه سذاجة الأمريكان في ادارة الإحتلال. "سامح" يعلم بطبيعة الحال ان "إيما" نموذج كاريكاتوري من أولئك المستعربين الذين يعملون في مؤسسات الإحتلال في كل زمان وان مهمتهم هي تقديم استشارات لرؤسائهم، وهذا ما يعبر عن حرصها على أن تستقي المعلومات من مصادرها كل ما أمكنها ذلك. اما هو فيجهد كي يتقن أسرار المهنة ومنها تكوين المصادر الصحفية التي اتضحت له في حالة "إيما" أن تكون مصدره وان يكون هو مصدرها. لعبة التبادلية هذه شائعة في "المنطقة الخضراء" بين ضباط الجيش الأمريكي ومسؤولي الإحتلال الآخرين والدبلوماسيين الأجانب المتحصنين داخلها، من ناحية، وبين الصحفيين الدوليين الذين يعيشون ويعملون وسط المعمة، من ناحية ثانية.يدرك "سامح" أن تلك هي قواعد اللعبة وهي مثمرة للجانبين حيث تتم التسريبات ويجري تداول المعلومات ومن بعدها تطبخ الأخبار وتبث الى العالم عن بلد واعد بديمقراطية وحرية يبنيها الإحتلال بينما تظل صورته الحقيقية كما شاهدها اليوم هي موطن للعنف والفوضى والدمار.**

**- هيا أخبرني، فانا متشوقة. كيف هو "أبو عاصفة" هذا؟ مالذي عرفته منه أو عنه ولم تنشره في تقريرك؟، جاءت رشقات "إيما" الاستفسارية بدون انتظار.**

**- وجدته شريراً وفي نفس الوقت تافهاً كأقرانه في التاريخ لكن ربما أكثر خواءً منهم، أجاب "سامح".**

**- اراهن أنك لن تفكر ان تشبهه بـ"ايخمان" ان كان لديك النية لكتابة المزيد عنه."\***

**- ليس الآن لكن ربما في المستقبل. هذه نماذج من المسوخ البشرية جديرة بإعادة تشريحها انثروبولوجيا وسايكولوجيا في سياق التجارب التي خرجوا من رحمها.**

**راحت "ايما" تتأمل ملياً العبارات الدقيقة التي نطق بها "سامح" للتو وتضعها في اطار خلفيته الأكاديمية والبحثية التي تعرفها وتحليلاته النظرية التي تستمتع بها كما تستفيد منها في عملها كمستشارة سياسية. لكنها الآن في أمس الحاجة للمعلومات أكثر من التنظير كي تقوم بإعداد تقريرها الذي طلبه الجنرال منها لذلك حاولت ان تتجاوز الموقف دون أن تجافي الكياسة وبدأت تمطره بالأسئلة المباشرة التي هيأتها. أين قابلته؟ هل في مكان معزول ام وسط السكان؟ هل كان بمعية حراسة مشددة؟ هل تمكنوا من تصويره؟ كيف يمكن أن تصفه جسمانياً وذهنياً، وهل لديه علامات فارقة؟**

**بعد أن أنهى اجاباته وسمع ثناءً من "إيما" عليها فكر ان يطرح هو أسئلته عليها ولكنه قرر أخيراً ان يختزلها بسؤال واحد فقط.**

* **هل تنوون التدخل لتحيده على طريقة الزرقاوي؟، سألها مستخدما كلمة استلها من نفس المعجم المتداول بين العسكريين والتي تعني غالبا قتله بعملية جوية.**

**هي كنز من المعلومات وبحكم عملها وحماسها بأن تتفوق على مستشارين وخبراء آخرين يعملون الى جانبها في هذا القصر فأنها لا تخلو من ميول استعراضية لكنها تعرف جيداً أن "سامح" لا يمكن خداعه مثلما الصحفيين الأمريكان وان عليها ان تخبره بما تعلم.**

* **لا. لا أظن ذلك. فالرأي السائد هنا هو أن هذه قضية لا تعنينا وعلى الأخوة الأعداء ان يتولوها بانفسهم.**

**أكثر ما أصبح يؤرق "سامح" وهو يغوص بشكل أعمق في هذه الهاوية التي يشاهد البلد يغرق فيها هو أن تاريخ هذه المرحلة سيكتبه هؤلاء المستشارون والخبراء مثلما أملوا مسيرة حاضره. ما يجري هو ما فسره استاذه "بوردو" عن تخادم المصالح بين أنواع رأس المال السياسي**

**\*اشارة الى كتاب "تفاهة الشر" لحنة ارنديت عن محاكمة ايخمان في اسرائيل.**

**والثقافي للخروج برؤية فضائية لما يحدث. وستكون روايتهم بالتأكيد مشوهة وحافلة بالأوهام والخيالات والأضاليل. فداحة المصيببة التي تنبأ بها منذ اليوم الأول وجاء لكي يختبر توقعاته على أرض الواقع تتضح أمامه يوماً بعد آخر وتكشف له ان الجهل والعنجهية وسؤ التقدير في ادارة الإحتلال هو الذي دفع البلد نحو الانتحار، هذا ان لم يكن كل شيء كان قد أعد سلفاً. "ابو عاصفة" ليس مجرد وحش بشري تجمعت فيه نوازع الشر كي يمكن شيطنته عبر آليات الدعاية، بل هو ظاهرة ليست معزولة عن السياق الذي جرى فيه الغزو والإحتلال وربما أيضاً ما سبقهما من مسارات سوف لن يروق لهؤلاء المستشارين ان يتناولوها لا في كتابة تقاريرهم لرؤسائهم اليوم ولا في توثيق أحداث المرحلة.**

**قبل أن يغادر "باريس" أخبر "حسان" ان وظيفته في "بغداد" ستكون هي شغله الشاغل وأنه سيعمل هناك وكأنه في بلد لا تربطه به الا مهمة العمل هذه التي ربما ستكون لسنة أو سنتين. روى له ان سبب قبوله بالعمل الصحفي هو رغبته في خوض تجربة جديدة غايتها استكشاف العلاقة بين العقل النظري والعقل العملي، او التناقض بينهما. جرى بين الصديقين نقاش طويل عن الفرص والتحديات التي يمكن ان يواجهها وانتهى الرأي بـ"حسان" الى انها تجربة لا بأس من خوضها رغم أنه كما اضاف مداعبا "سامح" كالعادة بأنه كان يفضل ان يخوضها في الحب وليس في الحرب.**

**بعد أيام من وصوله الى "بغداد" كانت تلح عليه فكرة الإتصال بأمه ولقائها لكن الذهاب الى بيتهم في "الأعظمية" سيكون مجازفة خطيرة في ظل الفوضى والعنف الذي يجري بعد أسابيع من التفجير الذي دمر المراقد الشيعية في سامراء وأطلق شرارة حمامات الدم التي أصبح الناس يدعونها بـ"الطائفية" في حين يسمونها في وكالتهم بالصراع الأهلي تفاديا لتسميتها "الحرب الأهلية" التي تستثير الجميع. كان هناك أيضا التحذير الصارم الذي ظل يكرره صديقه "لؤي" من "كندا" التي نجح بالهجرة اليها بعد لقائهما الأخير ليس فقط بالإبتعاد عن حيهم، بل عن العراق كله. كان يتصل بأمه بين الحين والآخر عبر تلفونه الفرنسي كي يطمأن عليها خاصة بعد موت أبيه وكأنه لا يزال في باريس. لكن بعد أن استقر في العمل الجديد وبعد أن أخذ يتكيف مع الأجواء العاصفة التي وجد فيها نفسه بدأ إحساس بالذنب يثقل عليه تجاه الإنسانة التي هبته حياته وحنانها وعانت من لوعة فراقه كل هذه السنين فقرر أن يبحث عن طريقة ما للقاء أمه. أخيراً وجد في "مروان" ضالته كي يساعده في ترتيب اللقاء معها رغم أنه تردد كثيراً لأنه لم يشأ ان يكسر قراره بعدم المجازفة بالزيارة ولا أن يتخلي عن حذره الشديد والنصائج بعدم الثقة المفرطة بمن حوله.**

**- قبل ان يتوفى أبوك بساعات وفي صحوة مفاجئة مسكني من يدي وقال لي انني السبب وراء غربتك، قالت له أمه وهي تجلس أمامه في بهو الفندق الصغير الذي يسكنه في شارع محصن قرب مكتبهم في "الكرادة الشرقية" وفي داخلها مرارة ذنب لا يقبل ان ينمحي.**

**- لولا أنكِ فطمته من حليب صدرك بعد فترة قصيرة من ولادته ما كان "سامح" قد فر من البيت، كانت تلك كلماته الأخيرة قذفها في وجهي قبل ان يلفظ أنفاسه وكانه كان يريد ان يحملني في ما تبقى لي من حياة ذنباً غير قابل للصفح.**

**يتذكر الآن نتفاً عن حكاية كان قد سمعها مراراً في الماضي أن أمه اضطرت الى قطع الرضاعة الطبيعية عنه بعد أسابيع من ولادته لأنها كانت قد عادت لوظيفتها بعد انتهاء اجازة الولادة واضطراها لتركه وهو في سنته الأولى عند جدته طيلة الساعات التي تقضيها في عملها. لكن ان يسمع الآن أن أباه المصاب بالزهايمر يفيق لبرهة قبيل موته كي يلوم أمه على غربته الطويلة فتلك حكاية تصلح لدراما تتناسب مع هذه الأوقات التراجيدية التي يعيشونها جميعاً لولا أنه لا يرغب في أن يكون هو أحد أبطالها. نظر الى وجه أمه وأيقن كم الألم والشعور بالذنب الذي لابد انها تحملته ولا تزال بسبب هلوسات أو ربما يقظة ذهن عابرة خلال سكرة الموت التي عانى منها أبوه.**

* **هل تعلمين كم مليون خرجوا من العراق خلال هذه الأشهر الأخيرة؟**

**لم ينتظر منها جواباً الا أنه يعلم الآن ان التهمة التي وراء الذنب الذي تشعر به أمه بانها كانت السبب وراء اغترابه الطويل ليس هناك من يستطيع ان يفندها سواه.**

* **لو كان أبي في صحة جيدة ومعنا الآن لكان سألني لم أنا هنا في هذا الجحيم وطلب مني ان أغادره فوراً.**

**في الأسابيع التالية سيرتب له "مروان" فرص اللقاء بأمه تحت الحاحها بالرغم من تواصل العنف والقتل وصعوبة الإنتقال بين مناطق المدينة الممزقة ووسط الرصاص وقذائف الهاون والتفجيرات المتبادلة بين مجاميع متناحرة بالعلن حول عنعنات الهوية وبالسر حول غنائم يأتي بها ريع الذهب الأسود. في لقائاتهما كانت تحدثه عن نفسها وعن أبيه والعائلة والأقارب والجيران وتسأله عن حياته في "باريس"، ماذا يأكل، من يطبخ له، وما هو عمله، وهل لديه أصدقاء عراقيين، وهل تزوج؟ مرة حدثته عن "سوسن" الفتاة التي أحبها قبل ان ينفصلا عندما علمت بعزمه على السفر الى "فرنسا". قالت له ان زوجها كان ضابطاً وقتل في الحرب الأخيرة وترك لها ولدان وبنت وأنها تسأل عنه كلما تقابلا. يسألها هو عن أشياء وناس وأماكن يحاول من خلالها ان يملأ فجوات في ذاكرته وسعتها السنين التي عاشها في الغربة كما تسميها أمه وما يسميها هو الأرض الموعودة.**

**فاجأته في اللقاء الأخير بأن نقلت له رسالة من "مثنى" جيرانهم الشاب الذي التقاه يوم وصوله في زيارته الأولى يقول فيها أنه يرغب في لقاء معه. بحكم عمله وبفضل "مروان" بالذات أصبح يعرف الآن الكثير عن "مثنى" وتننظيمه ونشاطهم في شمال "بغداد". لم يندهش ان "مثنى" يعلم بوجوده في "بغداد" وعمله فالتجربة القصيرة هنا علمته أن لا سر يخفى في هذه المدينة وان لعبة التبادلية تدور رحاها أيضأ الى جانب الحربين الجاريتين، حرب الرصاص والذبح الجارية وحرب صامتة تديرها الأشباح التي تتولى العمليات السرية. راودته أفكار شتى عن دوافعه لطلب اللقاء وأولها انه وجماعته يريدونه أن يترك عمله مع الكفار كما سيقولون أو لربما أنه سيطلب منه اجراء مقابلة صحفية مع أحد قادة تنظيماتهم على غرار المقابلة مع "أبو عاصفة". قطعت عليه أمه سلسلة أفكاره لتخبره أنها استشفت من تلميحات أخيه أنهم يريدون تجنديه في صفوف المقاومة ويكلفونه بعملية كبيرة داخل "المنطقة الخضراء."**

* **أحكي له حكاية أبي وأخبريه اني رضعت الحليب الاصطناعي وسيفهم، شدد على أمه وقبلها في رأسها هامسا في أذنها انه سينهي عمله هنا بعد أيام عائدا الى "باريس".**

**حين اختلى بنفسه استرجع ما قاله لـ"حسان" عشية مغادرته الى "بغداد" بانه ذاهب في مهمة عمل محددة وكان يقصد أنه يريد أن يخوض تجربة مهنية وبحثية جديدة ويخلص الى مقاربة تجمع بين الفكر الاجتماعي والسياسي الذي هو مجال تخصصه وبين الواقع كما هو على الأرض. يدرك ان الميدان الذي سيخوضه ليس مختبرا للفيزياء أو الكيمياء بإمكانه قبل يَلجَهُ ان يتخلى تماماَ عن أفكاره المسبقة ومسلماته ويعمل على فرضيات وضعها. قال له انه يدرك أن عليه ان الا يخلط بين متطلبات وظيفته وبين خصوصية وضعه كإنسان لا يزال يحمل في بدنه جينات هؤلاء البشر الذين سيذهب لكي يختبر مالذي سيبنونه على انقاض ما تهدم. حين سمع "حسان" ذلك سخر منه على طريقته مقترحا عليه ان يطرح افتراضاً بديلاً وهو أنهم حققوا نصراً لا يعرفون ما الذي سيصنعونه به. بعدها ذكره بأنه ذاهب الى "العراق" وليس الى "رواندا" وانه حالما يضع ما يجري امامه تحت مايكروسكوبات المختبر الذي يتحدث عنه فأنه سيرى بالعين المكبرة أيضاً كل ماضيه وسيفجر فيه ذكريات وينكأ جراحاً سترميه بعدها في لجج من عواصف التناقض والقلق والحيرة. كان "حسان" على حق فقد مر بكل ذلك فعلاً خلال العام الذي قضاه هنا وها هو يكتشف بانه أبن التجربة حقاً نجح في الإبتعاد عن فخاخها المنصوبة ولكن هل سيتمكن من اجتيازها للنهاية.**

**في المؤتمر الصحفي الذي عقده الأمين العام للأمم المتحدة "بان كي مون" مع وزير الخارجية قبيل انتهاء زيارته التي استهدفت تقييم الوضع على الأرض بنفسه اثر التدهور الأمني المتصاعد والإحتمالات الخطيرة التي بدأت تنذر بها وقعت أنظاره على فتاة كانت ضمن طاقم الوزارة المكلف بالإعداد لزيارة المسؤول الأممي. انتبه الى انها كانت بدورها تختلس النظر اليه بين الحين والآخر من بعيد حيث كان يجلس هو في الصف الأول في القاعة بينما وقفت هي الى جانب بعض كبار المسؤولين بإنتظار وصول المسؤول الأممي. تفطن الى أنه رأى ذلك الوجه أثناء زيارته الأولى وأنه لابد وان التقى أيضأ بصاحبته بعض المرات أثناء اجتماعات لاحقة جرت بين ممثلي المنظمات الدولية ونشطاء في هيئات المجتمع المدني ومسؤولين حكومين. لم يتردد بعد انتهاء المؤتمر من الإقتراب منها لتحيتها وتذكيرها بأنهم التقوا من قبل في مناسبات كهذه مضيفاً أنه عاد الى "بغداد" منذ فترة ولكن هذه المرة بمهنة جديدة.**

**- نعم، بالطبع أتذكرك جيداً. أنت الأستاذ "سامح" وجنابك كنت دائماً مهتماً بموضوع اعادة بناء الدول بعد النزاعات والحروب، قالت بلهجة مزجت بين الرقة الأنثوية والنبرة الدبلوماسية.**

**- هذا صحيح وأظن ان كثيرين كرهوني يومها ربما لتوقعاتي المتشائمة، أجابها وهو يحاول ان يحتفظ بدهشته أنها تذكرته.**

**- ربما يكرهونك الآن أكثر وهم يقرأون تقاريرك الصحفية. انها أشبه برثائية لبلد في طريقه لأن يختفي من الوجود، ردت بإبتسامة رقيقة على شفتيها دون أن تبدو ساخرة.**

**زادت من ابهاره هذه المرة فهي ممن يتابعون ما يكتب اذن، كما ان لها رأي أيضا ولن يعترض عليه.**

* **هذه هي مهنة البحث عن المتاعب، كما تعلمين، فتصوري كيف يكون الأمر معي حين أبحث عن البلاوي.**

**بعد أن ودعته بإبتسامة أكثر رقة معتذرة للالتحاق بزملائها الذين بدؤا يغادرون القاعة قضى الوقت في طريق العودة الى المكتب في محاولة استرجاع اللقاءات التي جمعتهما معا في تلك المناسبات التي كان يمثل خلالها "المركز الآوربي" ويعمل على اعداد بحثه الذي أصبح مرجعاً معتمداً في دراسة الحالة العراقية. أغلق زجاج السيارة بجانبه في المقعد الأمامي وطلب من "حيدر" ان يغلق زجاجته أيضا ثم استجمع في عقله سكوناً كي لا يشتت افكاره ونجح فعلا في استعادة بعض الصور في ذهنه التي تعود اليها في قاعات وغرف كانت تجري تلك الاجتماعات فيها وظهرت في بعضها وهي تحدق به مليا لكنه لا يتذكر أن تلك النظرات المتأملة لفتت انتباهه. يبدو ان ليست كل الفخاخ من النوع الذي ينصبه "أبو عاصفة" أو "مثنى" فالحظ او الزمن، ربما لديه قدرة مماثلة. تأتيه فكرة وهو يفتح عينيه ويدير وجهه صوب "حيدر" الذي كان بدأ يتطلع اليه وعلى شفتيه ابتسامة.**

* **هل أستطيع ان اطلب منك خدمة؟**

**وقبل أن يجيبه "حيدر" أضاف.**

**- لقد تحدثت مع أنسة أو سيدة من موظفي الوزارة بشان التأكد من معلومة وردت في المؤتمر الصحفي ووعدتني بالرد لكن أعتقد أني اخطأت في رقم تلفوني الذي أعطيتها اياه. هل بالإمكان ان تحصل لي على أسمها ورقمها كي أكلمها؟**

**- هذا أمر بسيط، لا تشغل بالك. صفها لي.**

**حين أكمل "سامح" وصفها سحب "حيدر" تلفونه المحمول وأعطى الشخص الذي على الجانب الأخر الأوصاف التي ذكرها "سامح" وسأله عمن تكون تلك الموظفة او المسؤولة ولم يتأخر الجواب كما أنه تبرع بمعلومات أخرى.**

* **اسمها "سلمى" تعمل في قسم العلاقات الدولية في الوزارة وهي أخت "عدنان الشكرجي" المسؤول الكبير في أحد الأحزاب المتنفذة ومساعد وثيق لزعيمه.**

**رفع حاجبيه وزم شفتيه في دهشة ترك لـ"حيدر" ان يفسرها بمايشاء وهو يرفع ابهامه أمامه تعبيراً عن الشكر وعاد ليسرح من جديد في الدقائق القليلة المتبقية للوصول الى المكتب. ذلك كان كل ما يريد معرفته الآن اما خياله فسيجد له متسعا لاحقاً ما لم ينتشله منها واقع الخراب الذي يحيط به وهواجسه من المجهول القادم. في الأيام القادمة ستلح عليه صورة "سلمى" مراراً وستأخذه الى سنين مراهقته وشبابه ويحاول أن يحصي في كل مرة عدد البنات اللواتي شغف بهن حبا ويسترجع المرات التي لاحقهن في شوارع ودروب "بغداد" ويتذكر خيبات الأمل التي تجرعها حين أنتهت مغامراته تلك إما بالفشل، او بفترات قصيرة من السعادة والتي سرعان ما انتكست لأسباب لا يتذكرها الآن. سيقرر عدم أخذ زمام المبادرة فلربما كان الأمر برمته من الأوهام التي يعرف انها تولد وتترعرع في أجواء اللايقين مثل هذه التي أصبح يعرفها جيداً.**

**\*\*\***

**3/4**

**في أمر القتال الذي اصدره قائد الفصيل الجديد الملازم "كلنتن ويلسين" كان التوجيه القادم من قائد "فرقة المشاة الثالثة" محدداً بشأن الواجب الذي انيط بالجنود وهو "القتل والتطهير" في المنطقة التي سيتولون المسؤولية فيها والممتدة بين "الفلوجة" و"الخالدية" و "جرف الصخر". كانت المهمة متطابقة مع سمعة الفصيل التي اكتشببها في الحرب حيث أصبح يدعى بـ"فصيل الموت" بسبب الجرأة التي يتسم بها أفراده في انجاز الواجب دون حسابات التكلفة للعدو أو حتى تحديد من هو ذلك العدو على وجه الدقة. حين قرأ "ريكاردو الأمر" على جنوده بعد استقرارهم في قاعدة "الفلوجة" تعالت صيحات البعض "هويا ..هويا لنقتل الأوغاد ونطهر الأرض منهم".**

* **أريد ان احذركم بان الأشرار هنا أكثر شراسة ممن واجهتموهم في "بغداد". كلنا نتذكر جثث المقاولين التي علقوها فوق جسر "الفلوجة". لا أريد أن أري جثة اي منكم متدلية من قدميه هناك."\***

**في تلك اللحظة دوت انفجارات قنابل الهاون التي سقطت في مكان قريب دون أن تصيب القاعة بشكل مباشر. ربما كانت المقذوفات من عيار 120 ملم بسبب دويها العالي واطلاقها لا شك يعني ان الجماعات المسلحة التي تنتشر في المنطقة كانت تراقب رحلتهم الى معسكرهم الجديد. الجنود بدوا مطمأنين لأن القاعة التي تجمعوا فيها كانت محصنة بألواح عالية من الكونكريت المسلح بالحديد والمحاط من الخارج والمغطى من أعلى السقف باكياس الرمل التي تمتص رؤوس القذائف.**

**- تلك هي حفلة الإستقبال التي أعدوها لنا، علينا ان نرد التحية بأحسن منها كما تعلمتم، قال "ريكاردو".**

**\*في نيسان 2004 يأسرالمسلحون 4 من أفراد شركة بلاك ووتر الأمنية ثم يقومون بقتلهم وتعليق جثثهم على هيكل جسر الفلوجة الحديدي.**

**- سنقطع اعناقهمم مثلما جزوا عنق نك بيرغ، جاء صوت "جيف" وسط تهليلات آخرين.\***

**- سيكون هناك ايجاز عن منطقة عملياتنا وعن المهمة التي كلفنا بها بعد الظهر وسنبدأ واجبنا غدا صباحاً، أبلغهم قبل يصرح بصوت عال" تفرقوا".**

**حسب النهج المتبع في عملية استبدال القوات في الجيش الأمريكي كان من المفترض أن يعود الفصيل الى البلاد منذ أكثر من عام لكن اسثناءً صدر وقررت القيادة الإبقاء على قوة اللواء بكاملها كي يقاتل الى جانب القوات التي يجري تدويرها. ولأن الجنود يعرفون ان رأيهم لن يقدم أو يؤخر فانهم استلسموا للأمر الواقع دون تذمر في حين ترواحت أسباب الآخرين بين الرغبة بالاستمرار في هذه المغامرة التي لا قيود عليهم في ممارستها، أو من اعتبرها فرصة للحصول على المزيد من الرواتب والمزايا، وربما أيضاً بالتكريم.**

**منذ نحو عامين أصبحت "الفلوجة" والمناطق المجاورة لها جحيماً لايطاق للقوات الأمريكية بسبب اشتداد عمليات المقاومة والتي تمتلك ميزة كبيرة كونها تعمل وسط حاضنة سكانية ساندة وعلى اتساع مساحة أغلبها أراضٍ زراعية تسهل فيها عمليات الكر والفر. كانت قوة المارينز الاستطلاعية بقيادة "الجنرال جيمس كونوي" بالاشتراك مع فرقة المارينز الأولى بقيادة "الجنرال جيمس ماتيس" قد خاضت معارك طاحنة على مدى أشهر لفرض السيطرة على المدينة وما جاورها بعد عملية قتل المقاولين الأمنيين الأمريكيين الأربعة وسلسلة هجمات قامت بها خلايا المقاومة في المنطقة التي تشكل عقدة مواصلات حيوية في الداخل وبين العراق وجيرانه في الشرق والى الجنوب. قاعدة الحبانية التي تغطي مساحة مترامية الأطراف شمال المدينة كانت بالأصل معسكراً للجيش العراقي وقبل ذلك معسكراً للقوات البريطانية التي احتلت العراق عام 1917 والتي خاضت بعد أكثر من عقدين احدى معاركها الكبرى مع العراقيين هنا. ما يحصل هنا يؤكد**

**\* نيك بيرغ مقاول مدني في الجيش الأمريكي اختطف في مايو 2004 ثم ظهر في شريط فيديو بعد ذلك يقوم فيه أحد الملثمين قالت المخابرات الأمريكية انه ابو مصعب الزرقاوي بقطع رقبته.**

**للمدنيين الذين يسكنون "حي الكولي كامب"\* الملاصق للمعسكر والذين يتحدثون الى الجنود تلك المقولة الماثورة بان التاريخ يعيد نفسه، ولكنه في الحقيقة بالنسبة لهم يعيدها بشكل أكثر مأساوية في المرات التالية، كما يحصل الآن.**

**قبل ان يمضوا الى مهاجعهم في كرافانات اصطفت تحت أشجار يوكالبتوس باسقة وتم تحصبنها من الخارج أيضا بمكعبات رملية كبيرة لامتصاص قوة التفجيرات المحتملة حملت "سالي" كيس حوائجها وبندقيتها ومضت نحو المهجع الذي خصص لها لوحدها كونها الجندية الوحيدة في الفصيل.القت نظرة سريعة ولفت نظرها في احدى الزوايا كانت ثمة رزنامة معلقة على الحائط تحتل الجزء العلوي منها صورة فوتوغرافية تبرز خلفية لأمرأة عارية تحمل بيدها تفاحة الى جانب عجزيتها المكورة خمنت انها قد تكون لـ"ساندرا بولك" او "جينفر لوبيز" لكنها بالتأكيد ليست لـ"كم كاردتشيان". في الجزء الأسفل كانت مربعات تحمل أسماء الشهور والأيام التي تم الخط عليها بعلامات أكس وتتوقف عند يوم 11 نوفمبر 2005. خطر على بالها أنها ربما كانت لأحد الجنود الذين قتلوا في كمين بسيارة مفخخة اثناء عودتهم الى هذا المعسكر قبل شهور تذكرت ان من بين القتلى كانت جندية. من يدري، تساءلت، ربما كانت الجندية مثلية وكانت تلك وسيلتها لتشبع غريزتها في غياب شريكة لها هنا. لكن على الحائط الآخر كان ثمة بوستر كبير لللاعب "بيتون وليمز ماننغ" من مباراة فريقه "انديانا بولس كولتس" وفريق "شيكاغو بيرز" في "ميامي" يوم 4 شباط 2006 التي فاز فيها الفريق الأول بالبطولة الوطنية لكرة القدم الأمريكية والى جانبه صور من مجلة "ماكسيم" المخصصة للرجال مما شوش عليها تفكيرها في ما اذا كان من علق الصورتين شخص واحد أو أكثر. في زاوية أخرى وضعت ثلاجة صغيرة حين فتحتها كان هناك علب بيرة وبعض مشروبات الطاقة. قررت ان ترمي بنفسها الى السرير وتستغرق في قيلولة هي بحاجة اليها بإنتظار ما تخبئه لها الأيام القادمة في هذه الأرض التي بدت لها وهي تقطعها**

**\*حي الكولي كامب شيده الانكليز اثناء احتلالهم للعراق لاسكان العمال العراقيين المدنيين ولكنه افرغ منهم اثناء حكم البعث لكن البعض من عوائلهم عادت الى تلك الدور بعد سقوط النظام ظنا منها أنهم استعادوا ملكيتهم لها.**

**في الهامر من شرقها الى غربها في طريقها الى هذه القاعدة وكأنها خارجة من يوم القيامة.**

**منذ أسقط المسلحون المحليون مروحية الشينوك قبل أسبوع وقتلوا جميع من على متنها من الجنود أصبح الوضع في "الفلوجة" وضواحيها أكثر صعوبة. تكاد لا تمر ساعة دون قتال مع بعض الأفراد أو هجمات بالقنابل أو الهاونات او تفجيرات بالعبوات الناسفة لدورياتهم على الطرق. لم تكن تلك هي المروحية الأولى التي يجري اسقاطها منذ الغزو لكن الخسائر كانت هذه المرة فادحة اذ قتل ستة عشر جنديا كانوا في طريقهم الى طائرة تنتظرهم في مطار "بغداد" كي تنقلهم الى الوطن في اجازة. جنود الفصيل أصبحوا أكثر شراسة ودموية منذ وصولهم الى هنا قبل أسابيع وكأن الحرب لم تعد بالنسبة اليهم مجرد مهمة البقاء أحياء أو حتى قتل العدو في المعركة قبل ان يقتلك، كما تعلموا، بل أصبح الهدف هو القتل لمجرد القتل. حين آتاهم خبر مقتل أثنين من زملائهم في اللواء كانا ضمن ركاب المروحية طار صواب أفراد الفصيل وغلى الدم في عروقهم لكنهم بعد نوبة من الصرخات والشتائم والوعود بالثأر التي اطلقوها قرروا، أو قرر كل واحد مع نفسه، دون ان يعلنوا ذلك، بان ردهم المعتاد سيأتي عاجلاً قبل آجلاً.**

**حين جاء موعد خروج دوريتهم في المساء قام "ريكاردو" بالتفتيش الإعتيادي على أفراد الدورية والهامرات الثلاثة التي سيستلقونها ثم قرأ عليهم الواجب التي تضمن تعريفهم بالهدف وخط السير والعلامات الرئيسية والمداهمات المتوقعة حسب ماهو مطلوب من القائد. بعد ان انتهى وقف وسط جنودهم وصرخ فيهم**

**- هل لديكم شهية للقتل ايها المخنثون؟**

**- نعم سيدي، جاءه الجواب بصرخات أعلى.**

**- هيا بنا هناك من هو بالانتظار، لا تخيبوا أمله.**

**منذ مقتل "بوني" في بغداد و"ريكاردو" يظهر تعطشاً لا حدود له للدم ويضع قواعد الإشتباك حسب هواه وليس وفق تعليمات وأوامر قيادته. في الأيام والأسابيع الأولى كان الأمر يبدو وكأنه يريد ان يقول لجنوده انه يحاول ان ينتقم لرفيقهم ولكن مع تكرار تنفيذ غارات على بيوت ومزارع ومستودعات لم تكن حتى هدفا مشكوكا أصبح واضحاً انه يعاني من حالة شهوانية للقتل تمنحه نشوة وسعادة أكثر مما تمنحه اياه الخمرة والمخدرات. لم يأخذ "ريكاردو" كل أفراد الفصيل معه للمهمة. من لم ينتقيه شك بان الرقيب ربما يخشى من قلة حماسته او من ثرثرته او لربما وشايته. أبقى "سام" أيضاً مع من تركهم في المعسكر لأنه يعرف بانه سيعود بعد ذلك ويدون كل ما حصل في ذلك الكراس اللعين الذي يحتفظ به معه والذي اضطر مرات عديدة ان يأخذه منه كي يمزق الصفحات التي سودها عن غارات الفصيل وكأنه يسجل وقائع معركة "هرمجدون."\***

**بالرغم من تلك الصورة الدموية التي ترافق أسم "الفلوجة" منذ ان وطأت بساطيلهم هذه البلاد كان "سام" اكثرهم اغتباطا بنقل اللواء الى هذا البقعة من العراق لأنها اعادته ثانية الى "نهر الفرات" الذي ظل بعيدا عنه منذ يوم العبور على "جسر المسيب" الذي ترسخ في ذهنه وفي وجدانه كيوم مشهود شبهه في أحدى رسائله الى أمه بانه العبور المعكوس. كتب لها: "احساسي وانا اقف على شاطئ الفرات فاق احساسي يوم طهوري. كان ختما لإيماني بأن الخوف من أن نقع أسرى او من أن نموت عندما ينطبق علينا الماء ما عاد قائما." ومنذ اللحظة الأولى التي شاهد فيها "الفرات" عند "الفلوجة" وهم يعبرون ذلك الجسر الحديدي المشؤوم شم عبق التاريخ اليهودي قادما من أرض سورا ونهراديا وبومبديتا تلك البقاع الزاهية التي دونت بين جدران معابدها ومدارسها الكثير من النبؤات والاسفار والأفكار اليهودية وعلى رأسها "تلمود السبي". \*\***

**فرحة اليوم لا تسع صدره فقد تركوه في المعسكر فقرر على الفور ان**

**\*معركة ورد ذكرها في سفر الرؤيا تقع في أرض فلسطين بين قوى الخير وهم العبرانيون وقوى الـــشر التي يثملها اعداؤهم.**

**\* الأماكن الثلاثة Nehardea, Sura, Pumbedita اي بومبيديتا وسورا ونهر دعا كانت تقع علي ضفتي الفرات بين بابل والفلوجة في عهد السبي**

**يتجه الى الضفة الغربية لـ"الفرات" التي لا تبعد عن قاعتهم سوى بضعة مئات من الأمتار وجد قبل ان يجتازها شجرة صفصاف تعلو فوق ناصية الاسفلت. كانت الشجرة علامة من علامات الرب الهادية التي وضعها في**

**طريقه فقطع خمسة اغصان منها تماما مثلما يفعل في يوم "هوشانا رابا" في عيد السوكوت\*. حين وصل النهر العظيم وضع الكابالا على رأسه أولاً ثم ارتدى الطيلسان الجديد الذي عاد به من اجازته الأخيرة على رأسه وضرب باغصان الصفصاف على رمل الشاطئ الندي ثم بدأ يرتل صلاة شمونه عسْريه\* باليديشية وهو يقف موليا وجهه نحو "القدس". \***

**عند عودته الى الصالة ذهب الى الركن الذي وضعوا فيه أجهزة كومبيوتر وفتح واحداً وبدأ يكتب ايميلاً الى أمه. منذ تطوعه ووصوله الى ميدان الحرب طلب منها أن تحتفظ بمراسلاته في ملف خاص لأنه ربما سيدونها لاحقاً بعدما يعود من الحرب في كتاب لم يقرر شكله بعد. في الايميل الذي بعثه كتب:"الحياة هنا حيث انتقلنا هي الجحيم، أبوابها مشرعة صباح مساء بنيران القنابل والألغام التي تفاجئنا في الطرقات أو الصواريخ وزخات الرصاص التي تنهمر علينا من كل صوب. تنين من البارود الملتهب والخوف والريبة نصحوا عليه كل يوم وأظن اني لا أريد ان اتحدث عن ذلك كثيراً كي لا أكدر عليك صفوك رغم أني أعلم انك تتابعين الأخبار أولاً بأول. مررت أخيرا في "بمباديتا" التي هي مدينة "الفلوجة" ذاتها والتي يقول المترجم المحلي الذي معنا بعد ان استشار القاموس انها تعني بلغتهم الأرض التي استصلحت وحيث تتفلج تربتها عن خيرات كثيرة حين يمسها الماء. كنت اتمنى ان أكون في "بابل" ذاتها أسير في خطى "دانيال" وهو يوفي بنذوره للرب في "معبد بعل" ويَعدهُ بان "العدو قد يحمله عنوة الى قصر بابل، لكنَّه لن يقدر ان ينتزعه من المائدة السماوية". ولكني أشعر اليوم بعد ان عدت من صلاتي الكاملة على ضفاف "الفرات" أني مسحور بهذا المكان الذي**

**\* "هوشانا رابا" هو اليوم السابع من عيد العرش او السوكوت وهي أيام مقدسة عند اليهود يحتفلون به على مدى 7 أيام وتجرى فيه عادة قديمة وهي أخذ 5 أغصان من الصفصاف وضربها على الأرض 5 مرات.**

**\*صلاة "الثمانية عشر" هي عدد الأدعية التي يتم تلاوتها وتعتبر من أهم الصلوات اليهودية عند الإشكناز.**

**يأسر قلبي وهو يجسد ذلك القول المأثور بالعبرية الذي تحمله اللوحة المعلقة في غرفتي "عِبرَ النهر سكن لكم آباء منذ وقت سحيق". سأحاول ان أجد أثراً شاخصاً للأجداد هنا مثل أطلال مدرسة التلمود التي اقامها "يهودا بن حزقيال" أيام السبي حيث وضعت في رحابها الشروح الأولى للأسفار ودونوا شرائعنا الدينية ببراعة الخط الآرامي الذي جودوه لكي ينظموا بها حياتنا اليومية. وفي كل الأحوال ساسعى لكي أمشي في تلك الخطى التي سارعليها أولئك اليهود الذين قدموا أعظم ابتكار للعقل الإنساني حيث أصبحت اليهودية هنا ديانة وهنا قرر اليهود ان يكون اللهم في السماء ولا اله غيره. هنا وجدوا ذلك التناغم الروحي مع غربتهم الذي عوضهم بها الرب عن عدم وجود ما يمتلكونه على هذه الأرض وأغنى غربتهم عن أرض المعاد. هنا، يا أمي، أجد انا روحي ترتوي بعمق من عبق ذلك الماضي ومن حكمته السماوية."**

**قطعت سلسلة أفكار "سام" التي كان مسترسلاً فيها عودة أفراد الفصيل مصحوبين بهرج ومرج أكثر مما هو معتاد بعد كل دورية. حين اقتربوا أكثر كان بإمكانه ان يميز صوت "سالي" الجندية المشاغبة في الفصيل وهي تقذف بالشتائم واللعنات يلاحقها "ريكاردو" الذي كان يشير الى باقي الفصيل ان يبتعدوا وأن يتركونهما لوحديهما.**

**- أنت لست جندياً، بل مجرد قاتل سادي وعار على الجيش، بل على أمريكا. ماذا تظن أنك فاعل؟ هل تعتقد أنك في الحملة الاسبانية على "غواتيمالا" حيث تقتل سكانها من الهنود الحمر وتقطع أوصالهم وتغتصب نسائهم وتشعل الحرائق في بيوتهم من أجل ان تخضعهم؟**

**حين سمع "سام" تلك الكلمات تخرج كالرصاص من فم "سالي" بقي في مكانه دون حراك كي لا يلفت الانتباه لوجوده.**

* **اصحى. نحن في القرن الحادي والعشرين ولسنا في القرن السادس عشر. أنت في الجيش الامريكي ولست في حملة "بترو دي الفادرو" وهؤلاء البشر ليسوا من قبائل "المايا" جئت لتجتثهم وتنشأ على أرضهم مستعمرة اسبانية، جاءت قذائف سالي هذه المرة متتالية ومدوية.**

**ودَّ "ريكاردو" ان يلطم "سالي" على وجهها للاسم الذي نطقت به للتو والذي لم يأت احد على ذكره أمامه منذ زمن طويل. سرح بباله قليلاً ثم تذكر انه الاسم الذي طالما كان يسمعه على لسان عجائز أهله حينما كان لا يزال يعيش في مدينته في "اقليم ازابيل" قبل هجرته الى "أمريكا" حين كان يثار الجدل بين السكان من أصل اسباني والآخرين من الهنود الحمر أو من السود حول الفضائع التي ارتكبها المستعمرون الاسبان. في طفولته كان جدته تروي له حكايات مقاتلي "المايا" الشجعان الذي تصدوا لحملة "دي الفادرو" بسهامهم المسمومة وبالرماح المدببة كالنار وبسيوف عريضة أشبه بالسواطير وهم يرتدون دروعاً من القماش المنقع بالماء المملح الذي يمنحها سماكة يقاتلون جيشا جراراً من الفرسان المدججين بالدروع والأسلحة. تذكر تلك الحكايات عن أن الاسبان كانوا يريدون عتق "المايا" و"الانكا" من عبادة الأوثان وينقلونهم الى مملكة الرب التي يبنونها على الأرض في العالم الجديد. في سبيل ذلك الهدف السماوي كانوا يشدون أجسادهم بذيول الخيول التي يضربونها بالسياط بعد ذلك فتبقى تترنخ في الهواء حتى تتقطع الى أشلاء وتزهق أرواحها.**

**مرت تلك الذكريات كسهم في بال "ريكاردو" قبل ان يلتفت الى "سالي" ليوبخها.**

**- لا تكوني سخيفة، ان هيأتي تدل ان الدماء التي تجري في عروقي هندية وليست اسبانية.**

**- لا يهم لونك. المشكلة في مخك، هذا اذا كان لديك واحد. لطالما تمثل العبيد بثقاقة أسيادهم. ما فعلته اليوم هو ما فعله مستعمرينكم بكم قبل خمسة قرون ثم تكرر بعد ذلك على يد بعضكم البعض. تبدؤون بالقمع ثم بالإذلال ثم القتل، القتل، القتل وبعد ذلك الاخضاع.**

**أدرك "سام" وهو يصغي من مكانه أن ما كان يتوقعه بخروج الفصيل في الدورية قد حصل. تذكر انهم سخروا وضحكوا كثيرا قبل أيام حين جائتهم أخبار قيام جنود كتيبة المشاة 502 باغتصاب فتاة عمرها 14 عاماً في اليوسفية القريبة من هنا بعد ان قتلوا عائلتها في بيتهم القريب من نقطة تمركزهم. تحسر ساعتها "جيف" بانه ليس في تلك الكتيبة لكان ذاق تجربة النوم مع صبية عراقية في حين رد عليه "ريكاردو" لو كنا معك لتركناك مع أمها وحرمناك منها أيها البغل. "لابد ان شيئاً من هذا القبيل قد حصل مع الدورية وهو الذي أجج كل هذا الغضب لدى "سالي". كان "سام" قد سمع "ريكاردو" وهو يأمر الجنود بالانطلاق يصرخ بهم "هيا ايها الأوغاد لنذهب ونريهم من نحن". ولكن لماذا كل هذا الضجيج الذي تفتعله هذه المغفلة التي لم تتعلم بعد أول درس يتعلمه الجندي في الجيش اضافة الى الإنضباط واتباع سلسلة القيادة الا وهو الانسجام او ما يدعوه بروح الفريق والمشاركة في المسؤولية والتكتم.**

**استمع "سام" من مخبأه الى أخر كلمات نطق بها "ريكاردو" قبل ان يغادر الصالة: لقد تركتك تنفيثين سمك لكن أظنك لا تحتاجين الى ان أذكرك بان تبقي فمك مقفلاً بعد الآن.**

**لم تكن "سالي" بحاجة الى تهديد "ريكاردو" لكي يذكرها أنها أصبحت منذ اللحظة في وسط ذلك الفخ الذي كانت تتجنب الوقوع فيه منذ أن أدركت ان تطوعها في الجيش زاد من غربتها التي حاولت ان تهرب منها في مدينتها تلك على شواطئ المحيط الهادئ الشمالية الباردة. الطبيب النفسي في الجيش الذي زارته بعد أشهر من وصولها الى الميدان طمأنها انها لا تعاني من أي اضطرابات عصبية أو نفسية وان الأمر برمته هو مجرد ما أسماه "أعراض تكيف سلوكي" وعدها انها ستزول بالتدريج. لكن الطبيبة النفسية التي ذهبت تستشريها في سياتل اثناء الاجازة أخبرتها ان ما تعاني منه هو أعراض مبكرة لاضطراب ما بعد الصدمة ونصحتها بطلب اعفاء طبي من الخدمة. لم تخبر الطبيبة بانها تطوعت في الجيش هروبا من صدمة كانت تعاني منها بسبب انفصالها عن حبيبها الذي اكتشفت خيانته لها ولا تعلم ان كان تركها للجيش سيعني نهاية الصدمات التي تواجهها في مسيرة حياتها ام بداية لها. وسواء كان الأمر يتعلق بالتعقيدات الادارية أو خسارتها لراتب يبلغ 60,000 دولار سنوياً دون ضرائب بدأت بادخاره لمستقبل لا تعرف ملامحه فهي لم تتقدم بطلب انهاء عقد الخدمة الذي مددته لسنتين أخريين وقررت ان تمتص الصدمات بالأدوية وتمارين بدنية ونفسية تعلمتها عن طريق الإنترنيت.**

**- انتِ على حق أنها لعنة "المايا" هناك، مثلما هي لعنة "بابل" هنا. الرب يرسل جنوده كي يحرروا العصاة من شياطينهم، جاءها صوت "سام" وهو يطل من وراء احدى الحواجز الخشبية العديدة التي تقسم أركان القاعة. لم تكن "سالي" مندهشة لا من ظهوره المفاجئ ولا من ما تسميه دائماً هلوساته التوراتية.**

**- أنتِ نفسك قادمة من ولاية حلت عليها لعنة الهنود الحمر على يد اليانكي. ألم يقل لك ذلك جيرانك في "سان جوان" و"بلايك ايلاند؟"، اضاف بينما قررت "سالي" ان تتجاهله وتعود الى مهجعها وترتوي ببعض علب البيرة التي لاتزال في ثلاجتها في الكارفان.**

**- ما دمت لا تؤمنين بجنود الرب فمن الأفضل أن تأخذي ما سمعت من "ريكاردو" على محمل الجد ولا تنسي أن تحفظي بروتوكول النيران الصديقة عن ظهر قلب، سمعته يقول بنغمة لم تخلو من التهكم وهي تضع قدميها خارج الصالة وتشعر انها بحاجة الى من ينتشلها من عالم الرعب هذا.**

**\*من الأساطير ان آلهة المايا ستعود من السماء مع نهاية الباكتون الثالث عشر٬ والتي ستتزامن مع وقوع زلازل وبراكين مدمرة ستبيد الحياة بشكل نهائي فوق الكرة الأرضية٬ وهي المخاوف التي تغذيها الهالة الغرائبية التي تحيط بحضارة شعب المايا الذين اعتمدوا على الرموز والألغاز كنمط حياة.**

**\*\* \*\*\*\***

**4/1**

**في الطريق من "فندق النوفوتيل" عند تقاطع "كوتانتين" مع "شارع آندريه جيد" الى مقر "المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية" كان لابد أن يمر بـ"حديقة بير أدريان ديلبايرات". قرر ان يخرج مبكراً ويمشي على قدميه الى بناية المعهد كي يستعيد بعض من ذكرياته في هذه المدينة. في الجو كانت هناك نسائم ربيعة تحمل مع بقايا ندى الصباح شذا رائعاً بدا خليطاً من عبق العشب الذي لا يزال طرياً والأريج الذي تفوح به الأشجار وأحواض الزهور التي غطت مساحات متناثرة من أرض المتنزه. بحث عن مصطبة كان يلجأ اليها قبل سنوات للجلوس أثناء استراحته حين عمل في "مطعم غاندي محل" عند "شارع الفونسو برلتيون" القريب بعد وصوله الى "باريس". أشهر عديدة قضاها يغسل الصحون والأرضيات والحمامات وهو يعمل تحت رحمة أصحاب المطعم الهنود الذين تأكد انهم وافقوا على تشغيله مع بقية العاملين من المهاجرين البنجابيين لتوظيفه في تلك الأنواع من الأعمال الوضيعة التي كانوا يريدون تركها لغيرهم. على هذه المصطبة التي وجدها أخيراً كان يقضي أوقات الراحة عندما يكون الطقس دافئا وصحوا فيجلس ليقرأ كتاباً أو صحيفة أو ليحلق في أجواء الحديقة سارحاً بأفكاره وخيالاته. وقف أمام المصطبة التي احتلت حافتها سيدة عجوز تمسك سنارات وخيوط وتنهمك في حياكة قطعة بين يديها في حين تلتقط بين الحين والآخر الباترون الذي الذي نثرته الى جانبها وتنظر اليه محاولة القراءة ولكن بصعوبة بالغة.**

**جلس قريبا من الحافة الأخرى ولا حظ ان أسماءً ورموزاً قد حفرت على الواح المصطبة، بعضها بُليَّ، ربما نقشها عشاق أو عابرو سبيل جلسوا هنا يوماً ما. تذكر انه في شبابه كان يستخف بذلك العمل لأنه كان يعتبر تلك الكتابات على الأشجار أو جدران المواقع الأثرية رومانسية مفرطة في السذاجة اما حين كبر فأعتبرها تعبيراً عن رغبة الإنسان المكبوتة في العودة الى الكهف. جال ببصره سريعاً في المكان وبعد تفحص الأشجار المطلة على الممر المكسو بحصى أبيض ناعم نظر بعيداً الى مربع النجيل الذي أمامه كانما يحاول أن يتأكد ان كانت شجرة واحدة يعرفها جيداً لازالت في مكانها.تلك هي شجرة "غلاديتشيا" التي لاتزال فعلاً هناك ترفل بطولها الباسق وأوراقها التي تميل الى الاصفرار فوق المساحة الخضراء. ارتاح لرؤية الشجرة التي سلبت لبه منذ المرة الأولى التي شاهدها. زاد تعلقه بها حين قرأ بعد ذلك في احدى الموسوعات انها من فصيلة شجرة "جراد العسل" التي قيل ان امريكا أهدت واحدة منها الى "باريس" بعد الثورة الفرنسية. لم يعد هناك منها الكثير في حدائق "باريس" الا أن هذه الشجرة لا تزال صامدة في مكانها.**

**اخذته تأملاته بالحديقة التي لا تزال تحتفظ برونقها وجمالها الى "بغداد"، المدينة التي تركها قبل يومين تغرق بالعنف والدم والدمار. شوارعها وجدرانها وحتى أشجارها غارقة بلون رمادي كالح لا يثير في النفس الا الحسرة والشجن والكآبة. "باريس" هي أيضا مرت بمثل تلك المحن بعد الثورة الفرنسية وبقيت عقوداً طويلة تعاني من ويلات وانكسارات وخراب ولكنها تمكنت في النهاية ان تنهض من جديد، لكنه لسبب ما يشك ان بإمكان "بغداد" ان تتجاوز نكبتها التي تتعمق وتتسع يوما بعد يوم.**

* **هل تفهم في الكروشيه؟، باغتته السيدة الجالسة قربه. للوهلة الاولى لم يدرك مالذي تعنيه حتى نظر الى ما في يدها.**

**أعادته السيدة سريعاً الى "باريس" حيث هو الآن بسؤالها الغريب هذا.**

* **لا، سيدتي، فانا غير متزوج.**

**ارتسمت على وجه السيدة ابتسامة معبرة وكأنها تحاول ان تخفي ردها عليه، لكن الكلمات كانت أسرع.**

* **ولكن ما علاقة الكروشيه بالزواج، أنا أيضاً غير متزوجة.**

**كتم ضحكة حين شعر بانه كمن خسر جولة سريعة ولم يجد ما يرد عليها به.**

**- كنت أود ان تقرأ لي شيئاً من هذه المجلة فنظاراتي أصبحت لا تساعدني في قراءة الحروف الصغيرة، كم سطراً على ان أعمل هنا.**

**ناولته مجلة كتب اسمها "كروشيه لاسيت" فوق صورة لشقراء جميلة من الواضح انها تستعرض بلوزة بخيط أخضر أشبه بالعشب الذي تحت أقدامهم في هذه الحديقة مُحاكٌ بشكل بديع ترتديه فوق بنطلون أبيض.**

**أدرك "سامح" الآن هدفها من السؤال. أخذ المجلة وبدأ يقرأ من حيث أشارت بأصبعها اليه.**

**- 44 غرزة ثلاثية وعند انتهاء السطر عليك ان تبدأي بالتنقيص.**

**- ليس هناك كثيرون يفهمون هذه المصطلحات. يبدو أنك شاطر ولا تحتاج الكثير لكي تتعلم فن الكروشيه، هل تريد ان تجرب؟ كل ما عليك هو ان تتبع الباترون بشكل جيد.**

**ارتسمت على شفتيه ابتسامة فقد استمتع بروح السيدة المرحة. كان عليه ان يغادر الآن ليلحق بموعد المحاضرة.**

* **أشكرك سيدتي. أشعر اني تعلمت فعلاً درساً مفيداً، وداعاً.**

**كان الموضوع الذي اقترحه لمحاضرته والذي رحبت به ادارة المعهد بحرارة هو عن تفكيك "العراق" تحت الإحتلال الأمريكي. اختار للمحاضرة عنواناً "من الغزو الى الإنحلال" من بين عدة عناوين كانت وردت على خاطره كلها تحاول أن تختصر ما سيحاول أن يقوله اليوم لمستمعيه. توقع أن يكون هناك حشد كبير من المسؤولين والمعنين بقضايا الشرق الأوسط من فرنسيين وغيرهم، أو هكذا اخبره المسيو "ثيري دو مونتبرايل" رئيس المعهد وهو ما جعله يجتهد ويسعى لأن يقدم أفكاراً وتحليلات عن ما آل اليه الوضع في "العراق" بعد ثلاث سنوات من الغزو الأمريكي. كان مستعداً تماما ولكنه كان في حيرة من اختيار مدخل أو مقدمة مناسبة يستهل بها محاضرته. كان قد فكر في كذا مدخل الا أنه وقبل أن يخرج من بوابة صغيرة للحديقة مطلة على ناصية "جادة رو مارشو" قرر أن هذه العجوز الفرنسية قد ألهمته من حيث لا تدري المدخل المناسب الذي كان يبحث عنه منذ أيام. كيف دخل الأمريكان مغامرة "العراق" من دون اتباع الباترون، بل بدون باترون، أصلاً.**

**عندما حان وقت المحاضرة في مقر المعهد في "جادة بروساسيون" وسط "باريس" الذي وصله قبل الموعد بقليل قدمه مديره المسيو "ثيري دو مونتبرايل" الى الحضور كونه "صحفيا قادما من علم الاجتماع الذي وصفه بأنه يتعامل بهدوء وروية مع الطبيعة الجذرية للواقع الاجتماعي الى المهنة التي تتعامل مع الحدث اليومي السريع وعالم السياسة وديناميكياته المتغيرة بإستمرار وانه يتوقع أن يستمع الحاضرون هذا الصباح منه الى ما يربط بين هذين الميدانين في تجربة من المتوقع ان تتجاوز تأثيراتها العراق، الذي هو موضوع المحاضرة، ومنطقة الشرق الأوسط الى العالم كله."**

**في نهاية كلمته قال "دو مونتبرايل" إن "مساهمات "سامح" الصحفية خلال الفترة الماضية ورغم تجربته القصيرة في عالم الكتابة الصحفية جعلته ينظم الى قائمة أبرز الصحفيين الفرنسيين الذين عملوا في الشرق الأوسط من أمثال "اريك رولو" و"الن غريش" و"اوليفه روي". أدهشته المقارنة وهذا التقيم من رئيس المعهد وأحتار في اذا ماذا كان الأمر مجرد مجاملة عابرة في مناسبة كهذه أم ان المديح هو للمركز الذي يستضيفه أكثر من أن يكون له ولكنه أحس عموما بان أحدا قد وضع لتوه حملاً ثقيلاً على كتفيه.**

**في الدقائق الثلاثين التي خصصت للمحاضرة قبل فتح باب النقاش راح "سامح" يتحدث عما أسماه بالتفكيك الغبي الذي يجري على يد سلطة الإحتلال الأمريكية لـ"العراق" كدولة ومجتمع داعماً فرضيته بتحليل نظري لما وصفه بثنائية الحقيقي/الخادع في الخطاب السياسي والإعلامي الأمريكي مستعيراً من "نيتشة" مقولة "كيف صار العالم الحقيقي خرافة" ومن مقولات التفكيكيين عن تعارض "عالم الواقع الحقيقي مع عالم الظهور". ولأنه يدرك ضرورة الا تتحول المحاضرة الى أفكار نظرية جافة فقد أغدق بمعلومات كثيرة وأمثلة جمعها من خلال رصده لما يجري هناك وما عايشه عن قرب من أحداث مدعوماً بوقائع لم يتسنى للكثيرين سماعها والتي تدعم فكرته الأساسية وهي "ان الأمريكان سيملون من اللعبة العراقية عاجلاً وليس آجلاً، ولكن ليس قبل ان يحولوا "العراق" الى خرابة تنعق فيها الغربان." هكذا قال جملته الأخيرة بنبرة أعلى مما كان يتحدث به خلال المحاضرة وكأنه تعمد ان تكون صارمة وصادمة.**

**لو أمكن الآن العودة الى الأشرطة التي كانت تسجلها كاميرات عدة علقت في زوايا القاعة لبانت مشاهد الدهشة والوجوم التي ارتسمت على وجوه الكثيرين من الحاضرين لما سمعوه تواً وللصورة القاتمة التي رسمها سامح عن "العراق". كان الكثيرون يعرفون ان الأوضاع سيئة ولكنهم لم يدركوا أنها قد بلغت فعلاً تلك الدرجة من السؤ. التقط مسيو "دو مونتبرايل" المايكرفون لكي يعقب ببضع كلمات ثم يطرح على "سامح" سؤالاً: "اذا كان الوضع في "العراق" بهذا التردي كما وصفته فلماذا لا ينعكس ذلك في التغطية الإعلامية، وخاصة الأمريكية لكي يستطيع العالم ان يكون رأياً في ما يجري هناك؟ لماذا كل ما نسمع به عن العراق وردي وبراق؟"**

**السؤال الأول من القاعة كان: ما هي المشكلة في تفكيك "العراق" فها نحن قد تعايشنا مع تفكك "يوغسلافيا" لماذا لا يمكن ان يتعايش العالم مع تفكيك "العراق؟" السؤال الثاني جاء كالتالي: "ما هي احتمالات تطور مستوى العنف خلال المرحلة القادمة؟" ثم تلاه السؤال: "هل تعتقد أن الأمريكان تعمدوا خلق كيانات طائفية ام أن الأمر كان نتيجة عرضية للاحتلال؟ انهالت أسئلة أخرى و"سامح" يسجل كل ذلك لكي يرد عليها مجتمعة في ما بعد.**

**كان "سامح" قد قرر مسبقاً ان يجيب بحكم خبرته النظرية والميدانية بأكثر ما تتيحه ندوة مفتوحة من الصراحة، ذلك ما أخبر به "دو مونتبرايل" عند الاعداد للمحاضرة. الآن يجد نفسه غير قادر على التضاهر بأنه مجرد مراقب يتكلم عن بلد بشكل محايد.صحيح أنه يقف أمامهم بصفته صحفياً فرنسياً يتكلم أمام "المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية" لكنه توقع أيضاً ان ينتظر منه المستمعون ان يتحدث كعراقي والا بدا الأمر كله عرضاً آخر من التمارين الذهنية النمطية التي تجري في مثل هذه الأماكن وهذه المناسبات.**

* **أريد ان ابدأ بالسؤال الاخير عن أسؤ الأخطاء التي ارتكبها الاحتلال. انه بالتأكيد الفساد الذي اشاعه في كل زوايا الدولة والذي انتقل الى كل مفاصل المجتمع واستوطن فيها. ما وجدته في هذا البلد الذي هو مسقط رأسي ووطني الأول الذي أعرفه تماماً هو خراب تام ليس مادياً فقط ولكن خراب روحي وقيمي لم يكن ممكناً لولا الفساد الذي انتشر بصورة ممنهجة.**

**اعتذر "سامح" ان الوقت لا يسمح بعرض الكثير من الوقائع والأرقام لكنه أنهى جوابه بما بدا كنبؤة.**

* **المحاصصة خلقت وضعا طائفيا ثم ولدت الأرهاب وسؤ الدارة ولد الفساد وكل ذلك هو الدود الذي سينخر بأسس الدولة والمجتمع وسيعرضهما للانهيار.**

**في الأجوبة التالية تكلم عن السردية التي تحاول مراكز ومؤسسات أمريكية ترويجها وهي ان "العراق" دولة مصطنعة وان تفكيكه حتمي، بل هو الحل الأمثل. قال : تلك كذبة كبرى ليس هناك ما يدعمها تاريخياً، أو موضوعياً. رد بان "يوغسلافيا" كانت دولة جديدة تكونت بعد الحرب العالمية الأولى في حين ان العراق كان دائما كياناً جغرافياً وتاريخياً ذي ملامح مميزة وعاش بين جنباته نفس هؤلاء البشر لقرون طويلة انشؤوا خلالها امبراطوريات وممالك حكمت العالم.**

**في نهاية المحاضرة وقف "روبير" بانتظاره. كانا قد اتفقا يوم أمس على تناول الغذاء سوية بعد المحاضرة الا أن عبارة بصوت محبب الى أسماعه طيلة سنوات قضاها هنا في "باريس" باغته وهو يهم بالتوجه نحو الصحفي الفرنسي الذي هو الآن رئيسه في العمل.**

**"يا صديقي..." كان صوت "حسان" زميله التونسي في بيته القديم الذي أردف قبل ان يصل اليه ليحتضنه.**

* **هذه خيانة شخصية اتعس من نكرانك للجميل لمن حرركم من "صدام".**

**ولأنه قالها بالفرنسية هذه المرة فان وجوها قليلة استدارت لترى من أين خرجت تلك الكلمات النارية.**

* **كيف لا تتصل بي وأعرف بمجئيك الى "باريس" بمحض الصدفة.**

**تعانقا طويلاً قبل ان يطلق "سامح" يده في الهواء.**

* **ليت بن علي لم يكن صديقهم كنا سنرسل الأمريكان اليكم لكي يحروركم منه كي تعرف حينها ماذا يعني التغيير من الخارج.**

**من بعيد تراءت له "سلمي" واقفة في زاوية القاعة القريبة من المدخل ترتدي جاكيتاً بلون عنابي وتنورة سوداء.بدت بهذا الطاقم حتى وهي في ايشارب الحجاب الأبيض الذي تضعه فوق رأسها في منتهى الأناقة والجمال. كانت بالتأكيد تقف في تلك الزاوية بانتظاره.**

**أمسك بيد "حسان" بقوة وأخبره بانه على موعد مهم وانه سيتصل به الليلة لكي يتفقا على اللقاء ثم التفت الى "روبير" لكي يعتذر منه عن موعد الغذاء لحدوث أمر طارئ وأخبره انه سيكون على اتصال معه لاحقاً.**

**ودع كل واحد منهما بيده ثم مضى مسرعا نحو "سلمى" التي رسمت على شفتيها ابتسامة وهي تراه يقترب منها.**

**أسعده حضورها وبقاءها الى آخر المحاضرة. كان قد فوجئ بها في مطار "بغداد" تستعد للسفر على نفس الرحلة على طائرة نقل عسكرية "أمريكية" من طراز سي-130 الى "الكويت" في طريقهما الى "باريس"، هي في بعثة لحضور دورة لتطوير المهارات الدبلوماسية واللغة الفرنسية وهو بدعوة لالقاء محاضرته. في مطار "الكويت" عرض عليها المساعدة أخذ أمتعتها وجواز سفرها الى كاونتر شركة "اير فرانس" وطلب مقعدين متجاورين له ولها على الطائرة المتجهة الى "مطار شارل ديغول". في الطائرة قالت له أن تلك هي أول رحلة لها الى "فرنسا" ولا تعرف "باريس" الا من خلال ما قرأته عنها وخاصة من خلال اللغة الفرنسية التي تعلمتها رغم انها استدركت "قليلا" والتي قالتها بالفرنسية. منذ السقوط وبدء عملها في الخارجية سافرت الى العديد من البلدان قالت إن أرسالها في تلك الرحلات هو تعويض عن عدم نقلها للعمل خارج "العراق" لأنها غير متزوجة حسب النظام في الوزارة، وابتسمت. خلال ساعات الرحلة الخمس حدثها كثيراً عن "باريس" وأحيائها وشوراعها، شعرت ان لديه طريقة في الوصف هي خليط من خبرة مرشد سياحي ومؤرخ وناقد في فنون متنوعة، رسم لها لوحات عن المدينة التي تعرفها فقط من خلال القراءة.**

**لم يلتق "سامح" بـ"سلمى" منذ المرة الأخيرة التي شاهدها في المؤتمر الصحفي في مقر وزارة الخارجية منذ أشهر. لم تغب عن باله أبداً وظلت صورتها تراوده حتى انه كان يندهش ان كانت هناك جمرة تضرم بداخله ويخشى ان تلتهب مثلما اشتعلت في قلب "فلورينتينو أريثا" بطل رواية "غارسيا ماركيز" "الحب في زمن الكوليرا". كان يبحث عن وجهها وسط المؤتمرات الصحفية او في اللقاءات والمناسبات التي يحضرها. كما تحجج مرات عديد بطلب اجراء مقابلات في وزارة الخارجية لعله يحظى برؤيتها صدفة. لكن كل محاولاته تلك ذهبت أدراج الرياح ولم يسع الى وسائل أخرى للبحث أو الإتصال بها مباشرة في ظروف يدرك حساسيتها جيداً.**

**في السنوات التي قضاها خارج "العراق" تعرف على جميلات كثيرات، شقراوات وسمراوات، واقام علاقات مع آخريات عاديات في الشكل، او رائعات في الجمال من جنسيات مختلفة، لكن لسبب لا يدركه على وجه التحديد ظل يؤمن بان امرأة حنطية بملامح وعيون عراقية وشعر فاحم ودم عراقي فقط هي التي يمكن ان تسلب لب قلبه. مرة شرح لصديقه الفرنسي "بيير" عندما وجده مندهشاً من قوله ذلك بان العراقيين لا يقصدون بذلك السائل الذي يجري في الشراييبن، بل تلك الروح التي تسري في العروق والتي لا مثيل لها في مكان آخر. يتذكر ان "بيير" أجابه بانها ربما "عقدة أوديب" ذكورية، قبل ان يضيف مازحا "لكن من المفيد ان تجرب دمائا أخرى."**

**في هذه اللحظة التي تقف فيها أمامه في نهاية القاعة يشعر انها هي تلك المرأة التي كان يبحث عنها طويلاً كل تلك السنين، والغريب انه يتأكد من مشاعره هنا في "باريس".في "مطار شارل ديغول" حين افترقا قبل يومين كانت هناك مندوبة من "اكاديمي دبلوماتيك انترناسينال" المعهد الذي ستنخرط فيه للتدريب بانتظارها. لكن قبل ان يفترقا قال لها انه سيكون سعيداً لو استطاعت حضور المحاضرة التي سيلقيها في المعهد ثم أخرج قلما وكتب بعجالة على بطاقة صعود الطائرة التي وجدها في جيبه عنوان المكان. لم توعده بشيء قالت سترى ان كان برنامج الدورة سيسمح بذلك.**

**- الدورة ستبدأ يوم غد، فلذلك وجدت ان لدي وقتا كافياً للمجئ.**

**- كم يسعدني ذلك، أرجو ان تكوني اسمتعتي بالمحاضرة؟، سألها.**

**- الى الحد الذي ساعدتني به فرنسيتي الهزيلة.**

**اخذتهما قدماهما من داخل مبنى المعهد في "جادة بروساسيون" الى شارع "رو دي روا " المجاور. سارا الى الشمال بإتجاه "ساحة فلاغيريه" نظر الى أشجار الصفصاف التي تصطف على طول الطريق من جانبيه لا زالت بعض أوراقها ندية رغم ان النهار تجاوز نصفه. سألها كيف رأت "باريس".**

* **لم أر الكثير ولكني أشعر أنني أعرف الأماكن التي تجولت فيها جيداً، ربما لأني قرأت عنها وأحببتها عن بعد.**

**لم يشأ ان يقاطعها، شعر أنها سعيدة وفضل ان يتركها تبوح.**

* **امضيت وقتاً في "شارع الشانزليزية القريب من الفندق أمس ثم عرجت على "سان جيرمان" وراودني احساس بأني كنت هناك من قبل. جلست على طاولة في مقهى "كافيه دي فلير" على الرصيف وطلبت اسبيرسو ورحت اتخيل "سارتر" وهو قادم الى المقهى كي يلتقي بـ"سيمون دي بوفار" لكنه لا يجدها فيملأه احساس بالخواء ويجلس كي يكتب شيئا عن الوجود والعدم.**

**ما سمعه تواً منها جعله يسرح بخياله بعيداً بعيداً جداً. تذكر "حيدر" في مكتبهم في "بغداد" الذي قال له انها ليست على شاكلة أخيها وجماعته. لم يشأ ان يبدي اعجابه بما قالته للتو أو ينطق بأي ملاحظة، شعر بان ذلك قد يبدو استعلاءً غير لائق.**

**عبرا الشارع الى الناحية الثانية ثم انعطفا بشكل تلقائي نحو شارع "الفونسو برلتيون". سألها ان كان وقتها يسمح بان يدعوها الى غداء ويعرفها الى بعض معالم "باريس" القريبة. لم تتردد في القبول. قالت:**

* **منحونا أمس واليوم اجازة قالوا انها للجولات الحرة قبل الدورة. ربما هي دروس اضافية في الدبلوماسية السياحية.**

**ينتبه "سامح" الى انها تتمتع بروح دعابة تمتزج بكياستها المحببة.**

* **هل تحبين الطعام الهندي؟ انه هندي حقيقي وليس مثل ذلك الذي تجدينه في مطعم "فندق الحمراء" في الجادرية.**

**ابتسمت بطريقة عرف انها ساخرة.**

* **لست خبيرة يعتمد عليها بمطاعم "بغداد"، ولكن لا مشكلة لي مع الأكل الهندي.**

**حين وصلوا الى مقصدهم وجد "سامح" ان واجهة المحل الزجاجية المزينة برسم لضريح "تاج محل" ونقوش أخرى كانت لا تزال مثلما تركها قبل سنوات الا ان الكثير من الديكورات في الداخل كانت قد تغيرت. استقبلتهم سيدة هندية الملامح ترتدي ساري بلون وردي زاهي بورود حمراء وحواش ذهبية مع ابتسامة بدت غير مصطنعة ألقت على المكان ألفة.**

* **كنت أعمل هنا في بداية مجيئي الى فرنسا، قال "سامح" بعد أجلستهم النادلة على طاولة تطل على الشارع.**

**أضاف كمن يفشي سراً عن مغامرة يفتخر بها قام بها في طفولته.**

* **عملت في اشغال التنظيف وغسل الصحون. يبدو ان أصحاب المحل تغيروا.**

**رفعت "سلمى" أنظارها عن صحن معدني تتوسطه شمعة مربعة الشكل نقشت على جدرانها نقوش ذهبية وترتفع قليلاً فوق أوراق زهور زعفرانية اللون نثرت وسط الطبق ثم توجهت بها نحو "سامح" دون ان تدري ما الذي تقوله، لكن نظرتها كانت ربما أكثر تعبيراً.**

**- اذن تلك هي قصة كفاح من تلك التي نسمع بها او نقرأ عنها في الروايات.**

**- لست أدري ان كانت كفاحاً، لكنها بكل تأكيد كانت أعمالاً شاقة.**

**- أنت درست علم الاجتماع وهو غالبا علم نظري ولكنك الآن تمارسه تطبيقيا أو سريريا.**

**هذه الفتاة تزيده دهشة واعجابا فهي بالتأكيد ملمة بما تقول كما يبدو أنها تعرف عنه أشياء كثيرة. أجابها بانه لا يريد ان يفسد عليها الجلسة بالكلام عن نفسه او عمله خاصة انها سمعت الكثير خلال المحاضرة ولكنه لن يفشي سراً اذا أخبرها بان مهمته في عالم الصحافة على وشك الانتهاء وبقاءه في "بغداد" كذلك. راح يحدثها عن "باريس" وكيف وقع في حبها وهو لايزال في "بغداد"، بل وحتى دون ان يكون قد غادر "العراق" الى اي بلد وقرر ان يأتي ليعيش فيها. استرسل وهو يختلس النظرات اليها ويراها جميلة، بل فاتنة، في ملامحها وفي أسلوب كلامها وفي طريقة تناولها لأكلها وهي تنصت. لم تشأ ان تقاطعه، أحبت فكرة ان يكلمها عن الجزء الفرنسي من ماضيه وتركت له المجال ان يسترسل في الكلام مكتفية بالنظر اليه. نحو ساعة من الزمن ظلت "سلمى" منصته لـ"سامح" وهي تتناول ببطئ من الأطباق التي وضعت أمامها دون ان تعرف أسمائها او حتى مكوناتها. لم تقاطعه الا بين الحين والآخر بهمهمة تعجب تتبعها إبتسامة او برفع حاجبيها يحير "سامح" ان كانت تلك علامة قبول بما كانت تسمعه منه أم مجرد مجاملة. لم يتحدثا عن الوطن الذي فضلا ان يبقيانه بعيداً رغم ان كل منهما كان يعلم أنه موجود في داخل كل منهما أكثر مما يرغب أي منهما بالاقرار به الآن. في لحظة ما استذكرت ذلك الحلم الغريب الذي زارها ليلة سقوط "بغداد" وحاولت جاهدة ان تستجمع خيوطه المتناثرة، استرجعت صورة الشاطئ التي جلست حافية على رماله والمياه الزرقاء الشفافة التي تتلاعب بحباته الذهبية وشاهدت من بعيد الجزر الطافية أمامها التي تكسوها أشجار شديدة الكثافة من كل جانب. فطنت انها كانت الناجية الوحيدة من غرق مركب كان يقلها مع آخرين وان التيار رمى بها على شاطئ هذه الجزيرة التي تتمنى الا تتركها حتى لو عاشت فيها وحيدة.**

**حين انتهت من شرب شاي الماسيلا الذي اقترحه لها قالت ان عليها ان تعود الآن الى الفندق لحضور اجتماع تمهيدي للاستعداد للدورة الدبلوماسية التي ستبدأ في اليوم التالي.**

**- هل سيمكنني اللقاء بك مرة ثانية، سألها، قبل أن يخرج كارتا صغيراً قال لها انه يحتوي على رقم تلفونه في "باريس".**

**- سأقضي اجازتي لأسبوعين هنا. لن تجدي مرشداً سياحيا أفضل مني في هذه المدينة. سأريك كل معالمها المهمة وسأجعلك تعيشين مع "هوغو" و"بودلير" و"رامبو" و"أيلوار". فكري بمن أيضاً، "سارتر"، "دي بوفار"، "بيكاسو؟**

**\*\*\***

**4/2**

**- هل تعرف لماذا أنت هنا؟، سأل العقيد "توماس نويمير" الجندي "سام ابرافيني" الذي استدعي الى مقر اللواء دون ان يذكروا له شيئا عن المهمة.**

**- لا يا سيدي، ولكن أثارت انتباهي اللوحة المثبتة على الباب.**

**- حسناً، ماذا فهمت من ذلك؟**

**- لا شيء، سيدي مجرد تساؤل لماذا أنا موجود في مكتب برنامج "التاريخ الشفوي في الجيش الامريكي"**

**- عال، وهل لديك أي فكرة عن البرنامج؟**

**- نعم سيدي، فقد قرأت بعض الأشياء عن "سلسلة الكتاب الأخضر عن حربي كوريا وفيتنام."**

**- جيد ..جيد جداً، هذا سيسهل علينا الأمر.**

**كان "سام" يعلم في حقيقة الأمر الكثير عن نشاط برنامج التاريخ الشفهي في الجيش كما أنه عمل لفترة مع برنامج مشابه في جيش الدفاع الإسرائيلي اثناء خدمته هناك ويعرف ان الهدف منه هو حفظ المعلومات التاريخية غير المدونة وغير الرسيمة عن طريق تسجيل التجارب الشخصية للجنود والضباط وتوثيقها والتي تقدم بعد ذلك كمادة خام للدراسات ليس فقط في التاريخ المكتوب، بل أيضاً في الحقول الأخرى ذات الصلة.**

**يعرف "سام" كذلك أن البرنامج يستهدف ذاكرة أشخاص بعينهم يتم انتقاءهم بعناية. تساءل مع نفسه لماذا أنا؟ لكن العقيد "نويمير" عاجله بالسؤال..**

**- هل لديك أي مانع من أن نسجل معك مقابلة عن تجربتك الشخصية في الحرب من أجل التوثيق والدراسة؟**

**- التاريخ الشفهي يعتمد على الذكريات المسترجعة تلقائياً دون استعداد مسبق...هو تسجيل طازج للأحداث ينطوي على حرارة وتدفق اللحظة ويحتوي على نكهة الزمان والمكان لأننا كلما ابتعدنا عنهما شحبت تلك التفاصيل وربما تغيرت. هل يمكن ان نبدأ؟**

**قاد العقيد "نويمير" الجندي "سام" الى كرسي خلف مكتب صغير وضع عليه مايكرفون من النوع الذي يستخدم في استوديوهات اذاعية مربوطاً بسلك يتنهي بجهاز تسجيل رقمي. وضع ورقة سطرت عليها بعض الأسئلة وطلب من "سام" الأجابة عليها أمام الميكرفون.**

**الأسم: سام سبيتزر ابرافيني.**

**العمر: 24 سنة**

**الوحدة: فصيل الكشافة في اللواء الأول خيالة الفرقة الثاثة. اخدم في العراق منذ منتصف أذار 2003.**

**مكان السكن: "تشيري هيل"، "فيلاديفيا" "ولاية بنسلفانيا".**

**الدراسة: خريج هندسة معمارية وتطبيقية، "جامعة سينسيناتي" عام 2000 ولا أعرف مالوظيفة التي سأعمل بها بعد أن أنهي خدمتي في الجيش.**

**الخدمة: التحقت بالجيش في مايو 2002 وخضعت للتدريب لبضعة أسابيع قبل أن أرسل مع القوات التي كانت تستعد للحرب. ولا أنوي البقاء في الجيش بعد انتهاء فترة خدمتي.**

**خدمت في الجيش الإسرائيلي لعامين قبل التحاقي بالجامعة قضيت فترة منها في وحدة للإستخبارات العسكرية "آمان" كانت مسؤولة عن مراقبة ومتابعة النشطاء الفلسطينيين.**

**- حسناً سأبدا الآن بطرح بعض الأسئلة وأريد منك أن تجيب بشكل تلقائي كما تتذكر الآن. بإمكانك الا تجيب عن أي سؤال اذا اردت.**

**- لماذا تطوعت في الجيش؟**

**- تأثرت بهجمات 11 سبتمبر الإرهابية.**

**- هل كان ذلك سببا كافيا؟**

**- لا أعرف، ولكن ذلك كان شعوري بان أقوم بعمل ما.**

**- شعورك الشخصي أم الوطني؟**

**- الأثنين، سيدي.**

**- ولكنك خدمت في الجيش الإسرائيلي أيضاً فأي شعور وطني لديك هو الأقوى؟**

**- أشعر أن كليهما وطن واحد وأن هذه الحرب هي حربهما معا.**

**- ماذا لو تعارضت أهداف الجيش الأمريكي والولايات المتحدة في هذه الحرب مع أهداف اسرائيل؟ أين ستقف أنت؟**

**- اظن ان البلدين لديهما هدف واحد واستراتجية واحدة.**

**- قلت انك انضممت للحرب لأنك كنت تريد أن تقوم بعمل ما. هل يكون الانتقام مثلاً؟**

**- الـ 2977 شخصاً الذين ماتوا في تلك الهجمات يستحقون ان نثأر لهم.**

**- لكن لم يكن هناك عراقي واحد مشارك في هجمات 11 سبتمبر.**

**- كلهم واحد، سيدي.**

**- هل وجدت باقي الجنود مدفوعين بالشعور الوطني ايضا؟**

**- لا، ليس جميعهم، كل لديه سببه.**

**- مثل ماذا؟**

**- هناك من جاء لأنها فرصة عمل أو طريقة للحصول على الجنسية او لمجرد المغامرة.**

**- هل تعتبر هذه غايات شخصية تتعارض مع النظرة الوطنية؟**

**- أغلبهم ينظرون من منظار ضيق.**

**- هل لك ان توضح؟**

**- لا اجد أحداً بيننا من يدرك جدوى وجودنا الحقيقي هنا وأهدافه.**

**- ومالذي تراه أنت في هذه الأهداف؟**

**- وجودنا هنا استجابة لنبؤة.**

**منذ ابلاغه باختيار "سام" وقراءة تقرير الاستخبارات عنه كان العقيد "نويمر" على ادراك تام بان توثيق شهادة هذا الجندي ستكون مختلفة تماماً عن تلك التي سجلها مع الآخرين، ربما مثيرة أيضا. التاريخ الشفهي هو استرجاع لتجارب شخصية عن الأحداث والوقائع لا عن الأفكار والتحيزات الشخصية. من تجربته يعلم قلة الفائدة التي يقدمها التاريخ الشفهي في فهم المعتقدات والأراء التي كانت سائدة في الماضي لأنها تخضع باستمرار لإعادة انتاج عبر عملية التذكر. أيقن ان "سام" مدرك تماماً لما يجري وأنه يجلس أمامه كي يلعب معه لعبته في محاولة ردم الفجوات في سردية الحرب هذه لكن وفق رؤيته أو تخيلاته. قرر الا خيار أمامه سوى ان يجاري "سام" في اللعبة التي بدأت تستهويه لأنه شعر بان المعلومات التي يدلي بها والذاكرة التي يتحلى بها والتجربة التي يعبر عنها هي بالضبط ما يحتاجه مشروع التاريخ الشفهي كي يكون معمقاً وشمولياً.**

**- هل بإمكانك ان تشرح ذلك أكثر؟**

**- انها نبؤة "حزيقال" النبي.**

**- وما هي تلك النبؤة؟**

**- هي التي جاءت بالاصحاح 38-39 من سفر حزقيال.. "يا ابن الرب الإنسان، أجعل وجهك ضد جوج من أرض ما جوج..."**

**- وهل أنت هنا استجابة لتلك الدعوة؟**

**- الرئيس بوش هو الذي فهمها أفضل ولبى النداء.**

**- وهل تحققت النبؤة الآن برأيك؟**

**- ليس بعد، أنها فقط البداية.**

**-وهل تقوم أنت بأي عمل لكي تتحقق النبؤة؟**

**- أقوم بواجبي منذ اللحظة الأولى التي وطأت بها قدمي هذه الأرض.**

**- هل ناقشت هذه النبؤة مع رفاقك في الفصيل؟**

**- لا.**

**- لم لا؟**

**- هذا موضوع قد يكون أكثر تعقيدا بالنسبة لهم. لكنهم بالتأكيد يلبون دعوة الرب ويعلون ملكوته، حتى ان لم يكونوا يدركون ذلك.**

**- هل يعرفون أنهم يحاربون في أرض مجوج\*؟**

**- لا أظن ان ذلك مهم، لكنهم يبلون بلوا حسناً، مثل أي مؤمن.**

**- كيف ذلك؟**

**- منذ أول معركة خضناها في الأيام الأولى للحرب في "الناصرية" وهم يثورون على العدو كزوبعة، كما يقول الكتاب المقدس، لم يهدؤا أبداً.**

**- هل لك ان تتحدث لي عن هذا بالتفصيل؟**

**- مساء 24 اذار 2003 دخل فصيلنا المعركة لأول مرة بعد الهجوم الذي تعرضت له سرية الإمداد 507 في "الناصرية" وسقوط قتلى وأسرى من القوات المتقدمة لأول مرة. في الطريق من "الكويت" الى "الناصرية" كان جو الإثارة داخل عربة الهامفي قد بدأ يتصاعد. بعض الجنود يظهرون حماسا لقرب دخولهم المعركة ويعبرون عن ذلك بالتلويح بقبضات أيديهم وبالسباب والشتائم نحو العدو والتي تتطاير من أجوافهم بسخونة واندفاع. لذت بالصمت طيلة الساعات القليلة التي استغرقتها مسيرة الرتل فوق أسفلت الشارع الذي كنت أعرف انه سمي "طريق الموت" في الحرب الماضية. تصاعدت حدة الإثارة كلما مضت الهامفي حيث بدأت أشعر أني في طريقي لحرب أخرى تنهي ما سهت أو عجزت عن تحقيقه الحرب السابقة. حين أدركت اننا أصبحنا عند "الناصرية" اي بالقرب من "بابل" بدأت أتقبل فكرة أنني موشك على دخول الحرب التي جئت من أجلها، بل بدأت أشاهد كيف ان نبؤة الرب قد أصبحت تتحقق وأشاهد فعلياً أرض العدو تتداعى امامي.**

**- ما هي نبؤة الرب هذه؟**

**- انها التي جاءت في سفر "أريميا". سيف على الكلدانيين يقول الرب وعلى سكان "بابل" ورؤسائها وعلى حكامها.**

**خشى "سام" من انه قد يكون قد تمادى في التعبير عن مشاعره فتوقف قبل ان يطلب منه العقيد ان يستكمل.**

**- عندما وصلنا كانت القوات التي سبقتنا قد حررت الأسرى لكنا خضنا قتالاً شرسا مع العدو. كانوا جنوداً نظاميين وقوات من فدائي "صدام". عند الفجر حين اقتحمنا المنطقة التي كانت مقتربا من جسر على "الفرات" كان ينبغي تأمينه بدأت أبواب الجيحم تفتح شيئا فشيئا. كان ردنا قاسياً بالنيران التي هطلت عليهم من السماء والأرض وحين انتهت المعركة أحصيت بنفسي ثلاثمائة جثة للعدو ثم توقفت عن العد. غيري من أفراد الفصيل أحصى أكثر من ذلك، ربما كان ذلك صحيحاً أو انهم كانوا منتشين. كان هناك عدد من الجثث على أطراف المكان ممن يرتدون زيا مدنياً لكني لم أجد سلاحاً بصحبتهم، ربما كانوا عابري سبيل أو ممن كانوا يحاولون الهرب. في تلك الاثناء اقتربت حافلة تحاول عبور الجسر ودون تلقي أية أوامر أمطرناها بالنيران. كنا نعتقد انه هجوم مضاد مباغت، لم يكن كذلك وكان ركابه من المدنيين الذين لم ينج واحداً منهم. قيل لنا بعد ذلك إن تلك هي أطول معركة يخوضها جيشنا منذ حرب "فيتنام". كانت تلك هي المرة الأولى التي أقتل بها أحدا، وأعتقد كذلك الآخرين في الفصيل.**

**- كيف كان شعورك في تلك اللحظة؟**

**- في البداية لا شيء، كنت فقط انفذ أوامر الرقيب "ريكاردو" دون أي تفكير بنفسي أو أي شيء آخر ولا حتى بما تعلمته في معاهد التدريب أو ما قرأته في كراريس التعليم. كنت اؤدي واجبي فحسب.**

**- ماذا كانت أوامر الرقيب؟**

**- بشكل عام كانت أن نحمي أنفسنا أولاً، ثم ان نطلق النار على العدو قبل أن يطلقها علينا، وثالثاُ ان ترمي لتقتل.**

**- قلت في البداية، وبعد ذلك ماذا كان احساسك؟ هل لك ان تصف ماذا كان شعورك وانت تطلق النار على الحافلة، هل راودك السؤال لحظتها عن واجب الامتثال لقواعد الإشتباك وأخلاقيات الحرب؟ هل تساءلت عما اذا كنت في موقف دفاعي م هجومي، مثلاً؟**

**- لم يجل ذلك بخاطري. كنت أرى نفسي وسط الزوبعة وان استعد واهيء نفسي واكون مثالا لباقي الجنود. بعدها شعرت باني كمن يولد من جديد.**

**- كيف ذلك؟**

**- كنت شخصاً مختلفا، لعلك تفهم ما أعني.**

**- ماذا كان شعور الآخرين في الفصيل؟**

**- كان الجميع في غاية الإثارة. في البداية بدوا متوترين ثم ما لبث أن انقلب الجو هياجاً بعد أن افرغ كل جندي أول مشط عتاد من بندقيته. أصبح الأمر أشبه بحفلة أخوة صاخبة تجري في ميدان المعركة وليست في حرم "جامعة كالفورنيا الجنوبية". ثم سريعا ما تحول القتال جنونيا، ساحة معركة أبطالها خليط من الكاوبوي والهنود الحمر والزولو والفلبينو، وعدو واحد وحدهم جميعا. كانوا مبرمجين أفضل من أي روبوت، سيدي: انت تفهم ما أقصد."**

**- ان كنت تفضل الا تشرح ذلك، لا بأس. يمكنك الإسترسال.**

**-لم تجر الأمور على مايرام بعدها. في الناصرية حصل الشيء الذي لابد ان جميعنا كنا نخشاه. تم اصابة الهامفي التي كنا نستقلها.اخترقت قذيفة الدرع وقتلت الجندي الذي يجلس جنبي "اوليندو" من الأصول الأفريقية كان قبل قليل في معركة الجسر يزغرد على الطريقة الأفريقية مع كل رجل يسقط بإصابة من سلاحه. لم أصب انا بشيء وكانت تلك هي أول مرة أرى فيها زميلاً يقتل أمامي وبين يدي. ارتعبت، كدت اتهاوى. لكني تماسكت. قلت لنفسي إن الحرب لم تبدأ بعد اذ بيننا وبين "بغداد" طريق طويل. بعد الإصابة وقع قتال شرس في منطقة كانت قوات العدو قد نصبت لنا فيها فخاً. عندما تمكن الرتل وطائرات الهليكوبتر المرافقة من اسكات نيران العدو رأيت صحيفا ممن كانوا يرافقونا يرسل الى صحيفته أخباراً يقول فيها اننا قضينا على عدد كبير من أفراد من "فدائي صدام". حينها أصبحت واثقا أكثر مما مضى أننا فعلاً أصبحنا في أرض ماجوج.**

**- ماذا بعد؟، سأله العقيد.**

**- كانت مهمة الفصيل واضحة وهي الوصول مع الوحدات الأخرى الى "بغداد" مروراً بالخطوط الدفاعية التي اقامها "صدام" في الجناح الغربي بموازاة "نهر الفرات". منذ البداية شعرت بالإثارة أني سأكون هناك قربً النهر الملعون. في بعض الأماكن كانت المقاومة شديدة والعراقيون يقاتلون بحماس لكن في مواقع اخرى كان الجنود قد غادروها قبل وصولنا. كان القليل من العراقيين يقفون لا مبالين او واجمين على طول الطريق. لم يكن ثمة ترحيب بنا. لم يرفع أحدهم أصبعيه بعلامة النصر أو يرمي علينا وردة كما كنا نتوقع. ربما تفاجئوا بمشهدنا نمر عبر مدنهم وقراهم البائسة تلك. كان الطريق مليئا بالمدن والقرى الفقيرة وبالشوارع القذرة والبيوت البسيطة المتهالكة واشجار كسيرة يعلوها الغبار.**

**- ماذا كان شعورك لحظتها؟، سأل العقيد.**

**- انا. لا شيء، لم تكن مفاجئة بالنسبة لي.غير أن بعض الجنود تساؤلوا لماذا نحن هنا، أمن أجل تحرير هؤلاء القرويين البؤساء؟ أصبحنا أكثر حذرا من السيارات القادمة أو المتوقفة على الطريق. كنا نخشى من الأفخاخ فنقف ونرمي عليها صاروخاً من بعيد ودون تدقيق أو اكتراث أن كانت مأهولة أم فارغة. كانت أوامر "ريكاردو" واضحة، وأصبحت عبارته: لا وقت لدينا لذلك الخراء، ملازمة لمعظم أوامره. في "النجف" اشتبكنا في معركة اخرى يوم 29 أذار. كان أربعة جنود من فصيل الفا في لواء المشاة السابع قد قتلوا عندما أوقفوا سيارة انفجرت بهم على حاجز تفتيش أقاموه خارج المدينة. بعد الإنفجار بدأنا نهاجم أي هدف متحرك على طول الطريق. قيل لنا ان متطوعين من فدائي صدام وجيش القدس في اللباس المدني يتهيؤون للهجوم علينا من داخل المدينة. عندما انتهينا من اطلاق النيران كانت سيارات وحافلات لا عدد لها قد دمرت أو اشتعلت فيها النيران. لم نذهب لكي نتتحق ما الذي حصل لأولئك الذين كانوا داخل السيارات فقد بدا كل شيء ساكناً من بعيد. هذه المرة كانت معنويات الجنود أعلى وكان واضحاً اننا نكسب الحرب بسرعة.**

**- وهل تعتقد اننا كسبنا الحرب؟**

**- نعم أعتقد ذلك. قد لا يكون الأمر واضحاً الآن ولكن سيتضح ذلك بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً.**

**- مالفرق الذي تراه بين خدمتك في الجيش الإسرائيلي وخدمتك هنا؟**

**- ليس كبيراً سوى انني كنت افتقد الاثارة التي عشتها هنا لأني كنت مجندا هناك في جهاز الأمن وفي عمل مكتبي.**

**- لكنك كنت تأمل ان تكون في الميدان تحارب الفلسطينيين؟**

**- نعم سيدي، لكن كان هناك من يتولى ذلك. هناك يشعر الجندي انه جزء من كل والجميع يكمل بعضهم بعضا.**

**استوقفه العقيد "نويمر" أولاً بإشارة من يديه ثم..**

* **هذا يكفي لهذا اليوم، ربما سيكون لنا لقاء آخر.**

**\*\*\***

**4/3**

**دقق "راين سويفت" ملياً في آخر الرسائل الألكترونية التي وصلته على شاشة اللاب توب وأخذ ينقل الى قطعة ورق ملونة صغيرة الحجم أمامه مجموعة من الأرقام ويضعها ازاء رموز كودية كان قد سجلها مسبقاً تعود لأسماء الشخصيات التي يتعامل معها. تأكد من الأرقام مرة وثانية وثالثة قبل أن يقوم بمسح الرسالة من حسابه. كتب بدوره رداً مختصراً قال فيه:"هذا لن يجعل مهمتي سهلة" ثم مسحها من حسابه بعد أرسالها. لم تمض الا ثوان حتى جاءه الرد:"ثقتنا فيك كبيرة، ستنجح هذه المرة أيضا". مسح هذه الرسالة كذلك، ومسك بالورقة التي سجل فيها الأرقام، وظل يتأمل فيها ملياً.**

**منذ أن أوقف رجال أمن في "مطار هيثرو" قبل أيام السفير "طالب السداوي" وعثروا بحوزته على مبالغ كبيرة من الدولارات اصطحبها معه الى "لندن" وهو في هذه الدوامة يحاول أن يجد مخرجاً مرضياً للورطة التي وقع فيها زبون مهم لديه. من المؤكد أن السيد، كما يبجله أعوانه، حاول ان يتحذلق كدأبه كي يوفر العمولات والنفقات التي يدفعها لهم ولابد ان أحداً قد غرر به بإقناعه بأن سفيراً ينتمي الى جماعته سيمكنه تهريب الأموال عبر المطارات معتمداً على حصانته الدبلوماسية ولن يكون بالتالي بحاجة لشركتهم وخدماتها. أكثر المتحذلقين هم من الأغبياء بل أسؤ الأغبياء، كما تعلم من دروس هذه الحرب، هم هذه الطبقة من الجشعين واللاهثين وراء المال والسلطة الذين كان يقابلهم سابقا على أبواب المعسكرات ويجدهم الآن في زوايا وجحور هذه "المنطقة الخضراء" وفي أروقة سفارة بلاده. ماذا لو كانوا رتبوا الأمر معه بشكل ما لكان وفر عليهم كل هذه المتاعب.**

**كان على الشركة بعد ان لجأ اليها السيد ان تعمل على تخليص مبلغ 30 مليون دولار من قبضة رجال الكمارك والأمن بالادعاء انها تحويلات حكومية كانت برفقة سفير يتمتع بالحصانة الدبلوماسية ويقوم بمهمة رسمية. بعد ذلك عليهم تأمين وصول الأموال الى الهدف النهائي، في فرع مصرف "ناشينال ويسمينستر" في "جزيرة سارك" في "بحر المانش". ما يخبره به مديره في "زيورخ" الآن هو أن المبلغ الذي تمكنوا من تخليصه من حوزة رجال الأمن البريطانيين هو 15 مليون دولار فقط وانه سينتهي بعد خصم الأتعاب والنفقات الى مجرد 10 مليون دولار سيوضع في الحساب المصرفي المفتوح لدى المصرف باسم السيد باعتباره المنتفع النهائي.**

**"ربما هذه هي الفرصة التي طال انتظاره لها". قال "راين" لنفسه بينما يجلس في مكتبه بإنتظار قدوم ممثل السيد الذي كان ثائرأ وهو يكلمه ليلة أمس بالتلفون بعد ابلاغه بالخبر. التفت الى النافذة يحاول ان يختلس نظرة عبر الزجاجات التي وضع على كل واحدة منها شريط لاصق عريض على شكل الحرف X لكي يمنع في حالة وقوع انفجار تشظي الزجاج الى قطع صغيرة متناثرة قد تكون جارحة، او حتى قاتلة لو أصابت أحداً بمكان حساس من جسمه. حط ببصره على الجدار الأسمنتي العالي الذي نصب لحماية المبنى من القذائف التي تهبط على الموقع بين الحين والأخر وشعر بشيء من الأمان.**

**منذ ان أنهى عقده مع الجيش قبل سنتين وانضم الى "شركة شارب أيگل للخدمات الأمنية واللوجستية" وهو يتخذ هذا المكان مكتبا له داخل "المنطقة الخضراء" وقرب سفارة بلاده. في البداية كان يشرف على الفرق التي تعمل في الميدان في تأمين الشخصيات والمواقع التي تتعاقد الشركة لتوفير خدمات الأمن والحماية لها الا أنه وبعد أخبر رئيسه عن خبرته في شؤون أسواق المال نقل الى وظيفة أخرى وهي مسؤولية الاشراف على نقل الأموال التي يرغب العراقيون بارسالها الى الخارج وتأمين ايداعها في حسابات سرية في بنوك خاصة، ذلك النشاط الذي أصبح الأهم والأكثر ربحية للشركة.**

**مثل عديدين غيره وجد "راين" نفسه في وسط هذه الحرب بعد ان ترك كليته في "جامعة انديانا ستيت يونفيرستي" كي يوفر أموالاً لإستكمال دراسته في "كلية ادارة الأعمال" ومن ثم الحصول على شهادة الماجستير وبعدها الحصول على وظيفة في بنك او في البورصة. لم يكن يتخيل أبداً في حياته أنه سيجد نفسه يوماً ما في حرب حقيقية كان لا يحبذ رؤيتها حتى في الأفلام. منذ ان حطت به قدماه على أرض هذا البلد بدا الأمر كله له سوريالياً غير قابل للتصديق لولا انه كان يعيش أحداثها المثيرة ويواجه لعناتها المميتة بنفسه. في السنتين الأوليتين من الحرب كان جنديا في الجيش صال وجال مع قوات الغزو منذ اللحظة الأولى التي دخلوا فيها الى العراق. سقط البعض من زملائه في معارك الأيام الأولى وآخرين في عمليات مكافحة العصيان وذهب من العراقيين أعداداً ليس بمقدروه الآن ان يتذكرها البعض، منهم كان في حفلات قتل جماعي شارك فيها رفاقه من الجنود مثل تلك التي جرت في مدينة حديثة قبل سنتين وابادوا خلالها عائلة بأكملها.**

**بعد نهاية خدمته كافئوه بـ"مدالية الشرف لفيلق مشاة البحرية" و"مدالية الإنجاز في الجيش" وطبعا مثل الجميع بـ"مدالية الحملة على العراق". بعد تسريحه وضع عينه على الشركة التي كان يراقب عملها في "العراق" عن قرب ويتمنى الإنضمام الى طاقم موظفيها الذين يستلمون رواتب باهظة في حين أنهم لا يواجهون تلك المخاطر الجسيمة التي كان يواجهها هو كجندي في الجيش. بعد انتقاله الى عمله هذا قرر بيع المداليات التي بحوزته واضافة رصيده الجيد الذي ادخره لكي يبدأ أيضاً مشروعه الخاص، أو بالأحرى حلمه الأمريكي الذي بدأ يراوده في بلاد العسل واللبن التي جاء اجداده من "ايرلندا" كي يحصوا على نصيبهم منها. منذ أن وظف المبالغ التي جمعها من خلال شركة استثمار في البورصة أصبحت العجلة تدور ومع كل دورة تزداد الأرقام في حساباته المصرفية. اكمل دراسته الجامعية بالمراسلة لكنه قرر تأجيل دراسة الماجستير أو حتى ترك الأمر برمته الذي لم يعد مغرياً، وبالتأكيد ليس مجزياً. بإمكانه الآن أن يدعي أنه وضع قدميه على بداية الطريق الصحيح لأنه وهو على بعد آلاف الأميال يعمل في وظيفة تدر عليه مكسب هائل شهرياً كما يدير أيضاً محفظة استثمارات من خلال الإنترنيت ويجني أرباحاً لم يكن يحلم بها. لكن ما يعمل عليه حالياً هنا من هذه الغرفة وفي هذه البناية المحاطة بكل هذه الأسوار الكونكريتية العالية وكأنها زنزانة او ملجأ هو الجائزة الكبرى التي أصبح ينتظرها من هذه الحرب وليست تلك المداليات البائسة التي لم يحصل مقابلها سوى على 2000 دولار.**

**منذ أن شاهد فلم "وول ستريت" قبل سنوات وضع لحياته هدفاً قرر ألا يحيد عنه مطلقاً وهو ان يتخذ لنفسه مهنة سمسار في البورصة التي سميت على أسم الشارع الشهير، أو ربما بالعكس. عاود مشاهدة الفلم مرات ومرات وهو يتأمل كل كلمة يرددها بطلاه "مايكل دوغلاس" و"شارلي شين" وكل حركة يقومان بها في تلك الحكاية عن أسطورة عالم المال والثروة. قرر حينها أنه ولد لكي ينضم في النهاية الى نادي الواحد بالمائة وان يظل فيه أبداً ولا يبارحه مهما تطلب الأمر. ها هو يسير في الخطوة الأولى لحلمه اذ لم تمض الا أشهر معدودة حتى وصل الى عتبة ال 200,000 دولار التي تضعه ضمن الفئة العمرية الأولى لأعضاء نادي الأثرياء الوطني التي هي بين 27-31 سنة. المفارقة التي يدركها ان النجاح والمال يأتيانه هنا وسط دوي التفجيرات في شوارع "بغداد" والتي يأتيه صداها من بعيد او القنابل وصواريخ الكاتيوشا التي تتساقط قرب شباكه في المنطقة التي توصف بأنها أمنة ومحصنة. لا يدري الى متى سيساعده القدر وأكياس الرمل وجدران الكونكريت في تفاديها حتى يصل الى فئة المليونيرات، وهو الهدف الذي وضعه لنفسه.**

**"سيكون من الغباء التوقف عند أي عتبة دون المضي قدما الى الثانية بعد ان انفتح أمامه الطريق". همس في داخله قبل أن توقظه طرقات قوية على الباب من حلمه الأمريكي وقبل ان ينفرج عن رجل أمن فارع الطول، عريض المنكبين، مفتول العضلات يغطي بكتلة جسمه الهائلة هيكل أحد الأشخاص كان يقف خلفه.**

* **سيدي، لديك ضيف.**

**في اللحظة التي أنهى فيها حارس الأمن جملته اندفع "عدنان الشكرجي" الى مكتب "راين" دون اكتراث بالأتكيت أو النظام في هذا المكان الذي يعرفه جيداً ولكن يتعمد عدم اظهار الاحترام له.**

**- ما هذا الهراء، يا "راين"؟ هل تريدون ان تشتروا بعقلنا حلاوة؟، تلك كانت الكلمات التي انهمرت مثل الانفجارات التي عادة ما تدوي في سماء المدينة وشوارعها نهار مساء.**

**- لا افهم. كلامك يبدو لي أحجية لا أجيد حلها، ما الذي تعنيه، أية حلاوة؟ هل لك ان تقول ذلك بانكليزية أفضل؟، قال "راين" قبل ان يومئ بالانصراف الى الحارس المتجهم الذي زاده المشهد عبوساً.**

**- بالضبط هذا ما أريد ايصاله، أنكم لا تفهمونا وتلك هي جوهر المشكلة. كل ما فعلتموه في هذا البلد هو جراء جهلكم وغروركم وغطرستكم، جاءت كلمات "عدنان" الغاضبة مرة ثانية.**

**- واو.... هذا كلام كبير جداً، لكني اتفهم غضبك. عموما، قبل ان تسترسل، لدي لك أخبار سارة ابلغت بها للتو. وصلت الشركة الى حل معقول مع مسؤولي "مطار هيثرو" وتم نقل مبلغ عشرة مليون دولار الى حساب السيد في "جزيرة سارك" وتم وصوله وتسجيله فعلاً.**

**- هذا ما أعنيه بالضبط، تعتقدون اننا أطفال صغار ستشترون غضبنا وصمتنا بقطعة حلوى صغيرة.**

**مال "راين" بمقعده قليلاً الى الخلف ثم رمق "عدنان" بنظرة طويلة من عينيه الزرقاوتين العميقتين بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة لم يستطع ان يخفي فيها سخريته. كان يتوقع رد فعل عنيف من شخص خسر سيده للتو ملايين الدولارات وخسر هو حصته لكنه راهن ان خسارة مبلغ كهذا ستهون عند من هو قادم اليه من جوف مدينة يعصف بسكانها الغضب ويذبح بعضهم في الشوارع.**

**- أتعلم ما يجمع بيننا يا "عدنان". الكثير لكن أهمها هو الطموح واننا لم نخلق لِنُقادْ.**

**يحفظ "عدنان" الف باء التلاعب والتملق جيدا لكنه قد لا يختلف هنا مع هذا الأمريكي المحتال.**

**- لم أتوقع منك هذا التشكيك. كنت أعتقد انك قد فهمت الآن قواعد اللعبة التي لا أضعها أنا أو أنت. نحن فقط من ينفذ.**

**- ولكن هذا ما حصل معي شخصياً المرة الماضية في مطار جنيف اعدتم لي مليونين فقط من ستة ملايين. والآن جربنا طريقاً آخر بمعرفتكم ولكن النتيجة واحدة. هل تعتقد اننا أغبياء؟ هل نحن نتعامل مع مافيا؟ هل انتم شفاطة لا تتوقف عن البلع دون ان تشبع، رد "عدنان" محتفظاً بنبرة غضبه.**

**من بين أهم المهات التي أوكلها السيد اليه منذ رجوعهم من المنفى هي الاشراف على تحويلات أمواله الى الخارج وادارتها هناك. لم يكن الأمر جديداً عليه فقد كان ذلك جزءاً من عمله في مكتب الجماعة في "لندن" قبل العودة. في عالمهم السري كانت تأتيهم الأموال من التبرعات والمساعدات التي تغدقها دول وأفراد لدعم نشاط المعارضة ضد "صدام". السيد كان يعتبر تلك الأموال حقوقاً شرعية تذهب مباشرة اليه شخصياً ويبقها في عهدة "عدنان" يقوم بتبيضها في المصارف البريطانية وغيرها كما يقوم باستثمارها في عقارات وأحيانا في البورصة. كان السيد يدعوه خازن بيت المال ومنذ عودتهم الى "العراق" تراكم المال وتراكم معه عبء ادراته لما يسمى باللجنة الاقتصادية في الجماعة الذراع التي يغرف بواسطتها السيد الأموال من موارد الدولة ومنابعها.**

**لم يكن "عدنان" مستريحا ابدا للتعامل مع "راين" لكنه جرب بدائل اخرى ولكنه يخشى الا يكون الأمر مختلفا. هؤلاء اللصوص الأمريكيان يظنونهم اغبياء او جهلة ويريدون حلبهم ولكن سيجد بديلاً. في رحلته الأخيرة الى "لندن" رتب كل شيء مع مدير فرع "بنك ناشينال ويسمينستر" في شارع المحطة في "حي وتفورد" شمال المدينة وهو الفرع الذي يمتلك فيه حساباً بنكياً منذ زمن طويل. السيد "جيرمي مارتن" فعل كما كان يفعل في تلك الأيام رتب له كل شيء نقل الأموال السائلة التي كانت معه من خلال عملية معقدة الى حسابه في فرع البنك ثم نظم له عملية نقلها الى فرع "بنك ناشينال ويسمينستر" في "جزيرة سارك" في القنال الانكليزي. طمأنه بعد أن حصل على نصيبه الى أن العملية أصبحت سليمة مائة بالمائة وان الأموال أصبحت في ملاذ آمن وبالإمكان ان تتم اية تحويلات أو سحوبات من نفس الحساب.**

**حين زار الجزيرة بعد أيام ليتأكد بنفسه من ان كل شيء جار على ما يرام أذهله المكان ودهش كيف ان بقعة بهذا السحر والجمال بمياه شواطئها الازوردية المطلة على ساحل "نورمندي" الفرنسي من بعيد هو ملجأ آمن للأموال الهاربة من ذلك الجحيم. الغريب انه عاش في "بريطانيا" كل تلك السنين ولكنه لم يكن يعرف ان هناك جنة بهذا الجمال وللحظة تخيل انه ربما سيأتي ليعيش هنا بعد سنوات، حين يكون كل شيء قد انتهى في "العراق".**

**نظر الى "راين" نظرة المستسلم هذه المرة، قال:**

**- مشكلتنا هي المطار لو كان مطار "بغداد" بايدينا لما احتجنا لكم أبدا. كنا سنتدبر أمرنا.**

**- نحن أسياد مطارات العالم كلها. بدوننا لن تتمكنوا من نقل أية أموال، أجابه مغيراً تكتيكه الى الهجوم ومثل ملاكم يستمر في توجيه لكمات لخصم يريد منه ان يقر بالهزيمة ويترك الحلبة.**

**- سيكون لنا بنكنا قريبا وسنجري تحويلاتنا كيفما نشاء، أجاب "عدنان" كمن وجد حلا سحريا.**

**- لا تكن ساذجا يا صديقيً. نحن سادة النظام المصرفي الدولي وكل أنظمة تحويل الأموال بايدينا.**

**- السيد غاضب جداً وهو يرى ان جشعكم أصبح بلا حدود."**

**- لماذ يغضب انه مجرد مبلغ تافه مقابل ما نقلناه له في الخارج ثم أن لديه رخصة من الرب، كما تقولون، كي يظل يغرف من هذا البئر الذي لا قاع له.**

**- السيد حذرني أنه سيوقف التعامل معكم.**

**- لن يكون ذلك قراراً حكيما. سيعمدون الى حربكم، سيسربون الأخبار عن حساباتكم في "سويسرا" و"جزر الباهاما" وعن قصوركم وشركاتكم في "لندن" و"بيروت" و"عمان" و"دبي" وسيكشفون تعاملاتكم المالية والتجارية، وستكون فضائحكم مدوية.**

**قهقهه "عدنان" عالياً بضحكة مصطنعة يسخر بها من "راين".**

* **الناس هنا يسمونه كلام جرائد. كانوا يسخرون منه في ما مضى، اما اليوم فلم يعد حتى مسلياً، على العكس كلما زاد انتشاره فقد قيمته.**

**رأى "راين" أن يصعد تهديداته.**

* **سيحاصرونكم بكل الطرق ويستخدمون قوانين تبيض الأموال في ملاحقة ثرواتكم، ولربما سيضعونكم على قوائم الأرهاب.**

**يعلم "عدنان" من خبرته الطويلة أساليب اللف والدوران والتهديد والوعيد التي يمارسها هؤلاء الوسطاء والطفليات ويدرك ان وراءها غايات أخرى فقرر ان يأخذ موقف المهاجم.**

* **جلدنا سميك ولن تهتز لنا شعرة واحدة. أكاد لا أصدق أنك بهذه الخفة كي تستهين بنا.**

**لا يريد "راين" أن يمضى أكثر في استراتيجته الهجومية ففي لحظة معينة كما تعلم في دروس مهارات التفاوض عليه ان يجد نقطة التوازن التي تحقق صفقة مرضية للطرفين.**

* **دعنا ننظر الى الوجه الايجابي. هناك مستقبل باهر ينتظرنا نحن الأثنين وسأساعدك على الدخول في عالم أرحب في المال وفي السياسة.**

**لاحظ "عدنان" انه قال أنا ولم يقل نحن او الشركة كما يفعل دائماً كما أنه يتكلم الآن عن صلات سياسية. طالما تمنى أن يفتح له "براين" قنوات مع المتنفذين الكبار في هذا العالم الذي يديرونه من وراء الستار. سيستطيع تحمل خسارة في عملية تحويل الأموال أن كان هناك تعويضاً عنها في دعم مركزه.**

**شعر "راين" بان الصنارة التي رمى بها غمزت بالطعم فأسرع قبل ان يبادر "عدنان" ويبدد الفرصة التي يحاول اقتناصها.**

**- سأقدم لك عرضاً لم تحلم به من قبل. لو قبلت به ستنضم الى مصاف كبار المستثمرين في العالم.**

**- عليك ان تبرهن لي أولاً انك تستحق ثقتي يا "براين".**

**- ببساطة، سنؤسس صندوقاً استثمارياً من الأموال الموجودة في أحد الملاذات الآمنة وسنقوم في أول عملية لنا بشراء أسهم معروضة في مصرف ( HSBC) ثم بعدها سيكون كل شيء رائع...."**

**قبل أن يُكمل "براين" جملته، اهتز المكتب بعنف...بانغ.... بانغ..بانغ...بانغ..بانغ..بانغ..**

**- انها ستة اليس كذلك؟ كاتيوشا يطلقونها من منصة سداسية متنقلة ثم يختفون. ذلك ما يفعلونه دائما، قال "براين" ثم زم شفتيه كمن يريد ان يقول انه اعتاد على ذلك.**

**- لا تقلق سيأخذ الأمر بضعة أيام وسينتهي كل هذا وستصبح المدينة بأكامها مؤمنة وفي قبضتنا.**

**- نعم، نعم، لا شك عندي في ذلك.**

**- لكن قل لي يا "براين" هل لديك أية معلومات عن تقديرات الجنرالات والسفارة الأمريكية وردود فعلهم اذا ما حسمنا الأمر لصالحنا؟**

**- لا يجب ان تقلق بهذا الشأن، لقد راهنوا منذ البداية عليكم. انتم الحصان الرابح في هذا المضمار، أجابه "براين" قبل ان يعود الى الحديث عن عرض الاستثمار.**

**- ما أرت قوله ان هذا المشروع سيكون بيني وبينك. أنت تفهم ما أعنيه، المسألة في غاية البساطة هذه الأموال الهائلة سنستثمرها سوية بدلاً من ان تظل مجمدة في الحسابات وسأكون يدك اليمنى، قال "براين".**

**بقي "عدنان" مستغرقاً دون ان يفتح فمه.**

* **انت ذكي وأعلم ان لديك طموح. لا يمكنك ان تبقى كل حياتك مساعداً أو تابعاً. كل ما تحتاجه هو قليل من الدعم سنوفره لك انا واصدقائي.**

**يعرف "عدنان" هذه الايماءات وتلك اللغة جيداً فقد خبرها طويلاً منذ سنوات منفاه الأولى. سمعها من رجال الأمن والمخابرات في كل بلد حل فيه ومن ضباط ودبلوماسيين أمريكان منذ عودته.أفخاخ مغلفة بعروض وطلبات واغراءات وتهديدات مبطنة ومكشوفة يعلم انه لا يستطيع رفضها، بل يستطيع التفاوض بشأنها.**

**نهض "عدنان" من كرسيه وحدق بعيني "راين" مباشرة. كان ذلك ما تعلمه خلال اقامته في الغرب وتعامله مع الناس هناك. قيل له دائما ان الاتصال البصري هو جزء من لغة الجسد من خلاله تفهم الأخرين جيداً كما تجعلهم يفهمونك.**

**- من هم اصدقاؤك هؤلاء؟ سأله وهو يضغط على كل حرف ينطقه.**

**- كبار المدراء التنفيذين في مجلس ادارة العالم.**

**- من يعني؟**

**خط "راين" بعض الكلمات على ورقة صغيرة رفعها أمام "عدنان" الذي ظل يحدق فيها وهو يستعد للإنصراف.**

* **بالمناسبة يمكنك ان تكلم السيد "جيرمي مارتن" في "لندن" فهو من اصدقائنا القريبين أيضاً وسينصحك بالذي أعرضه عليك.**

**\*\*\***

**4/4**

**من بعيد لاحت أمامه أضواء خمن أنها آتية من مدينة "أم قصر"، أو من مينائها الذي يقبع على الأطراف الجنوبية لهذا المخيم المقام على تخوم الصحراء. هنا تتظافر الرمال مع أكثر السباخ جدباً وقسوة كي تشكلا الحافة الجنوبية لشبه جزيرة "الفاو" فتثير في نفسه ذكريات ولواعج. هي المرة الأولى التي يسمح له منذ نقله الى هذا المعسكر بالخروج من الخيمة التي تم حبسه فيها انفرادياً بعد القاء القبض عليه. أسابيع طويلة يصطحبه الجنود الأمريكان الى الاستجواب معصوب العينيين ويدخلونه في كرافان واسع ثم يعيدونه بنفس الطريقة دون أن يتمكن من رؤية ما حوله. الآن بإمكانه أن يري لوحة صغيرة غُرسَ حاملها المعدني في الأرض أمام الخيمة وكتب عليها بالانكليزية (VIP) والتي يعرف معناها لكنه خمن أنها نوع من السخرية التي تمارسها ادارة المعتقل مع السجناء المهمين. ومع ان الجو المشبع بالرطوبة كان لايزال خانقا في هذا الوقت من الليل الا أنه شعر بارتياح ان يكون خارج تلك الخيمة المنعزلة وشديدة الحراسة واقفاً في الهواء الطلق تحت قبة سماء مدلهمة.**

**وجد صورة المكان قريبة مما تخيلها وهو في داخل خيمته، او خلال تلك الاغماضات الإجبارية اثناء تنقله بين جولات الاستجواب او حتى الى الحمام لقضاء حاجته. ليس بعيداً من الموقع الذي وقف عنده كان هناك موقع مراقبة يقف عنده جندي مارينز يمسك بسلاحه بحالة استعداد وحذر. تلفت يمينا ثم يساراً لعل عيناه تقع على برج عملاق من الفولاذ يتذكر أنه كان يقبع شامخاً يوما ما في مكان ما في هذه البقعة التي يعرفها جيداً. حينها كان هو برج الاتصالات الأكبر، ربما بلغ ارتفاعه نحو 50 متراً أقيم ضمن محطة الكترونية لتقوية الإرسال الإذاعي الموجه نحو دول الخليج. قبل نحو ثلاثين عاما وفي أول عهده بالخدمة في صفوف الجيش أرسلوه لى هنا كضابط مكلف مع سريته لحراسة وحماية تلك المحطة. ان يؤتى به الى هنا ليس صدفة من صدف حياته التي طالما احتفظت له بالمفاجئات، هكذا أحس وهو يحفر عميقا في الصندوق الأسود الذي يحمله فوق عنقه وأخذ يستعيد تلك الذكرى التي ظلت قابعة في تلك العلبة كل تلك السنين. هنا نال أول عقوبة في حياته كضابط في الجيش بتهمة الإهمال تركته لبضعة سنين يمشى مثل كلب أجرب وسط اقرانه حتى جاءت الحرب مع "ايران" فالتهمت نيرانها تلك الوصمة في عيون زملائه رغم انها بقيت محفوظة في ملفات خدمته في ادارة الضباط. كانت السفارة العراقية في "قطر" قد اشتكت من توقف استلام ارسال اذاعة "بغداد" هناك وحين أجرت لجنة متخصصة فحصا على المحطة اكتشفت أن تخريبا متعمداً كان قد طال معدات البث أعلى البرج مما عطل قدرة الارسال الى دول الخليج. حملوه مسؤولية ما حصل ووجهوا له اتهاما بالتقصير في الواجب وهو ما أجل ترقيته لرتبة أعلى لسنة واحدة جعلته يتخلف عن أقرانه من ضباط نفس الدورة طيلة خدمته في الجيش. ظلت تلك اللطخة تعوي بداخله ولم تهدأ الا بعد سنين حين منح نوطا للشجاعة وقدما للترفيع وقبل تلميذا في كلية الأركان والقيادة بعد مشاركته في معركة تحرير "الفاو" من أيدي الإيرانيين فشعر كأنما ما اخذته هذه البقعة منه ردته اليه.**

**جاءته ذكرى أخرى عن "أم قصر" توقدت في ذهنه مثلما تتوقد انوار مصابيح شوارعها التي تتراءى له من بعيد. آخر مرة زارها كانت قبل الغزو الامريكي بقليل حين جاء بصحبة عدد صغير القادة كي يستطلعوا المنطقة ويقيموا الموقف عسكريا ويعدوا خطة دفاعية لصد واعاقة الهجوم الأمريكي-البريطاني المتوقع انطلاقه من "الكويت" التي لا تبعد عن هنا الا رمية عصا، او عن طريق انزال بحري محتمل على شاطئ "خور عبد الله" القريب. الخطة حصلت على ثناء القيادة ووعداً بأوسمة وترقيات بعد الحرب كما كانت السبب في تعينه على رأس القوة التي اوكل لها مهمة صد القوات الغازية عند "جسر المسيب". حين انهارت القوة التي يتقدمها اللواء 45 مشاة مع مجموعة اسناد من "فدائيي صدام" ومجموعات قتالية من رجال المخابرات خلال ساعات عزا هو السبب الى ضعف قيادة المعركة وعدم تنفيذ الخطة التي وضعها.**

**هنا بدأ كل شيء في حياته العسكرية فهل سينتهي على أرضها كل شيء؟**

* **مساء الخير، سيادة اللواء، قطع صوت واثق وذي نبرة مألوفة عليه انثيال ذكرياته.**

**قدم له القادم نحوه نفسه بالطريقة التقليدية في الجيش وكانهما يلتقيان في معسكر او في مناسبة رسمية حتى أنه رفع يده اليمنى قليلاً نحو الأعلى، لكنها لم تصل الى حد اداء التحية العسكرية التقليدية. يعلم ان حركة كتلك ستغري غرور "الحكماني" لكنه سيكون مشهدا عبثيا لمعتقلين أثنين يرتديان تلك البدلة الصفراء الخاصة بالمعتقلين في سجن الجيش الامريكي ويقفان أمام سياج معدني عالٍ وبعده صفين من الأسلاك الشائكة الحلزونية.**

* **العميد الركن فهد السعداوي، سيدي، كنت من زملائكم في كلية الأركان، ولو عدت بذاكرتك الى طلاب الدورة 54 التالية لدورتكم فستجدني حتما معهم.**

**وقع صدى كلمة "كلية الاركان" في اذنه وقع السحر، شعر انها هبطت من فم القدر في تلك اللحظة التي كان يفكر بان خطته تلك يجب ان تدرس الآن في المعاهد العسكرية في العالم أجمع. لابد أن الأمريكان يدرسونها الآن في "ويست بوينت" او في أحدى كليات الحرب العديدة التي لديهم في اطار تقيمهم للعمليات في هذه الحرب.**

**- لو خضنا كل صفحات الحرب مثلما أبلينا هنا في "أم قصر" لما كنا وصلنا الى هذه الحالة"، رد "الحكماني" على مصدر الصوت قبل ان يتقدم اليه "السبعاوي" الى حيث كان يقف أمام السياج ويركز نظراته على دوائر الأسلاك الشائكة الكثيفة التي تلمع تحت وهج المصابيح الكبيرة المثبتة فوق أبراج تمتد على طول المعسكر وفي باحاته.**

**فطن "السعداوي"، الضابط السابق في الاستخبارات العسكرية الى ما يشير اليه "الحكماني" وهو يغادر لحظة تأمله تلك في المكان الذي يخرج اليه للمرة الأولى منذ نقله الى هذا المعتقل. فمعركة "أم قصر" كانت أول مواجهة مباشرة بين القوات العراقية وطلائع قوات الغزو قبل ان تتمكن الموجات المتتالية من جنود العدو من اختراق الخطوط العراقية والتوجه نحو "البصرة" وبعدها الى "بغداد". بقي "السعداوي صامتا فهو يسمع الكثير من تلك القصص التي يرويها نزلاء المعسكر وخاصة حكايات عن بطولات وانتصارات يعرف انها مبالغات واوهام تعلم في علم النفس انها تأتي من نظرة البعض الى أنفسهم من داخل الكهف الذي يقبعون فيه فيرون ما لا يراه الأخرون و"الحكماني" ليس استثناء. يعرف "الحكماني" جيدا ليس فقط من العام الدراسي الذي قضاه في "كلية الأركان"، ولكن ايضا من متابعته للتقارير المختلفة من خلال عمله في الاستخبارات العسكرية والتقارير التي كان يشارك باعدادها في المكتب العسكري للحزب عن السير الذاتية والمهنية لكبار القادة وعن ادائهم وتقيمهم.- جميعنا يعلم ما جرى في "ملحمة ام قصر" كما اطلق عليها السيد الرئيس القائد يرحمه الله"، قال "السعدواي" دون اطالة كي يعطي "الحكماني" الفرصة كي يكمل حديثه ويحصل على ذلك الهرمون السحري الذي لا بد ان غدده الصماء بدأت بافرازه كي تزيده نشوة.**

**- حين وضعت خطة الدفاع عن "أم قصر" كنت درست وحللت كل ماوقع تحت يدي من خطط الانزال في الحروب منذ احتلال نابليون لمصر عام 1798 ولحد يومنا ذلك، لكن خطتي كانت شيئأ جديدا... شيئا فريدا، قال "الحكماني" في حين راح يعبث بسحاب بدلة السجن يرخيها تارة قليلا الى الأسفل ثم يرفعها لاحقا الى صدره.**

**- بالتأكيد مثلما هي كل انجازاتك في المقاومة. هي تلهمنا جميعا ان نفكر ونعمل كيف نخرج من هذه المحنة.**

**- لازال بإمكاننا ان ننتصر ونطرد المحتل، لو كانوا استمعوا الى كلامي.**

**كمتخصص في علم النفس العسكري الذي درسه اكاديميا وحصل على شهادة الماجستير فيه مارس "السعداوي" هوايته المفضلة في تحليل شخصية "الحكماني" وتقيمها كما طلب منه من قبل القيادة كي يتخذوا الخطوة المطلوبة بشان مستقبله مع المقاومة وها هي الفرصة تأتي اليه سريعا كي يبدأ عمله هذا. لم يبخل عليه بالانصات رغم ان خيوط أفكار "الحكماني" ظلت مشتتة وانفعالته اثناء الكلام بقيت غير منضبطة وهي سلوكيات تعزز من الصورة السائدة عنه لدى قيادة المقاومة العليا. شيئا فشيئا بدا له انه ينصت الى شخصية سايكوباثية تعاني من عدم الاستقرار النفسي وعاجزة عن الادراك الحقيقي للواقع الذي يحيط به، ولربما أيضا دون احساس بالوجود الفعلي. خلال دقائق قليلة لم يتوقف الحكماني من استذكار انتصاراته في معارك كثيرة، بعضها لم يسمع بها احد، اما انه جاء على ذكرها نتيجة لارتباك وتشوش افكاره، او انها من محض تهويماته. ظهر له كما توقع من سيل المعلومات التي زودتها القيادة عنه محاربا هائما يتبادل في داخله ادوارا كثيرة لكنه يظل مهسوسا بالبحث عن وجود خال من الوعي او الادراك. يعرف من خبرته في علم النفس العسكري ان الجنرالات يهدفون الى كسب الحروب، ولكن مع تضخم الذات بالانتصارات الحقيقية، او الافتراضية، يبدؤون بالانشغال بما يمكن ان يأتي به المستقبل لهم. بالتحليل السريع لا يبدو "الحكماني" متعاليا ومتعجرفا فقط، بل متهوراً ايضا يسيطر على عقله جنون العظمة الذي يشوش عنده عملية الادراك السليم. هذا الانطباع الاولي الذي تركه فيه لقاء "الحكماني" لا يشعره بالارتياح ولكنه كلف بمهمة وعليه انجازها.**

**- هذا هو بالضبط ما جئت كي اتحدث به اليك رسولا من القيادة. ستكون الفرصة الآن مواتية هنا لكي نبحث في اوضاع المقاومة. ما نسعى اليه في الوقت الحالي وضع خطة شاملة جديدة للتحرير.**

**- قبل التحرير من الامريكان يجب ان نتحرر من عملائهم الذين زرعوهم في صفوفنا، لولاهم ما كنت انا هنا الآن، قال "الحكماني".**

**مضت بضعة أشهر على اعتقال "الحكماني" بعملية قادها "الجنرال ديفيد بترايوس" بنفسه بعد اعادته للعراق بداية عام 2007 اثر تدهور الأوضاع الأمنية واشتداد الهجمات ضد القوات الامريكية. بدأ "بترايوس" بتنفيذ استراتيجية جديدة لمواجهة التمرد، يعتمد جزء منها على شراء الذمم، وخاصة زعماء العشائر في المناطق الملتهبة. "بترايوس" كان يتفاخر علنا بان المال لا يقل شأناً عن العتاد الذي لدى الجنود، بل ربما امضى سلاحا منها، ويبدو انه كان على حق. في ليلة من ليالي شهر نيسان كان المطر يهطل فيها بغزارة أطبقت قوات امريكية على قاعدة للمقاومة في "أبو غريب" التي كان قد انتقل اليها "الحكماني" وقبضت عليه ومن معه في عملية ظل مقتنعا بانها نتيجة وشاية من "الوناس". في مركز اعتقال "معسكر كروبر" في "قاعددة فكتري" قرب "مطار بغداد الدولي" قضى بضعة أشهر قبل ان يتم نقله الى "بوكا". لم يصل الى علم القيادة أية معلومات عن ظروف اعتقاله لكن ما اثار علامات استفهام وشكوك كثيرة ان جميع المقرات التي كان يستخدمها تمت مداهمتها بعد ذلك. حين ودعه "السعداوي" ظل هو واقفا متأملا في نجمة لامعة تطل وحيدة من بعيد وسط سماء غبراء تخيم على المعتقل الصحراوي وشعر بان أمامه أياما طويلة سيعيشها هنا منذ الليلة تحت أنظار الجميع وتساؤلاتهم الصامتة بينما قرر هو الا يتعثر في الطريق الذي أختاره وأن يمضي في الخطة التي وضعها.**

**منذ اطلاقه من الحبس الانفرادي نقل "الحكماني" الى خيمة يحتجز فيها خمسة أفراد علم منهم انهم كانوا يرتبطون بتنظيمات للمقاومة من مختلف المناطق. هناك وجد أسمه قد سبقه، كما وجد ضالته بان يعود قائداً مرة أخرى، ولو على تلك الخيمة. بعد أيام بدأ يتعرف على الشبكة التنظيمية التي اقامتها المقاومة في المعتقل ويسمع أخباراً كانت قد فاتته عن أحداث الفترة الماضية التي قضاها في "معسكر كروبر" ثم في الحبس الانفرادي هنا. ورغم أنه أصبح أكثر حرية في الحركة والاختلاط بباقي المعتقلين الا انه اتبع ما نوى عليه منذ اعتقاله بان يضع حدودا بينه وبين الآخرين ممن يشكلون الصفوف الأمامية في المقاومة. خمن ان هولاء الذين يدعون انفسهم بالقيادة تتوقع منه الآن ان يدين لها بالولاء وان يبلغها بتفاصيل كل ما جرى بعد اعتقاله واستجواب الامريكيين له قبل ان يناقشوه في أي أمر آخر. ورغم انه سيتفهم ذلك لو ان الأمر اقتصر على ايجاز منه عن تلك التجربة الا انه قرر الا احد من الذين سيلتقيهم في المعتقل، او حتى من الموجودين خارجه، مؤهل بعد الآن لمساءلته، او حتى مطالبته بالخضوع لقيادتهم. قرر انه لابد ان يظهر للجميع أنه قوي وان على الجميع الاقرار بقيادته للمقاومة هناك مثلما هنا. هو على قناعة بان مكوثه هنا لن يطول وان الأمريكان سيطلقونه في وقت ما ليس بالبعيد وسيعود ليمارس دوراً أكبر وحينها سيطيعه الجميع. ابلغه احد الشباب الذين معه في الخيمة والذي هو على اتصال مع القيادات التي في المخيم بان كل الأنظار متجهة اليه وان الجميع الآن يترقبون لقاءه.**

**قبل ان يذهب الى أول اجتماع مع نخبة القيادة التي في المعتقل حدد موعده هو بنفسه سن "الحكماني" سكاكينه جيدا. منذ ان بدأ قيادته في المقاومة تعود ان يكون هو من يبادر دائما بالهجوم. قال للمجموعة الصغيرة التي تشاركه المهجع ان من يتخاذل أمام العدو هو عدو أيضاً وسألهم عن خلفية القيادات التي في المعسكر باحثا عن نقاط الضعف لديهم مما ستساعده في الهجوم الاستباقي الذي ينوي ان يشنه.**

**- نحن لا نقاوم من أجل بضع مقاعد في البرلمان وحفنة كراسي في الحكومة يتولاها بأسمنا فئة من السماسرة اللاعبين على الحبال، قال "الحكماني" للمجموعة التي افترشت بطانيات على بقعة من أرض المعسكر الترابية في الفسحة المخصصة للسجناء للتريض بعد ان شرح كل طرف موقفه.**

**- المقاومة وسيلة وليست غاية ونحن لدينا قيادة سياسية هي التي تقرر الخط العام لما هو صالح الجماعة، قاطعه "خيري" الذي عرف نفسه بانه مسؤل حزبي كبير في النظام السابق.**

**- ما لكم لا تفهمون. ما يجري هي حرب اجتثاث. أما هم أو نحن، رد عليه "الحكماني" بنبرة لم تخلوا من التحدي.**

**- نحن مقاومة ولسنا قاطعي رؤوس وانتحاريين، رد عليه "اللواء عبد اللطيف الداوود".**

**- ما الجديد في ذلك؟ هذا ما كنا نفعله بأعداء الحزب والسلطة ولم نسأل يومها عن الطريقة، اعدام، طلقة في الرأس، حادث سيارة، سيانيد في العصير، أجاب "الحكماني" باصرار أشد.**

**وقبل ان يتلقى جوابا نظر الى الداوود.**

* **هل نسيت كيف كنت تأمر بتفجير الأسرى بالديناميت في الانتفاضة؟**

**تبادل أفراد المجموعة النظر بينهم كأنهم يستذكرون الخطة التي وضعها "السعداوي" لهم بعد أن حذرهم من المناورة التي سيلجأ اليها "الحكماني". ظلوا صامتين لبرهة يتطلعون الى رد "الداوود" القائد السابق في "الحرس الجمهوري" الذي يقر له في وسط المعتقلين في المعسكر بانه ممثل قيادة المقاومة.**

**- نحن الآن في وضع مختلف ولكل معركة تكتيكاتها، وانت سيد من يعلم ذلك، اجاب "الداوود".**

**- هذه أم المعارك الحقيقية التي يجب الا نهزم فيها وليس مهما أي سلاح، أو وسيلة نستخدمها.**

**- بالعكس، هذا مهم جداً. نحن لا نتعامل مع جماعة عابرة بلا جذور حتى يمكن محوهم بتفخيخ حسينية هنا، او تفجير عمال يتجمعون بانتظار رزقهم على ناصية شارع هناك، قاطعه "الداوود" بنبرات صارمة لا تخلو من الاحساس بنفاذ صبره.**

**- الرعب والتخويف من سنن الجهاد، كلما قتلنا منهم أعداداً أكثر سيتراجعون الى جحورهم التي كانوا يعيشون فيها بشكل أسرع.**

**- لكن مقابل كل عشرة نقتلهم، سيظهر الف ينظمون الى الجيش أو الشرطة او يشكلون جماعات مسلحة لهم وبدلا من القضاء عليهم سيسحقونا.**

**حدق "الحكماني" بالداوود بنظرات لم تكن تخفي ذلك الاحتقار المكتوم الذي يكنه له منذ ان نقل له عملاءه في الخيمة المعلومات عنه. لو كانا في ظروف اخرى لاعلن له صراحة انه يأبى ان يتعاون، او حتى ان يتكلم مع شخص تلوثت دماء أولاده بدماء الرافضة.**

* **النصر يصنعه اصحاب القلوب الميتة لا اصحاب الأيادي المرتعشة. والآن لدينا حلفاء قلوبهم اصلب من الحجر وهم ينتظرون كلمتكم.**

**كان على "الداوود" ان يظل ملتزماً الحرص والحذر من أي تصعيد مع "الحكماني"، كما نصحهم "السعدواي" ولكن طالما فتح هو الموضوع فليسمعوا منه ما طلبت منهم القيادة في الخارج الاستعلام منه.**

* **هذا ما كنا نريد ان نناقشه معك. هل حقاً انك فاوضت "القاعدة" و"جيش انصار السنة" و"جيش المجاهدين" قبل اعتقالك لبناء تنظيم موحد؟**

**- بصراحة، نحن اصبحنا نخشى ان هؤلاء الجماعات يستغلوك بدلاً من ان تستغلهم، قال الشخص الذي يجلس الى يمين "الداوود" والذي جاءت "الحكماني" المعلومات بانه المسؤول الحزبي في المعسكر.**

**- عليكم فقط ان تثقوا بي وتتركوا لي حرية العمل الميداني، قطع "الحكماني" عليه استرساله.**

**- ساكون صريحاً معك أكثر.نعلم انك عملت اشياء جيدة للمقاومة لكن ليس فينا من هو واثق مما يدور بخلدك، رد "الداوود" وسط نظرات مؤيدة من باقي الحضور.**

**- ما عاد بيننا القائد الضرورة، الدنيا تغيرت ويجب ان يكون عملنا جماعيا، عاد الشخص الآخر للحديث بحدة اذهلت حتى رفاقه.**

**شعر "الحكماني" ان الجلسة ستتحول الى محاكمة له رغم انه واثق من انهم اضعف من مواجهته فقرر الا تراجع عن قراره بالهجوم.**

* **هذه مشكلتكم وليست مشكلتي. لا مقاومة بعد اليوم، بل جهاد، رد بجفاء وتحدٍ بينما كان مكبر الصوت قد بدء نداء انتهاء فترة التريض والعودة الى الخيم.**

**أحد الأسرار الذي تمكن "الحكماني" من كتمه طيلة السنوات الماضية هو عائلته، اذ لا أحد من رفاقه في المقاومة يعرف أين أختفت. كان مكان وجود العائلة واحداً من مناطق الظلال التي برع في خلقها من حوله وأحتفظ بها داخل صندوقه الأسود. أصيب بالذهول حين دخل أحد المترجمين المتعاقدين برفقة جندي أمريكي الخيمة في صباح يوم شتائي بارد كي يصرخ بأسمه ثم يخبره ان عائلته بانتظاره في قاعة الإستقبال عند بوابة المعتقل. سادت لحظات صمت توجهت فيها العيون نحو "الحكماني" في حين دارت انظاره في الفضاء بين أركان الخيمة قبل ان يجب على المترجم.**

**- هل أنت متأكد. أرى ان هناك خطأ ما.**

**- لا علم لي بهذا الهراء. لكن ألست انت "الحكماني"؟ ، سال الجندي الأمريكي الذي نقل له المترجم.**

**- هذه زيارة عائلية، زوجتك وأبنتيك في انتظارك. لايزال بإمكانك ان ترفض المقابلة لو شئت، استكمل الجندي كلامه بنفس تلك الطريقة الجافة التي اعتاد عليها الحراس.**

**بدأ "الحكماني" يشعر بالتوتر ولكنه أدرك بان الاستمرار بهذا الحوار سيزيد من فرص البلبلة والثرثرة ليس فقط بين الموجودين في الخيمة، بل في عموم المعسكر الذي ستنقل اليه الأخبار بعد قليل عند بدء فترة التريض الصباحي.**

**عندما وصل الى القاعة المخصصة لزيارات المعتقلين وجدها خالية من الزوار ومن المعتقلين، لكن الضابط الأمريكي "غلاسر" كان يقف هناك كأنما كان جاهزاً للقائه.**

**- لك زيارة خاصة من عائلتك نظمها "الصليب الأحمر الدولي". حرصنا ان تتم بعيدا عن المعتقلين كي تأخذ حريتك معهم، قال "غلاسر" الذي يعرفه "الحكماني" جيداً كونه أحد الذين شاركوا في جلسات التحقيق معه. لم تكن لديه فكرة واضحة عن اجراءات الزيارات غير تلك التي يتحدث بها زملاؤه في المعتقل عن التكدس والانفعالات العاطفية التي عادة ما تسببها ظروف اللقاءات ولذلك بقي صامتا رغم القلق والحذر اللذين حلا محل التوتر. في أحدى الزوايا كان هناك جنديان أمريكيان يحمل كل منهما هراوة بيده ويقفان في حالة استعداد بالقرب من ثلاثة هياكل بشرية كل واحدة منهن مجللة من قمة رأسها الى أخمص قدمها بعبائة ونقاب أسودان. ترك "غلاسر" القاعة بعد ان أشر برأسه للجنديان بان يبتعدا قليلاً عن المسطبتين المتقابلتين التي جلس على احداهما "الحكماني" في حين جلست الهياكل السوداء الثلاثة قبالته على المسطبة الأخرى.**

**- كيف حالك "ابو عدي"؟، سألت تلك التي جلست أمامه والتي بدت أضخم جسدا من الآخريين النحيفتين بنبرة يشوبها تردد، أو ربما اضطراب. لم يسمع أحداً يناديه بهذه الكنية منذ وقت طويل وللحظة لم يكن متأكداً ان يقول شيئا رداً على ذلك. حدق بالكتلة التي خرجت الكلمات من تحت نقابها المنسدل على صدرها واستطاع لأول مرة ان يبصر عينين لا تخليان من ألقٍ ربما تلاشى بفعل الزمن، او الإجهاد بسبب طول الرحلة الى المعتقل. ظل السكون يطبق على الجلسة قبل ان تواصل المرأة كلامها.**

**- لقد ولدت البقرة الشقراء تؤماً"، قالت الضخمة من وراء النقاب لكن هذه المرة بصوت قوي بما يكفي لأن يسمعه "الحكماني" جيداً، ولكن أوطأ بما خمنت بان الجنديين الواقفين بالقرب منهم لن يسمعاه.**

**- ما شاء الله، خير وبركة ، رد "الحكماني" بعد ان تأكد ان ما تفوهت به المرأة كانت كلمة السر التي اتفق مع زوجته ان تستخدمها مع أي رسول تبعثه. تأمل الجنديان الواقفان عن بعد ثم صوب نظره الى الكاميرات المثبتة في جدران الصالة وتفتحت أساريره لأنه توقع أخباراً طيبة كان ينتظرها.**

**- كيف هي احوالكن، توجه "الحكماني" بالسؤال الى الشبحين اللذين يمثلان دور بنتيه فاسحا لهن المجال كي يلعبن دورهن الذي لابد انهن تدربن عليه. تحدثت التي تمثل البنت الكبرى باشياء كان بعضها مفهوما لـ"الحكماني" والآخر بدا مجرد هذر لقطع الوقت. تحدثت الثانية وأسترسلت بعض الوقت ورغم أن اداءها كان متنقناً لكن باله ظل مشدوداً الى الرسالة التي ينتظرها.**

**- أم عدي تبلغك السلام وتقول لك انها والأولاد بخير وانهم انجزوا اوراقهم لدى مفوضية اللاجئين للانتقال الى "كندا".**

**- هل قابلتيها بنفسك؟**

**- كنت معها في "إسطنبول" وأمرتني بأن أعود لأبلغك الرسالة.**

**اقترب منها قليلاً وهمس بان تعود وتتأكد أنهم غادروا ووصولوا الى "كندا" وترجع اليه لإبلاغه.**

**- سأفعل بعون الله وسأدعو لهم بالتوفيق في الجهاد هناك. لابد ان نغزوهم في بلدهم، كما غزونا، أجابت بصوت خفيض.**

**- ان شاء الله ، رد قبل ان ينهض من فوق المصطبة عائداً الى خيمته.**

**في العنبر الذي نقلوه اليه بعد الحريق المفاجئ الذي شب في الخيمة التي شارك فيها رفاقه منذ اطلاقه من الحبس الانفرادي كان ثلاثة أشخاص يأخذون أماكنهم كل وسط سرير معدني. ثلاثتهم كانوا يرتدون كالآخرين زي المعتقل أصفر اللون، لكن لحية طويلة ومشذبة كانت تغطي وجه كل واحد منهم. كانت زبيبة صلاة غامقة تعلو جبهاهم تحت غطاء رأس أبيض يرتديه كل واحد منهم وهو أمر غير مسموح به في باحات المعسكر. كان المهجع في المجمع السادس رحباً بما يتسع لأكثر من أربعة أشخاص ومجهز بمكيف كان يبعث بهواء بارد منعش كما علقت على احد جدرانه شاشىة تلفزيون كانت كانت تبث قراءات من القرأن الكريم من "قناة العفاسي" السعودية. أشر الجندي الامريكي الذي رافقه الى سرير رابع وفهم مما قاله انه سيكون مكانه الجديد في المعتقل. في احدى الزوايا جلس أحدهم على فراشه وسط السرير علت وجهه نضارات طبية وتوجته صلعة صغيرة من الأمام بانت من تحت الوشاحً الأبيض افضت عليه مسحة من الوقار بدت متناشزة مع ملامحه الشابة نسبياً. رد الشاب الوقور الذي حدق به مليا على سلامه أولاً بصوت خشن وعميق ثم تلاه الاثنان الآخران في حين راح الثلاثة يتمعنون بالقادم الجديد الى مهجعهم ويتبادلون الأنظار كأنهم حلوا أخيراً لغزا كانوا حائرين بشأنه.**

**انتبه "الحكماني" للسكون الذي يعم المهجع على عكس الخيمة التي أرسل اليها بعد فكه من الإعتقال الانفرادي والتي كانت تضج بحوارات أو تجلجل باصوات صاخبة تأتي من كل أنحاء المعسكر تخترق فتحات التهوية التي على جوانبها الأربعة مع حبات الرمل المزوجة بالرطوبة التي تهب من البحر. لم يهتم كثيرا بمعرفة سبب نقله الى هذا المكان الوثير لكنه تساءل وهو يجلس على فراشه الجديد هل يعلم نزلاء المهجع من يكون وهل كانوا بانتظاره. لكن لو كانوا يعلمون فلماذا لم يقفوا لأستقباله والترحيب به بطريقة لائقة تناسب مقامه، أو حتى مجاملة لقدوم زميل جديد. ربما كان الأمر مناورة فهولاء معرفون بحذرهم الشديد وكذلك تصنع الوقار والهيبة لاستعراض سلطتهم الافتراضية. قرر في نهاية المطاف الا يقوم بأية مبادرة من جانبه وان يدع الأمر يمضي كما هو طالما انه لا يتحكم بمسار الاشياء هنا ولا حتى ان يسعى الى فهمها، فكل شيء يبدو ومنذ الآن يسير في سياقات ملتبسة عليه ان يتعامل معها بصبر وآنات.**

**الأيام التالية كانت كفيلة بان تضع المياه في مجاريها، مثل مصائر تنعقد دورتها بفعل قوة خارقة، او آلة تم توقيتها كي تنطلق دواليبها في لحظة معينة. شيء واحد أصبح متأكداً منه وهو ان وجوده في هذا المهجع بصحبة هؤلاء الثلاثة سيوفر له الفرصة كي يحسم أموراً كثيرة كان يبحث عن مخرج لها منذ زمن. المهم انه انتزع من قيادات التنظيم الأبرز للمجاهدين اعترافاً بانه الممثل الأول للمقاومة وبدؤا معه نقاشات ومفاوضات للتوصل الى تفاهمات حول تعاونهم للمرحلة القادمة.**

**منذ أيام وهم يناقشون كيفية توحيد استراتيجية للمقاومة وفوجئ بان لديهم خبرات ومعارف في حروب العصابات، او العمل الجهادي، تفوق كثيراً مما كان قد اطلع عليه وخبره. كان احدهم يروي عن كراس "العمدة في اعداد العدة" الذي راجعه في خلواته وكأنه كتاب مقدس ويقتبسون منه دائما القول ان ساحات الجهاد هي المكان الأفضل لتربية الرجال واكتشاف معادنهم. أكثر ما اذهله هو نظرية "ادارة التوحش" التي يبدو انهم يحفظون نصوصها عن ظهر قلب والتي اتفق معهم الآن انه سيعمل بعد خروجه من المعتقل على ان يحولها من مجرد عقيدة بين ظهراني كتاب الى استراتيجية عسكرية شاملة لعمل المجاهدين ومنهج للحكم على أرض الواقع في المناطق التي سوف يحررونها. أعجبتهم الفكرة كثيراً لكنهم كانوا يريدونه ان يركز في عمله على انهاء التنافس بين جماعته والمجاهدين الذي كان قد وصل الى مرحلة قالوا له انها خطيرة ومضرة بالطرفيين حيث لم يبق امامهم الا الإنخراط في الجهاد موحدين، او قتال أحدهما الآخر.**

* **اذا اردنا الفوز فليس أمامنا بعد التوكل على الله الا الوحدة. ان نجمع صفوفنا تحت راية لا إله الا الله، قال "أبو عمر" بضرس قاطع وكأنه يريد ان ينهي النقاش الذي يدور منذ أيام بينهم وبين "الحكماني" بشأن التعاون بين الطرفين وتحديد مستقبل الجهاد.**

**ظل "الحكماني" صامتاً لبرهة ثم عقد حاجبيه الى الأعلى كأنه يشعر بالحيرة ويفتش عن مخرج.**

**- ما يقلق القيادة هو انكم ستطلبون منا البيعة أيضاً، كأننا كفار قريش.**

**- لا يا أخ أبو دجانة، هذه "بيعة الرضوان" وهي بيعة مؤمنين، تدخل "أبو طه" بنصف ابتسامة وسط دهشة "الحكماني" بمناداته بذلك الاسم.**

**- لقد اختار لك الأمير هذه الكنية شخصياً تيمناً باحد الصحابة الأبرار، قال "أبو عمر".**

**- يبدو أنكم قد حسمتم أمركم، أذن، سألهم "الحكماني".**

**- على بركة الله الذي يقول في محكم كتابه الكريم "فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُم". أمدد يديك يا أخي لنتبايع على السمع والطاعة، قال "أبو عمر".**

**حين بدأ يفيق من أثر التخدير كان لايزال يشعر بدوار شديد في رأسه حاول أن يقاومه. لم يتمكن ان يطرد الغشاوة التي تطبق على عينيه، كما ظل رأسه ظل ثقيلاً وجفناه يقاومان محاولاته لفتحهما. ثمة أشخاص في المكان بامكانه ان يسمع اصواتهم، ولكن يجد بصعوبة في رؤيتهم جيدا. رويداً رويداً بدأت صورة ما تتضح، البعض يرتدي معاطف خضراء وآخرون زرقاء كانوا يحدقون به ولكنه لا يستطيع تميز ملامحهم جيداً. ومع انه يشعر بقشعريرة تنتابه بين حين وآخر الا أنه أحس بعطش شديد وحرقة بالحلقوم وفي عضلات خديه كأن ناراً قربت الى وجهه. أحد الذين التفوا حول سريره كان ذو ملامح أسيوية ويرتدي معطفا أخضر ربت على خديه ثم مد يديه ورفع جفنه الأيسر قليلاً واقترب منه كي يفحص باطن عينه بمصباح صغير أخرجه من جيب معطفه الطبي. الضوء الساطع جعله يجفل ويحاول ان يغلق جفنه لكن اصبعي الرجل كانتا أسرع فظل يوجه المصباح الى العينين كأنه يبحث عن شيء ما يختبأ داخلهما. بعد ان انتهى طبيب التخدير من فحصه ربت على ظهر كف "الحكماني" اليسرى مرات عديدة ثم ابتسم له وتنحى جانباً.**

**استطاع "الحكماني" ان يحرك رأسه قليلاً من فوق السرير وجالت عيناه في المكان الذي بدا له مكتضاً بالانابيب المعلقة بحمالات معدنية وباجهزة فحص النشاط الحيوي مع انابيبها الكثيرة المربوطة بشاشات كومبيوتر عديدة. ربما كان ركنا في واحدة من الكرفانات التي التي تشكل مستشفى السجن والتي دخلها عدة مرات خلال الشهور التي أمضاها هنا للفحص والعلاج. الهواء البارد الذي يأتي من المكيف بدأ يتسلل الى مسامات جلده مثلما يخترق رئتيه فينعش كل جسده. حاول ان يسترجع تلك الرؤى او التهيؤات التي كانت تراوده منذ قليل قبل ان يفيق من هذه الغيبوبة الطويلة لكنه اخفق. عاد اليه الخدر سريعاً وراح يغط في سبات عميق لم يدر متى افاق منه حين كانت يد قد امتدت كالمرة السابقة تربت برقة على خديه فيشعر انه بدأ ينجح بمقاومة ما تبقى من أثار التخدير.**

* **الحمد لله على السلامة، سمع "الحكماني" تلك الكلمات بالعربية، كما لاحت له ملامح مألوفة لشخص يرتدي ملابس الجراح أمامه.**

**وضع السماعة الطبية التي علقها في أذنيه على صدر "الحكماني" ثم نقلها عدة مرات الى مناطق أخرى قريبة ثم نظر الى شاشة الجهاز الذي جنب السرير يقرأ مؤشرات النبض والأوكسجين. فتح جفني مريضه ونظر الى داخل عينيه ثم سجل بعض الملاحظات واعطاها لطاقم التمريض الذي كان يرافقه.**

**- كل شيء تمام حجي. ستستعيد صحتك بعد أيام وسترجع شابا أبن عشرين سنة، قال الطبيب هذه المرة بلهجة خمن أنها جنوبية ولكن دون ان يقطع على وجه اليقين من أية جهة بالضبط.**

**- انا الرائد الدكتور حسين عبد الزهرة من المستشفى الميداني للبحرية الامريكية في "الكويت" الذي أجرى لك العملية.**

**وكأنه كان يجيب عن الأسئلة التي في ذهن "الحكماني" في فوضى الأفكار التي هو عليها. رافضي وطبيب عسكري أمريكي يجري له عملية جراحية انقذته من الموت. داهمه شعور بالارتياب ورغب ان يتلمس أنحاء جسده كي يتأكد ان كل شيء في مكانه، لكن تنملاً لايزال في يديه منعه من ذلك.**

* **الحمد لله على سلامتك. تعرضت لذبحة صدرية نتيجة وجود انسداد في شرايين قرب القلب. قمت بفتح الانسدادات فيهما كما وضعت لك دعماتين طبيتين ستساعدان على تدفق الدم بشكل طبيعي.**

**راح "الحكماني يستعيد كل كلمة سمعها للتو ويحاول ان يربط بين بعضها والبعض الآخر لكن لم يجد لديه القوة الكافية كي يتكلم. بدأ يستعيد ما حدث له في المهجع بعد عودته من اجتماع عاصف مع رفاقه في القيادة حيث أحس فجأة بصداع شديد في رأسه وضيق بالتنفس ثم ألم خانق بالصدر مع تعرق في كل أنحاء جسده. آخر ما يتذكره هو هيجان من حوله وصراخ "أبو طه" على الحرس وهو ملقى فوق سريره وعيناه تحدقان دون أن يرى شيئاً. ثم جرى كل شيء بسرعة حرس يأتي على عجل ثم جنود أمريكان يحضرون نقالة لحمله الى عيادة المعسكر. لا يتذكر بعدها الكثير غير جهاز قياس الضغط يربط حول ذراعه وحقن في الوريد وأقراص تحت اللسان وقناع الأوكسجين يربط على وجهه، ثم ذهب في غيبوبة لم يستفق منها الا هنا قبل قليل.**

* **استدعوني من "الكويت" لعدم وجود جراح قلب هنا وعلي ان أعود بعد قليل الى "الكويت". الطائرة الهليكوبتر التي جاءت بي تنتظرني. ستبقى انت هنا يوم أو يومين. الأطباء والممرضون سيعتنون بك واتمنى لك حظاً سعيدا.**

**لا يزال يجد صعوبة بان يجد الكلمات على لسانه رغم ان شضايا صغيرة من الأصوات أصبحت تتطاير في رأسه لكن صورة الطبيب الجراح أصبحت أكثر وضوحاً.**

* **هل انت من أهالي "المسيب"؟، سأله الطبيب.**

**ارتعش جسده وتلتفت عيناه صوب الطبيب الذي كان قبل قليل مستعداً لأن يغادر الكرفان الذي تم تحويله الى غرفة عناية مركزة.**

**- ها؟ ما الذي جعلك تظن ذلك؟ ، جاء صوت "الحكماني" أخيراً واهناً ومرتعشاً.**

**- لأنك كنت تذكر اسم "المسيب كثيراً وانت لا تزال تحت التخدير وتتكلم عن الجسر و"نهر الفرات".هذه أشياء عادية تسمى هذيان مابعد الجراحة.**

**- لابد اني تكلمت عن أشياء أخرى. هل تتذكرها.**

**- لا أتذكر. كنتُ مشغولاً بالانتهاء من اجراءات العملية لكن عائلتي من منطقة "الوند" القريبة من "المسيب" فلذلك لفت انتباهي ما كنت تهذر به.**

**كان يسترد وعيه ببطئ مقاوما الإرتباك الذهني وطعم المرارة الذي في فمه وشعوره بالعطش الشديد. داهمته عتمة مباغتة تراءت له فيها اشباح مدماة ورؤوس مقطوعة منثورة على جانبي الطريق الذي يربط "بغداد" مع الجنوب وتداخلت لحظات رأي فيها غيوم من نار تظلل طريق الموت ذاته من جديد ولكن رغم الثقل الذي يحس به في رأسه اندس سريعا في نفق النسيان الذي ينجح كل مرة في حفر المزيد من الكهوف في ثناياه.**

* **لكن كان هناك المترجم الذي يسجل ما كنت تقوله. قال الطبيب قبل ان يفتح باب الكرفان ويودعه ويمضي.**

**لم يغمض له جفن بعد ذلك بالرغم من التنمل الذي كان لا يزال يسري في جسده والثقل الذي في رأسه. عاوده الاحساس بالشك والخوف ماذا لو كانوا قد اجروا له عملية الهزات الكهربائية لغسيل الدماغ التي سمع عنها من معتقلين. عملية مثل تلك تهدف الى محو الذاكرة وزرع افكار جديدة في الدماغ وبالتالي تؤدي الى سيطرتهم التامة على السجين من خلال تغير في قناعاته او سلوكياته. البعض كانوا متيقنين من ان الأمريكان اجروها على بعض المحتجزين في المخيم اثناء خضوعهم للجراحات رغم انهم لم يحددوا اشخاصا معينين. تحسس رأسه لكن لا يبدو ان هناك شيء والألم الوحيد الذي يشعر به هو في صدره وفي موضع انبوبة السائل المغذي التي الصقت بكفه الأيمن.**

**غلبه النعاس وحين صحى كانت هناك جندية شقراء يعرفها جيدا لأنها من ضمن حراس المعتقل ويقف الى جانبها شاب أسمر.**

**- سأستدعي قائد المعسكر لانه ابلغني انه يريد رؤيتك حالما تستيقظ، قالت الجندية وهو ما ترجمه لـ"الحكماني" زميلها قبل ان تخرج.**

**- لقد اهتموا بك كثيراً لابد انك رجل مهم، قال الشاب الذي خمن "الحكماني" أنه المترجم من لهجته انه مصري.**

**- هل كنت في صالة العمليات اثناء الجراحة؟، سأله "الحكماني".**

**- صحيح. ربما اعتقدوا انك ستحتاج لمترجم خلال العملية، قال المترجم مازحاً.**

**- اذن انت سمعت ما كنت أردده اثناء التخدير؟**

**- لا تشغل بالك بذلك، رد المترجم. تلك هلوسات لن يستطيع اي خبير فك شفراتها.**

**تمنى ان يستطرد المترجم لكنه توقف حين ظهر قائد المعتقل. يعرف "الحكماني" "العقيد جيمس سكايلار جيروند" جيداً فقد كان يحضر بعض جلسات استجوابه بعد نقله الى "بوكا" لكن عادة دون ان يشارك المحققيين في عملهم. المرة الوحيدة التي التقى به على انفراد بحضور مترجم فريق التحقيق الموثوق قال له انه حين ينهي خدمته في الجيش يخطط لكي يكتب كتابا عن الغزو وطلب منه كضابط لضابط ان يعينه في فهم بعض جوانب مواقف القيادة العراقية أثناء الحرب ويجيب عن بعض الأسئلة التي كانت تحيره.**

* **سمعت ان العملية ناجحة، بل ناجحة جداً، وانك ستعود لتنعم بصحة افضل من قبل"، قال "العقيد جيروند" عبر المترجم.**

**أومأ "الحكماني" برأسه ثم تمتم بشيء نقله المترجم الى القائد بانه يشكره على كل شيء.**

**- لا.لا تشكرني. اشكر دكتور زهرة الذي حضر على وجه السرعة من "الكويت" وعمل كل هذا ولولاه لكنت الآن في عداد الموتى، او انك ستموت بعد ايام. لكنه منحك حياة جديدة.**

**ارتعب من فكرة ان يكون هذا الرافضي قد انقذ حياته. هل سمع بأسمه؟ هل قالوا له من هو؟ ربما له قريب من تلك المنطقة التي يعرفه سكانها جيداً ويسمونه أمير الذباحين. عاوده أيضاً احتمال ان كانوا قد زرعوا في جسمه جهازاً ما. رغب ان يتلمس انحاء جسده كي يتأكد ان كل شيء في مكانه، لكن تنملاً لايزال في يديه منعه من ذلك.**

* **أريد ان ازف لك بشرى أخرى، قطع عليه العقيد "جيروند" أفكاره مشيراً الى المترجم ان ينقل له كلامه.**
* **طالما اني لا اجد أي أدلة حقيقية ضدك فأني سأوصي باطلاق سراحك بسبب المرض. اعتقد انهم لن يرفضوا توصيتي وستكون خارج "بوكا" قريبا.**

**حاول "الحكماني" ان يتذكر كم هي المحن التي تمكن من تجاوزها منذ طفولته في تلك البادية القاحلة حتى اليوم بفضل المهارات التي طورها في مواجهة العواصف والذئاب، الا ان العقيد "جيروند" قطع عليه سلسلة افكاره.**

* **في الواقع انت تستحق مدالية من الجيش الأمريكي فلولاك ما وصلنا الى بغداد بتلك السرعة.**

**\*\*\***

**5/1**

**"هذا نصف نصر.النصر يكون ناجزاً أو لا يكون."**

**خرجت عبارات "عدنان" قوية وهو يوشك على اختتام ايجازه للقادة الذين دعاهم السيد للتداول في تقييم الوضع السائد بعد مواجهات الأشهر الماضية ولإتخاذ قرارات بشأن المستقبل. دعاهم الى الحفاظ على نصف النصر هذا مهما كان الثمن وحذرهم ان العمل على انجاز النصف الثاني سيكون أكثر صعوبة ودموية. قال لهم ان المقاومة التي يواجهونها من الطرف الآخر ستستمر وانها ستأتي على شكل موجات كلما انكسرت واحدة تعقبها أخرى.**

**منذ ساعات يجتمع أفراد ممن يحلو لهم تسمية أنفسهم بالنخبة المتصدية في مقر السيد يحاولون ان يرسموا خارطة طريقً لمرحلة ما بعد حمامات الدم الجارية. السيد طلب منهم ان يستمعوا الى التقرير الذي أعده "عدنان" وبعدها مناقشة مقترحات أعدها مستشاره الأول وساعده الأيمن حول سبل ترسيخ السلطة بأيدهم التي لا تزال عصية بسبب مقاومة الطرف الآخر.**

**- هذا صراع فنائي، أما نحن أو هم، قال أحدهم والذي كانت أشهر النكات المتداولة عنه في الشارع انه الفيلسوف المهرج.**

**- نحن لانزال في خطر، لا ينبغي الجلوس في الظل أبداً، قال آخر يلقبه الناس بـ"كيسنجر العراق الجديد.**

**- لقد عادت الينا ولن نفرط بها أبداً، رد ثالث يطلق عليه اتباعه اسم مختار العصر لحمله راية الثأر من مخالفي الأمس ومن خصوم اليوم.**

**اما السيد فقد أوجز خلاصة رأيه وهو يرفع سبابته اليمين: الآن تيقنا لماذا كانوا يرونها دائماً ملكاً عضوضاً ورأها أهل البيت ولاية العدل الإلاهي."**

**أغلب المجتمعين ومساعديهم هم من أفراد المعارضة للنظام البائد ممن عاد بعد الغزو وتبؤوا مناصب رفيعة في الدولة وعملوا على بناء شبكات مكنتهم من تعزيز قبضتهم على مفاصل السلطة وعلى طيف واسع مما أصبح يدعى في لغتهم السياسية بالمكون وهو مجاز يضمر في طياته كل تلك المكنونات المستترة التي فجرت هذا العنف الدموي. عند جميع المتصدين ميل غريزي للإعتقاد ان لديهم وصاية إلهية على البلد متأتية من اعتقاد راسخ انهم المعنيون بالآية القرأنية التي تقول "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين". دائماً ما كانت تلك الآية منقوشة على ألواح تعلق فوق جدران مكاتبهم في دول المنفى قبل ان يعودوا وتصبح حقيقة على أرض الواقع تماماً مثل هذا المبنى الفاحش في فخامته الذي يجتمعون فيه الآن. لا يعبر الإستيلاء على هذا القصر وقصور اخرى عديدة تعود لمسؤولي النظام السابق عن مجرد الشهوة للثروة من محرومي الأمس وانما هي جنوح سافر بتبرير عقائدي وراء السلطة والثروة العامة.**

**الحوار الذي جرى بعد المداخلات حول تقرير "عدنان" بدا مرتبطا بالذاكرة الشقية عن مظلومية الماضي ومخاوف الحاضر أكثر من تعلقه بالمستقبل ومحاولة الخروج من المأزق وصياغة طريقة للوصول الى العيش المشترك مع المكونات الأخرى. في السنوات الثلاث الماضية ضمتهم مثل هذه اللقاءات مدفوعين دائما بالخوف من أن ضربة الحظ التي وضعتهم في السلطة قد لا تأتي مرة ثانية. ما يواجههم هذه المرة مختلف عما جربوه منذ الاحتلال ورجوعهم من المهاجر مما يجعلهم مصرين على الاندفاع وليس الحذر في توجيه الضربات الاستباقية التي يريدونها قاصمة لخصومهم. "عدنان" كان الأكثر سعادة ورضا بعد أن قدم تقريره الذي كان مفعماً بالمعلومات والبيانات والتحليلات الوفيرة جمعها له مساعدوه وشعر انه ترك اثراً ملموساً بعد ان وافق الجميع على رؤيته ومقترحاته التي كان قد ناقشها مع السيد مسبقاً وحصل على مباركته. كل ما عليهم بعد العهد الذي تعاهدوه اليوم هو الانطلاق دون كلل او ملل لإنجاز النصر كاملاً حتى لو انهم لم يستطعوا لحد الآن تعريفه او تعيين حدوده او تكلفته.**

* **أنت ابني الذي لم انجبه، قال له السيد بعد ان اختلوا اثر انتهاء اجتماع أقطاب المكون في شرفة القصر التي تطل على "جسر صدام" والذي يقول السيد دائما انه اختار المكان لأنه يريد ان يذكره يومياً بانه الأرث وليس ذلك المنفى وعسره.**

**اكتفى "عدنان" بان طأطأ رأسه ووضع كفه اليمنى على صدره.**

**- بصراحة، انا غير مطمئن، أضاف وهو يحدق في المدى الممتد فوق "دجلة" بنظرات بدت لمساعده الأمين ملتبسة.**

**- هؤلاء بدؤا يكبرون على حسابنا والآن لديهم جماعاتهم المسلحة ويتواجدون على الأرض. الأدهى انهم فتحوا قنوات مع اصدقائا وحلفائنا واصبحوا أذرعاً قوية لهم.**

**- صدقت سيدنا، انهم أخطر من العدو لأنهم عملياً أصبحوا ينازعونكم على شرعية تمثيل المذهب.**

**نظر السيد الى "عدنان" وهو جالس في أرجحوته يرتشف من كأس شربت الزعفران الذي اعتاد عليه منذ اقامته في "ايران" كمن اهتدى للمرة الألف ان رجله يدرك ما يحدسه وما يريده.**

**- لكن في الحسابات العملية نحن لا نستطيع لا العمل معهم ولا العمل بدونهم، استرسل "عدنان" بينما كان يحاول مثلما تعود في كل مرة ان يجد الكلمات المناسبة التي ينفذ بها الى اعماق الزعيم.**

**- عموما لا تقلق سيدنا، فلدي خطة.**

**- مالذي تفكر به؟ من الأفضل ان يكون لديك خطة جيدة فهؤلاء ما عادوا جراء صغار، أصبحوا مستذئبين، مستعدين لإفتراس من يقف أمامهم.**

**- لا حيلة لنا، ثم أنه ليس أمرا سيئا تماما فسنبقى نحن في نظر الناس تيار الوسط والاعتدال.**

**راقت للسيد الفكرة ولكنه قاوم مقاطعة "عدنان" لأنه يريد ان يعرف المزيد مما يمتلكه في رأسه.**

* **سندعهم يضربون الشجرة بالعصي والحجر وسنأتي في الختام كي نجمع الثمر.**

**وحين ظل السيد صامتا متأملاً أضاف.**

* **ثم ان لدينا عملاً مهما لننجزه.**

**رنت كلمة عمل في أذن السيد ثم ضربت وتراً حساساً بداخله أثار حماسته وتوقع ان "عدنان" ينوي تغيير دفة الحديث الى الموضوع الذي يعلم انه أثير لديه.**

**- أمامنا مهمة كبيرة كنت انتظر الفرصة لكي اتحدث عنها معكم.**

**- شوقتني، هات ما عندك.**

**- لقد حصلنا أخيرا على اجازة لتأسيس بنك......**

**- البنك؟، قاطعه السيد قبل ان يواصل وبصوت لم تخف نبراته غبطته بما سمع.**

**- كدت أنسى حكايته وسط هذه المعمعة.**

**- سيكون هو المحرك الشرعي وحجر الأساس لكل أعمالنا.**

**- شرعي؟ لكن كل ما نقوم به هو شرعي.**

**- اقصد رسمي، مثل عقد الايجار الذي وقعناه لهذا القصر مع الدولة.**

**يبهره "عدنان" بالسهولة والتلقائية التي يحل بها أعقد المشاكل. أعجبه التشبيه الذي استخدمه وظل يهز برأسه مراراً تصديقا على قوله، لكنه قرر انها اللحظة التي طال انتظارها كي يضع النقاط على بعض الحروف بشأن ادارة مصالحه المالية.**

* **لم نعد وحدنا في الميدان، هؤلاء الذي كانوا معنا قبل قليل وأولئك الذين احتضنونا سنين طويلة سيطالبون بنصيبهم ويجب الا نفاجأ بانهم سيريدون ان يكون لهم في البنك حصة.**

**يعلم "عدنان" ان زعيمه كتوم عندما يخص الأمر ولاة النعم الذين احتظنوه وعائلته سنيناً طويلة ولن ينطق باسمهم مهما كان الأمر فتركه يسترسل.**

* **علينا ان نكون حذرين منذ الآن مع من حولنا فهؤلاء طماعين وما عادوا يقبلون بالنزر اليسير.**

**توقف "عدنان" عند حديث السيد عن الطمع وهو يخرج من قصره واتته رغبة بالضحك لولا ان المقام لا يسمح بذلك وهو مع مرافقيه الذين تعودوا على شخصيته المتزنة والمتشددة. صحيح ان لدى من يقصدهم جشع لا حدود له مثل نهمهم للسلطة لكن للسيد ميزة هي هو نفسه الذي يدير له امواله ويستثمرها وينميها. منذ لقاءه الأخير مع "راين" بدأ "عدنان" يفتح عينيه على حقيقية انه مجرد مستشار او مساعد للسيد ووكيل اعماله وانه غير متيقن عما اذا كان سيحظى يوما ما بوضع افضل من ذلك. ربما لم تتح له الفرصة كي يكمل تعليمه كما كان يتمنى بسبب انشغاله بأمور التنظيم الا ان الحياة التي عاشها في الغرببة وانغماسه في هذا العمل منذ عودتهم منحته خبرات لا مثيل لها تؤهله الى وضع أفضل من مجرد ان يكون ظلاً لزعيم. بدأ يفكر ان عليه الا يبقى سمكة صغيرة تعوم في هذا البحر بين كل هذه الحيتان ولكنه يعلم أيضاً ان ذلك سيستدعي عملاً وتحضيرا طويلين. ولكن قبل ذلك عليه ان يقرر أي سكة سيمضي بها؛ السلطة أم المال، فهو ليس كالسيد الذي يتيح له وضعه ان يجمع بين الأثنين.**

**في الاجتماع الذي حضره مع أقرانه من ممثلي الجماعات في الأئتلاف لوضع "خطة التمكين والمشاركة" كما توافق قادتهم على الفكرة فاجئهم "عدنان" بان السيد قرر فك ارتباطه تنظيمهم بذراعه المسلح والذي أصبح منذ الآن فصيلا مستقلاً يعمل الى جانبهمم كما نقل لهم قرار السيد ان تتولى جماعتهم توفير الموارد اللازمة لكل فصيل منهم هو بحاجة للتمويل او السلاح ودون قيد او شرط. دارت الرؤوس فوق الطاولة في القاعة التي يجتمعون فيها لهذا القرار المفاجئ الذي يشير الى ان شيئا ما يحصل لكن دون نية ان يعلقوا عليه، بالأقل في الوقت الحاضر، قبل التشاور مع قيادتهم. البعض رأى فيه مجرد تحقيق أمر واقع لأن فصائلهم التي حققت النصر على النواصب هي التي أصبحت صاحبة اليد الطولى وبالتالي فان السيد لابد وانه يستعد لمرحلة يدرك انه وجماعته في أفول في حين شكك آخرون بما سمعوه واعتبروا الأمر لعبة من تلك التي اعتاد عليها السيد الذي يعلمون جيداً انه يسعي وراء السلة والعنب معا ولا يترك أي منهما لغيره.**

* **نحن نقر انكم تقومون بعمل هائل وانتم الوحيدون القادرون على انجازه. ما ستحتاجون اليه هو غطاء سياسي والسيد وعد بانه سيوفره لكم، قال "عدنان" دون ان يكون متيقناً انه أوصل الرسالة التي اراد ايصالها أم لا.**

**لم يشأ أي منهم التعليق على كلام "عدنان" واكتفوا بالإصغاء وهو يحاول ان يبرر القرار. الجميع يعرفه جيدا وهو في نظرهم بطل اللف والدوران وقول أشياء حين يعني بها أخرى حتى ان لقبه السري بينهم كان المشعوذ. ورغم انهم لا يرون ان لديهم شيئا يخسرونه لو خرج تنظيم السيد من الحلبة، بل بالعكس سيترك لهم المجال واسعا الا انهم بقوا متشككين لأمر لا يعرفون سببه لحد الآن.حين اصبحوا في الخارج بعد انتهاء الاجتماع قال أحدهم لصاحبه وهما يسيران معا نحو سيارتهما.**

**- هذا فرخ الأنكليز لا يكف عن اللعب بالسيد على هواه.**

**- الله اعلم. ربما يلعب أحدهم على الآخر والأثنين يلعبون علينا، رد صاحبه بقهقة عالية.**

**منذ ان أخبر جدته بأمر زواجه الثاني اصبح "عدنان" يقضي أيامه بعيداً عن البيبي و"سلمى" مقسماً أغلب وقته بين هذه الزوجة وانشغالاته التي تزداد كل يوم وسفرياته الى الخارج التي أصبحت كثيرة مع نمو الثروة التي يديرها في بلدان عدة. زوجته الأولى اشتكت للبيبي بانه ربما متزوج بأكثر من واحدة لكنها لم تعد مهتمه كثيراً بذلك لأنها مشغولة جداً بإدارة المتاجر والعقارات التي اشتراها "عدنان" في "لندن" وسجلها باسمها واسم أولادهما. لا تحتاج الجدة ان تسأل فهي تعلم بما يقوم به حفيدها حتى ولو بدون وقائع ملموسة أمامها أو تفاصيل كثيرة اذ يكفيها حدسها لمعرفة ذلك. معارفها وجيرانها الأقربون يعرفون ان لا دخل للبيبي ولا علم لها بكل ما يقال ويدافعون عن تلك العائلة التي سكنت الى جوارهم منذ سنين طويلة كلما سمعوا في الشارع من يطلق عليهم بيت الحواسم أو الطكوك.\* تزعجها بطبيعة الحال التلميحات التي ترد على الألسن عن حفيدها وتشعر بالمرارة كلما طرق سمعها ذلك او رأته في نظرات من تلتقي بهم.**

**حين زارهم الليلة كانت البيبي تلبي نداءً من "سلمى" كي تشاهد معها تقريراً تبثه احدى القنوات التلفزيونية يتحدث عن جماعته وعن السيد بالذات وتضخم ثرواته من العقارات والأراضي والشركات والأعمال التجارية وذكروا فيه اسماء بلدان ومصارف أجنبية وكذلك مناطق وشوارع قريبة من حيهم الصغير ومعظمها قصص سمعتها من الجيران اما تصريحا او تلميحا. حين شاهد "عدنان" وجوم جدته وهي تنطلع وتستمع الى التلفزيون توجه هو أيضاً نحو الشاشة حيث كان المذيع يقفل تقريره بالقول بان من يتولى ادارة وتنمية هذه الثروة هو أحد مساعدي السيد البارزين والذي يحمل جنسية بريطانية دون ان يسميه.**

**- يا لها من صدفة عجيبة. لا تحدث الا في المسلسلات والأفلام. خبر وصورة في آن واحد.كم نحن محظوظين ، قالت "سلمى" وهي تترك الصالة وسط أنظار "عدنان" التي كانت تجمع بطريقة فريدة بين اللامبالاة والتوتر.**

**\*الحواسم او الطكوك تعبيران ظهرا بعد الغزو يشيران الى المشاركين في سرقة ونهب الأموال العامة من دوائر حكومية ومصانع وبنوك...الخ**

**- لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، قال وهو يقتبس من القرأن قبل ان يأخذ مكانا على القنفة المقابلة حيث تجلس جدته.\***

**خرجت ابتسامة خفيفة على شفتي البيبي التي ردت عليه:**

**- عسى ان الا تكون أنت أيضاً قد فقدت عقدك وتهت عن القافلة. \*\***

**بدت الجدة أقل اكتراثا من أن تعبر عن خيبة الأمل التي تشعر بها نحو حفيدها منذ فترة وودت لو انتهى الأمر هنا بهزة رأس كما اخذت تفعل مع ما تسمع منه مؤخراً كي لا تتسع الفجوة بينهما. لكن مظاهر التقوى التي يتبجح بها تستفزها وتذكرها بما تسمعه من الناس تصريحا او تلميحا عن دور حفيدها وتنظيمه في ما حل في البلد من فساد وخراب وشعورها بالحرج والخجل من ذلك. قررت انه الوقت المناسب لا لكي تغير من مسلك "عدنان" ولكن كي تبرئ ذمتها أمام الله انها سعت بكل ما تستطيع ان توقف حفيدها عن الحرام.**

**- أعلم بما تريدين قوله ولكني اقسم بالأئمة الأطهار بان ليس لدي اي منصب او وظيفة في الدولة ولا أقبض فلساً واحداً منها كراتب او أجور، قال لها دون ان يدري انه بذلك أجج من شكوكها بدلاً من أن يطفيها.**

**- ومع ذلك فانت تعيش وسط كل هذا البذخ.**

**- انا مجرد مجاهد متطوع أمشي على خطى آل البيت وملتزم بفتاوي المرجعية في الحلال والحرام.**

**- لا يا أبني هذا ليس طريق آل البيت. هذا طريق أهل القصور وشتان ما بين الأثنين.**

**لم تشأ ان تروى له ما تسمعه من قصص تشعرها بالخجل او ان تطلب منه تفسير لكل ما تراه عليه من مظاهر الجاه والسلطة تتعاظم كل يوم ولا عن ما تسمعه عن زوجته الأولى التي اصبحت تدير أموالاً في "لندن" لا مصدر معروف لها. لكنها كانت تريد ان تفرج عما يعتمل في صدرها وتقول له ان ما يقوم به يسئ الى ذكرى والده وسمعة عائلته التي أصبحت تلوكها ألسنة الناس.**

**\* من سورة النور المتعلقة بحادثة الإفك المشهورة في التاريخ الاسلامي.**

**\*\*من حيثيات حكاية الإفك.**

* **اتدري اني ارسلت والدك وهو لم يزل صغيراً كي يتعلم مهنة عند خياط قريب لنا. كنت أريده ان يعمل في الأعمال الحرة ويجني ماله بيديه وبعرق جبينه. كنت اتمناه كاسباً لا موظفاً يعيش على مال مشكول.**

**رأت في عينيه استفسارا عما جرى بعد ذلك فراحت تروي له كيف انها تركت أباه بالنهاية يشق طريقه بنفسه في الدراسة وانها فرحت حين قبل بكلية الطب لأنها شعرت حينذاك بانه سيكون بالنهاية الكاسب الذي تمنته وفي مهنة شريفة يهتم برعاية الناس وصحتهم.**

* **حين أبعث في الحياة الأخرى سأكون مطمئنة ان حياة ولدي وزوجته لم تذهب هباء لأنهما بقيا حتى النهاية يحاولان انقاذ حياة الآخرين.**
* **كوني مطمئنة بأني سائر على دربهما، أسعى لإنقاذ حياة الناس. لقد انقذناهم من صدام.**
* **أنقذ روحك يا ولدي اولاً، نورها فهي تغرق في الظلام.**

**لا يبدو ان النتيجة ستكون سليمة لو أخبرها بما جاء من أجله الليلة وهو ان السيد قرر ان يحتفي بذكرى المغيبين في الإنتفاظة يوم 15 اذار وهو يدعوها لتكريمها كممثلة عن كل الأمهات اللواتي فقدن أولادهن ولم يعثروا على أثر لهم بعد. كان يأمل ان يضيف هذا الاحتفاء بوالده الى رصيده عند جماعته الا أن البيبي ردت دعوة السيد حتى قبل ان تتلقاها كما أفسدت عليه حساباته. راوده احساس قوي بالنبذ من أقرب الناس اليه وأصبح يرى الآن بوضوح ان حجاباً نهائياً لا يمكن اختراقه قد أسدل بينه وبين البيبي، وقبل ذلك بينه وبين أخته "سلمى". عاوده أيضاً ذلك التفكير الذي ينتابه منذ فترة بانه وسط جماعته ليس الا سمكة صغيرة تتصارع حولها الحيتان. داهمه شعور بان الدائرة بدأت تقفل عليه ورأى ان ساعة اتخاذ القرار الذي يرواده منذ زمن قد اقترب. استعاد رحلة خروجه من "كربلاء" اثناء الانتفاضة التي لم يكن له فيها لا ناقة ولا جمل سوى انه وجد نفسه صدفة وسط الحشود التي كانت تبحث عن مهرب لها في الصحراء من قصف مدافع ودبابات الحرس الجمهوري. في مخيمات اللجوء وبعدها في المنفى وهو يبحث عن موطئ قدم له في الدنيا فهم معنى المثل الذي تعلمه وهو تلميذ في درس الانشاء "رب ضارة نافعة" والذي ادرك بعد ذلك في مشوار حياته ان له نسخة تلائم مسيرته الشائكة تقول ان التحديات تخلق الفرص.**

**\*\*\***

**5/2**

**صحت "سالي" من رقدتها على وقع ضربات خفيفة على مسند مقعدها من المضيفة تطلب منها ربط الحزام استعداداً للهبوط. رأسها ثقيل يكاد يغور في بئر عميق ويراودها شعور بالدوران والغثيان. نفس الأعراض التي ترافق صحوتها يوميا والتي اعتادت على التغلب عليها سريعاً بفتح وأغلاق فمها عدة مرات. كان هناك أيضاً شعور بالبرد وشد عضلي في كتفيها كان بالتأكيد بسبب تكورها في مقعدها وسقوط الوسادة التي اتكأت برأسها عليها بعد ان وضعتها في الزاوية التي بين مقعدها جنب الشباك وبدن الطائرة. اعتدلت في جلستها ورفعت البطانية التي زودوها بها اثناء الرحلة عن رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد من خلال نافذة الطائرة التي كانت قد بدأت تبطئ سرعتها وتنخفض تتدريجياً نحو الأرض. قلصت عينيها بضيق عندما واجهها ضوء النهار ولكن شيئاً فشيئاً اتسعت حدقتاها لكي تستقبل النور الوهاج الذي يغطي قبة السماء الممتدة أمامها. كانت الشمس تسطع بشكل ساحر أثار في جسدها شعوراً بالدفئ وفي قلبها احساساً بالطمأنينة والراحة. طيار شركة "دلتا" أعلن أن درجة الحرارة ستكون 64 فهرينهايت عند هبوطهم في مطار "رولاند ريغين الدولي" وان الجو سيكون صحواً والرياح منخفظة المستوى. حين تركت مدينتها "بلينغهام بي" على الساحل الشمالي للمحيط الهادئ ليلة أمس كانت درجة الحرارة 30 فهرينهايت والمطر ينهمر بشدة بينما كانت رياح البحر تضرب بقوة على ساحل الخليج والجبال المحيطة به. تمنت ان تستمتع ببضعة أيام من الطقس الربيعي المبكر قبل عودتها الى عملها الممل في الشركة السياحة في جزر "سان خوان" القريبة من مدينتها. مع اقتراب الطائرة من سطح الأرض كانت أشعة الشمس الفضية تسقط على مياه نهر "بوتوموك" وعلى أوراق الأشجار الكثيفة التي تتنتشر على ضفتية فترتد راقصة ومتوهجة نحو السماء. مع انحدار الطائرة أكثر نحو المدرج اصبحت الكثير من أبنية واشنطن مرئية لها بشكل واضح ولاح لها من بعيد مبنى شامخ تعرفه جيدا انه "الكابتل هل":**

**"هنا تقيم زمر الحمير والأفيال التي تشكل مجلس ادارة أمريكا، ممثلو المصالح الذين يشرعون للنفوذ والقوة التي تمتلكها النخبة المالية الجشعة التي تهيمن على كل مناحي حياتنا، طعامنا، بنزيننا، صحتنا، سكننا، تعليمنا، وظائفنا، انها العصابة الأشد خطراً على الإنسانية."**

**رن تلفونها المحمول الذي كانت قد أعادت تشغيله حال خروجها من الطائرة وهي لاتزال سائرة فوق جسر الإركاب الموصل الى مبنى المطار. حتى دون ان تنظر الى الصورة التي ظهرت على الشاشة واسم المتصل الذي يرافقها كانت تتوقع انها أمها وهي تكلمها كي تطمئن عليها مثلما تطمئن على سعادة كلبها وراحته.**

* **هاي مامي. كل شيء على ما يرام. هذا العالم السافل لم ينهار بعد. اطمـئني.**

**أخذت نفساً عميقاً وهي تنظر الى لوحات الإعلانات التجارية البراقة التي اكتظت بها جدران الممر المؤدي الى صالة الوصول. لم تكن معنية بالبضائع التي تعلن عنها أو الرجال الوسيمين والنساء الممشوقات الذين يملؤونها ولكنها كانت منبهرة بالايقاع غير المنتظم للالوان التي أخلت لها مساحاتها من أبيض وأصفر وأحمر وغيرها في مشهد اعادها الى محاولات هروبها الدائمة من عالم الخاكي الذي عاشت فيه ثلاث سنوات.**

* **قلت لك كوني مطمئنة أشعر كاني "نيكول كيدمان" في "فلم الساحرة".**

**تشعر بضيق من الحاح أمها، ترفع رأسها بحركة غريزية كي تتنفس بشكل أفضل. تسحب حقيبتها الصغيرة التي رافقتها على الطائرة وتمضي بإتجاه السهم الذي يشير الى قاعة الوصول متشبثة بالثقة المطلقة والحضور الذي تشعر به منذ ان غادرت "سياتل".**

* **حسنا سأكلمك بعد انتهاء مراسم الدفن.**

**"امي ليست قلقلة لان فتاتها حطت للتو في مدينة غريبة ولكن لتطمئن على تناولي دوائي. تتجنب دائما الحديث عن حالتي حتى أنها تسمي قرص "بروزاك" الذي تتأكد كل ليلة ان كنت تناولته بدواء "الدكتور لويس" وليس بمضاد الإكتئاب كما هو مسجل بحروف كبيرة على غلاف العلبة. تذكرني دائما أنه مجرد مهدىء للأعصاب وربما يساعد على النوم لا أكثر. طلبت مني ان اعتذر عن السفر ثم اقترحت أن ترافقني لكنها حين استشارت "الدكتور لويس" أخبرها بأنه لا يرى ما يمنع من قيامي بهذه الرحلة لوحدي. قال لنا ربما ستكون فرصة مفيدة أيضاً لأن الإتصال مع نفس المجموعة التي كانت معي في الحرب سيعزز مما سماه بالعواطف الإيجابية. اقتنعت أمي أكثر حين وصف اللقاء المنتظر بأنه أفضل من الجلسات الجماعية للعلاج النفسي بالفضفضة التي ارتادها وأضاف مازحاً انه مثل الذهاب الى شاطئ العراة حيث لا تتحرر الأجساد من ثيابها فقطـ بل والأراوح أيضاً من أثقالها."**

**في صالة المطار بحثت عن بار "براكيت روم" الذي قال لها "آيرا" في الإيميل الذي أرسله اليها انهم سيلتقون جميعا عنده ريثما يأتي هو كي يصطحبهم جميعاً الى "المقبرة الوطنية في ايرلنغتون" حيث ستجري مراسم عزاء ودفن "راين" عند منتصف النهار. لا يزال أمامها متسع من الوقت وستجلس في البار تحتسي كوبا مضاعفا من الاسبيرسو وتواصل قراءة الرواية التي اشترتها من صالة المغادرة في مطار "سياتل" وهي بانتظار الصعود الى الطائرة. الكرسي المرتفع غير مريح والشاشة الكبيرة المنصوبة فوق البار امامها تنقل مباريات بيسبول من المؤكد انها مسجلة يلعب فيها فريقا "نبراسكا" و"كونكتيكت". هي لا تحب البيسبول، تراها لعبة غبية، ليس فيها الكثير من العقل او المهارة، هم يفخرون بها كرمز للروح الأمريكية وهي تراها رمزاً للغطرسة والغرور.**

**الرواية التي اشترتها من مطار "سياتل" عنوانها مغرٍ، "أمريكا". عندما تصفحتها سريعاً وقرأت أن مؤلفتها عربية زادت رغبتها في قرائتها واثارت فيها الفضول ما الذي يمكن ان تكتبه عربية عن "أمريكا". انهما عالمان منفصلان، أحدهما تركته وراءها منذ فترة قليلة لكنه يأبي أن يتركها وعالم تعيش فيه مثل شجرة بلا جذور تشدها اليه. الفصول التي انتهت منها تركتها تتعاطف مع بطلتها "مرتا حداد" تلك المرأة الشابة الجميلة والفقيرة التي جاءت من "لبنان" بحثا عن زوجها المهاجر الى "أمريكا". عالم من الحروب والأوبئة والأزمات الاقتصادية والمغامرات التي واجهتها "مرتا" أشبه بتلك التي ترويها أمها عن الفظاعات التي واجهت أسرتها التي هاجرت من "هنغاريا" الى "أمريكا" قبل الحرب العالمية الثانية فضاعت في متاهاتها الملتوية. أمها أيضاً عاشت ويلات حرب أخرى حين ولدت لجندي قتل في "فيتنام" وتركها تتقلب في دنياها بلا يقين، تنسلخ من حياة وتشرع بأخرى. اما هي، الجيل الثالث، فقد خاضت حرب "أمريكا" الأخيرة وها هي تقطع كل تلك المسافة كي تجدد مشاعرها بالخسارة واللاجدوى والخوف. لا تعرف بعد ما الذي سيحل بأحفاد "مرتا حداد"، ربما قابلت واحداً منهم في "العراق" من بين أولتك الذين غيروا أسمائهم وأصبحوا "توني" بدل "محمد" بعد أن اصبح الأسم القديم في ظروفهم الجديدة منعدم القيمة، او ربما تهمة، في عالم يفتقد للتسامح، او حتى أن يصبح أحياناً رخصة لممارسة قوانين الغاب.**

**"زميلها في حرب العراق "راين" قتل مع سبعة جنود آخرين عندما انفجرت بهم عبوة زرعت على الطريق في "قندهار" أثناء مرور دورية استطلاع كانوا يقومون بها عند اطراف المدينة قبل أسابيع. من يعرف على وجه التحديد متى وكيف وأين، هم يكذبون دائماً عندما يتعلق الأمر بالمعلومات، وانا اعرف ذلك جيداً من تجربتي في "العراق". الشهر الماضي كان الأكثر دموية منذ سنوات في "أفغانستان"، مثلما أخبرني "راين" في أخر أيميل بعثه قبل موته. حدثني عن نجاته بمعجزة قبل يوم حين غيروا الخطة في آخر لحظة وقرروا ارسال جنود من أصحاب البيريات الخضر سقطت بهم طائرة الهيلكوبتر ومات فيها أربعة عشر جندياً دفعة واحدة. حتى قبل أن يحصل على لقب منقذي من "جيف" الذي هاجمني وحاول أن يغتصبني وانا اشعر نحوه بنوع من الألفة وكأنه كلف من بين مهماته الأخرى ان يكون ملاكي الحارس. منذ أن رأيته أول مرة شعرت بانه من فصيلة لم أألفها من الشباب، جاد لكنه يحتفظ بروح المرح، رجولي لكنه رقيق، جسور غير أنه يكره الإستعراض والافراط. كانت قوانين الحرب وقواعد الاشتباك، كما صرخ بوجه رفاق الفصيل المستذئبين ذات مرة، تعني له الالتزام والانضباط وهي بوصلته التي ترشده في خطواته."**

**"هذا ليس مكانك"، قلت له ذات مرة." أية ريح هي التي قذفت بك هنا؟" سألته. رد بأنه التحق بالجيش لأنه كان يريد ان يدبر الأموال الكافية أولاً كي يلتحق بكلية الفنون بـ"جامعة نيويورك" كي يدرس كتابة السيناريو والاخراج السينمائي وثانياً كي يتزوج من حبيبته "جوزي". هل يريد أن يذهب الى "هوليوود" هل يطمع ان يكون "مارتن سكورسيزي" آخر مزحت معه، لكنه لم يتهور بجواب سوى قوله بان الدراسة الاكاديمية للسينما ضرورية وليس كما يعتقد البعض أنها مجرد حرفة. سألني بدوره "لماذا انا هنا" ولم يكن لدي جواب فبادرت: "جئت لكي أكتب لك الرواية التي ستخرجها. "قال "تبدين لي هاربة من شيء ما. "منذ اللحظة التي عرفته جيداً أدركت ان "راين" كان قد حل اللغز الذي جعلها متورطة في تلك الحرب الملعونة هاربة من شيء لم تعرفه أبداً لكنه حدسه بنفسه حين سماه البحث عن معنى، وطبعا كان يعني معنى لحياتي."**

**" كان أول الواصلين بعدي "سام". بدا أقصر قليلاً مما اعتدت أن اراه أيام الحرب. تعانقنا ببرود وتبادلانا الأسئلة المتوقعة عن أحوالنا. لم يكن بيننا أي اتصال منذ أن تركنا الخدمة في الجيش قبلها بفترة. وجهه لايزال شاحباً وغامضاً، وعيناه نافذتين، الا أن أنفه لم يعد متميزاً مثلما كنت اتذكره كما أن عظام وجنتيه بدتا ثابتتين. هل أجرى عملية تجميل لوجهه أردت ان أسأله غير اني خشيت ان يفسر سؤالي انثروبولجيا، او حتى معاديا للسامية فافترضت ان زيادة في وزنه ربما هي السبب. يرتدي بدلة غامقة للمناسبة. أخبرني "آيرا" ان "سام" يدير الآن شركة علاقة عامة في "نيويورك"، لكنه ألمح أيضاً ان الشركة غطاء لنشاطات أخرى منها التجارة في الآثار العراقية. تذكرت الأخبار عن التحقيقيات مع شركة "هوبي لوبي" المملوكة للكنيسة الأنجلية والتي نقلت آلافا من القطع الأثرية التي تعود للحضارات العراقية القديمة من "إسرائيل" و"الإمارات العربية المتحدة" و"الأردن" الى "الولايات المتحدة". "كيف يستطيعون نقل كل تلك القطع عبر المطارات في حين أنهم في "سياتل" أجبروني أمس على خلع أحذيتي ومعطفي ووضعوها مع باقي متعلقاتي عبر جهاز فحص الأمتعة. انا نفسي خضعت للفحص عبر جهاز الأشعة التي انا متأكدة من أنه صور كل تفاصيل جسدي كما لو أني دخلت الى البانيو. اشعر بالمرارة حين يذكرني شيء كهذا انني قاتلت في حرب لم تكن من أجل الحرية او من أجل البشر، بل من أجل تدمير بلد ونهبه."**

* **لم أتوقع حضورك كنت أعتقد أنك رجل أعمال مشغول بشركتك.**

**اكتفى "سام" بابتسامة باهتة.**

**- أعني كنت اظن أنك الرجل الذي حكم عليه في "نيوجرسي" بالسجن في قضية نقل وبيع أسلحة "صدام" الشخصية.**

**- كنت دائما تسيئين التقدير، يا رفيقة، قال "سام" محتفظا بابتسامة قوية كتلك التي يرسمها المدراء تعبيراً عن الثقة بالنفس.**

**سمع منذ ان افترقوا ان "سالي" تعاني من حالة متقدمة من مرض نفسي لا يتذكر على وجه الدقة ان كان ذهاناً اكتئابيا، او اضطراب ثنائي القطبية، او انفصام الشخصية. اختار ان يكون ودوداً وايجابيا، وفقاً لرأي سمعه من طبيب نفسي في فلم ما رغم انه لا يعرف معنى أن يكون ايجابيا على وجه التحديد. رفيقة هي الكلمة التي غالبا ما كان "سام" يحاول ان يغيض بها "سالي" كلما سمعها تهدر بتعليق او اعتراض على بعض ما كان يجري أثناء الحرب، مازجاً بين المزاح وبين الاتهام اللئيم بيساريتها وهي لم تكن تعترض على ذلك على أي حال.**

**"أتذكر أن أول مرة اطلق علي كلمة رفيقة اثناء نقاش دار بين بعض أفراد الفصيل حين كانوا يشاهدون على شاشة "سي ان ان" محاكمة صدام. شبهت المحاكمة بوقائع محاكمة الضابط الألماني "ادولف ايخمان" في إسرائيل والتي استهجنتها "حنة أرندت" بانها قضية ركزت على شخص المجرم لكنها خلت من فضح مكامن الشر في الجرائم التي ارتكبها ذلك الوحش النازي. حين سخر "سام" من رأي "ارندت" بانها هلوسات أخلاقية رددت عليه بان "حنة" يهودية كانت تعلم عماذا تتحدث فقاطعني على الفور:"أعرف جيداً من تكون أنها من اولئك اليساريين السذج الكارهين لأنفسهم. "الآن لم يعد لدي أدنى شك ان الحرب التي هربت اليها كما خمن "راين" بشكل صحيح تتشابه مع كل الحروب الأخرى في قصصها ومآسيها الفادحة وأبطالها وان حروباً أخرى ستأتي وتستمر في تغيير مصائر البشر ما لم يتم ليس فقط محاكمة الشر الكامن ذاته الذي يؤجج تلك الحروب وانما كنسه من الوجود."**

**كان التالي الذي وصل هو "إيشو" الذي جاء من "ديترويت" حيث يعيش مع عائلته التي اجتمع شملها هناك بعد أن منح هو حق الهجرة وفق البرنامج الخاص للمتعاونين مع الجيش الامريكي. بعد فترة قصيرة من نقل الفصيل الى "الأنبار" غادر "إيشو" ليلتحق بالعمل في أحد مكاتب السفارة الامريكية في "بغداد". سمعت عنه الكثير مما يكفي لأن يكون بطلاً أخراً مشوقا في الرواية التي وعدت "راين" باني سأكتبها وخاصة بعد أن بدأ يروي لها ولـ"سام" حكاية حلمه الأمريكي الذي تحقق سريعا. تحدث عن "مطعم علي بابا" للوجبات العراقية الذي أصبح واحداً من أشهر 10 مطاعم تقدم الأكل الشرقي في "ولاية ميشغان" كلها. ذكرهم بأطباق "الكباب" و"الكبة" و"البرياني" التي كان يتبرع بعملها لهم في معسكر "بغداد"، بل وحتى "السمك المسكوف" الذي ابتدع الآن طرقاً جديدة لطهيه، قال انها تلائم الأجواء والأذواق السائدة في "أمريكا".**

**- سأصبح مواطناً أمريكياً عما قريب. لقد أبلغوني رسميا، تبجح "إيشو" بلهحة أهالي "ميشغان" التي بدا لي فيها وكأنه من أولئك الكنديين الذي يأتون الى جزر "سان خوان" لقضاء عطلتهم.**

**- مرحبا بك في أرض اللبن والعسل، قالت "سالي".**

**- لو كنتَ بَقيتَ هناك في أرض الهشيم تلك لكانوا أغتصبوك الآن ربما مئات المرات.**

**- ربما لن تصدقي ذلك اتصلوا بي واقترحوا ان أعود الى هناك للعمل كمتعاقد مع الجيش ولكني ترددت.**

**- لا تكن سخيفاً، بإمكانك ان تجني الكثير من الأموال لو ذهبت، ان لك حصة في دولارات البترول تلك.**

**"ها هي شخصية أخرى تصدح أصواتها في عقلي. كم وددت فعلاً ان اشرع بكتابة تلك الرواية وابوح على الورق بكل مكنوناتي وارخي اللجام لخيالاتي الجامحة. هذا بطل مثله مثل مئات الآلاف من مهجري ذلك البلد اللعين الذي خلفناه ورائنا فوق الأنقاض يعيشون في "ديترويت" ونواحيها يعيدون سرد حكاية الهجرة والإغتراب والحروب رغم تبدل الأبطال والأماكن والأزمان. المشكلة الوحيدة ان "راين" لم يعش كي يحولها فلماً، ربما كان قد نجح بشكل أفضل من فلم "روبرت فورد" "أسود لحملان" الذي رأته حبيسا لسرديات مختبرات "هوليوود" الخيالية التي ترسم لوحة باهتة عن الحرب التي مات فيها "راين".**

**بعد "إيشو" حل "جون وايننا"، بطلنا الأسطوري \* الذي قادنا في حملات "الصدمة والغضب" في شوارع وأحياء ومزراع ذلك البلد التعيس الذي ذهبنا لتحريره من هنودهم الحمر. الرقيب "ريكاردو" كان له الشرف بان يكون أول من تم تشخيصه بانه يعاني من أعراض نفسية جاءت نتيجة اصابته بتلف في أنسجة المخ بعد تعرضه لأحد الانفجارات في السنة الثالثة لنا في الحرب. لم يكن الجرح ظاهراً لأنه كان يلبس سترة واقية وخوذة ولكن التلف حصل بسبب قوة الانفجار. بعدها سقط في هوة عميقة لكنها أعطت لأطباء الجيش الفرصة لتفسير الوحش الذي فيه بانه ناتج عن أعراض القلق والخوف واضطرابات عصبية ناتجة عن التمزق الذي تعرض له في أنسجة المخ. جاء مصحوباً بزوجته "ديبي" التي كانت كما تخيلتها دائماً من سكان الهاواي الأصلين الذين سكنوا تلك الجزر البعيدة قروناً طويلة قبل احتلالها**

**\*جون واين ممثل أمريكي برز في الأربعينيات واشتهر بافلام الكاوبوي وكبطل يفرط بقتل الهنود الحمر.**

**والحقاها بالحلم الامريكي. القلق والتململ اللذان يبديان عليهما ربما يشيران الى عدوى أصابتها من "أعراض كرب ما بعد الصدمة" التقطتها هي من "ريكاردو" وهي تحاول التأقلم معه. تلك مسألة أصبحت شائعة في "أمريكا" بعد كل حرب تخوضها حتى أني اصبحت أشك ان امتنا جميعها مصابة بهذا الوباء الوطني."**

**- ها نحن أبطال فصيل الموت الحاصلون على "مدالية الانجاز في الخدمة المشتركة" نلتقي في وداع أحد رفاقنا، قلت مرحبة بقائد فصيلنا.**

**- كيف مات هذا النغل، اعتقدت دائما ان لديه حصانة وانه سيدفنا جميعاً"، علق "ريكاردو" بشيء من الدهشة الحقيقية.**

**- كنت أشك انه وجد أو ربما سرق تعويذة "بوني" التي فقدت قبل مقتله، اضاف بنفس الحماس المتقد الذي كان يشكل وقود اندفاعه الأهوج أيام الحرب.**

**جالت الأنظار بعد ذلك بين الأبطال بصمت وبدون أي شعور بالذنب أو الدهشة. ولماذا يشعرون بالذنب هل كانوا يشعرون به حين كان "ريكاردو" يقودهم في جولات القتل والدمار وحفلات العربدة التي تليها. كانت قد اتخذت قرارها منذ أن جلست قبل ليلة أمس كي تضع اللمسات الأخيرة على خطة رحلتها هذه أن تعتبر مشاهدتها لـ"ريكاردو" اليوم جزءا من الوقت المستقطع من تلك الحرب التي ستظل ملتصقة كالغراء في تلك الأجزاء المعطوبة من أجسادهم وأرواحهم. حين كان "ريكاردو" يهيج بكل الكبت والعنف الذي في داخله ويسحب الفصيل كالقطيع وراءه لم يكن أحداً يراه منحرفاً لأن الجميع كانوا شركاء في ذلك الخلل الجذري، او روح الفريق، ويتنظرون من يأخذ بأيديهم كي يفجره قنابلاً ورصاصاً في صدور العراقيين ورؤوسهم.**

**" أعلم ان "جيف" لن يأتي فهو يقبع الآن في "سجن الولاية في هاي ديزرت" يقضي عقوبة السجن مدى الحياة بعد أن قام بسحق مجموعة من المارة في الشارع بسيارته المسرعة ظنا منه انهم مسلمون. جرح ثمانية في الحادث الذي لم أسمع به الا بعد ن نبهني اليه "إيرا" في رسالة نصية بعثها لها كتب فيها "تابعي الأخبار. الوحش وقع أخيراً. كانت صورته تملأ شاشات التلفزيون وهو مقبوض عليه مكبل بالأصفاد في حين تتوارد الأخبار بأنه كان يقود سيارة "تيوتا كورالا" بسرعة جنونية حين اصطدم بعابيري سبيل أثناء مرورهم فوق ممر خاص للمتسوقين في مدينة "سانيفيل. من بين الجرحى ثلاثة أطفال قال أحد المذيعين "انها كانت معجزة أن أحداً منهم لم يمت". مذيع آخر قال ان الجاني "جيف باترسون" من الجنود الذين حاربوا في “العراق” وأنه كان يعاني من اضطرابات نفسية تفاقمت بعد فصله من عمله في شركة تتعاقد مع الجيش قبل الحادث بيومين. وقالت مذيعة ثالثة ان الشرطة تعتقد ان الحادث متعمد وانها تبحث في ما اذا كان "جيف" له علاقة بمنظمات ارهابية. شيء مضحك هذا الهذر الذي تفوهت به المذيعة اذ ان كل متابع جيد للحرب يدرك ان الإرهاب هو من صنيعة "جيف" وأمثاله ومن نتاج تلك الحرب التي خاضها، وليس العكس. في نشرات المساء كانت التفاصيل والحيثيات تتوالى، كيف لا والأمر أصبح يتعلق بالإرهاب تلك السمفونية التي يرقص على أنغامها خليط غير متجانس من الخبراء والدبلوماسيين والجنرالات السابقين لا بد ان أحداً ما أهلهم كي يكونوا حراس الأمن والسلم العالمين وحماة الحضارة البشرية. أحد الجيران يخبر قناة تلفزونية يبدو ان مراسلتها كانت تحفر عميقا في تاريخ "جيف" انه منذ عودته من الحرب كان يقضي معظم الأوقات بالسكر والعربدة ويحول الشارع الذي يسكنونه الى "فلوجة" أخرى. هل تقصد تلك المدينة العراقية، سألته المذيعة؟ "نعم تلك المدينة في العراق التي كان "جيف" يفخر دائما أمامهم انه وأصحابه من الجنود قلبوا عاليها واطيها"، أجاب الجار. أحد المعلقين الذين جاءت بهم المراسلة كان طبيباً نفسياً قال: "ليس لدى العديد من هؤلاء الجنود العائدين من دائرة العنف القدرة على التكيف مع حياتهم الجديدة. انهم يرثون من أيام الحرب أشباحاً وكوابيس تحولهم الى أشخاص غير طبيعيين وتجعل عودتهم الى العالم الطبيعي مستحيلا."**

**"أخيراً يطل "آيرا" عضو الفصيل الأكثر معقولية والأقدر على ادارة اللعبة. كان مولعاً في الحديث عن القتال بروح الفريق. "نحن رفاق وعلينا ان نقاتل بروح الواجب والوفاء والعمل الجماعي. "كان "آيرا" يردد دائماً تلك الكلمات التي ربما تعلمها من وظيفته السابقة في مصنع سيارات تابع لشركة "فورد" في "سانت لويس" قبل ان يتم اغلاقه بسبب الكساد. كانت له أيضاً طريقة غريبة في الكلام. يشدد على آخر الكلمات مما يجعل كل واحد منا مشدوداً اليه بإنتظار الجملة التالية. غالباً ما كان يقنع الجميع لأنه كان يستخدم في كلامه أسلوبا مرحلياً أشبه بالسير المستخدم في خط التجميع في مصنع السيارات. وبالإمكان القول ان هذه الصفة جعلته أيضاً همزة وصل بين الجميع، خاصة اذا ما دب شجار داخل الفصيل، وكثيراً ما كان يحصل ذلك. قال لي ذات مرة إنه "لا يدري لماذا التحق بالجيش ولكنه أصبح يدري مالذي يريد أن يفعله بعد ذاك."**

**"ينحدر "آيرا" أيضاَ من سلالة رمتها أمواج الحروب على الشواطئ الأمريكية. جده كان بحاراً فلبينياً لجأ الى "أمريكا" بعد ان تقطعت بسفينته السبل للعودة الى تلك الجزر المتناثرة في "المحيط الهندي" اثناء الحرب العالمية الأولى. ظل الجد سنيناً طويلة وهو في "أمريكا" كما أخبره أبوه يحلم بالعودة الى "الفلبين" كي يحقق سعادته التي كان يوجزها بأمرأة طيبة ومرزعة أشجار مطاط مثمرة لكنه لم يتمكن من جمع المال اللازم فاستغنى عن الفكرة وبقي في "أمريكا". طالما رأيته يجسد التلاقح بين الشرق والغرب وكل التناقضات التي تفرق بينهما. هويته سائلة يمكنها أن تاخذ أي قالب يشاء، لكن طبعاً أسمه يعكس ميله الأغلب للطابع الأمريكي. يعمل الآن في الشركة التي تدير أكبر جيش للمرتزقة في العالم، شركة "اكاديمي"، والتي كانت يوم كنا هناك في "العراق" تسمى "بلاك وتر" وقبل ان تعم أخبار المذبحة التي ارتكبوها في "ساحة النسور" وسط "بغداد" والتي سماها العالم بعدئذ وصمة عار في ضمير "أمريكا". في لحظة لن أنساها عندما كنا عائدين الى القاعدة في الهامفي من دورية في "مثلث الموت" الى المعسكر خائفين ان تنفجر بنا عبوة أو يهاجمنا أفراد المقاومة انبرى "آيرا" ليقول لنا: نحن تستمتع بالحياة بشكل أفضل اذا ما عشناها دائماً في خطر. هو لا يقول ما الذي يعمله الآن بالضبط ولكني أخمن انه يعمل مع فريق الشركة الأمني في مقر "وكالة المخابرات المركزية" في "لانغلي" ليس بعيدا من هنا."**

**يأخذني "آيرا" بالأحضان.**

**- لقد تبدلت كثيراً، يختار كلماته بعناية، لكن نظراته الى تسريحة شعري المنسدل على كتفي وبلوزتي البنفسجية التي تظهر فتحة الرقبة فيها شيء من مفاتن صدري النافر تشي بانجذاب عابر الى مظهري الأنثوي الذي لم يعتد رؤيتي عليه منذ تركت الفصيل بقصة شعر المارينز وبدلة الخاكي المرقطة التي نترديها جميعا.**

**- ماعدت في الفريق الذي يسعى لتحرير العالم من طغاته. أنا الآن فريق نفسي أمارس السقوط الحر كنورس على شاطئ المحيط، أجيبه بضحكة مكتومة.**

**"عندما باغتني "جيف" في الكرفان الذي كنت الجندية الأنثى الوحيدة التي تنام فيه بعد انتقالنا الى معسكر "الحبانية" كان الوحيد الذي علم بالأمر هو "راين" لأنه كان هو من انقذني حين انتشلني من بين ذراعية وساقيه المطبقتين علي. حين رمى "جيف" بقوة الى الخارج نظر الي كي يتأكد من شيء لا يعرفه على وجه التحديد. وسط فزعي وآلامي شعرت به يردد ما تعلمناه جميعا في الحرب: "لا يجب أن تخذل رفيقاً في المعركة وتتركه جريحاً للأعداء. "سألني ان كنت سأقوم بالإبلاغ عن الحادث وقال إنه مستعد ليدلي بشهادة. أجبته بلا وأنا أغالب دموعي وهلعي وهواني. كنت تعرضت للتحرش كثيراً منذ اليوم الأول لالتحاقي بالجيش حيث اكتشفت مخاطر العيش بفرج وسط هذا العالم الذي يضع كل فرد من رجاله عقله في عضوه الذكري ولا يعد يفكر بأي شيء آخر في العالم. كنت أعلم ان معظم الجنديات اللواتي يتعرضن للتحرش او الإغتصاب لا يبلغن عن الأمر بسبب مخاوف كثيرة ستواجهن. سيتعبرونها مثيرة للمشاكل وسيواجهن المزيد من التحرش، ولربما سيتعرضن لحوادث عرضية انتقامية، وما أسهلها وأكثرها في ميدان يموج بالأشلاء والضحايا. بعدها تداعت حياتي وعشت عاصفة بين هشاشة نفسية وانهيارات عصبية، من ناحية، وعزمي على المقاومة، من ناحية ثانية. أصبح "فرويد" استاذي الذي أتعلم منه وفي الوقت ذاته عدوي الذي أريد الانتقام منه. لم أجد السلام داخل روحي بعد ذلك. كان الوجع مضنياً في يقظتي بينما كانت الكوابيس تنتابني في منامي. الجميع كان يعلم ولكنه ظل سراً شائعاً لا أحد يريد ان يتحدث به، طبعا أمامي."**

**"عائلة "راين" كانت بالإنتظار في بهو الكنيسة الصغيرة القريبة من "المقبرة الوطنية في ايرلنكتن". لم تكن العائلة سوى أبوه وزوجته "جوزي" وأبنته الصغيرة وخمسة أو ستة آخرين. حين جاء دوري وقدمت نفسي احتنضنت "جوزي" واحتضنتني وكأننا أصدقاء نعرف بعضناً من سنين طويلة. كان لدي احساس بأنها تريد أن تقول أعرف عنك أشياء كثيرة أخبرها بها "راين" ولكن لمسة يديها لذراعي كانت بالرقة التي أحسستني بالدعم والإسناد وكأنها هي التي جاءت لتعزيني. أحسست بشيء من السعادة أن "راين" كان قد حدثها عني، انا متأكدة من ذلك، مثلما كان يحدثني عنها. بعد محاولة اعتداء "جيف" علي ظل "راين" يحيطني بإهتمامه، يحرص على أن يحرسني من نظرات الرفاق المتشفية، او يدخل أحياناً في شجارات بسبب ايحاءاتهم اللئيمة. كان يحس بهشاشتي الداخلية التي أصابتني بعد الحادثة ويدفعني باستمرار أن أنظر الى داخل روحي، دون أن يقول انها الأرض الوحيدة التي يمكنها ان تسقبلني وتأويني. "كوني قوية، الكائن يصبح أكثر قوة عندما يرى عاصفة تهدده". كان يردد على طريقة مخرج سينمائي يختار كلماته والأوقات التي يقولها فيها بدقة كي يلقن بطلته، التي هي انا، دوري في الفلم الجديد. غير محاولة اخراجي من المزاج الذي يكدر ساعات أيامي ووحدتي كان "راين" يحدثني عن "جوزي" حبيبته التي جاء للحرب من أجل ان يتزوجها. كنت أفهم بإعتباري أصبحت خبيرة بالنفس البشرية بان مبادرته باخراج كل ما في جعبته عن "جوزي" ليست لمجرد كونها تأخذ تلك المساحة الشاسعة والمكان المتميز من قلبه، ولكن أيضاً كي يكسب ثقتي التي كانت قد وهنت."**

**"القداس كان رتيبا والقس كان أشبه بموظف بيروقراطي يقوم بعمل ممل، وشوش بصلوات عن بطل لم يتعرف على أسمه وعلى مكان موته الا منذ قليل. مراسم الدفن تمت هي الأخرى بالوقار الميكانيكي المعتاد الذي لا يستدر الدموع. الجنود حملوا الجثمان بعد الصلاة ملفوفاً بالعلم الأمريكي على عربة تجرها الخيول خلف جوق موسيقي يعزف قطعة جنائزية من المبنى الاداري الى مكان القبر الذي تم تجهيزه وسط حقول النجيل الواسعة. ما ان يؤدوا التحية وسط دوي الاطلاقات الأحدى والعشرين التي يطلقها حملة البنادق يقومون بطي العلم ويسلموه الى "جوزي" ثم ينتهي كل شيء. "راين" سينضم الى فيلق الأبطال البواسل الذين يًطمرون في أحشاء قطعة من الأرض احتظنت يوما ما من تاريخنا الشقي مستوطنة للعبيد. هناك نحو أربعمائة ألف منهم لمن قاتل وقتل في حروب "أمريكا" كلها منذ "الحرب الأهلية"، تلك المعارك التي رسمت معالم طريق أمتنا القادم. هناك أبطال من نوع آخر في جوف هذه الأرض، رؤساء وقضاة المحكمة العليا وأعضاء بارزون في "الكونغرس" ومن يحملون أوسمة رفيعة، لابد أنهم أيضاً أبطال من نوع ما في صناعة ميثولوجيا النجاح الأمريكية. تظهر الشواهد المصنوعة من رخام جيء به من "فيرمونت" أو "جورجيا" في أنساق هندسية مختلفة حسب زاوية النظر تصلح أن تكون رقعة جبارة لـ"لعبة السكرامبل". أشير الى "سام" بنظراتي الى شاهد حفرت عليه نجمة داود وتحتها عبارة في ذكرى "تشاراس جيسركيس" دون أن أعني شيئاً."**

**يهمس "سام" بأذني"ان الشواهد للتذكير.**

* **ومع ذلك فالموت يأتي بالنسيان، أقول لرهط الأبطال الذي يقف الى جانبي متحدية ونحن نطل على صفوف القبور التي تضللها أشجار "المغنوليا" و"الكريز" كأننا نأخذ صورة تذكارية للشواهد قبل ان نغادر.**

**لا أحد يتجاوب مع ماقلته.**

**"هؤلاء الأبطال على العكس مما كانوا يريدون في حياتهم يرون ان تكريمهم هو التذكير بقوة النسيان، نسيان أسباب موت غالباً لم يكونوا يعرفونها. فالمناسبات الرسمية عادة ما تنسى بريقها حين تصبح مجرد عطلة وطنية مثل غيرها أو تنسى معناها. كم واحد من سكان "واشنطن دي سي" او "فرجينيا" زار المقبرة هذه. انه النسيان الذي يبلع كل شيء كان. تذكرت الفلم الذي شاهدته مرة عن تجربة الاقتراب من الموت. تساءلت ان كان "راين" قد مر بالتجربة ورأي نفسه بعد الموت يسير مع الريح في فراغ هائل أو في نفق لا يخشى ولوجه. ترى من كان سيلتقي بهم أولاً لابد أنهم أناس قدم لهم المساعدة يوما وجاؤا ليعبروا عن امتنانهم له. بالتأكيد كنت سأكون أنا من بينهم وسوف لن ينتابه حيئنذ الخوف من وضعه غير المالوف."**

**كلمتً أمي كما وعدتها.**

**- كل شيء تمام أيتها الملاك الحارس.**

**- لو كنت انا من سقطت في هذه الحرب هل كنت ستدعيني أرقد في معسكر الموتى الرتيب هذا؟، رددت على سؤال امي كيف كانت الجنازة.**

**- اظني كنت ساوصيك بحرق جثتي ورمي رمادي في مياه الخليج، هناك قرب "المحيط الهادئ" لأستمتع في أبديتي بنصيبي من أسمه.**

**"أشعر بتأنيب الضمير باني جافة، وأحياناً قاسية، مع أمي. هي حمتني أو حاولت ان تحميني وأنا صبية من الأولاد والرجال العابثين. طلقت زوجها وطردته من البيت حين هجست مرة بانه كان يحاول التحرش بي. ربما كانت عقدتها مزيجاً من عقدتي "اوديب" و"الكترا" معا، وهو اكتشاف تفوقت به انا على "فرويد". انوي ان أسألها حين أعود عن هويتها الطفولية وتطورها الجنسي كي أطور انا بدوري نظريتي هذه واحدد العلاقة بين العقدتين. غير ان المشكلة التي تواجهني هي ان أباها قتل في الحرب قبل ان تولد، وهي مفارقة قد تجعلني أسعى للبحث عن أسطورة أغريقية ثالثة تحلل شخصية أمي. لو توصلت الى ذلك فعلاً فسأكون قد وجهت الضربة القاضية الى طوطم "فرويد"، كما أكون قد تخلصت من الـ"بروزاك"، ذلك السم الذي ينهش في روحي".**

**"بعد الجنازة قادنا "آيرا" نحن أشباح فريق العمل السابق المترنحين بين الأحياء والموتى بحافلة من المقبرة الى فندق "الهوليدي ان" في "شلالات سكوتس ران" الذي سنقضي فيه ليلتنا ونلتقي في عشاء لم الشمل الذي وافقنا "آيرا" على تنظيمه في أحدى إيميلاته. قال ان الفندق الذي يقع في منطقة ساحرة على نهر "بوتموك" يقدم خصماً كبيراً لضيوف الشركة التي يعمل فيها وسيضمن هو ذلك الخصم لنا ايضا. في الحافلة جلس "سام" الى جانبي، ربما صدفة، لكني لم أشعر بالإرتياح لا لشيء الا لكوني غير قادرة لو فتح موضوعاً ما على استرجاع اللغة المشفرة التي كانت تجمعه بباقي أفراد الفريق. كان الجميع يفرطون في استخدام صيغ التصغير التي تقترب أحياناً من معاداة السامية في حين بقي هو يتصرف كطفل مشاكس يغتبط بالنهاية بالنتيجة التي يحققها. لم يتجاوز حديثنا بعد ان سألني ان كنت قد زرت "فرجينيا" من قبل وجوابي بالنفي قيامه بدور المرشد السياحي الذي حدثني عن الشوارع والحدائق والنصب على طول الطريق. قال انه يزور "فرجينيا" مرات عديدة في العام لعلاقة شركته بالبنتاغون الذي كنا وصلنا على مشارفه وكذلك بمكاتب الأرشيف الوطني عبر النهر."**

**- لا تزال حارس الذاكرة الذي يبحث عن أشياء عفا عليها الزمن وتحاول ان تبني عليها حكايات عن المستقبل، قلت له في حين بقي هو صامتاً كما كان يفعل حين يتلقى تعليقات أفراد الفصيل الساخرة.**

**- كلنا صانعو أوهام، انت الوحيد الذي نجح في تحقيقها، انتهزت الفرصة فأكملت.**

**- انا ممتن لكم جميعاً.**

**- ماذا فعلنا غير ان دمرنا بلداً وقضينا على خيارت شعبه.**

**- لقد قمتم بما يكفي لتنويري طريقي في هذا العالم، وانتِ بطريقة حصرية.**

**- انا، بماذا خدمتك؟**

**- كنت مناضلة تخوضين كفاحاً في عالمك الخاص. حين قدمت الى الفصيل تحولت كراهية الآخرين تجاهي نحوك. لم يعدُ يزعجوني كما كانوا وأظن ان ذلك ساعدني بالنهاية ان أخرج من تلك الحرب ورأسي فوق كتفي.**

**- همممممممم، نطقت وانا ازم بشفتيَّ.**

**قبل ان تصل الحافلة الى الفندق ألح علي سؤال كنت أريد ان اطرحه على "سام" ونحن نودع جثمان "راين" لكني أجلته. "هل كان سيفضل ان يدفن هنا لو كان قد قتل في الحرب؟"**

**- بكل صدق، لا. كنت تمنيت ان أكون هناك على سفوح "جبل هرتزل" في القدس"، رد دون ان يشعر بأي توتر وبتشديد على كل كلمة نطقها بدت كأنها تعني ليس فقط التشبث بالجذور، لكن أيضاً اليقين. ليس اليقين الذي قد يصل اليه او لا يصل الحيارى في نهاية الطريق، انما في خلق ذلك الانطباع بأنك تعرف ما تريد، بل وتعرف كيف تصل اليه.**

**- عليك ان تنتظر اذن حتى تسقط وانت تقاتل في أحد حروب "غزة" او على يد فلسطيني في أحد محطات الحافلات في "القدس" وانت تزورها او تنتقل للعيش فيها."**

**لم يجبني فأضفت.**

* **لكن ماذا لو مت بطعنة سكين بيد مسلم هائج يدخل الى كنيس في "نيويورك"؟**

**"في الليل قضينا وقتاً في نفض الغبار عن قصص بطولاتنا الأسطورية تلك التي بقيت أغلبها مشفرة. كان كل منا قد سمع من متعاون عراقي حين صادفنا في احدى دورياتنا الراجلة في البادية شرق "الفلوجة" ذئبا يسلط نظراته الجانبية وهو يقف بشكل متوتر على حافة الطريق بان غريزة هذا الحيوان تمكنه من التمييز من خلال نظراته بين شجاعة الإنسان الذي امامه وجبنه. أغلب الظن ان غريزة ما كانت داخل كل واحد فينا الليلة وهو يحاول فك شفرات تلك الحكايات التي تداولناها. معظم حديثنا كان يصلح كشهادات تندرج في التاريخ الشفهي للحرب ستمكن من يقرأه بعد مائة عام، لو اتيحت له، ان يعرف كيف حصل فصيلنا على "مدالية الانجاز في الخدمة المشتركة". البعض همهم انهم كانوا يستحقون "مدالية الشرف"، ذلك الوسام الأرقى الذي يمنح لمن يظهر شجاعة استثنائية في الحرب. انجاز، شرف وشجاعة، كلمات تليق بنا، (نا) هذا الضمير المتصل الذي لا يخفي ملامحنا المكسوة بكآبة مؤكدة والعيون التي تغرق في هوة عميقة والروح التي تعاني من انكسار داخلي.**

**بعد العشاء وقفت "ديبي" زوجة "ريكاردو" وسط الجميع ونقرت بخاتمها على كأس الشراب الذي تحمله مثلما يفعل عادة من يستعد لإلقاء خطبة.**

* **لا اريد ان افسد عليكم ليلتكم ولكن لدي أخبار سيئة. انا اسفة، لكن اردت ان اشارككم بها.**

**ساد الوجوم، او هكذا تصنع كل واحد منا رد فعله، اذ ما الذي يمكن ان تكون هذه الاخبار السيئة ونحن قد نجينا من مصير "راين" و"جيف" وأصبح "سام" سمسارا للأثار و"آيرا" على وشك ان يكون عميلا خاصا كما سيقسم "آيشو" قريبا ذلك القسم الشهير بانه سيتنازل بشكل مطلق عن أي ولاء او انتماء آخر وسيدعم دستور الولايات المتحدة ويدافع عنها ضد الأعداء.**

* **أنهم يريدون ان يبعدوا "ريكاردو" عن "أمريكا" ويرحلونه الى غواتيمالا، اعلنت "ديبي" بشكل قاطع.**

**ثم بدأت تشرح الأمر وسط بحلقة العيون المحيطة بها بان السلطات رفضت منح "ريكاردو" الجنسية الأمريكية بدعوى عدم أهليته وسلوكه العنيف منذ عودته من الحرب. والآن قرروا سحب البطاقة الخضراء أيضاً مما يعني أنه اصبح مهدداً بالإبعاد القسري في أية لحظة.**

**"ريكاردو" فارسنا الذي لولا انجازاته ما كنا قد حصلنا على هذا الوسام الذي سيظل محفوراً بأسم الفصيل أجيالاً قادمة يبقى صامتا كسيرا. غير ان العين المتمرسة بإمكانها ان ترى فائض الغضب في داخله الذي ينتظر ان يتفجر، ربما حين يدرك فعلياً انه أصبح أمريكيا لكن بدون جنسيتها وبدون "أمريكا"، وعليه ان يعود منفياً في وطنه.**

**- انها طعنة في القلب. لقد خدم وطننا بشرف ونبل لا مثيل لهما، قال "آيرا".**

**- عار ان تتخلى "أمريكا" عمن دافع عن قيمها ومبادئها. انها ترسل رسالة خاطئة لكل الجنود الذين يضحون الآن في الدفاع عنها، قال "سام".**

**اما انا فقد واتتني فكرة:**

* **يجدر بنا الآن ان نعيد مدالية الانجاز لهم ونطالب بمدالية النذالة الوطنية.**

**"إيشو" ظل صامتا لا يدري ان كان واقعيا ان يدلي بتعليق عن هذا الموضوع، اذ بالتأكيد سيذكرنا ذلك بتلك المفارقة الغبية، يأتون به من "العراق" ويمنحونه شرف الجنسية الأمريكية في حين يعيدون "ريكاردو" الى وطنه.**

**جلست "ديبي" في مقعدها لكنها واصلت الكلام. اخرجت من حقيبتها ملفا بداخله ورقة قالت انها عريضة تطلب منهم توقيعها باسم الفصيل كي تقدم الى الرئيس اثناء مظاهرة احتجاجية اتفقت هي مع "منظمة عوائل متحدة" التي تمثل 11000 حالة مشابهة سيقومون بها يوم غد أمام "البيت الابيض". أجد موضوع المظاهرة سخيفاً ولكني أوقع على العريضة مثلما فعل الاخرون. لا أشعر بان لدي رغبة ان اقف هناك على الرصيف امام 1600 شارع "بنسلفانيا افنيو" اصرخ كأي خرقاء: "امريكا بناها المهاجرون" او "لا انسان هنا غير شرعي". امتنا هذه بنيت منذ البداية على اكتاف نوعين من العبيد، عبيد المصانع وعبيد الحقول. وانا غير متأكدة لحد الآن من أي الصنفيين انحدرت. احدى فضائل الحرب هي انها اكدت لي ما عرفته سابقاً "اذا كانت العبودية هي غياب الحرية فاننا في الحرية الخالصة- كما نحن عليه- لا نعيش أكثر مما نعيش في العبودية الخالصة."**

**في غرفتي بالفندق اطرد من رأسي السؤال الذي يلح علي منذ ان عدت من الحرب لكن دون مقدرة على قتله نهائياً، هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟ اهرب الى نفسي التي بدت متحللة من الألم والغضب واتمدد على السرير واتخيله مقعداً جلدياً في عيادة طبيب نفساني سازوره للمرة الاخيرة. أرخي لنفسي عنانها وأشعر بان الأمر يغدو يسيراً أكثر فاكثر. الفجوة التي كنت اغرق فيها في رأسي يبدو انها انهت عملها. أشعر باني اكتفيت ولست بحاجة بعد اليوم ان استوعب ما جرى. أقرر ان اتخلص من نسختي القديمة هنا وهذه الليلة. تتصل بي أمي كي تتأكد دون ان تسالني اني اخذت قرص الـ"بروزاك". اخبرها باني ساكتفي بعرض اليوم وسأعود اليها وأطلب منها ان تستعد للاحتفال بعيد ميلادي الذي لم احتفل به منذ سنوات.**

**تقول أمي ان عيد ميلادي كان الأسبوع الماضي.**

* **أعلم ذلك، لكني الآن نسخة مختلفة لـ"ـسالي".**

**\*\***

**5/3**

**فور انتهائه من امامة صلاة الجمعة في "جامع الفلوجة الكبير" وسط البلدة القديمة وقف "أبو الدرداء" امام المحراب ليأخذ البيعة لزعيم التنظيم "أبو بكر البغدادي" الذي كان قد أعلنَ للتو من الموصل نفسَهُ أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين. تقدم "الحكماني" صفوف حفنة من الملتحين الذين يرتدون زياً عسكريا مرقطا ووضع يده بيد الشيخ الأردني الذي أصبح منذ أسابيع أمير شورى المجاهدين في ولاية "الفلوجة" ومفتيها مردداً وراءه القسم.**

**"أبايع أمير المؤمنيين، أبو بكر القرشي، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، في العسر وفي اليسر، وعلى اقامة دين الله، وتحكيم شرع الله، واقامة الدولة الاسلامية، والذب عنها، ما استطعت سبيلا، والله على ما أقول شهيد."**

**نفس القسم ردده أيضاً كل فرد من الذين كانوا بمعية "الحكماني" مثلما ردده الجمع الذي حضر الصلاة. وبغض النظر عن مستوى الحماس الذي ردد به الحضور الا ان القسم بدا حقيقة وكأنه يخرج من صدور أرواح حائرة ثم يتحلل بعدها ويذوب في فضاء المسجد الواسع وفي أجواء منتصف نهار رمضاني شديد القيظ.**

**بعد ان هدأت الحناجر ونزلت آيادي جموع المصلين الذين رددوا البيعة للخليفة وراءه استبقى مفتي الولاية بإشارة من يده "الحكماني" وأفراد المجموعة الصغيرة المرافقة له. بعد خروج آخر المصلين طلب "أبو الدرداء" منهم الجلوس على أرض المصلى في حين تربع هو أمام المنبر بينما جلس خلفه مجموعة من المجاهدين قدمهم "ابو الدرداء" بإعتبارههم أعضاء مجلس شورى الولاية. بسمل ثم حمد الله على ما قال انها نعمه التي منى الله بها عليهم من قيام الخلافة على أرض الجهاد، ثم أدار بنظره الى مجموعة "الحكماني" الذين كانوا قد شكلوا نصف دائرة أمامه يتطلعون بنظرات غامضة الى هذا الشيخ الأردني الشاب الذي يجلس أمامهم يتقمص دوره ببراعة والذي لا يزال منذ ان وصل الى "الفلوجة" لا يتوقف عن ابهارهم بما يقوم به كمتولى لزمام الأمور في قلعة المقاومة هذه والتي أصبحت منذ الآن مجرد ولاية من ولايات الخلافة.**

* **لدي وصية من مولانا أمير المؤمنين يخصكم بها انتم أبناء "الفلوجة" النجباء بالذات لأنكم الفسطاط الذي منه انطلق منه جهادنا الأكبر، قال "ابو الدرداء" مشدداً على نون الجمع وبالذات على المقطع الأخير من كلمة الأكبر.**

**بقي أفراد المجموعة التي تتوزع على يمين ويسار "الحكماني" متسمرين في أماكنهم بانتظار ما سيفصح عنه "أبو الدرداء"، رغم انهم أصبحوا معتادين منذ ان تولى هذا الشيخ غريب الأطوار منصبه في مدينتهم على مقدمات أحاديثه الطنانة واستهلالاته الجياشة التي تسبق دائماً دخوله في صلب الموضوع.**

* **أخوتي. أنتم أمراء الجند في دولة الإسلام، وصية مولانا الخليفة لكم هي ان تعملوا بهمة على تأسيس دولة الله على أكثر بقاعه طهارة. العدو قد اتحد لحربكم فاتحدوا لحربه وسار بأجناده إليكم فاقطعوا عليه دربه."**

**حرص المفتي الشرعي وهو يكمل بقية الوصية على ان يردد بين جملة واخرى انها من أمير المؤمنين "أبو بكر القرشي" شخصياً حتى وصل أخيراً الى ما قال انه مربط الفرس:**

**- ما حصل اليوم من بزوغ لشمس الخلافة من "الموصل" هو بداية وليس نهاية للجهاد وعلى أبطال الخلافة منذ الآن ان يمسكوا بزمام المبادرة كي يتموا المسيرة المباركة حتى انفاذ النصر المبين.**

**حين وصل الى هنا التفت "أبو الدرداء" صوب "الحكماني" وخاطبه بنبرة فيها الكثير من التوقير، لكنه ظل أيضاً محافظا على نغمة الوصاية الأبوية التي لديه طريقة خاصة يتصنعها كي توحي برباطة الجأش والثقة العالية بالنفس مثلما توحي بالحزم والصرامة، وهي الأدوار التي يجيدها جيداً والتي لابد وانه تدرب عليها كثيراً.**

**- لدى رسالة خاصة لك يا أخ "ابو دجانة" ، بل هي بشرى. مولانا الخليفة ولاك امارة الجند في الدولة وفي قيادة حملة استعادة "بغداد" عاصمة الخلافة ودرة تاجها من أيدي المرتدين بعد ان مكنا الله الآن من هذه الفتوحات الكبرى، استرسل "أبو الدرداء" قبل ان يتوقف كي يحدق ملياً بعيني "الحكماني" كمن يحاول ان يسبر رد فعله، قبل ان يكمل.**

**- مولانا الخليفة بعد ان يبعث لك بأحر السلام يوصيك ان تذلهم وان تقهرهم كما قهرهم سعد في الفتح ويذكرك ان هذه هي فرصتك قد جاءت كي تشفي غليلنا وغليلك.**

**كلمات "أبو الدرداء" كانت مبتسرة، لكنها أهاجت في داخله بركانا كان قد خمد منذ ان وجد نفسه قبل عشر سنين منخرطا في أول حرب يعتبرها حرب ثاره الخاص. مثله مثل قيادة المقاومة التي تركها الخليفة أيضاً يريد ان يذكره بماضيه وبمعاركه التي لم يكسبها وربما أيضا بالمرات التي اقسم فيها بانه سيقاتل حتى النصر او الشهادة لكنه انتهى دائما عاجزا عن الايفاء بعهده. ليت بيده ان يكون كما كان "سعد بن ابي وقاص"، قائد يسجل بأسمه التاريخ نصراً زاهراً في حين ان كل مافعله في تلك الحرب هو انه قاد جيشه وهو نصف مشلول ومقعد من حصن يطل على ساحة المعركة.**

**- أرجو ان تبلغ مولانا أمير المؤمنين انني ورجالي على السمع والطاعة، قالها "الحكماني" بنبرة واثقة جعلت "أبو الدرداء" واتباعه يصدحون بصيحات الله اكبر مرات عديدة هزت كل أركان المسجد وخرجت الى الباحة الخارجية التي تجمع فيها عدد من جنود الخلافة الذين يرتدون طاقيات سوداء لا تظهر سوى عيونهم والذين استجابوا للتكبير بزخات رصاص من بنادقهم تهليلا بالقسم الذي قطعه لتوه كبير أمراء الجند.**

**- هذا عهد مني لأمير المؤمنين بانه وبعون الله وقوته سيخطب قريبا من على منبر "جامع الخلفاء" وسط "بغداد" بعد ان نطرد منها الصليبيبن والصفويين والعلاقمة، أكمل "الحكماني" بنفس نبرة الحماس تلك وسط نظرات مساعده الآقرب "سلمان النمر" الجالس الى جانبه الذي شعر ان أميره أصبح يبز نفسه.**

**فمنذ بدء التعاون بين مجموعات المقاومة التي يقودها "الحكماني" مع المجاهدين اولاً وبعدها تنظيم الدولة وهو يرى ان قائده لم يعد كما كان وتساوره الشكوك عما اذا كان هو أيضاً مثل "أبو الدرداء" يتقمص دوره الجديد، أم أنه وجد نفسه أخيراً مع هؤلاء المشعوذين. "النمر" الذي يرافقه كظله منذ سنين يعلم يقيناً مقدار ولع "الحكماني" بهذا الهذر الذي يطلقه امراء التنظيم، كما يعرف كيف يجيد استثماره. ما بدأ يترسخ لديه وعززه موقفه الآن رغم انه لن يستطيع البوح بها ان "هذا الرجل قد تحول ذئباً سوف لن يهدأ له بال الا بعد ان يلتهم الجميع. سوف يظل يغير جلده ويترك صفحات قديمة من حياته كي يبدء من جديد. كل ما يهمه هو البقاء والاستمرار متنقلاً بين الخاسرين والرابحين."**

**في الأشهر التي سبقت استيلائهم على "الفلوجة" وجه "الحكماني" انصار "الدولة الاسلامية" لتنظيم اعتصامات مضادة للحكومة كان يريدها ان تمهد الطريق لسقوط المدينة بيدهم. حين أمرهم ان يرفعوا شعار "قادمون يا بغداد" بدا الشعار مربكا للعديدين وأثار الكثير من الجدل يومها عما اذا كان الأمر مجرد تكتيك أم أنهم ينوون فعلاً غزو "بغداد" وأسقاط الحكم فيها. الكثيرون كانوا يعرفون، سواء بالتجربة، أم بالسماع عن ماضيه ان "الحكماني" لا يدخل حرباً كي يربحها وان "قادمون يا بغداد" ستنتهي صرخة في الحناجر لكنها ستستثير الطرف الآخر وتحشده ضدهم. جادلهم "الحكماني" حينها بان الشعار سيرسل الرعب في صفوف الأعداء وسيجعلهم يركزون جهودهم على حماية "بغداد" وحينها سيتركون لهم الفرصة كي يحرروا "الفلوجة" وباقي مدن "الأنبار" بيسر. لابد ان مساعديه يقروون الآن ان المخادعة، ان كانت هي فعلاً كذلك، قد نجحت بتشتيت انتباه العدو وسهلت مهمة استعادة الفلوجة. لكنهم يعرفون قبل ذلك ان لعبة "الحكماني" المفضلة هي ان يبقى متأرجحا بين عالمين وحدودين، كلاهما من صنع اوهامه. لكن ما سمعه للتو من رسالة "البغدادي" توضح أنهم يفهمون "الحكماني" جيداً ويعرفون ماضيه ولا يريدون ان يقعوا في فخاخ ألعابه الجهنمية. ربما كان العكس هو الأصح وهو انهم يتلاعبون به، لعبة أكبر من يدركها.**

**حين غادر "الحكماني" كان الشارع المحيط بالمسجد يفور مع اقتراب منتصف النهار والبخار المتصاعد منه يلتصق بذرات الغبار التي يحملها هواء ساخن قادم من الصحراء القريبة يلفح وجهه ويكاد يكتم أنفاسه. القميص الأسود الأفغاني الطراز الذي يرتديه فوق سروال طويل على خطى قادة التنظيم يزيد من وهج الحرارة في بدنه. يدلف الى سيارته "الجكسارة" بسرعة يحتمي بزجاجها المضلل ويرخى جسده أمام فتحات جهاز التكييف محاولاً ملئ رئتيه بهواء منعش. مع انطلاق السيارة يناوله "النمر" الذي أخذ مقعد السائق قنينة ماء باردة من براد صغير فيرشف منها عدة رشفات صغيرة بسرعة محتميا بستار زجاج السيارة المعتم متحاشياً ان يراه أحد في الخارج. الفريق القريب منه جداً وحده من يعلم ان "الحكماني" لم يكن صائماً، وهو سر يحرص على اخفائه وراء باب موصد رغم ان الأمر سيكون مقبولاً لو أنه جهر بافطاره متذرعاً بالمرض وبأوامر الأطباء لحاجته المستمرة للأنسولين والأدوية الأخرى التي يتناولها طيلة اليوم. لكن "الحكماني" يحرص على الا تهتز صورة أمير الجهاد بين اتباعه بان يبدو ضعيفا او ان يتيح لأحد التشكيك بقلة صبره او التزامه.**

**في الطريق الى "حي الشهداء" حيث بنى مقره وسط الأحياء السكنية تحسبا من المراقبة الجوية راحت سيارات موكب "الحكماني" ومرافقيه تنهب الطريق فوق الأسفلت الملتهب وسط شوارع شبه خاوية وأحياء بدت بيوتها ودكاكينها مقفرة. الكثيرون من سكان "الفلوجة" هجروها بعد اجتياح التنظيم للمدينة، بعضهم لمدن أخرى، بينما استجار الآخرون بأقاربهم او أصدقائهم في المزارع القريبة وكأنهم استنتجوا ان هذه الحرب لن تطول كثيراً وانهم عائدون الى بيوتهم في وقت ليس بالبعيد. من بقي في المدينة سلم أمره الى المجاهدين، اما عن قناعة، او بدونها، راضين بالعيش في مدينة يديرها فاتحوها بطريقة يفاخرون بتسميتها بالتوحش. منذ ان سقطت "الفلوجة"، فعلياً بيديه، قبل ستة شهور، بات "الحكماني" يشعر ان المدينة، التي هي مدينته وموطن أجداده، هي مسؤوليته الشخصية وانه لن يتخلى عنها كما حصل في مواقع أخرى. لكن مع تعاظم سيطرة مجاهدي التنظيم الكلية على المزيد من المدن والأراضي بدأ يفقد قدرته على التنبؤ باتجاهات الحرب وهو ما يزيد من ارقه وخوفه ويلخبط حياته كلها. الشياطين التي داهمته اليوم من جديد بعد تلقيه التكليف باستعادة "بغداد" تفاجئه بأسئلة ملحة، يرواغ للإجابة عليها بينما يحاصره جسده وروحه التوتر والتعب والحيرة.**

**السؤال الذي كان يراود "النمر" منذ خروجهم من المسجد هو اذا ما كان "الحكماني" يعتقد انه سيفوز هذه المرة أيضاً في لعبة الغميضة التي درج عليها منذ ان عرفه في صفوف المقاومة. من يراه أمامه هو رجل ذهب بعيداً جداً في نرجسيته ونزقه، وربما فقد صوابه، حين قبل اللعب مع جماعة تكره تبادل الأدوار، أو تقاسسمها، ولديها قواعدها الخاصة في اللعب التي تكره ان ينازعها عليها أحد. "النمر" الذي لم يعد يرى غير تلك البيارق السود الشبيه برايات القراصنة تخفق بأيدي جموع الملتحين في مناطقهم المحررة في مشاهد أشبه بتلك التي تظهر في الأفلام والمسلسات التاريخية المثيرة للضحك يستبين ان كل الألعاب التي جربوها أوشكت على نهايتها وبدا كل شيء من حولهم في طريقعه لأن يتهاوى.**

* **لقد أخذنا خازوقاً، أليس كذلك؟**

**أشعة الشمس المتوهجة التي تضرب في وجهه من خلال الزجاجة الأمامية للسيارة تزيد من وهج الغضب داخله لكن "الحكماني" يبذل جهداً كبيراً كي يحافظ على رباطة جأشه. تظل عيناه مسمرتان في الفضاء، او على جدران البيوت أو أكوام الأنقاض والتي تذوب وتتلاشى من خلال النافذة بينما السيارة التي يقودها "النمر" تجري باقصى سرعة عبر "شارع الثرثار" المفضي لـ"حي الشهداء" على أطرف المدينة. منذ فترة وهو يخشى قدوم لحظة المكاشفة هذه لأنه ببساطة يعلم انها ستكون منذرة بانفجارات تزيد من نيران الحمم التي تكتوي بداخله.**

* **هل أصبحنا مطايا لهؤلاء المهاويس يقودونا الى حيث يشاؤون؟**

**ظل "الحكماني" لائذاً بالصمت، كما يفعل عادة حين يواجه اندفاعات قوى خارجية غير قادر على صدها، لكنه بدأ يشعر سريعاً بانقباض في معدته.**

* **دولة اسلامية وخلافة وأمير المؤمنين....ما هذه الهلوسة؟، أردف "النمر".**

**لم ينبس "الحكماني" ببنت شفة في حين ظلت نظراته هائمة في الفضاء الذي تخلفه السيارة، تائها بين ثقل التكليف وبين أحلام النصر العظيم الذي سترفل به دولة الخلافة على يديه. حين رماه "النمر" بنظرة جانبية خاطفة بانت قسمات وجهه الشاحب تعلوها هالات سوداء وتجاعيد من مرارة حفرت خطوطها حول عينين فقدتا أي بريق. كانت عظمتا فكيه الرخاميتان تعلوان تكشيرة فمهه ولحيته الغزيرة البيضاء فيبدو وجهه متغضنا، بلا حياة، مثل شوارع هذه المدينة التي لا يخلو ركن فيها من علامات الحرب وحرائقها وندوبها. يعرف "النمر" بالتجربة ان رئيسه يختار ان يغوص بالصمت في لحظات حيرته وارتباكه، لكن تقطيبة حاجبيه وبحلقته في الفراغ الآن يوحيان بترسبات العجز التي تتراكم في روحه. كم أصبح هشاً وبلا يقين؟ هل هذا هو قدر المقاومة ان تنتهي الى كل هذا العبث بيد هذه المجموعات من البهائم التي يقودها مشعوذون وذباجون جاؤا من كل بقاع الأرض، وهل ان مصيرهم ان يستمروا بالسير نياماً وراء هؤلاء الحمقى والدجالين. ظلت تلك الأفكار تنهش بعقل "النمر" بينما يواصل دون وعي الضرب براحة يده اليمنى على مقود السيارة التي اخذت تتمايل مع كل ضربة وهي تجتاز التقاطع الذي يفصل "حي الشهداء" عن "حي الجولان".**

* **ماذ جنينا من هذا التحالف، أصبحنا وحوشاً نسرق ونقتل ونذبح ونغتصب النساء.**

**وحده "النمر" من بين مساعديه يمكنه ان يواجه "الحكماني" بتلك الصراحة بل والحدة، فهو ابن شيخ قبيلتهم الأعلى وهو مسؤول عن أمنه الشخصي. تتداعى الى ذهنه الواجبات التي كلفته بها قيادة المقاومة حين أرسلته للالتحاق بمجموعة "الحكماني" قبل عدة سنوات والوصايا المشددة ان يكون عينهم الساهرة عليه. أطلعوه على تقارير عديدة عن خلفيته وماضيه في الجيش وعن حياته الشخصية، لم يكن أغلبها ما يطمئن كثيراً، وخاصة تلك التي تتعلق بتخاذله في الحروب السابقة كما أطلع على تقارير خاصة عن اضطراباته النفسية وبعضها عن ميوله للعنف المفرط التي استقاها من منهج التوحش. احدى الاستنتاجات التي جاءت في تلك التقارير انه صاحب شخصية مرضية مشبعة بالأوهام ويداري بقوته الظاهرة ضعفاً كامناً في داخله، في حين وصفه تقرير آخر ان لديه ميولاً انتقامية سادية. قالوا له انهم يخشون تخبطه في القيادة، أو كما وصفه تقرير ثالث انه يفتقد للبوصلة والتقدير السليم. ورغم انه يفتخر دائما انه صمد حتى الساعة الأخيرة في موقعة "جسر المسيب" أثناء الغزو غير ان تقريرا اطلع عليه اتهمه بالتقصير في حماية الجسر الأخير المؤدي الى "بغداد" ويثير الشكوك لعدم تفجيره قبل وصول الأمريكان اليه. كان التقرير واضحا بان انقطاع الاتصالات في ذلك اليوم المشؤوم هو الذي منع وصول الأوامر من القيادة بنسف الجسر وكان على "الحكماني" ان يتصرف. غير ان أكثر ما اثار قلقه هو تقرير آخر كان يحذر من امكانية ان يكون الأمريكان قد زرعوا جهازاً ما في رأسه اثناء العملية التي اجروها له في "مخيم بوكا" يمكنهم من خلاله السيطرة عليه وتوجيهه. التقرير الذي كتبه "فهد السعدواي" بنفسه حذر أيضاً من استعداد "الحكماني" ان ينقل بندقيته من كتف المقاومة الى كتف المجاهدين اذا ما عرضوا عليه الإمارة.**

* **ربما نجحت بأن أحميك من أعدائك لكني أشعر بأني فشلت في حمايتك من نفسك، قال "النمر" دون ان ينظر الى "الحكماني" الذي ظل مستغرقاً في التفكير كما لو أنه لم يكن ينصت أساساً الى كل ما قاله.**

**عند وصول موكبهم الى مقرهم المموه بمدخل طويل تصطف في بدايته وعلى جانبيه صناديق بلاستيكة وأقفاص مصنوعة من جريد النخل معبئة بالخضار والفاكهه ركن "النمر" السيارة جانباً لكنه أبقى محركها دواراً ثم حدق ملياً بإتجاه قائده الذي نزل مصطحبا معه صمته الذي بدا له انه يخفي غضباً مكتوماً. لا شك لديه انه بعد ان افضى بمكنوناته الى "الحكماني" بعد هذا اليوم الحافل بالجنون فسينضم الى قائمة أعدائه. لم يفت "النمر" ان يستبق كل ذلك ويكتب الى القيادة محذراً من تقلبات "الحكماني" وتحولاته ويطلب اعفاءه من مهمته مثلما أبلغ عشيرته بما يدور بخاطره عن احتمالات رد فعله.**

**حتى قبل اعلان الخلافة وخلال الأشهر التي تلت احتلال المجاهدين "الفلوجة" كان على أعضاء "مجلس شورى الجماعة" في "ولاية الفرات" ان يديروا شؤون المدن والمناطق التي سيطروا عليها وفق الضوابط والنهج الشرعي الذي وضعه تنظيم الدولة. كانت تلك القواعد تقوم على تشديد قبضة التنظيم على جميع مفاصل الدولة والمجتمع وفق ناموسها الذي تسميه "ادارة التوحش" الذي تقول انه لا مفر منه لمواجهة الفوضى التي ستعم في المرحلة التي تسبق وترافق عودة الخلافة. في الاجتماع الطارئ الذي عقدوه بعد انتهاء صلاة التراويح في "مسجد الحمزة بن عبد المطلب" برئاسة "ابو الدرداء" كان الحديث يدور بشكل أساسي حول تعظيم موارد الدولة التي زادت نفقاتها الآن بعد ان استولت على مدن وأراضي شاسعة. دخل "حجي فواز" السوري المسؤول المالي في "ولاية الفرات" في صلب الموضوع ودون مقدمات يشتكى من تدني الموارد المالية على الرغم مما وصفه بالخيرات الوافرة والثراء الواسع لولايات الدولة. شرح لهم بالتفصيل ان هناك عجزا قال انه غير مفهوم في حصيلة واردات الدولة وزيادة في نفقاتها.**

**- أكاد اشم رائحة نتنة، تدخل "أبو الدرداء".**

**- شيء من هذا القبيل، رد "حجي فواز"، عارضا استنتاجاته بان مئات الملايبن من الدولارات ربما تكون قد تبخرت قبل أن تصل الى بيت مال المسلمين.**

**- الله أكبر..الله أكبر، صاح البعض من الجالسين.**

**- لا يقتصر الأمر على ذلك، بل وصل الى التلاعب بالجراية التي تمنح للمجاهدين. أصبح لدينا أشباح ايضا، اضاف السوري مستخدما تعبيراً مرادفا للفضائيين الذي يطلق على الجنود المسجلين لدى القوات الحكومية ولكن لا وجود لهم على أرض الواقع.**

**- ولا ننسى ما يجري أيضاً مع تجارة النفط والغاز والآثار حيث لا رقيب ولا حسيب، قال "ابو جندل السعودي"، أمير الجهاد الإعلامي.**

**- هذا افساد في الأرض ولابد من اقامة حد الحرابة على كل من هو متورط بالإعتداء على أموال المسلمين التي هي أموال دولة الخلافة، انبرى امير الحسبة "أبو قادر التركمستاني" المعروف بقسوته في ادارة جهاز شرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الولاية.**

**- لسنا بحاجة لأدلة. يكفي النظر الى القصور والمزارع والشركات التي تنتشر في أرجاء الولاية ، قال السوري الذي بدا أنه يوارب في الكشف عن التفاصيل او أسماء المتورطين ويسعى لإدانة سريعة.**

**- من يمد يده الى مال المسلمين عرض نفسه للمثول أمام القضاء الشرعي باعتباره من المفسدين في الأرض، قال "التركمستاني" مقتبسا من مدونة "وثيقة المدينة" التي اقرها التنظيم.**

**- نعم، ليس الجهاد مقاتلة العدو واثخانة وتشريده فحسب، بل هو أيضاً الشدة والغلظة مع المفسدين، قال "ابو الدرداء" وكأنه يحسم الأمر رغم ان المسؤول المالي لا يزال مترددا في كشف المتورطين.**

**الكلام الذي دار والحماس المتوقد لإدانة متهمين مجهولين ينذر بشؤم ويقلق "الحكماني" الذي راوده احساس لا يخطأه ابدا بان الأمر لا يخلو من مكر ومكيدة. فجميع هؤلاء هم من يدير المكاتب التي تتولى جمع الأموال من الأعمال التجارية والصدقات والضرائب والأتوات من التجار، أو غرامات المخالفات الناتجة من أمور حسبية، أو من الجزية. لاحظ أيضاً ان كل المتدخلين هم من المجاهدين المهاجرين الذين يتولون مراكز مهمة. لو تركهم يقررون ما يشاؤون فمن المؤكد ان رؤوسا ستجز بعد ان تنطلق الحناجر بالتهليل والتكبير، ومن يدري ربما سيكون رأسه بينها. تذكر "مساعده "النمر" الذي أختفى منذ أيام، "كم كان مخطئأ بحقه حين استخف به واعتبره العوبة بيد هؤلاء الطراطير."**

**- ما شاء الله، ها نحن قلبنا المقاومة الى تجارة وأموال، انتنفض "الحكماني" وسط وجوم ساد بين أعضاء الشورى الذين شعروا بما كانوا يخشونه من ان يقوم الرجل القوي بقلب الطاولة عليهم.**

**- لا دولة بلا أموال، كما تعلم يا أخ "أبو دجانة"، رد السوري الذي كان أكثرهم خشية ان تفلت المبادرة من بين أيديهم.**

**صمت برهة وهو يدير برأسه يميناً وشمالاً بين الحضور في قاعة الاجتماعات الملحقة بالمسجد في حين انشغل عدد من المساعدين بصب القهوة ووضع الحلويات الرمضانية على الطاولة الكبيرة التي يجلسون عليها ثم عاد للحديث.**

* **لا. لا دولة بدون جنود الخلافة الصناديد هؤلاء، قال مشيراً بسبابته الى مساعديه وحراسه الذين يحيطون بالمسجد.**

**نهض واقفا ثم سار قليلاً ذهاباً واياباً كما كان يفعل دائماً أيام عمله القيادي في الجيش وبعدها اختار ان يرمي بوسطهم قنبلة دخان لن يتوقعوا مالذي يمكن أن يأتي بعدها.**

**- يبدو أنكم لا تستمعون الى شكاوي الناس عن جمع الأموال بدون وجه حق وتذمرهم من مشاركتهم في أرزاقهم الشحيحة، فاجئهم "الحكماني".**

**- انها جبايات لبيت مال المسلمين ستستخدم في الفتوحات القادمة، تدخل السوري مرة أخرى.**

**يعرف المهاجرون حدة طباع أخوانهم قادة الأنصار والبعض منهم يسميها أنفة أو غلظة سمعوا عنها حتى قبل أن يفدوا الى هذه الديار. مارسوا مع هذا "الحكماني" لعبة شد الحبل طويلا في مسعاهم لفرض هيمنتهم على التنظيم الا انها لم تنفع وواجهها بلعبة اللف والدوران التي يجيدها ولم يبق امامهم الآن الا ان يجربوا الأغواء مما يتطلب التراجع خطوة للخلف او حتى أكثر.**

**- أخونا "أبو دجانة" على حق. لقد نورنا عما كنا عنه غافلين، قال "أبو الدرداء" كاسراً الصمت الذي خيم على المكان.**

**- هذا معنى الشورى"، تبعه "ابو جندل" السعودي.**

**- لعن الله سوء الظن انه من فخاخ الشيطان وهو سبب الانقسام والشقاق، صدق عليه "حجي فواز" السوري، مضيفا "ان عقيدتنا تأمرنا دائما بالإئتلاف ونبذ الفرقة والخلاف."**

**صباح عيد الفطر وبعد ان انهى "ابو الدرداء" امامة صلاة العيد في "الجامع الكبير" في مدينة "القائم" اصطحب الجهادي الأردني الذي رقيَّ الآن لمنصب "والي الفرات" "الحكماني" الى مضافة وسط بساتين شاسعة تطل على "نهر الفرات". على جرف النهر وتحت عرائش اكتضت بعناقيد العنب الأصفر الذي بدا ناضجاً قبل أوانه مدت مائدة كبيرة للفطور.**

**يعرف "الحكماني" المكان جيداً فقد نقلت وحدته اليه اثر توتر مع "سوريا" قبل أعوام طويلة بعد انخفاض مستوى تدفق المياه في النهر أثر افتتاحها سدا اقامته على النهر. يومها هدد الرئيس القائد بأنه سيشن الحرب على "سوريا" اذا ما ادى ذلك الى تعطيش المدن جنوب النهر. حين أسر لـ"أبو الدرداء" بذلك وهما يطلان على الشاطئ الرملي أجابه الوالي على الفور بالحمد لله الذي وفقهم الآن ان يزيلوا الحدود الصليبية الكافرة ويوحدوا البلدين تحت راية دولة الاسلام التي ستجعل النهر نبعا للجميع.**

* **لدينا لك مفاجئة، قال له "ابو الدرداء" فور انتهائهم من الافطار وهو يومئ الى أحد أعوانه باشارة من حاجبيه بدت متفقٌ عليها بينهما.**

**تباطئ الوالي قليلاً وهو ينظر باتجاه مجموعة من العشش التي بنيت من القصب والبردي وانتصبت وسط البستان. ثوان قليلة الا انها مرت كدهر على "الحكماني" الذي لا يحب هذا النوع من المفاجئات التي تمتحن فطنته وردات فعله.**

**- هذه هي الأخت المجاهدة التي رخصها لك أمير المؤمنين، وندعوا لك بان تقر بها عينا، أشار "ابو الدرداء" الى هيكل أدمي مجلل بالسواد من قمة رأسه الى أخمص قدميه ظهر امامه. هدأت قليلاً فورة الإنتظار داخله غير انها كانت حقا مفاجأة لا يدري كيف يرد عليها.**

**- وهذه هدية بالمناسبة، أردف الوالي وهو يقدم له صندوقاً مغلفاً بقماش حرير أخضر طرزت عليه بخيط ذهبي الأية (فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء). قال له "هذه أول دراهم ذهبية تم سكها كعملة رسمية باسم الدولة الاسلامية امر أمير المؤمنين بان تكون أنت أول من يستلمها."**

**لم يجد "الحكماني" الكلمات المناسبة التي يريد ان ينطق بها فتمتم بشيء قبل ان ينهض "أبو الدرداء" من مكانه ويبلغه بان بامكانه ان يقضي ايام العيد مع خليلته المجاهدة في المضافة الخاصة:**

* **سيجهزون لك من هذا الكفيت كل ما احتجت ولكن خذه قبل الأكل"، قال "أبو الدرداء" مداعباً وهو يسلمه علبة أقراص ملونة بالأزرق والأبيض قبل ان يمضي وعلى شفاهه ابتسامة موحية.(\*)**

**في الخطوات القليلة التي قطعها نحو المضافة يتبعه الشبح الموشح بالسواد انتابته أفكار شتى الا أنه شعر بالحاجة الى بعض الوقت كي يعي تماما ما يجري. هم يعرفون جيدا انه يأمر بأعطاء السبابا اللواتي يرسلن الى الولاية لمساعديه وأعوانه لكنه كان يأنف ان يستبقي واحدة منهن له حتى ولو كخادمة. منذ سنوات هرب أسرته الى بلد مجاور وقطع الاتصالات المباشرة معهم خشية من رصدهم من الأجهزة المعادية. حياته الجنسية أصبحت بسبب مرضه في خبر كان ومنذ زمن طويل ما عادت المرأة من هواجسه واهتماماته. لكن بحكم ما يجري في التنظيم فانه يعرف الكثير سواء عن المجاهدات أو عن الأسيرات وهو لا يعترض على الأمر لانه يدرك الأهمية التي يوليها منظروا التنظيم لجهاد النساء حتى انه داعب أحد الأمراء مرة بانهم أصبحوا لا يفرقون بين جهاد النكاح ونكاح الجهاد.**

**من الداخل بدت المضافة أكثر من مجرد عشة. كانت أشبه بدار استراحة للشخصيات المهمة معتنى بها ومؤثثة باثاث لا تشوبها أية شائبة، بل هي تبث الراحة في النفوس. تواترت في خاطره صور بيت الطين الذي ولد فيه قرب مضارب القبيلة على حافة الصحراء، وبيوت لاعد لها أوته في حياته، ومعسكرات للجيش كانت بمثابة سكن واستراحات مر عليها كثيراً، وأخيراً مضافات المقاومة العديدة التي تنقل بينها خلال السنين الأخيرة. حياة الجندية التي عاشها كانت محطات ومعابر تعني في كل مرة ينتقل منها انسلاخاً من مكان والارتماء في آخر ومن مرحلة الى أخرى. ليس لديه أي يقين أين سيكون مقره أو مضافته، أو حتى قبره غدا، فكل ما يعرفه هو انه ولج طريقاً لا يعلم ان كان سيصل به الى وجهة ما دون ان يجرجر معه مشاعر الخوف والشك والخسارة. تلك هواجس المستقبل الغامض اما الآن فهو مدعو الى وليمة في استراحة محارب في هذا المنتجع البعيد عن أهوال المعارك كي ينهل من عسل ورحيق الجهاد، وليس من دمه ودماره وتوحشه.**

**\* عن حديث للنبي محمد ورد في بعض السير انه قال: لَقِيَنِي جِبْرِيلُ بِقِدْرٍ فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَفِيتُ قُوَّةُ أَرْبَعِينَ رَجُلا فِي الْجِمَاعِ". والعلبة هي ابلألوان الشائعة لاقراص الفياغرا.**

**انتبه الى ان الشبح اسفرت عن نقابها وظهر وجه انثوي طاغ وعينان خضراوتان واسعتان متوقدتان بجمر رغبة متوحشة لا بخفر أنثوي اعتادت عليه النساء في عالمه القديم المتداعي. حين رأت انه أطال النظر اليها خلعت العباءة السوداء الثقيلة عنها أيضاً فبانت شابة هيفاء ببشرة بيضاء تميل قليلاً الى لون الورد الجوري، مفعمة بالطاقة والحيوبة. أسر الى نفسه أنها لابد ان تكون واحدة من الحور العين التي ربما نزلت كي تبدد شكوكه بالجوائز التي يوعد بها التنظيم افراده بعد الإستشهاد. اخرجت فرشاة ذهبية من حقيبة يدوية جنبها كي تمشط شعرها فانسدل اشقراً طويلاً متموجاً على كتفين عريضين متسقين مع ذراعين عاجيين مفتولين يحيطان بصدر بصفاء الحليب الذي يتذكر كيف كان يندلق بين يديه وهو يحلب الأبل في مرابعهم. كانت في كامل اناقة عروس، ترتدي ثوباً أبيضاً يكشف عن جسم ريان يومض بالحياة، كلما أمعن النظر فيها التذ وكأنه يشرب من أنهار الجنة، أو أحلى.**

**- السلام عليكم، وعيدكم مبارك، أنا "سمية" وقد قبلت الزواج منكم على سنة الله ورسوله، نطقتها بلكنة أجنبية اعانته على تفسير بعض مما كان يجول في خاطره في تلك اللحظات.**

**- جئت من فرنسا الى أرض الجهاد مع زوجي الذي استشهد في معركة "حقل غاز الشاعر" في "سوريا" قبل عام، أضافت ولكن هذه المرة بشيء من الثبات والوثوق.**

**ما عدا زوجته فان تجربته الوحيدة كانت مع تلكم الراقصات والمغنيات الغجريات اللواتي يملأن وجوههن بالمساحيق وسيقانهن وأكفهن بالوشم. اما هذه المرأة فهي تبدو أشبه بنجمات السينما اللواتي كان يفتن بهن في مراهقته.**

**راحت "سمية" تحدثه عن نفسها وعن زوجها الجزائري الأصل الذي أسلمت على يديه منذ سنوات وعن قرارهما للإنضمام للجهاد لتحقيق الذات ولنصرة أخوانهم المسلمين ضد الكفار. قالت ان اسمها قبل اشهار التزامها الإسلامي كان "ليزا" وانها كانت تعمل ممرضة في مدينة "ليون" الفرنسية لكنها منذ التحاقها بالجهاد نشطت في مجالات ومهمات عديدة حتى انتهت مسؤولة الحسبة النسائية في مدينة "منبج" السورية.**

* **بعدما استشهد زوجي في معركة "دير الزور" قررت الا أعود الى أرض الكفر وان أبقى هنا مع أخواني وأخواتي في أرض الجهاد.**

**ظل "الحكماني" صامتاً مستغرقاً في وجه عروسه التي لم ينتظرها أو يتوقعها مشدوداً اليها تارة والى اللكنة التي تنطق بها الكلمات العربية تارة ثانية.**

* **كان معي أخوات مجاهدات من كل مكان نعمل على اقامة حدود الله وشرعه.**

**روت له كيف طلبوا منها ان تنتقي بعض أجمل السبايا كي تكون في ملك يمين "أمير الجند" غير انها ابطأت ذلك حتى انتهت فترة عدتها فعرضت نفسها ان تكون هي المسلمة الحرة وليست السبية عروس "أمير الجند". استحسنوا رأيها واخبروها بعد أيام بالموافقة وبانهم دفعوا مهرها وعقدوا صداقها عليه وأمروني ان استعد كي أكون له زوجة ورفيقة. قالت انها تفائلت لأن الله عوضها خيراً في الحياة الدنيا، وهي تتعهد له ان تكون له كما أمر رسول الله (ص) طائعة له وبارة به وحافظة لنفسها ولماله وعرضه. ظل"الحكماني" مختبأ وراء صمته الذي يحسن صنعته وتوقيته، يحتار بما سيفعله بهذه الحورية التي ارسلت اليه دون طلب، أو حتى دون قدرة لفتح بابه الموصد طويلاً لها.**

**يقف "الحكماني" ويرفع الستارة عن شباك كبير في الصالة فيترائ له "نهر الفرات" تنحدر مياهه المائلة للخضرة ببطئ نحو الغرب مخترقا جزراً وسطية رملية وعيدان القصب العالية التي تغطي ضفتيه. منذ ان فتح عينيه على هذا العالم وهو يرى قدره في "الفرات"، يتقاطعان أحياناً ويلتقيان أحياناً أخرى، النهر في مجراه وهو في دروب الحياة. يخيل اليه انه يسمع صوت النهر خفيضا بانه ما عاد ينعم بالقوة الهادرة ليواجه موته البطيء تماما مثلما حلت به تلك العنة التي شلت فحولته التي كانت مصدر فخره. منذ أن أصبح جهاد النكاح مباحاً بعد ان أجازه "ديوان البحوث والافتاء" في التنظيم كان عليه كأمير ان يشرف في تخصيص السبابا والمجاهدات الآتيات من الخارج على المقاتلين لكنه نأى بنفسه عن ذلك.معظم امراء التنظيم جمعوا مثنى وثلاث ورباع، واضافوا أيضاً ما ملكت أيمانهم من السبايا والإماء لكنه ظل مستنكفاً مدعياً أمامهم انشغالاته الكثيرة وتنقلاته الدائمة. الآن حانت لحظة الحقيقة أمام هذا الإختبار الذي وضعوه فيه اذ عليه ليس فقط قبول هذه الهدية التي قدموها له، بل الأهم ان يتمكن من تحقيق الانتصار على هذه العُنَّة اللعينة التي انشغل عنها كل هذه السنوات.**

**تقدمت نحوه ببطء. دققت في ملامحه ملياً واستعادت ذكريات أول لقاء لها مع زوجها الجزائري "عزوز" في حانة في شارع "سانت فينسن دي بول" في ليون. كانت مهمتها محددة وهي ان توقعه في شباكها منذ اللحظة الأولى. لم يفلتها بعدها أبداً حتى موته في أرض الجهاد التي جاءت اليها معه لاستكمال تلك المهمة. حسها الأنثوي وهي تمشي بغنج نحو "الحكماني" ينبأها بان ذات الرغبة التي جعلت الدم يغلي في عروق "عزوز" الشاب تنتاب "أمير الجند" الآن ورأت أنها في سبيلها ان تجتاز أول خطوة في الخطة التي تدبرتها للوصول الى هذا الهدف الكبير الذي يبحثون عنه منذ زمن. تستعيد من مسلسل "حريم السلطان" التركي الذي كانت تشاهده خلسة مع بعض المجاهدات ومن قرائتها لـ"ألف ليلة وليلة" اثناء تدريبها للمهمة ان الجنس والحرب صنوان فتمضي نحو المخدع بخطوات ينبجس في كل واحدة منها المزيد من الشبق والإثارة التي تراها قد توقدت في عيون "الحكماني".**

**سكب له كأسأ من الماء واستل تلك العلبة التي اعطاها اياه "أبو الدرداء" من جيبه وأخذ منها قرصاً على عجل. مد بنظره بعيداً، "الفرات" ما عاد جزلاً رقرارقا مثلما رأه قبل قليل لكنه كان يثور ويسيل أمامه مثلما تتقلص وتتمدد تلك الاهتزازات بين فخذيه. يكاد يكون واثقا من رجولته ومن قدرته على الانتصار هذه المرة ليس فقط أمام هذه المرأة التي تتباهى أمامه بانوثتها الطاغية، وانما على كل المكائد التي كتب عليه ان يواجهها في الماضي والحاضر. انتصار أخذ يشعر به فعلياً مع التوتر الذي يعتريه وبالوهج الطاغي الذي بدء يسري بين فخذيه منذ اللحظة التي اختلى بها في هذه العشة وبالهيجان الذي بدء يدب في كل شراينه والذي لم يشعر به منذ زمن طويل.**

**نادته من المخدع الذي أعدته بنفسها واعتنت بكل تفاصيله وبلمسات تقصدت ان تظفي عليه أجواءً رومانسية. كانت قد خلعت ثوب العرس فبان عنه جسد ريان كأنه منحوت بالزبدة التي تعودت أمه ان تضعها فوق طبق الرز وكان يحب ان ينظر اليها وهي تسيح قبل ان يبتلعها لقمة بيديه. رمقها وهو يقترب منها رويداً رويداً كطريدة تستسلم بعد يأس ثم ما لبث ان تحول سريعاً الى صياد متحفز للانقضاض على تلك الإلهة التي تضطجع أمامه. بدأ بخلع ثيابه على عجل وشعر ان زخما بداخله يعفيه من أي شعور بالاحراج او الخجل. ارتمى على السرير الى جانبها وبدأ يشعر بأحاسيس الرغبة تفور في جوفه لكنه احتار بين ان يضبط الايقاع حتى لا يفسد الأمر وبين الاهتياج المشتعل بداخله. مر زمن طويل على مطارحته الغرام مع أي أمرأة وخشى ان يرتكب اخطاء مع هذه الفرنسية التي من المؤكد انها تتوقع منه ان يجاريها على طريقتهم. احتضنها وبدأ ينعم برائحة عطر أو نكهة طيبة في كل جزء من أركان جسمها. كانت متلهفة تماما كأنها بانتظاره منذ زمن. ظل يشمها يدس رأسه في شعرها الطويل ثم مرغ انفه في طيات جسدها الناعم وصدرها النافر المتأجج. احس بحرارة الدم تجري في عروقها ونظر اليها، كانت مستسلمة له تماما ثم بدأت تبدي حراكا وتأوها فاحس ببهجة عارمة وانتصاب لاذع وقرر انه حانت لحظة الشروع. بادلته الشد بالشد والإرخاء بالإرخاء حتى النهاية. بعد ان تلاشت الرعشات والتنهيدات أحس بالرضا والزهو وحين نظر اليها بشعرها المنفوش ووجهها الطافح بالنشوة من فوق الوسادة كان واثقاً من انه لا يزال الخَيَّال الذي بإمكانه ان يروض أية مهرة جامحة ويكبحها فيما تكاد تظهر على وجهه علامات انتصار باهر لم يذق مثله في كل معارك الحروب التي خاضها طيلة حياته.**

**امضيا وقتا في الفراش صامتين كل منهما يحلق بافكاره وربما مذهولين من السهولة التي اجتازا بها العتبة هو في تخطي ترسبات العجز الذي رافقه كل تلك السنين وهي في بدء مشوار حياتها الجديد الذي أعدت له كل هذه الشهور.**

* **انت رائع، فارس حقيقي. لقد أمتعتني كما لم يمتعني أحد من قبل، وشوشت "سمية" في أذنه في حين تقبل هو الإطراء بابتسامة طفيفة بينما تجاهل الإيحاء بالمقارنة مع رجال آخرين عرفتهم في حياتها.**

**ظل "الحكماني" لائذا بالصمت غير قادر على ايجاد الكلمات المناسبة التي يتحدث بها مع "سمية"، ثم أية لغة يمكنها الآن ان تحل محل لغة الوصال. لاحظ ان أشعة الشمس الساطعة في الخارج تتسلل الى داخل الاستراحة وشعر بأنه يرى نفسه عريانا لأول مرة. التحف بغطاء خفيف كان على حافة السرير في حين نهظت "سمية" ومشت بتؤدة نحو دولاب خشبي أبيض بنقوش ذهبية واخرجت تي شيرت قطني أحمر طويل قليلاً حين ارتدته وصل الى ما قبل ركبتها فظل يكشف عن أجزاء من فخذيها. الفتحة الدائرية الواسعة عند الرقبة كشفت عن صدر وظهر زادها اشعاعاً بينما راح نهداها يتقافزان وهي تتحرك. اشتهاها كثيراً وشعر لبرهة انه خارج المكان وخارج الزمان منقاداً بطريقة سحرية الى عالم مجهول الا أنه مع ذلك أحب تهوره واندفاعه الى أشياء لا تنتسب الى ماضيه.**

**دخلت الى المطبخ كي تبدأ خطوة أخرى من برنامجها المعد بعناية. كانت قد هيأت كل شيء لأيام العسل التي ستقضيها هنا. تركته يرتاح أمام التلفزيون يقلب بالريموت كونترول المحطات يستمع قليلاً ويبحث أكثر في أسفل الشاشة عن شريط الأخبار كأنما ينتظر خبراً عن حدث معين. حين انتهت فرشت المائدة بصحون وآوانٍ وملاعق وأشواك في مشهد لم يألفه منذ زمن بعيد. سمك نهري، قالت له انها عملته على الطريقة الفرنسية، شرائح منزوعة الجلد منقوعة بالليمون وزيت الزيتون مشوية مع البطاطس والطماطم وموشاة بالكرفس. كان هناك أيضا أطباق من السلاطات والمقبلات الشامية التي تعلمتها واجادتها منذ وصولها الى "سوريا".**

* **المرة القادمة سأعمل لك الدليمية بطريقتي الخاصة، قالت له وهو يتذوق بعض المقبلات.**

**أهناك أشياء أخرى ستفاجئه به هذه الفرنسية التي لولا طبيعته التي ترتاب بكل شخص وكل شيء لكان اعتبر كل هذه الإستعدادات مجرد تحصيل حاصل عن العالم الذي ينتظره.**

**خلال أيام العيد الثلاثة التي تركوه فيها مع عروسه منعزلين عن العالم انفكت عقدة لسانه رغم انه ظل يكلمها بلهجته العراقية التي لا تفهمها جيداً بينما ظلت "سمية" تتفاعل معه بالعربية الفصحي التي تطعمها بكلمات وعبارات سورية وأحياناً جزائرية مما أضاف شيئأ من التسلية التي افتقدها طويلاً. كان هناك شيء من كل شيء عن "فرنسا" وعن "العراق" وعن "سوريا" وبالتأكيد بذلك الذي أصبح اليوم يجمعهم وله اسم هو الجهاد. كانا يتوقفان عن الحديث او عن الصمت عندما تشتعل فيهما الرغبة فيبدأن صولة جديدة كان العنان في معظمها هذه المرة بيد "سمية" التي لا يبدو انها تريد ان يفلت منها، ترخيه وتشده مثل مروضة أسود في سيرك. صحيح ان للدواء السحري مفعوله العجيب الا انه ذهل للسهولة التي جرى فيها كل شيء وخاصة افتككاه من العقدة التي عطلت رجولته سنين طويلة. لكن القلق ظل يداهمه عندما يرى نفسه يمشي على حبل مشدود يطل على هاوية عميقة ليس لها قرار. كانت "سمية" هذه، أو "ليزا" كما أصبح يداعبها، بئراً سحيقا لا يستطيع سبر أغواره ويحس انها تلعب معه لعبة يعجز ان يفك ألغازها. هل هناك خفايا، هل هناك اسرار، يتوجب عليه ان يسعى لأن ينتزعها من مكامنها، ربما لكن ليس الآن اذ ما ثمة فرصة أمامه بالنجاة هذه المرة من عجزه وتردده وحيرته الا المضي قدماً وأكمال هذه اللعبة الخلابة حتى النهاية.**

**بانتهاء العيد كان على "ألحكماني" قبل ان يعود الى "الفلوجة" ان يحضر اجتماعاً لـ"مجلس الشورى" لمناقشة تقرير قدمه ويركز على تعزيز وجود التنظيم في "القائم" من معسكرات ومراكز تدريب ومخازن أسلحة بعد ان تم نقل مقر الولاية الى هذه المدينة كي تكون بعيدة عن خط الجبهة الملتهب مع القوات الحكومية. أصبح لديه الآن أسباباً أقوى كي يقنعهم بجعل "القائم" مقراً رئيسيا لأنها تمتاز بموقع اسراتيجي كونها نقطة التقاء وعبور وهي قلعة حصينة ضد الغارات الجوية وطلعات التصوير والتجسس بالطائرات المسيرة نظراً لما تضمه من كهوف وتلال وشقوق أرضية بإمكانها ان تؤمن قادة التنظيم ضد الهجمات.**

**في الليلة السابقة قررا ان تبقى "سمية" في "القائم" حيث تواصل مسوؤلياتها الجهادية في "جهاز الحسبة" النسائية بينما يعود هو الى "الفلوجة" لقيادة الجبهة المستعرة هناك على ان يواتها بين الحين والآخر. على مائدة الإفطار التي أعدتها بنفس العناية التي عملت بها الايام الثلاث الماضية فاجأته:**

* **لا تحضر الإجتماع الذي سيعقد هذا اليوم. جد لك عذراً وعد لـ"لفلوجة سريعاً.**

**وضع قدح الشاي الذي كان بيديه على الطاولة ونظر اليها طويلاً لكنه تردد أن يسألها عن سبب أو توضيح.**

**كأنها كانت واثقة انه لن يندهش أو يظهر ريبة او حذر، أردفت:**

* **منذ الآن أنا مسؤولة عن حياتك أيضاً.**

**لاذ بالصمت حتى وهي تودعه بقبلة قبل أن يغادر العشة التي أُبلغ انها ستكون منزله حين ينتقل الى "القائم".**

**في المقر القريب وجد مرافقيه ومعاونيه بانتظاره فأمرهم بتبليغ اعتذاره عن حظور الإجتماع والمغادرة الى "الفلوجة" فوراً وكلف معاونه "أبو حارث الراوي" بعرض التقرير الذي أعده على "مجلس الشورى" ومناقشته معهم. أسرع بالمغادرة في سيارة بيك آب أمر قائد حمايته بتحميلها بزوجين من الأبقار من زريبة مرفقة بالمزرعة للتمويه.**

**بعد ان قطعوا نصف المسافة تقريبا وقبل كليومترات قليلة من "ناحية البغدادي" كان مذياع السيارة يبث خبراً عاجلاً عن غارة جوية يشنها طيران التحالف على "القائم". حارسه الشخصي وسائقه سأله ان كان عليهما كإجراء احترازي ان يتوقفا في "هيت" كي ينتظرا في ملجأ آمن هناك. يأمره بالاستمرار في حين يكمل المذياع نقلاً عن مصادر داخل "القائم" ان الغارة استهدفت اجتماعا لـ"مجلس شورى" الولاية في المدينة. من بين القتلى يضيف المذياع عدد من قادة تنظيم "الدولة الإسلامية" بينهم "أبو حارث الراوي". يلتفت اليه السائق ويسأله:**

* **هل تظن ان طائرات استطلاع العدو التي لا بد انها تحلق الآن فوق الطريق ستنخدع بهاتين البقرتين؟**

**\*\*\***

**5/4**

**صدمها المشهد الذي أمامها وهي تنظرعبر زجاج شباك مكتبها في الطابق الثامن في مبنى وزارة الخارجية وكأنها تراه للمرة الأولى رغم انها تطل عليه يوميا منذ سنوات. ومثل سجين مخضرم تمرس على الخروج من شباك زنزانته بقوة الخيال التي تدرب عليها رحلت هي أيضاً بمخيلتها تمد أبصارها في أرجاء "المنطقة الخضراء" التي تمتد أمام بصرها وراء الجدار الكونكريتي العالي الذي ينتصب على مدخله. لم تجد الا سجناً أكبر من سجن البناية التي تشغلها الوزارة التي تعمل فيها والتي تحاط بجدار مماثل بعد سلسلة تفجيرات تعرضت لها كان آخرها قبل أيام. ثم هناك سجن أكبر كثيراً في المدينة ذاتها حيث تحيط بشوارعها وأحيائها نفس الجدران الأسمنتية التي لا يقطع سلسلتها الطويلة الا نقاط التفتيش المحصنة هي أيضاً والمحروسة بجنود متوترين يتوقعون تتفجيراً انتحارياً او هجوماً من أي سيارة عابرة أمامهم في أية لحظة. لولا ان الأجواء التي تحيط بالصالة التى تشارك فيها مكتبها مع ثلاثة زملاء آخرين يشيع فيها جو من الجدية لأنفجرت "سلمى" من الضحك على الحال الذي رسى عليه البلد الذي أمسى أسمه "العراق الجديد" والذي أصبح ترديده على لسان المسؤولين كليشة بذيئة تذكرها بتسمية "الجمهورية الإسلامية" او "كوريا الديمقراطية" او الجماهيرية الشعبية الليبية.**

**من محاسن تجربتها في الوظيفة، ان كان بالإمكان وصفها كذلك، هو خروحها من قوقعتها التي حُبِست بداخلها كل تلك السنين وتعرفها الى أحوال البلد والناس ربما عن قرب. لكن عن قرب تبدو لها كلمة مراوغة فهي ليست قريبة سوى بعدد السينتمترات التي تفصلها عنهم لكنها في حقيقة الأمر بعيدة عنهم بمسافات ضؤية. الجميع يسور ذاته بجدران عالية مثل تلك التي تحيط بشوارع المدينة ومثلها أيضاً يغطون الأسطح الظاهرة بدهانات زاهية ورسومات براقة يحاولون ان يخفوا بها تناقضاتهم القاتلة. حين عادت بانظارها الى الصالة كان كل ما تراه أمامها مشهد من عالم سوريالي لم تتخيله مطلقاً الا في روايات "كافكا" العبثية. شخصيات قلقة مضطربة ضائعة رغم أنها تحاول ان تخفي ذلك بأقنعة دبلوماسية، كالمجاز الذي يطلقونه على وظائفهم التي تبؤها ومهماتهم التي يقومون بها. هي أيضا تحيط نفسها بأسوار منيعة تحميها من الافخاخ التي نصبتها لها حياتها الجديدة غير انها في الأسابيع الأخيرة قضت وقتا طويلاً تفكر في الطريقة التي يمكنها ان تحطم بها كل هذه الأسوار المحيطة بها وتبدأ حياة جديدة حقاً طالما حلمت بها وتمنتها.**

**بالأمس خطر لها ان تكلم "سامح" وعثرت على فكرة تستغلها لكي تبرر الإتصال التليفوني به. قررت أن تطلب منه بعض العون عن مصادر البحث وعن تجارب عالمية لورقة تعدها لـ"المعهد الدبلوماسي" كاحدى مستلزمات ترقيتها الى وظيفة وزير مفوض. مدير المعهد هو من اقترح عليها كتابة الورقة عن "الموقف الفرنسي من جهود اعادة بناء "العراق" في اطار العلاقات الدولية" بعد ان اطلع على ملفها ولاحظ سجل عملها مع المنظمات الدولية ودراستها للغة الفرنسية. وجدت في ذلك الاقتراح تواطئا آخر للحظ في حياتها وبدأت تفكر ان يكون فرصة كي تتقدم قليلاً باتجاه "سامح". اتصالاتهما منذ ان غادر "بغداد" كانت تجري في البداية عن طريق الأيميل حيث يتبادلان التحايا والتهاني في المناسبات كما تجيب عن استفساراته، اما عما يجري في البلد، او بشأن بحوث يجريها للمعهد الذي عاد يعمل به في "باريس" بعد تركه لعمله الصحفي. كانت تشعر انه يختلق الفرصة كي يتواصل معها وهي لم تتردد في الاستجابة.وحين سألها ان كان بالإمكان ان يكلمها على تلفونها النقال الذي لا يزال يحتفظ برقمه منذ ان حصل عليه "حيدر" شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الرعشة التي تعرف عنها الكثير من قرائتها ولكنها لم تجربها وأجابته بانها ستتصل به في ساعة حددتها له. حين تعددت المحادثات انتقلا الى موقع "سكايب" على الإنترنيت وبعد ان كانا يتحدثان عن أشياء عامة أو عن كتب جديدة قرأها أصبحا يتبادلان أخبارهما الشخصية. وفرت لها الاتصالات فرصة تحاول ان تستشف من خلالها عما اذا كان قد طرأ شيء جديد في حياته التي وصفها لها في المرة الأخيرة التي كلمته فيها انها "لازالت خاوية رغم ضجيج العالم الذي يحيط به."**

**ايقضها من سَرَحانِها الطويل صوت زميلة من قسم آخر في الوزارة كانت قد اقتربت من مكتبها وحيتها ثم همست بصوت خافت بعد تبادل التحايا ان لديها طلبا خاصا وترجو ان تعرضه عليها. حين أحست "سلمى" ان زميلتها تتردد بالكلام ربما كي لا يسمعها موظفان آخران يشاركانها الصالة قامت من على كرسيها وخرجت معها الى الممر كي تتاح لهما حرية الكلام دون حرج. بعد مقدمة معتادة سمعتها "سلمى" كثيراً دخلت الزميلة في صلب الموضوع وأخبرتها انها ترجوها ان يتوسط لها أخوها "عدنان" عند وكيل الوزير كي ينقلوها من المركز الى احدى السفارات في الخارج، قالت لها انها تفضل ان تكون في "أوربا". قاطعتها "سلمى" بانها تعلم ان زوجها قد عاد منذ فترة قصيرة جداً من "المغرب" وان نظام العمل المعمول به في الوزارة يتطلب البقاء في المركز على الأقل لثلاث سنوات قبل ان ينقل الموظف الى الخارج ثانية.**

**- نعم، هذا القرار يشمل زوجي ولا يشملني لأني كنت مرافقة له واذا ما نقلوني انا سيكون هو مرافقي هذه المرة، أجابتها بينما حاولت "سلمى" أن تخفي دهشتها وراء ابتسامة متكلفة.**

**- الموضوع بسيط جداً ولا يحتاج سوى الى دفعة صغيرة فقط من الحاج عدنان"، ردت الزميلة بثقة وحماس وكأنها تعلم الكثير عن أخيها ومدى قدرته على التأثير على أهل السلطة.**

**جالت بخاطر "سلمى" أفكار كثيرة مستمدة أيضاً من ذلك المشهد الكافكوي الذي كانت تنظر اليه من النافذة قبل قليل والذي لا يبقى دائما بعيداً، بل تعيش تفاصيله وجزئياته بتفاصيله يوميا وكأنها "غريغور سامسا".\***

**" مالذي يميز هذه الزميلة عن الآخرين الذي يعيشون في هذا "العراق الجديد" والذين لا يرون فيه غير بقرة تدر عليهم الحليب والعسل ولا يكترثون لإحترام الأنظمة السائدة وقواعد المساواة والانصاف. كثيرون يأتونها بطلبات كهذه ودائما ما يدفعها ذلك للتساؤل لماذا يريدونها ان تتوسط لهم كي يهربوا من أرض المسوخ هذه ويتركونها تعيش بينهم. أخبرت زميلتها ان "عدنان" في سفرة خارجية هذه الأيام وسترى ما بإمكانها أن تفعله حين يعود.**

**حين رجعت الى البيت أرسلت الى "سامح" رسالة نصية على تلفونها المحمول تسأله ان كان بإمكانها ان تكلمه على "سكايب". رد عليها فوراً**

**\*غريغور سامسا هو بطل رواية المسخ لكافكا الشاب الذي كان معيلًا لعائلته ويحيا حياةً روتينية ليستيقظ يومًا ويجد نفسه قد تحوّل إلى حشرة كبيرة حيث تصف الرواية الآثار النفسية والاجتماعية التي ترتبت على هذا التحوّل الذي يتحول فيه الجميع الى مسوخ.**

**يخبرها انه في غداء عمل الآن مع وزير رواندي يزور "باريس" يبحثان في**

**مشروع مع فريق من الـ"يونسكو" لبرنامج لإعادة تأهيل الأطفال على التعايش المشترك وسألها ان كان يستطيع مكالمتها في المساء.**

**أجابته الا بأس اذ يمكنها الأنتظار لكنه خشى ان يكون قد ضيع فرصة كانت ينتظرها منذ وقت طويل فكتب لها ثانية يقول انهم في مطعم أفريقي يدعى "الروح الجديدة" وان الضيف ابن موامي\*.اضاف انه اوقف الحديث الرسمي قبل قليل لكي يحدق بعينيه عميقا ويخبره بعدها بان مفاجئة سارة تنتظره اليوم وها هي النبؤة تتحق بسرعة البرق.**

**في ردها كتبت "ربما كان ذلك بتأثير الأرواح التي تحوم في سماء المطعم أو لعل ضيفك ظن انك من قبائل الدينكا والنوير\* فطوطمهم هو حسن الطالع" ثم ارفقتها بايموجي لوجه ضاحك وصورة لزهرة حمراء.**

**اتفقا على اتصال في المساء بينما راحت "سلمى" تفكر في نبؤة العراف الأفريقي وتساءلت ماذا لو أخطأ في قراءة عيون "سامح"، أو أن المفاجأة السارة التي بشره بها لا تزال تنتظره في مكان ما.**

**خطر على بالها وهي بانتظار مكالمة "سامح" في المساء ان تقف أمام المرآة وتؤدي دورا أشبه بالبروفة التي يؤديها الممثلون قبل بدء العمل الحقيقي وتساءلت عما اذا كان عليها ان تسترجع طبيعتها الرصينة التي اعتادت عليها ام تترك العنان لسجيتها وروح الدعابة التي لا تدري كيف واتتها بتلك الرسالة النصية. قررت في النهاية ان تكون تلقائية وتترك الحوار يجري على علاته لكنها ظلت مشوشة تسترجع حكاية المفاجأة السارة ولماذا ربطها "سامح" بإتصالها ولماذا كل هذا الحماس الذي أبداه بشأن نبؤة العراف.**

**\*موامي هو لقب ملك او رئيس القبيلة وعرافها عند بعض القبائل في وسط افريقيا.**

**\*\* الدينكا والنوير اكبر قبائل جنوب السودان ووفق دياناتهم الأحيائية فانهم اقل انشغالا بمصادر سؤ الحظ واكثر اهتماما بمصادر حسن الطالع.**

**فجأة رن جهاز اللاب توب بنغمة "سكايب" المميزة التي تشبه نقرات البيانو والتي كان من عادتها ان تتركها ترن أطول مدة ممكنة قبل ان تجيب. زاد خفقان قلبها فتحركت سبابتها من تلقاء نفسها للضغط على اشارة الإجابة حيث كانت بانتظارها مفاجأة اخرى على الشاشة التي أطل بجزء منها "سامح" بشحمه ولحمه في حين ظهرت هي على الجزء الآخر. ارتبكت قليلاً ثم انطلقت من داخلها ضحكة فرحة مدوية. تركها تقهقه وهو ينظر بذهول الى وجهها ذي التقاطيع المتناسقة والذي يراه لأول مرة دون حجاب والى شعرها الكستنائي الطويل المنسدل على كتفين متيني البنيان وعينين بنيتين واسعتين وفم بشفتين عنابيتين. هتف بدوره واو... معبرا عن المفاجأة والإنبهار والبهجة. لم يعتادا على تشغيل الكاميرات حين يتحدثان عبر التلفون المحمول او "سكايب" وفق بروتوكول غير معلن بينهما. كان الإتصال اللامرئي جسراً يتيح لهما وهما يمضيان فوقه التركيز على نبرات الصوت حيث يلعب كل منهما لعبة تفكيك شخصية الآخر وتحليل أحاسيسه وسبر أعماق مشاعره.حين توقفت عن الضحك قالت له:**

* **لقد امسكت بي متلبسة.**

**ثم تسمرت أمام الشاشة ترنو الى "سامح" الذي لا يزال يبدو في دهشة جذابة وتحاول ان تنفذ الى حيث تجد الدليل الذي تبحث عنه منذ لقائهما في "باريس". هيج ذلك الدم في عروقها ثم شعرت بأحاسيس حارقة بداخلها أثارت فيها تلك الرغبة المكبوتة التي تعرفها جيداً ولكنها تعودت على قتلها. في الحديث الذي دار بينهما جالا على مواضيع شتى خطرت على بالهما عن أمور عامة عن قرائتها الأخيرة أو أخبار العمل ثم تلاشى تحفظهما وتكلما عن حياتهما الخاصة وارتاحت "سلمى" حين بديا في معظم ما دار بينهما قريبين في أفكارهما. حين تكلما عن المشروع البحثي الذي عليها ان تعده أجابها على الفور كمن كان متهيئا لذلك بان من الأفضل ان تأتي الى "باريس" بنفسها كي تعمل البحث هناك وتعهد لها أنه سيقوم بكل شيء لتسهيل ذلك. في النهاية قال لها وهو ينظر اليها كمن يحاول تفكيك مشهد سينمائي صامت متشبع باللحظة واعادة تركيبه:**

* **لا تقلقي أبداً. اتركي كل شيء لي. ما عليك سوى ان تركبي الطائرة وتأتي. لن تندمي.**

**قبل ان تودعه قالت له:**

* **يبدو ان قدرة ذلك العراف الراوندي خارقة وانها هي منذ اليوم أصبحت تؤمن بطاقة الكون الروحية الخلاقة.**

**مرت أشهر عدة منذ وفاة جدتها و"سلمى" تحاول جاهدة ان تجتاز الإختبار القاسي الذي وضعت فيه برحيلها وان تتغلب على وحدتها، او نسختها الجديدة منها. تستحضر سنين العزلة التي عاشتها مع بيبي وتجد في ذكرياتها زادا يؤونسها ويعينها على الاحتفاظ برباطة جأشها التي اوصتها بها. كانت البيبي بؤرة عالمها الذي تعيش في كنفه والتي خشيت دائماً ان تختفي وتتركها وحيدة غارقة في دوامة انتظار اللاشيء كما كانت تسميه. لم تكن الجدة تعاني من أمراض مميتة لكنها قررت فجأة ان حياتها وصلت محطتها النهائية ولم تعد تأتي بجديد. قبل وفاتها بأسابيع نادتها كي تجلس الى جانبها ذات ليلة فوجدتها متدثرة ببطانية رغم ان الجو لم يكن بارداً فحاولت طمأنتها بان احساسها بالبرد ربما بسبب الظلام الدامس الذي يخلفه انقطاع الكهرباء لساعات طويلة. فكرت انها قد تحس ببعض الدفئ لو قربت كشاف الطوارئ اليها لكن النور الضئيل الطالع كشف لها عن كم هائل من الأسى لم تشاهدها في عيون جدتها منذ زمن طويل. ولأول مرة بدت المقدمة التي تستهل بها بيبي حديثها غالبا تستعصي عليها وكأنها تعجز عن ان تجد كلمة مفتاحية تبدأ بها الكلام. فجأة انطلقت الكلمات التي كانت محبوسة في صدرها لكن بتأنِ كأنما كانت تريد لـ"سلمى" ان تسجله في دماغها رغم انها لا تشك أبداً في فطنة حفيدتها وفي ما تمتلكه من نعمة الوعي والمعرفة.**

* **لقد تكيف بدني مع انقطاع التيار الكهربائي طيلة كل هذه السنوات لأني اعتبرت الظلام تمريناً دونيويا أتعود من خلاله على العتمة التي ٍستملأ يوما ما قبري وانا بين يدي خالقي.**

**تعودت "سلمى" على عدم مقاطعة جدتها حين تراها تعيش لحظات رضا وصفاء داخلي حيث تبدأ بالبوح بمكنونانها والتي أخبرتها يوما انه اشبه بمناجاة "هاملت". بعد ان سألتها البيبي عن "هاملت" هذا صححتها لها بانها مناجاة "أمير الزاهدين" وهي تعرف من تقصد. كانت تظل تنصت لها دون ان تقاطعها غير انها كانت تفتح أقواساً كثيرة في ذهنها تستوعب فيها تلك المعاني المتوهجة بتجربتها الخاصة كأمرأة قاومت وطأة الواقع وتحمل الألم بطريقة أقرب ما تكون الى قدرة أولئك الأولياء الذين دائما ما تردد أسماءهم. طيلة كل تلك السنين التي عاشوها معا كانت تعلم أن جدتها لديها طاقة لا تستنفذ على التعبير عن صلابتها أزاء قسوة الحياة التي عاشتها في سنينها الأخيرة الى جانب رغبة لا تنطفئ في توكيد احساسها الإنساني بما هو صواب رغم الابتلاءات التي مرت بها. لكن بدنها ارتعش هذه المرة وهي تستمع الى ما بدا وكأنه تلك الهلوسات الشائعة كعلامات اقتراب الموت ووجدت نفسها سريعاً متورطة في الحالة التي تحلق فيها البيبي وأيضا شريكة فيها وكأنها هي التي وُضِعت هذه المرة أمام ذلك السؤال الهاملتي المصيري.**

**اطلقت "سلمى" لخيالها العنان ومرت على بالها أطنان من الأفكار المشوشة أثارت في مفاصلها شيء من الألم لكنها بقيت متماسكة وحاولت ان تثني جدتها عن الإسترسال بالشد باحدى يديها على كف جدتها التي انبسطت في حجرها وبوضع إبهام يدها الأخرى على شفتي جدتها كما كانت تفعل مع أمها حين كانت توبخها على فعل طفولي عابر فتحتج "سلمى" بتلك الحركة الاحتجاجية. غير ان بيبي مضت في اكمال ما بدأت بقوله لأن الأصوات التي تهمس في رأسها والظلال الدخيلة التي كانت تظهر وتختفي أمامها كانت تأمرها بالا تتوقف او تتراجع.**

**- أشعر اني اكتفيت وبدأت اقترب من القنطرة التي تنتظرني في نهاية طريقي.**

**- أعلم أنه ذنبي لأني اختفي طيلة النهار في العمل واتركك في البيت لوحدك. لقد توسلت اليك مرات عديدة ان نذهب في رحلة سياحية الى الخارج كي تشاهدي وتستمتعي بعالم آخر.**

**- لا تقلقي، سأرحل قريبا الى العالم الآخر لكنها رحلة عليَّ القيام بها لوحدي.**

**طالما سمعت "سلمى" ان هناك علامات لإقتراب الموت يدركها البعض قد تكون اشارات يبعثها الجسد وتظهر على محياهم وبالذات في عيونهم، او ان تبرز في هيئة مشاعر وانفعالات كالحزن او الخوف او ضعف التركيز. ولكن هناك أيضأً علامات روحية او عاطفية تنطق حين يقترب الموت من الإنسان تجعله أقل اهتماماً بما كان يألفه ويحبه ومتقبلاً لأية مكافأة ستغدق بها عليه الحياة في نهايتها. لا يبدو ان جدتها وقعت فريسة القلق، ذلك الشعور الذي يصفه علماء النفس برهاب الموت، والذي يعطل دورة الحياة العملية ويصيب صاحبها بالكآبة والوساس والحزن، بل هي على العكس من ذلك تبدو بحالة سكينة وهدوء وكأنها في لا مبالاة اذا ما طرق الموت باباها الآن. ورغم ان "سلمى" تدرك ان الموت عملية طبيعية تنتهي بها حياة البشر لا محالة الا أنها تشعر الآن بالعجز عن التسليم بأنه في طريقه كي يزور أسرتها مرة أخرى ويختطف أعز من فيها. اعتدلت في جلستها منكمشة على نفسها فوق الآريكة التي تجعها مع جدتها تحاول البحث عن كلمات ما تجعل اللحظة التي سقطت عليها هذه الصاعقة أقل فضاعة لكنها ظلت عاجزة وهي التي ظنت نفسها بارعة في الأقناع. كل شيء ظل مقموعاً بداخلها ومرت دقائق قبل ان تبدأ دموعها تنهمر وهي تضع رأسها في حجر البيبي كما كانت تفعل في الأسابيع والأشهر الأولى لفراقها والديها ثم جاء صوت عميق من داخلها.**

**- كنت اظن ان الحياة انصفتني أخيرا حتى اني تخيلت ان مستقبلي يبدأ الآن.**

**- هذا هو ما قصدت ان اتحدث به اليك الليلة، عن خاتمتي وخشيتي من أنني سأرحل وأتركك وحيدة في هذا العالم الذي لا يرحم.**

**- لا تتحدثي عن الموت، أرجوك، فأنا أعلم انها مجرد هواجس لأنك مثقلة بصورة الكمال والخلاص التي لا تجدينها في من تحبين، قالت "سلمى" وكأنها تحاول ان تحلل شخصية من شخصيات أحدى الروايات التي أولعت بها حتى وهي تغالب النشيج الذي يتكسر في صدرها.**

**- لا يا حبيتي. كان امامنا وولينا يقول إنَّ لَكُمْ نِهَايَةً، وأنا أعرف ان نهايتي دنت.**

**طال انقطاع التيار الكهربائي تلك الليلة وخفت نور المصباح شيئا فشيئا بعد انتهاء شحن بطاريته ووسط الظلام راحت الجدة تحدث حفيدتها كيف انها رجت ملك الموت مرات عديدة منذ حادثة والديها ثم وفاة جدها ان يؤجل مهمته الى اليوم الذي تراها فيها وقد وجدت سندا لها بعدها. أما "عدنان" فلا شيء يبدو في يدها سوى ان تظل تدعو له بالهداية والتوبة والرحمة. وسط الظلام بدت عينا البيبي غائمتان مضطربتان ثم قبل ان يغلبها النعاس سمعتها توشوش أنها ستمضي أمنة ومطمئة انها ستكون بخير من بعدها.**

**الخميس 23/4 كتبت "سلمى"**

**ربما ستكون هذه آخر مرة أدون فيها يومياتي من هنا منذ أن بدأتها فيه قبل سنوات كطقس من طقوس الخفاء أقاوم من خلاله وحدتي وصمتي وسجني. أقول ربما لأني لا أزال لست متيقنة من أني قادرة على المضي في تنفيذ القرار الذي اتخذته بعد المكالمة التي أجريتها الليلة مع سامح. منذ أيام وانا أجري جرداً شاملا لحياتي فتلتبس على الأمور وأضيع بين التوقعات وأعيش ساعات محلقة بين الوهم واليقين. الإحتمالات أمامي كثيرة ولا شيء يبدو فيها أكيد والحدود بينها واهية وتتراقص، تختفي وتتلاشى دون أن تترك لي مرشداً أو دليل. المشهد يبدو كابوساً تختلط فيه الرغبة من الإفلات من سلاسل الماضي الثقيلة وكل الخسارات التي عشتها والإنطلاق نحو التمرد والأحلام والرغبات والتوق الى الخشية من الإقدام على مغامرة بلا أفق والشعور بالإذعان والضعة والمهانة والذعر من الفشل. جربت كل الألاعيب الذهنية التي أعرفها كي أصل الى قرار ولجأت ولو على سبيل الفضول الى أصحاب الكرات البلورية ووسائل التنجيم التي تمتلئ بهم مواقع الإنترنيت كي استبصر طريقا لا يخيب. أتتني النجدة وعن طريق المصادفة البحتة من أحد المواقع الذي وضع فيديو لقصيدة "أراك عصي الدمع" مغناة بصوت "أم كلثوم" فقررت ان أستمع اليها كترويح عن الوقت الذي قضيته وانا أصارع ذلك الكابوس الوحشي. حين انتهت الأغنية جاءني احساس بأن "أبو فراس الحمداني" كان يخوض صراعاً وجودياً ضارياَ وهو ينظم تلك القصيدة في محبسه الرومي شبيه بهذا الذي أخوضه انا في سجني هنا. أعرف القصيدة جيداً منذ أن درستها في المرحلة المتوسطة وسمعتها ربما مئات المرات تترنم بها "أم كلثوم" ولكنها المرة الأولى التي أشارك فيها "أبو فراس" تلك المشاعر المضطربة من الحب والحسرة والعتاب والخذلان والقلق والخشية والصلابة واليقين والندم والموت راكمها في قصيدة او أغنية واحدة وترتد كلها بعدئذ الى كياني الحالم لتوقضه من خفائه وغيابه الطويل كي ينهض ويكتشف العالم الجديد الذي يلح علي بخوض التجربة.**

**بعد موت جدتي انقطع ذلك الخيط الواهن الذي كان يربطني بهذا المكان الذي لم يكن أبدا بالنسبة لي الا عالماً من الصمت والإنكسار والوحدة. جدتي التي عاشت عمرها كله تنتظر معجزة الفرج القادم من وراء الغيب علمتني ان أدرب نفسي على الإنتظار وأن أجعله وسيلتي لمداواة ندوب الروح والجسد وتبديد الوحشة. تمنيت ان استعيد حياتي وسعادتي بعد هذا الشيء الذي أصبح يطلقون عليه أسم التغيير، تلك الكلمة السحرية التي تعني الإنتقال من حال الى حال جديد مختلف. لكن المفارقة الا شيء تغير لا في حياتي ولا في حياة البلد، اللهم عدا أني رجعت الى القوقعة لكنها غير محمية بأي أمل هذه المرة حيث أصبحت أرى ما حولي صحراء مجدبة علي ان أقطع مفاوز غربتي الجديدة فيها لوحدي. ربما أحدث عملي الذي جاء تعويضا من القدر اختلافاً طفيفاً في الروتين اليومي الممل، لكن الحياة لم تنصفني كما أردت كما أن عالمي بقى ثقيلاً وضيقاً ورتيباً حيث كل يوم يشبه الآخر وحيث لا قدرة لي أن أتحكم بمصيري غير أن أمارس أحلام اليقظة التي استنزفتها منذ زمن، ربما بانتظار معجزة تنتشلني. اما العالم الأكبر الذي من حولي فهو محموم إما بالتوتر والشك والقلق او بالعبث والترهات والتردي، أو الأدهى بوحشية التعصب الفاجر الذي انتجته خيالات مكبوتة. أصبحت أعيش بين الجناة والضحايا والشهود حيث لا حدود فاصلة بينهم في الصراع وحيث العنف أصبح حميمياً وشخصياً ووجودياً وتتحول حتى الإختلافات البسيطة الى أحداث مروعة تدفع في كل مرة نحو حرب إبادة ودمار وتترك ضغائناً وجروحاً غائرة وضغوطاً للانتقام. لماذا علي ان استسلم أمام هذا الواقع الذي لا أشعر مطلقاً بالانتماء اليه بل أشعر بالغربة التي تبعدني مسافات شاسعة بيني وبينه. لماذا علي ان أظل أعيش معزولة على هامشه وسط خواء مخيف بدل ان ابادر للخروج منه والسعي لإكتشاف العالم الحقيقي الذي عرفته فقط في ثنايا الكتب وفي الأحلام دون تجربة. ربما سيكون في الأمر مغامرة ولكني سأقبل الرهان. سأكتب حالاً لـ"سامح" رسالة نصية أقول فيها جملة واحدة فقط. "نعم انا قادمة".**

**\*\*\***